قراءة في سيرة

الحجاج بن يوسف الثقفي

(٤٠ - ٩٥ هـ)



د. عزة علي آق بيق

NOUR Publishing House
ARRAB Publishing House

تقديم وتصدير : الدكتور عمار محمد النهار

مراجعة وتدقيق الدكتور واهي سفريان ، أ.عفت زكريا

قراءة في سيرة
الحجاج بن يوسف الثقفي

قراءة في سيرة
الحجاج بن يوسف الثقفي

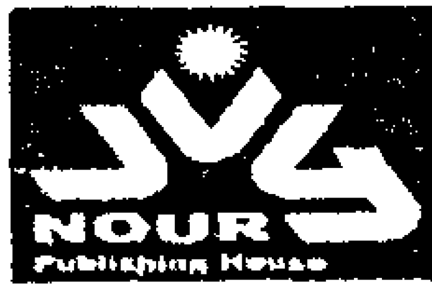
د. عَزّة علي آق بيق

تقديم وتصدير: الدكتور عمار محمد النهار
مراجعة وتدقيق الدكتور واهي سفريان، أ. عفت زكريا

ISBN 978-9933-480-36-3



دار العراب
للدراسات والنشر والترجمة
دمشق - سوريا - حلبوني الجادة الرئيسية
تلفاكس. 00963112247432
هاتف: 00963112247333
جوال: 00963942247432
00963942247333
00963940455593
daralaraab@yahoo.com



دار نور حوران
للدراسات والنشر والترجمة
دمشق - سوريا - ص . ب 5658
هاتف: 00963157154430
00963157109957
فاكس: 00963157198425
جوال: 00963933329555
00963941329555
NOURPUBLISHING@GMAIL.COM

قراءة في سيرة
الحَجّاج بن يوسف الثقفيّ
(٤٠ - ٩٥ هـ)

د. عزّة علي آق بيق

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

الإهــداء

إلى روح من حملتني جنينـاً ورعتني طفـلا ويـافعـاً

والـدتي الأمـيرة مريـم حمـدي آغـا البـديوي

مِمَّا أُثِرَ عن الحَجَّاج

* الْفتنة تلقح بالشَّكوى، وتتمُّ بالنَّجْوى، وتنتج بالخطب.

*الانتقام يعقبُ الْعَفْوَ، والإِنذار لا بقيَّةَ معه.

*اقْهَرُوا الأَمَلَ بِقِصَرِ الأَجل.

*أَمَّا أَمْسِ فأَجَلٌ، وأَمَّا الْيَوْمَ فأمل، وأَمَّا غداً فأَثَرٌ.

*إِنّي لأعدُّ للأَمْرِ عَسَى أَلاَّ يكونَ أبداً.

*قيل له قبل وفاته : أَلا تتوب؟ فقال : إِنْ كنتُ مُسيئاً فليستْ ذِهِ ساعة التَّوبة، وإِنْ كنتُ مُحْسناً فليستْ ذِهِ ساعة الفزع.

*اللَّهمَّ اغْفِرْ لي ؛ فإِنَّ النَّاسَ يزعمون أَنَّكَ لا تفعل

تقديم وتصدير
بقلم الدكتور عمار محمد النهار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وبعد:

فإن التاريخ العربي الإسلامي ليس هذه البضاعة الهينة الرائجة في السوق، وليس ذلك التكرار أو الأوهام والأساطير، أو ما يلوكه الناس من ذلك التاريخ كل يوم حتى ملّ منه الملل، كما يقول أستاذنا شاكر مصطفى، بل إنه أكبر بكثير وأوسع من كل ما نتوهم، إنه ليس عدة دول، ولا بضعة عصور، ولكنه تاريخ الدنيا كلها خلال عشرة قرون، وتحمل هذه المدة في طيّاتها إنجازات وبطولات، فيها من كل فاكهة لا زوجان فحسب بل ألف زوج.

ولو نظرنا إلى هذا التاريخ العربي الإسلامي نظرة واسعة شاملة من أوله إلى يومنا الذي نحن فيه، متأملين الوقائع والأحداث ومتفاعلين معها، لوجدنا أن التاريخ الذي كتبه أجدادنا أنصفنا بالإجمال، إذ لم يترك العلماء المسلمون شيئاً إلا وألّفوا فيه، ولم تغادر أقلامهم أبسط الموضوعات إلا وقد أغنوها بالبحث والتفصيل، وأن التاريخ الذي كتبه الأعداء والمغرضون والمتعصبون وأصحاب الأهواء لم ينصفنا، وبين هذا وذاك ضاعت حقائق أو طُمست، فالغربيون نظروا إلى إهمالنا وتقصيرنا في استقصاء تاريخنا، فاستغلوا هذه الثغرة ليصولوا ويجولوا في أبحاثهم غير آبهين بموضوعية أو تمييز بين حق و باطل، ونحن بتقصيرنا أيضاً غيّبنا الحقائق التي من المفروض والإنصاف أن تظهر إلى الملأ.

فبين قوم غالوا مغالاة في قوم، وبين آخرين أفرطوا في حقهم، وبين قوم لم يجدوا إلا السلبيات، وبين قوم لم يجدوا إلا الإيجابيات، وبين قوم نظروا بعين المحبة فلم يجدوا إلا الحسن والجمال، فأغضوا عن مشاهدة العيوب، وقوم نظروا بعين السخط وسوء الظن فلم يروا غير المساوئ، وبين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والتطرف، انغمس التاريخ في ضياع عجيب، فكانت الطامة الكبرى، عندما كتب عدد ليس بقليل التاريخ بهذه الأهواء، فنقل رؤيته فحسب، وعرض وجهة نظره غير عابئ بها رأى غيره. وهنا نتج تاريخ آخر غير التاريخ الحقيقي، إنه التاريخ الذي يصل إلينا عبر كثير من وسائل الإعلام مشوهاً أسير منظار واحد، إنه التاريخ المفترى عليه.

ولكن الحق الذي هو أقوى من الجميع سيظهر بلا شك، على أيدي من وفّقهم الله تعالى بتوفيقه، والذين نقّبوا عن كنوز الحقيقة ونفضوا غبار السنين التي تراكمت عن وثائقها ومخطوطاتها، وأظهروا الحق بعد البحث والتحقيق.

ولا بد أن نعترف هنا بالتقصير الشديد في دراسة تاريخنا دراسة حقيقية، وتقصيرنا هذا يشمل أوجهاً كثيرة، أذكر منها اثنين، فنحن أوّلاً لم نصل في كثير من أبحاثنا ودراساتنا إلى المستوى الحقيقي للتاريخ العربي الإسلامي، فلقد أُسيء إلى تاريخنا وأُسيء إلى علمائنا وصانعي تراثنا العظيم، وذلك بتقصير وإهمال وجهل منا، فمن المعيب ونحن نتحدث عن ماضينا أن نذكر أنه لولا ما بذله عدد من علماء الغرب المحبين للعلم، والباحثين عن الحقيقة، لولاهم ما عرفنا شيئاً عن تراثنا، فنحن غافلون أو نائمون، وهي حقيقة علينا الاعتراف بها. وما يظهر بين الحين والآخر بوارق على المستوى الفردي، وهذا لا يأتي بشيء أمام هذه المؤامرة الكبيرة، إذ العمل الصحيح والمثمر إنما يتم على مستوى المؤسسات الضخمة والدول.

وأما الوجه الثاني لتقصيرنا فيتمثل في إهمالنا لتراثنا من ناحية المخطوطات الإسلامية القديمة، إذ تركناها نائمة في السراديب والخزائن والدروج، فقصّرنا في إخراجها إلى النور، بينما انكبّ العالم الغربي على دراستها، بل إن نهضة أوربة قامت على قاعدة باتت

معروفة وهي دراسة كتب المسلمين وترجمتها في شتى أنواع العلوم، حتى قيل: إن سبب هذه النهضة النوعية في الطب مثلاً سبع موسوعات طبية صيدلانية إسلامية، وهي فردوس الحكمة لعلي بن سهيل الطبري، والحاوي للرازي، والكامل في الصناعة الطبية للأهوازي، والقانون لابن سينا، والتصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي، وختم هذه الإبداعات كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، وكتاب منهاج الدكان ودستور الأعيان لداوود العطار.

وثبت أن الفترة ما بين ٤٩٤-٩٠٦هـ = ١١٠٠-١٥٠٠م تقريباً هي الفترة التي تكونت فيها أسس الحضارة الأوروبية، وهي الفترة التي كان جل من ظهر فيها من علماء أوروبة تلامذة لعلماء الحضارة العربية الإسلامية، خاضعين لها خضوعاً تاماً، وهي ما يجب أن يُسمى فترة أستاذية العرب والمسلمين لأوروبة.

ولا بد أن أشير إلى أمر آخر خارج عن إرادتنا يتمثل في فقدان ما يقارب نصف تراثنا من المخطوطات التي ضاعت مع حوادث الزمان من أزمات وكوارث وحروب، أبرزها حادثة اجتياح المغول لبغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية ومافعلوه في حق المخطوطات.

ومع أن تراثنا النقدي الذي خلّفه أجدادنا كبير وعظيم؛ لا تزال الجهود النقدية التاريخية العربية الإسلامية متواضعة وخجولة أمام أحداث تاريخية غاية في الخطورة، فبين أيدينا كميات هائلة من النصوص المروية، ولكنها بحاجة إلى فرز وتمحيص وفحص، لنتبين الأخبار الصادقاتوالمتعارضة أو المتنافرة وهكذا.وأهمية العصر الأموي هنا- الذي عاش فيه الحجاج - كبيرة، لوقوع الفترة ضمن القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية، لوجود معظم من عاشوا فيه من الصحابة أو أتباع الصحابة أو أتباع التابعين، حيث يعد العصر امتداداً طبيعياً للعصر الراشدي، بل هناك من يرى أن المدة التيقضاها معاوية بن أبي سفيان ﷺ بين الصلح سنة ٤١ هـ وعقد البيعة لولده يزيد سنة ٥٦هـ هي مدة تُحسب على الخلافة الراشدة.

وبالرجوع إلى مصادر هذا العصر، يظهر ركام كبير من الروايات التاريخية، ومع ذلك؛ كان الأمويون غرضاً لسهام التشويه قديماً وحديثاً، فلقد اتصف مؤرخونا القدماء بالنزعة التجميعية، فوجد كم كبير من الروايات التاريخية التي تتعلق بحدث تاريخي واحد، فتوسعوا بجمع الأخبار عن كل ناقل، ومن فم كل راو، وعن أي مصدر، وهذا يُصدّق قول ابن الصلاح: (وغالب على الإخباريين الإكثار والتخليط فيما يروونه). ثم كان هؤلاء على صنفين: صنف ينقل بالإسناد، وصنف ينقل بالوجادة (بلا إسناد)، ثم إن هناك من روى دون حس نقدي، ودون تدقيق أو تحقق من صحة الرواية، مما جعل القارئ يغرق في بحر من الروايات المختلفة والمتناقضة، بل إن من لا خبرة له بذلك أو لا معرفة له بالتاريخ وحقائقه يظن ذلك من الحقائق التاريخية التي لا تقبل النقاش.

وإن أبرز ما يسيء لعديدٍ من المصادر التاريخية، روايتها لأخبار بلا أسانيد، بل إن بعض هذه الكتب لا تصح نسبتها لأصحابها، وتعمّد بعض المؤرخين العبث بالمادة التاريخية، وخلط الأدباء بين الأخبار غثها وسمينها.

ولعلّ أبرز ما أسهم في تشويه التاريخ الأموي ضياع كثير من النتاج التاريخي للقرن الأول الهجري، ولأسباب متعددة؛ أبرزها: اعتماد طريقة التلقي الشفوي للآثار والإعراض عن الكتابة والتدوين، وقيام الثورات المعارضة للأمويين (ولا سيما العباسيين) بإتلاف كثير من الوثائق التاريخية وإحراقها، والحرائق المتعددة التي حدثت لأسباب مجهولة. ومن ذلك فقر المدرسة التأريخية الشامية في تغطية الأخبار مقارنة بالمدارس الأخرى .ويضاف إلى ذلك العوامل ذات الطبيعة السياسية والعقدية، المتمثلة بالحزبية السياسية، ودور بعض الفرق العقدية كالمعتزلة الذين كانوا سافري العداء للأمويين، وأثر الشعوبية المتألفة من فرق من العجم تتعصب على العرب وتحتقرهم.

وأبرز هذه العوامل جميعاً أن تاريخ الأمويين قد كُتب في عصر خصومهم العباسيين، وقديماً قالوا: (ويل للدولة المهزومة حين يكتب تاريخها المنتصرون). بل كان الخوف من سلطان الدولة أحد أسباب غياب الحقيقة التاريخية، يقول الإمام الذهبي: (وفي الخلفاء

وآبائهم وأهلهم قوم أعرض أهل الجرح والتعديل عن كشف حالهم؛ خوفاً من السيف والضرب، وما زال هذا في كل دولة قائمة). فمن التهم التي وُجهت للأمويين والحجاج معاً؛ ظلم الموالي، والحقيقة أنه لا يؤثر في تاريخ الأمويين أنهم قتلوا أحداً من الموالي دون جريرة، حتى إنهم لما خرجوا مع ابن الأشعث عفا الحجاج عن كثير منهم وعلى رأسهم الحسن البصري، بل إن حسرة الحجاج طالت وعظم ندمه على قتل سعيد بن جبير -وهو من الموالي- بعد أن خرج مع ابن الأشعث. بل كان الحجاج يبعث إلى بعض الموالي المشهورين وهو طاوس بن كيسان، ويجلسه إلى جنبه، مع ما عُرف عن طاوس من معارضة شديدة لبني أمية ولا سيما الحجاج.

ومن طرق نقد المتن التاريخي؛ نقد الخبر التاريخي بعرضه على قوانين الإحصاء، وهنا ذكر مؤرخون أنه بلغ عدد من هم في سجون الحجاج في البصرة أكثر من مئتي ألف إنسان، ولو عدنا لإحصاء سكان البصرة وقتذاك لوجدنا أنهم يبلغون نحو نصف هذا العدد.

ومن طرق نقد المتن التاريخي؛ نقد الخبر التاريخي بعرضه على قوانين الطب، وهنا ذكر مؤرخون أن الحجاج وُلد غير مثقوب فثقبوه، وهذا خبر لا يقبله الطب.

وأعود ثانية إلى بعض أسباب ظلم التاريخ العربي الإسلامي عامة، فقد يكون منشأ التعقيد والظلم في بعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي من الواضع الأول، إما لسوء فهم، وإما لمشايعة، وإما لوهم، وإما لتعمد في إفساد حكم بعلم وبغير علم، فيتسرب الشك إلى العقول، ويتأصل بمرورالأيام، والضلالة إذا رسخت تحتاج إلى جهود طويلة حتى تنزع من الأذهان، وأصعب ما يكون أن يختلط الحق بالباطل كاختلاط اللحم بالدم، فيستلزم ذلك من المؤرخ معاناة طويلة ومعالجة مريرة.

ومن ذلك أن عدداً من الدراسات قد كُتب في بلاط الملوك أو الأمراء أو الوزراء، ومنه ما كُتب بيد الحقد والضغائن، فمثلاً كُتب تاريخ الدولة الأموية في عهد أعدائها العباسيين، فهل نتوقع أن ينال الأمويون ما يستحقونه من إنصاف !. وكُتب تاريخ

الأمين ابن هارون الرشيد في عهد المأمون، وجيوش المأمون هي التي قتلت الأمين، فهل من المعقول أن لا يتأثر مدونو تاريخ الأمين بهذا الوضع وهم يكتبون تاريخه.

وكتب الإنجليز تاريخ الخديوي إسماعيل سلطان مصر بعد أن عزلوه بأنفسهم متهمين إياه بالإسراف، ولكن التاريخ المنصف يذكر أن الخديوي إسماعيل كان عقبة في طريق أوربة لنشره الإسلام في إفريقية حتى رحّب أكثر الإفريقيين بالزحف المصري نحو بلادهم.

أقول أمام هكذا واقع صعب كهذا: يجب علينا أولاً أن نعترف بأن هناك مظالم في تدوين التاريخ ينبغي أن نوقفها، وأن نعيد كتابة التاريخ في ضوء الفهم الحقيقي وفي ضوء الإنصاف والعدل، وربما يتسرب اليأس إلى الناس في صعوبة تصحيح تاريخ مزيف، ولكن نقول إن هناك عناصر صدق تفرض نفسها دائماً، وتأتي هذه العناصر في أحناء الكلام، وعلى المؤرخ أن يلتقطذه العناصر ويجعلها أساس بحثه.

ففي إنصاف دولة المماليك في مصر والشام مثلاً لدينا الواقع الذي يكذب تحريفات المستشرقين وذيولهم عن ذلك العصر إذ يتهمونه بالتخلف والانحطاط، ذلك الواقع الذي يصف انتصارات المماليك الكبرى على الصليبيين وتصفية وجودهم على الأرض العربية الإسلامية، ولدينا الواقع الذي يتحدث عن انتصاراتهم على المغول ولا سيما معركة عين جالوت التي أوقفت زحفهم، ولدينا إقرار من علماء الآثار بأن عصر المماليك هو العصر الذهبي للعمارة العربية الإسلامية، ولدينا تأكيد من علماء الطب أنه العصر الماسي للطب العربي الإسلامي، إلى غير ذلك من إنجازات ذلك العصر الفكرية والعلمية في كل العلوم النظرية والتطبيقية، ويكفي أن نذكر أعلاماً أعياناً عاشوا في كنف دولة المماليك، ومنهم: ابن خلدون، وابن مالك النحوي، وابن الشاطر الفلكي، وعائلة السبكي، وابن النفيس، والمقريزي، والسيوطي، والقلقشندي، والذهبي، والسخاوي، وابن حجر العسقلاني، وابن فضل الله العمري، وابن قيم الجوزية ... وغيرهم كثير.

وعليه؛ لا بد أن نتوجه بجهودنا - وخاصة في هذه الأيام - نحو إحداث اهتمام وفير في مجتمعاتنا بإنجازات أجدادهم، من أجل تحقيق تغيير اجتماعي في تفكيرنا وتجاوز اليأس والقنوط والذل الذي يُطبق على أكثرنا.

ولما كان كثير من أبناء هذه الأمة على مختلف فئاتهم الاجتماعية والثقافية قد تأثروا بما يُبث ويُعرض، وبهرتهم الدعايات، وجب أن يكون من أوليات أهدافنا حثّهم إلى التوصل إلى فهم ذواتنا وقدراتنا ومعرفة ماضينا للانتقال إلى الترقي والتطور والتقدم، فواقعنا بشكل مؤكد لا يتناسب مع ماضينا، ولا مع ما نملك من قدرات وإمكانات، وهذا ما شجع المتربصين على قطع صلتنا بماضينا وبث روح الانهزامية في نفوس أبنائنا.

وأخيراً؛ فإن في هذا الكتاب الذي بين أيدينا محاولة لإنصاف أحد أبرز أعلام تاريخنا، وأحد أبرز القادة العسكريين والسياسيين، وهو الذي أوصل الفتوحات العربية الإسلامية إلى أقصى اتساعها، وهو صاحب إنجازات كبيرة سردها هذا الكتاب، ولئن غابت النزعة النقدية عن معظمه، فإنه يكفيه أنه يصب في إعادة قراءة تاريخ هذا الرجل العظيم الذي لم يُنصف لا من الغريب ولا من القريب، وتُحمد غِيرة المؤلفة على تاريخ أمتنا ورجالاتها الذين نسجوا تاريخاً برّاقاً نكتفي بالتغني فيه اليوم فقط للأسف.

عمار محمد النهار

دمشق ٢١ - ٥ - ٢٠١٥م

٣ شعبان - ١٤٣٦هـ

المقدمـة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ خاتم المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

يعد الحجاج بن يوسف الثقفي من أبرز الشخصيات العربية التي أدت دوراً بارزاً في التاريخ العربي الإسلامي بوجه عام وتاريخ الدولة الأموية بوجه خاص.حيث تبوأ هذا الرجل مكانة متميزة بين أعلام الإسلام، ويندر أن نطالع كتابًا في التاريخ العام أو الأدب ليس فيه ذكر للحجاج الذي خرج من سواد الناس إلى الصدارة بين الرجال وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة. وعلى قدر شهرة الحجاج كانت شهرة ما نُسب إليه من مظالم؛ حتى عده كثير من المؤرخين صورة مجسمة للظلم، ومثالاً بالغاً للطغيان، وعليه ضاعت أعماله الجليلة بين ركام الروايات التي تروي مفاسده وتعطشه للدماء، وإسرافه في انتهاكها، وأضافت بعض الأدبيات التاريخية إلى حياته ما لم يحدث، ليصير شخصية بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع. إلا أنّه أُنصف من قبل قليل من المؤرخين، فرُد له ما يستحق من تقدير.وإذا كان الجانب المظلم قد طغى على صورة الحجاج، فإننا سنحاول إبراز الجانب المشرق في حياته، والمؤثر في تاريخ المسلمين حتى تستبين شخصية الحجاج بحلوها ومرها وخيرها وشرها.

يورد الكتّاب نشأة الحجاج بن يوسف الثقفي في الطائف سنة (٤١هـ= ٦٦١م)، بين أسرة كريمة من بيوت ثقيف، عرف أبوه بالتقى والعلم والفضل، حفظ الحجاج القرآن على يد أبيه ومعلّمه؛ وتردد على حلقات أئمة العلم من الصحابة والتابعين، مثل: عبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب.

كان لنشأته في الطائف أثر بالغ في فصاحته؛ لاتصاله بقبيلة هذيل أفصح العرب، فشب خطيباً، حتى قال عنه أبو عمرو بن العلاء: (ما رأيت أفصح من الحسن البصري،

ومن الحجاج)، حيث تشهد خطبه بمقدرة فائقة في البلاغة والبيان.

لفت الحجاج أنظار الخليفة عبد الملك بن مروان، ورأى فيه شدةً وحزماً وقدرةً وكفاءة، فانتدبه لينهي الصراع الدائر بينه وبين عبد الله بن الزبير الذي كان قد أعلن نفسه خليفة سنة (٦٤هـ = ٦٨٣م) بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ليتوجه الحجاج بحملة إلى الحجاز للقضاء على دولة عبد الله بن الزبير محاصراً لمكة المشرفة، لينتهي القتال بمقتل ابن الزبير والقضاء على دولته، وعودة الوحدة للأمة الإسلامية التي أصبحت في ذلك العام (٧٣هـ= ٦٩٣م) تدين بالطاعة للخليفة عبد الملك بن مروان. وكان من أثر هذا الظفر آن أسند الخليفة إلى الحجاج ولاية الحجاز، التي تضم مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه اليمن واليمامة فكان عند حسن ظن الخليفة؛ بعد أن أظهر الحزم والعزم في إدارته؛ فأعاد ترميم الكعبة، وبنى مسجد ابن سلمة بالمدينة المنورة، وحفر الآبار، وشيد السدود.

نقله الخليفة بعد عامين والياً على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان، لما فيه من فوضى واضطراب، ليعيد الأمن والاستقرار، ويسوس مَنْ تقاعس عن الخروج للجهاد وركن إلى الدعة والسكون، من الخوارج المعارضين للدولة، بعد أن عجز الولاة عن كبح جماحهم.

وبوصول الحجاج إلى الكوفة سنة (٧٥هـ= ٦٩٤م)، خطب في المسجد خطبة عاصفة أنذر فيها وتوعد المخالفين والخارجين على سلطان الخليفة والمتاقلين عن الخروج لقتال الخوارج الأزارقة، لتكون خطبته حجةً في الخطابة والبلاغة في تاريخ الأدب العربي، ومما جاء فيها: (... يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وإن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – نثر كِنانته (جعبة السهام) بين يديه، فعجم عيدانها (اختبرها)، فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكْسِرًا فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلالة، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلّب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً

تخلّف بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه).

ثم أتبع الحجاج القول بالفعل ونفذ وعيده، فسارع الناس نحو قائدهم المهلب لمحاربة الخوارج الأزارقة، ولما اطمأن الحجاج إلى استقرار الأوضاع في الكوفة، توجه إلى البصرة تسبقه شهرته في الحزم، وأخذ الناس بالشدة، وخطب فيهم خطبة منذرة زلزلت قلوبهم، محذراً من التخلف عن الخروج مع المهلب قائلاً لهم: (إني أُنذر ثم لا أُنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو...)

ولم يكتف الحجاج بحشد الجيوش مع المهلب بل خرج في أهل البصرة والكوفة إلى (رشتقباذ) ليشد من أزر قائده المهلب ويعينه، لتظهر حركة تمرد في صفوف الجيش، وتزعّم الثورة رجل يدعى (ابن الجارود) بعد إعلان الحجاج عزمه على إنقاص المحاربين من أهل العراق ١٠٠ درهم. وما كاد الحجاج يقضي على فتنة الخوارج حتى شبت ثورة عارمة دامت ثلاث سنوات (٨١- ٨٣هـ= ٧٠٠- ٧٠٢م) زعزعت استقرار الدولة، بقيادة (عبد الرحمن بن الأشعث) صاحب حملة الطواويس الذي خرج للقضاء إلى سجستان لمحاربة ملكها (زنبيل) الذي أعلن العصيان، وخلع طاعة الخليفة، ثائراً على الدولة الأموية متطلعاً إلى الرئاسة والسلطان.

ومع ميل أهل العراق إلى الثورة والتمرد مآزرين من عدد من كبار التابعين؛ مستحلّين قتال الحجاج بسبب لما نُسب إليه من أعمال وأفعال، ليحالف النصر ابن الأشعث في جولاته الأولى، إلا أن الحجاج واصل قتاله، وبعد معارك طاحنة حسمها لصالحه، تمكّن من سحق عدوه في معركة دير الجماجم سنة (٨٣هـ = ٧٠٢م)، والقضاء على الفتنة.

بسياسة العنف والشدة واجه الحجاج الأخطار المحدقة بالدولة ليكون الأمن والاستقرار حليف الخليفة الوليد الذي كافأ الحجاج بإطلاق يده في الأمر، والذي انصرف بدوره إلى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت بسبب الفتن والثورات التي غلت يد الدولة، فأرسل الجيوش المتتابعة، واختار لها القادة الأكفاء،

مثل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولاه الحجاج خراسان سنة (٨٥هـ = ٧٠٤م)، وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد؛ فأبلى بلاء حسناً، و فتح العديد من الممالك والمدن الحصينة، الواقعة على حدود الصين المتاخمة لإقليم ما وراء النهر مثل: بلخ، وبيكند، وبخارى، وشومان، وكش، والطالقان، وخوارزم، وكاشان، وفرغانه، والشاس، وكاشغر لينتشر الإسلام في هذه المناطق ولتصبح كثير من مدنها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند.

كذلك ابتعث الحجاج ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند، وكان شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره، ولكنه كان قائداً عظيما موفور القدرة، نجح خلال فترة قصيرة لا تزيد عن خمس سنوات (٨٩- ٩٥هـ = ٧٠٧-٧١٣م) في أن يفتح مدن وادي السند، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في فتح قنوج أعظم إمارات الهند الممتدة بين السند والبنغال فأجابه: (سر فأنت أمير ما افتتحته)، وكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان يقول له: (أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها). تابع الحجاج سير حملات قادته يوفر لها ما تحتاجه من مؤن وإمدادات، ولم يبخل على قادتها بالنصح والإرشاد؛ حتى حققت هذه النتائج العظيمة ووصلت رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند.

ومن جانب ثان؛ انصرف الحجاج إلى البناء والعمران والإصلاح، فقام بخطوات إصلاحية عظيمة، شملت النواحي الاجتماعية والصحية والإدارية. ودقق الحجاج في اختيار ولاته وعماله، واختارهم من ذوي القدرة والكفاءة، وراقب أعمالهم، ومنع تجاوزاتهم على الناس، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلي والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق.

ويذكر التاريخ للحجاج أنه ساهم في تعريب الدواوين، وفي الإصلاح النقدي للعملة، وضبط معيارها، والنهوض بالزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات، واستصلاح الأراضي الزراعية، واهتم بالفلاحين، وأقرضهم، ووفر لهم الدواب التي تقوم بمهمة الحرث؛ وذلك ليعينهم على الاستمرار في الزراعة.

ومن أجلّ أعماله اهتمامه بنقط حروف المصحف وإعجامه بوضع علامات الإعراب على كلماته، وذلك بعد أن انتشر التصحيف؛ فقام (نصر ابن عاصم) بهذه المهمة العظيمة، ونُسب إليه تجزئة القرآن، ووضع إشارات تدل على نصف القرآن وثلثه وربعه وخمسه، ورغّب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان ﷺ، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار.

وشرع في بناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، في سنة (٨٣هـ=٧٠٢م)، واستغرق بناؤها ثلاث سنوات، واتخذها مقراً لحكمه.

اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون في شخصية الحجاج بن يوسف بين مدح وذم، وتأييد لسياسته ومعارضة لها، ولكن الحكم عليه دون دراسة عصره المشحون بالفتن والقلاقل ولجوء خصوم الدولة إلى السيف في التعبير عن معارضتهم لسياسته أمر محفوف بالمزالق، ويؤدي إلى نتائج وخيمةبعيدة عن الأمانة والنزاهة. وعليه حظي الحجاج بنصيب وافر من المصنفات، إلا أن من كتبها لم يعطه حقه ولم ينصفه.

إلا أننا لم نعدم من كان معتدلاً حيث يقف ابن كثير في مقدمة المؤرخين القدماء الذين حاولوا إنصاف الحجاج؛ فيقول: (**إن أعظم ما نُقِم على الحجاج وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، وكانت فيه سماحة إعطاء المال لأهل القرآن؛ فكان يعطي كثيراً على القرآن، مات ولم يترك فيما قيل إلا ٣٠٠ درهم**).

توفي الحجاج بمدينتة واسط في (٢١ رمضان ٩٥هـ=٩ حزيران ٧١٤م). ودفن فيها في موقع مجهول، تقبل الخليفة الوليد بن عبد الملك فيه العزاء .ولهذه الأسباب عقدت النية على الكتابة عن هذا الرجل، في محاولة لإنصافه قدر ما يستحق، وإظهار حقيقة تاريخه والصورة الواقعية لشخصيته، وأقدمت على تبويب هذا الكتاب إلى المقدمة، والتمهيد ويضم الملامح العامة لعصر الحجاج، ثم تليها الفصول التالية:

الفصل الأول: ترجمة الحجاج، وفيها: أصل الحجاج وموطنه ونسبه ونشأته، وحياته الأولى، وظهوره على مسرح السياسة، وتصدّيه للزبير، وحملته على الحجاز وولايته لها، وإصلاحاته فيها، ثم ولايته للعراق وتنظيماته الإدارية فيها، وإصلاحاته التي شملت مجموعة من القوانين والتنظيمات خلدت اسمه.

الفصل الثاني: الثورات التي ناهضت حكم بني أمية وأثر الحجاج في إخمادها، ومنها: ثورة ابن الجارود، وثورة الزنج، وثورة الخوارج، وثورة مطرف بن المغيرة، وثورة ابن الأشعث ونصارى النجرانية ويهودها، ومن ثمّ حرب الحجاج مع الكرد والديالمة.

الفصل الثالث: جهود الحجاج العسكرية والسياسية ودورها في إرساء حكم بني أمية في العراق: الحجاج في الدولة الأموية، وموقعه فيها، وآراؤه السياسية، وفتوحه الخارجية، واستراتيجيته العسكرية، والتنظيمات الإدارية والمالية لولايته، والإصلاحات التي أُنجزت في ولايته.

الفصل الرابع: الحجاج الأديب الحصيف والخطيب البليغ، أخلاق الحجاج وأوصافه، أسرة الحجاج، أدبه، وفاة الحجاج.

الخاتمة:

ولا بد في نهاية المطاف من التنويه إلى أن المصادر والمراجع التي نهض عليها الكتاب واستقى منها ستذكر في جريدةٍ مفردة لها آخر الكتاب، ولهذا أخليت هوامش الكتاب في الجملة من ذكرها، وفيها زيادة للمستزيد، فمن أراد أن يستزيد طلبها في موضعها. وقد حرصت في بحث هذا الموضوع على نقل الوقائع التاريخية المذكورة فيها وأعتمد ما صح منها بعد النظر والتمحيص، على أنّني تقيدت بنصوص الرواية ولم أتجاوزها إلى أن يقوم دليل على خلافها.

ثم إن الإنسان يصيب ويخطئ، ولولا أنه أخطأ ما أدرك الصواب يوماً، وإنا نؤمل أن يكون الصواب مصاحباً لنا في صناعة هذا الكتاب.

إن هـذا الكتـاب يعـرض لحيـاة الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي بتسلسـلها التـاريخي مستعرضاً التحديات التي واجهته، وفرضـت عليـه ماكـان منـه، في سـبيل تحقيـق وحـدة وسلامة الدولة الإسلامية اليافعة، التي رآى فيهـا العـدل وحفـظ حـدود الإسـلام ونشر الـدعوة خـارج هـذه الحـدود؛ ومـن قـام بـذلك وجبـت طاعتـه واسـتحق الخلافـة. وقـد حاولت استقصاء جل المادة العلمية عن هذه الشخصية التاريخية ، لأكوّن منهـا قـراءة في سيرته، ولأعطي بحثي شمولية عن سنوات حكمـه وأعمالـه وإنجازاتـه والآراء المتنوعـة فيه، فأرجو من الله التوفيق والقبول.

هـذا ولا يسـعني إلا أن أتقـدم بخـالص الشـكر والامتنـان لكـل مـن فـتح لي صـدره وخزائنـه العلميـة سـواء بالسـؤال الشـخصي أم في إيقـافي عـلى بعـض مصـادر البحـث النادرة.ولن أغادر مقامي هذا دون أن أزجي خالص الثناء ووافر الشكر للسـادة العلـماء الذين تفضلوا بقراءة هذا الكتاب، وقدموا طائفة قيّمة من الملاحظ التـي قومـت مـا انـآد من العمل، وسـددت الطريـق، وطوقـت عنـق صـاحبة الكتـاب بقلائـد مـن علـم ونـور ليسـت تنسـى فضـل مـن وضـعها، أخـص بالـذكر مـؤرخ دمشـق الأسـتاذ أكـرم حسـن العلبي، والدكتور عمار محمد النهار الذي تولى مراجعة الكتاب، والدكتور محمد عبـد الله قاسـم الـذي تـولى تـدقيق الكتـاب تـدقيقاً لغويـاً، والأسـتاذة مـروة آقبيـق التـي قامـت بمراجعة ما تضمنه الكتاب من أشعار.

شكر الله لهم، وأجـزل مثـوبتهم، وجعـل الحـق إمامَهم وأمـامهم، ووصـل بالسـعادة أيامهم.

دمشق الشام حرسها الله من الآفات

كتبته

الدكتورة عزة علي آق بيق، كان الله لها

شعبان - ١٤٣٦هـ

الموافق ٢٨ أيار- ٢٠١٥

تمهيد

الملامح العامة لعصر الحجاج

احتل الحجاج بن يوسف الثقفي مكانة متميزة بين أعلام الإسلام.من النادر أن نقرأ كتابًا في التاريخ أو الأدب وليس فيه ذكر للحجاج الذي خرج من سواد الناس إلى الصدارة بين الرجال وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة.

عاش الحجاج بن يوسف الثقفي في ظل الدولة الأموية بضعاً وخمسين سنة (٤١ - ٩٥هـ= ٦٦١ -٧١٤م) إذْ قدر له خلال ربع قرن المشاركة في توطيد أركان الدولة ومواجهة أحداث جسام واجهت الخليفتين عبد الملك ابن مروان ونجله الوليد الَّذين عملا على إرساء دعائم دولتهم من خلال ولاة أكْفَاء بذلوا جهداً كبير للحفاظ على أمن الدولة الإسلامية الفتية واستقرارها وتوسعها ؛ التي أكدت من خلال عقيدتها وحدة الجماعة الإسلامية وتعميق مفهوم الأخوة والمساواة بين جميع أفرادها بغض النظر عن الاختلاف في الأصل واللون، امتثالاً لكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك.

وعلى ذلك لم تخلُ الدولة الإسلامية الأموية من المشكلات والميول المتباينة؛ وذلك لتعدد الملل وتنوعها التي دخلت الإسلام، خوفاً ورهبة بعد الفتح، أو ممن لم يدخل الإيمان قلوبهم من أعراب الجزيرة العربية.

ولسنا هنا في موضع التأريخ، وإنما من باب التذكير بالمبادئ والقواعد الأساسية التي أرسى الرسول الكريم دعائمها، لتغدو الأمة الإسلامية فيما بعد قادرة على تحديد مسؤولية الخلفاء والحكام والولاة على أساس تلك المبادئ والقواعد. وما ترتب على ذلك من أحداث؛ كفتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه، امتداداً إلى تثبيت دعائم الدولة الإسلامية كدولة حضارية من خلال الخلافة الأموية (٤١-١٣٢هـ= ٦٦١- ٧٥٠م) التي ظهر

الحجاج فيها.

موضوع البحث الأساس هو الحجاج بن يوسف الثقفي، لكن لا بد من لمحة إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية تمهيداً للدخول في موضوع البحث.

شهدت الدولة الأموية تحولاتٍ سياسيةً واجتماعيةً ودينيةً واقتصاديةً بارزة نجمت عن حركة الفتوح العظيمة التي امتدَّتْ إلى مساحات واسعة، وعلى تعدّدِ وتنوع عناصر الدولة استطاع الساسة الأمويّون الحفاظ على استمرارية تفوق العنصر العربي ليظل العامل المؤثر والفعال في سير الحوادث التاريخية. وهو أمر نلحظه بوضوح في الكتابات التي أرّخت لذلك العصر من خلال تتبُّعِها لنشاطات العرب الفاتحين، وهنا لا بد للبحث من التوقف للتعرف على عناصر التشكيلات الاجتماعية الموجودة في الساحة الإسلامية.

عرب الجزيرة العربية:

عاشت القبائل العربية قبل الإسلام في الجزيرة العربية، وحافظت المجموعات المهاجرة منها إلى تخوم الجزيرة الشمالية على أطراف العراق وبلاد الشام، على طابعها البدوي، في حين غلب التحضر على القبائل التي استقرت في المدن كما هي الحال بالنسبة إلى التي نزلت في مكة ويثرب والطائف واليمن. وأما عرب العراق وبلاد الشام الذين ينتمون في معظمهم إلى أصول يمانية فقد كونوا برعاية الفرس والروم دولتين إحداهما في الحيرة والأخرى في جنوب بلاد الشام. وقد أَدَّتْ هاتان الدولتان وظيفة الدولتين الحاجزتين بين الفرس والروم من جهة وبين قبائل الجزيرة والتخوم الجنوبية للعراق وبلاد الشام من جهة أخرى.

وتميزت العلاقات بين الدولتين نتيجة لذلك بالتوتر والعداء الشديدين التي زادته الخلافات الدينية حدّةً وضراوةً، ومع ذلك فقد ساعد قيامها على تعريف العرب بالأنماط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التي كانت سائدة في الدولتين الساسانية والبيزنطية، ويُلحظ في هذا الصدد أن فكرة الدولة وطاعة القائمين عليها

كانت لدى رعايا دولة الغساسنة في الشام أَثْبَتَ منها في دولة المناذرة في الحيرة بحكم مركزية الحكم البيزنطيّ وتمتع الأخيرة بقسط أوفر من الحرية والاستقلال الذاتي الأمر الذي كان له تأثير فيما بعد في طبيعة العلاقات بين عرب العراق وعرب الشام.

إلا أن هذا الأمر كان مغايراً في الجزيرة العربية، وذلك حين حاولت القبائل العربية مقاومة فكرة الدولة الجديدة مما دفع الدولة الإسلامية إلى إشراك المتمردين في حركة الفتوح إذ أسهموا فيها إسهاماً فعَّالاً.

والواقع أن حركة الفتوح هذه كانت أهم عامل في تطور العرب الشامل خلال هذا العصر لاعتبارات كثيرة: منها أن هذه الحركة أسفرت عن هجرة واسعة من الجزيرة العربية عامة ومن مركز الدولة الإسلامية في الحجاز، ولا سيَّما بعد هجرة أعداد كبيرة من السكان للإقامة في الأمصار الجديدة، وترتب على ذلك أن حدث تخلخل في التوزيع السكاني للعرب انتقل معه مركز الثقل في الدولة من القلب إلى الأطراف .ولا شك أن الدور البارز الذي أَدَّتْهُ القبائل العربية في الفتوح جعلها تحس بأهميتها وتطالب بحقها الكامل في العطاء والفيء. يضاف إلى ذلك أن حركة الفتوح وما أعقبها من قيام الأمصار واتساع في رقعة الدولة أدى إلى تغيير شامل في أماكن إقامة عدد غير قليل من القبائل العربية كما حدث في هجرة قبيلة أزد عُمان اليمانية إلى القرب من البصرة، وقبيلة كلاب القيسية إلى شمال بلاد الشام، وقد نجم عن هذا التحرك القبلي الجديد تداخل مباشر بمصالح القبائل الأخرى مما أذكى روح التعصب القبلي لديها على نحو لم يكن مألوفاً قبل الإسلام، ولم يلبث أن تطور خلال هذا العصر إلى أشكال أخرى من التعصب الإقليمي، كما حدث بين عرب العراق وعرب الشام، فالتعصب المحلي بين المدن كالبصرة والكوفة، ضد الميل الأموي إلى الأصول القيسية.

وأخيراً فتحت حركة الفتوح الطريق على مصراعيه لاحتكاك العرب بحضارة الشعوب المغلوبة ومدنيتها، وتدفقت على العرب واردات خراجية وافرة هَيَّأت لهم حياة رغيدة تاقت معها نفوسهم إلى البقاء في أمصارهم والاكتفاء بما فتح الله عليهم من

البلاد فأخذوا يفضّلون القعودَ على الجهادِ والفَتْحِ، وهو ما يمكن وَصْفُه بتراجع الروح العسكرية لديهم

الموالي:

وهم المسلمون من غير العرب، وكانوا في الأصل إما عبيداً حررهم أسيادهم العرب وأصبحوا موالي شخصيين لهم، وإما أعاجم دخلوا الإسلام أملاً في أن يكون لهم مكان في المجتمع الجديد، وذلك من خلال الارتباط بقبائل الأمصار برابطة الولاء، وذلك وفر لهم الحماية اللازمة، وأفاد منهم المجتمع العربي في توفير كثير من مقومات الحياة الاقتصادية، لأنهم برعوا بأعمال الصيرفة والحرف والتجارة لانصراف العرب إلى أمور الحكم والإدارة والفتوح، كما احتكروا أعمال الدواوين، وظلوا عصب الدولة الاقتصادي الذي تعتمد عليه في الزراعة والتجارة وجباية الضرائب والقيام بالأعمال اليدوية الضرورية للمجتمع، وكان العرب يدركون في قرارة أنفسهم أهمية هذا العنصر واستمراره في الاضطلاع بهذا الدور،حتى روي أن عامر بن عبد القيس المعروف بنسكه وزهده دعا الله يوماً أَنْ يكثر الموالي بين العرب، فلمّا سُئل عن ذلك قال جملته المشهورة: (**نعم إِنَّهم يكسحون طُرُقَنا، ويخرزون خِفافنا، ويحيكون ثيابنا**).

انقسم الموالي إلى فئتين: فئة عاش معظمها في المدن، وتنتمي إلى أصول عريقة وتعمل بالتجارة والكتابة وغيرهما، وفئة قطنت القرى، واتخذت من الزراعة حرفةً لمعاشها. وعلى اختلاف أعراق الموالي ظلّ معظمهم موالياً للقبائل العربية، ولا سيَّما تلك التي قطنت مدينتي البصرة والكوفة، حيث كان العربي في الكوفة يخرج في العشرة والعشرين من مواليه، واستمرت هذه الزيادة في ارتفاع، مما أدى إلى تخوف العنصر العربي منهم والمطالبة بوضع حد لغلبتهم على الأمصار، وعليه سُمح لهم بالاشتراك في الحروب مُشاةً لهم نصيب من الغنائم والفيء. وكذلك أتقنت فئة منهم العربية وبرعت في الفقه، مما يفسر ظهور عدد كبير من العلماء والفقهاء الموالي، وهذا ما دعا سليمان بن عبد الملك

إلى القول: (**ألا تعجبون من هذه الأعاجم، احتجنا إليهم في كل شيء حتى في تعلم لغتنا منهم**).

وإذا كان معظم الموالي في شرق الدولة الأموية من الفرس فإن هذه المنطقة عرفت أيضاً أنواعاً أخرى من الموالي شكلت أقليات في المجتمع، مثل الأساورة والسيابجة والزط، وهذه الأقليات كانت في الأصل جماعات عسكرية مرتزقة تحارب إلى جانب الساسانيين، ثم انضمت إلى العرب، وشاركت في بعض أحداث العصر السياسية، كذلك وُجدت جماعات أخرى من الموالي من بلاد الترك والديلم، أما الزنج الذين وجدوا في جنوب العراق فقد جُلبوا من سواحل إفريقية الشرقية في زمن غير معروف، وكانوا يعملون في تنظيف أراضي ما بين وراء النهرين من الأتربة النطرونية التي تمنعها من الإنبات. وتأثرت فئة أخرى من الموالي بالتيارات الحزبية، فانضموا إلى زعماء هذه الحركات كحركة الخوارج والمختار بن أبي عبيد وزيد بن علي؛ ويبدو أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي عانوها دفعت بهم إلى التمرد والثورة مرتين خلال هذا العصر، إحداهما زمن مصعب بن الزبير، والأخرى في عهد الحجاج بن يوسف، وذلك قبل قيام ثورتهم الاجتماعية الكبرى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

الشيعة:

هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه، وقدموه في الولاية على سائر الصحابة، وقد اتعظوا من إخفاق محاولاتهم السياسية العلنية، فاتبعوا السرية المطلقة في إعداد الخطط وتهيئة الأمور لتولي الحكم، إلا أنهم أخفقوا أن يقوموا بنشاط فعال زمن الحجاج الذي همَّ أن يوقع بزعيمهم محمد بن الحنفية لولا أن نهاه عبد الملك، لذلك لم يسعوا إلى تأييده.

الخوارج:

هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب في أعقاب وقعة صفين، فقد أَدَّوا دوراً خطيراً في هذا العصر، وشكلوا أعظم خطر واجهته الدولة الأموية عامة، والحجاج بن

يوسف خاصة.إذ شغلوه مدّةً عن مواصلة الفتوح في الجناح الشرقي من الدولة، وساعدوا على تأليب الناس ضد الأمويين، ومهدوا بأفكارهم المتطرفة إلى إثارة العرب والموالي، وهَيَّأوا المسرح السياسي لقيام الانقلاب العباسي.

أما أهل الذمة من مسيحيين ويهود ومجوس وصابئة، فقد كوّنوا نسبة هامة من السكان، وتمتعوا بوجه عام بحرية دينية ومعاملة حسنة حث عليهما الإسلام، وعُدّوا عنصر إنتاج رئيسياً في الدولة، ونبغ بعضهم في الشعر والأدب كالأخطل الذي احتل مكانة مرموقة في البلاط الأموي.

كما احتكر أهل الذمة الجهبذة، أي معرفة النقد والطبابة والعمل في دواوين الخراج، وظلوا على هذه الحال زمناً طويلاً، حتى نافسهم المسلمون على ذلك، وقال شاعرهم:

العِلْم يرفعُ مَنْ قد كان مُتَّضعاً ... من قبله فتراه زَائِدَ الحال

إنَّ النَّصارى عُنوا بالطِّبِّ فامتثلت ... طَوْعاً أَوَامِرَهم مِنْ غَيْرِ إمهالِ

واهتمَّ قومٌ بعلْمِ النَّقْدِ فارتفعُوا ... وهم يهودٌ وعزُّوا بَعْدَ إذلالِ

فهؤلاءِ وإنْ كانُوا ذوي ضِعَةٍ ... فالعِلْمُ حَكَّمَهم في النَّفْسِ والمالِ

إلا أنهم حُمِّلوا في بعض الأوقات أعباء مالية واقتصادية كانت موضع شكاواهم، ولا سيّما إبان الثورات وتوقف الفتوح وحدوث الأوبئة والأزمات الاقتصادية.

واجهت الدولة الأموية أزمة مالية في عهد عبد الملك بن مروان التي كانت على ما يبدو محرضاً لقيام في الإصلاحات الاقتصادية والإدارية التي شهدها هذا العصر، في زمن الحجاج بن يوسف على وجه الخصوص.

ويُلحظُ أن التدابير التي اتخذتها الدولة في هذا الشأن، سواء تعريب النقد والدواوين أو توحيد المقاييس والمكاييل وتشديد الرقابة المالية والإدارية، كانت في معظمها إجراءات جديدة على المجتمع، تعززت معها هيبة الدولة وهيمنتها على رعاياها.

وهذا أدى إلى تحولات اقتصادية مهمّة منها:

١. حدوث تخلخل في الكيان القبلي أدى إلى انصراف أشراف القبائل في أواخر هذا العصر إلى امتلاك المساكن والأراضي الزراعية، وتحول هذه الأراضي إلى أراضٍ عشرية قاوم أصحابها إعادة فرض الضريبة الخراجية عليها، كما حدث زمن الحجاج، في حين ظل أفراد هذه القبائل ممن لم يكونوا يأخذون العطاء، في ظروف اقتصادية صعبة، دفعتهم للإلتحاق بالأحزاب المتطرفة كالخوارج.

٢. عزوف عدد من المسلمين الجدد عن الارتباط بقبائل عربية بالولاء، مما جعل بعضهم يقوم بدور أكبر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٣. هجرة عدد كبير من المسلمين الجدد من الريف إلى المدن، مما زاد الأزمة الاقتصادية تفاقماً، وجعل الحجاج يلجأ إلى إعادتهم إلى قراهم، وإلزامهم بما كانوا يؤدونه من الضريبة.

تلكم أهم الملامح التي ميزت عصر الحجاج بن يوسف الثقفي، وهي توضح أن ثمة تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية حصلت خلال هذا العصر، وكانت لها انعكاسات حتمية على أفكار الناس ومفاهيمهم وسلوكهم.

وقد خلّفت هذه التطورات آثاراً ملموسة على الأجيال المتعاقبة في ذلك العصر، أشارت إليها كثير من المصادر والمراجع، وأوضحها بجلاء العلامة ابن خلدون في مقدمته حين تحدث عن نظريته في تطور الأجيال وأثر هذا التطور في عمر الدول.

وليس من شك في أن الحجاج بن يوسف الثقفي وهو من أبناء ذلك العصر وممن عاش جيلاً من أجياله، قد تأثر بهذه التطورات، وتفاعل معها، وكان له أثرٌ فيها لم يقتصر على الفترة التي عاشها، بل امتد إلى حقبة زمنية أبعد من ذلك كما سنرى لدى مواكبتنا سيرة هذه الشخصية الاستثنائية.

الفصل الأول

أصل الحجاج وموطنه

يُنسب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى قبيلة ثقيف إحدى القبائل العربية المعروفة التي نزلت الطائف وكان لها أثرٌ بارز في مجرى الأحداث التاريخية سواء في الجاهلية أو في الإسلام. ولعل من الأهمية بمكان أن نلقي بعض الضوء على وضع ثقيف في الأنساب العربية؛ لأن هذه الأنساب تشكل إلى حد كبير الهيكل العظمي للتاريخ العربي الإسلامي، وفهم وقائع هذا التاريخ لا يتأتى إلا بدراسة علم الأنساب عند العرب لارتباطه الوثيق برجاله وصانعي أحداثه.

وعلى ما يثار حول أنساب العرب من تساؤلات لاضطراب قوائمها في بعض الأحيان وتأثره بالأهواء والأغراض أحياناً أخرى، فإن ذلك لا يؤثر في قيمة تلك الأنساب ما دامت غالبية العرب كانت تتبناها وتعتقد بها، وفي ضوء هذه الأنساب بنى العرب عصبيتهم، وانقسموا في كل مكان نزلوه إلى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا في نسبهم، وأصبحت هذه العصبية مفتاحاً به نستطيع أن نصل إلى معرفة الوقائع والأحداث.

نسب ثقيف:

يختلف النسابون العرب في تحديد أصل هذه القبيلة، ولهم في ذلك أربعة أقوال، فمنهم من ينسبها إلى قيس عيلان، وآخرون ينسبونها إلى إياد،[1] وهذان الجدّان يلتقيان عند جدّ واحد هو معد بن عدنان، وفريق ثالث أخرج ثقيفاً من العرب العاربة والمستعربة، وألحقها بثمود إحدى قبائل العرب البائدة.

---

(١) كتاب الأغاني. أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٤٦هـ). جـ٤، ص٧٥.
ومعجم البلدان. ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ). جـ ٧، ص ١٣.

أما الفريق الرابع من النسابة فيرى أن ثقيفاً كان عبداً للنبي صالح، وعُرف أيضاً بـأبي رغال، وأنه هرب منه واستوطن الحرم، وقيل: إنه كـان رجـلاً عشـاراً جـائراً في الـزمن الأول، كما قيل: إِنَّه كان دليلاً للأحباش حين توجهوا لهدم الكعبة، فمات في الطريق، إلى غير ذلك من الأقوال. وأصحاب القول الأول ينسبون ثقيفاً إلى قصي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بـن مضر بـن نـزار بـن معـد بـن عدنان، ويمثل هذا الرأي عدد من النسابة والمؤرخين العرب بينهم ابن هشام وابـن عبـد البر وابن حزم والسَّمْعَانِيّ وابن خلدون.

أما الذين ينسبون ثقيفاً إلى إياد فيقولون: إن ثقيفـاً هـو قصي بـن النبيـت ابـن منبـه بـن منصور بن يقدم بن أَفْصَى بن دُعْمي بن إياد بن نزار بـن معـد بـن عـدنان. ويعـترف بهـذا النسب عدد آخر من النسابة والمؤرخين [1] بينهم هشام بن محمـد الكلبي وابـن إِسـحاق واليعقوبي والبكري وابن المجاور وابـن خلكـان. ويـرى بعضـهم أن ثقيفـاً كـان أصـلها يرجع إلى إياد، إلاّ أنها عادت وانتسبت إلى قيس عيلان في ظروف غامضة.

ويـرى المسـتشرق البلجيكي هنـري لامـانس أن ثقيفـاً أقـدمت عـلى ذلـك تمشـياً مـع مصالحها المادية في وسط أصبحت القوة والغلبة فيه لقبائل قيس عيلان. والذي يهمنا أَنَّ ثقيفاً عند ظهور الإسلام كانت تنتسب إلى هوازن وقيس عيلان، ويتمسك معظـم بنيهـا بهـذا النسـب، وعليـه عصـبيتهم ومفـاخرتهم. ومـا يعنينـا هُنـا أَنَّ الحجـاج كـان شـديد التَّعصُّب لهذا النسب يدافع عنه ويغضب إذا نُسب إلى غيره.

فقد روي أَنَّ عبد الملك بن مروان حشر بين الحجاج وبين كثير من هراشـة الكـلاب فقال: **(يا كثيرُ مِمَّنْ ثقيفٌ؟)** فقال: **(يا أمير المؤمنين العلماء بالنسب يزعمـون أنهـم مـن**

---

(١) المقتضب من جمهرة أنساب العرب. ياقوت الحموي. جـ ٢، ص٦٢. والكامل في اللغة والأدب. أبو العباس محمد بـن يزيـد المبرد (ت ٢٨٥هـ). ص٢٦٦. فـوات الوفيـات. ابـن شـاكر الكتبـي. جـ ٥، ص٢٥٥.
ومقدمة العبر وديوان المبتدأ والخبر. عبد الرحمن ابن خلدون (٣٣٠هـ). جـ ٢، ص١٦٦.

إياد....) فقال الحجاج: (معاذ الله يا أمير المؤمنين نحن من قيس، ثابتةٌ أصولُنا باسقةٌ فروعُنا، يعرف ذلك قومُنا، وقد قال شاعرنا:

وإنَّا معشرٌ مِنْ جِذْمِ قَيسٍ ... فنسبتُهم ونسبتُنا سَوَاءُ

هُمُو آبَاؤُنا وبَنَوْا عَلَيْنَا ... كَمَا بُنِيَتْ عَلَى الأَرْضِ السَّمَاءُ)

وقال الحجاج يوماً لأبي العسوس الطائي: (أَيٌّ أَقْدَمُ؟ أنزولُ ثقيفٍ الطَّائِفَ أَمْ نزولُ طيّئٍ الجبلَيْنِ؟)

فقال أبو العسوس: (إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيّئ الجبلين قبلها، وإن كانت ثقيف من ثمود فهي أقدم). فقال الحجاج: (يا أبا العسوس، اتَّقِني فأنا سريع الخطف للأحمق المتهوك).وعليه استغل أعداء الحجاج الخلاف حول نسب ثقيف في هجائه والتعريض به، فكان عبد الله بن الزبير خلال فترة حصار الحجاج له يشتم ثقيفاً في خطبة الجمعة ويصفهم بأنهم (قصار الخدود، لئام الجدود، سود الجلود، بقية ثمود).

وهذا الشاعر الأموي العُديل بن الفرخ يهجو الحجاج وينسبه إلى ثمود في قوله:

لئن أَرْتَجَ الحجَّاجُ بالبُخْلِ بَابَه ... فبابي الفتى الأَزديُّ بالعُرْفِ يفتحُ

وليس كعِلْجٍ مِنْ ثمود بكفِّه ... مِنَ الجُودِ والمعروفِ حزم مطوجحُ

وقد انبرى الحجاج بن يوسف بنفسه إلى تكذيب هذا الادعاء خلال خطبة في العراق، واحتج عليهم بما جاء في القرآن الكريم من أن الله تعالى: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝﴾ [النجم: ٥٠ -٥١]

وقال الحجاج في معرض رده على هذه الادعاءات: (يقولون إنّي من بقية ثمود، وهل بقي من صالح إلا المؤمنون)[1].

بطون ثقيف:

نزلت ثقيف الطائف في زمن غير محدد، وما لبثت أن تغلبت على من حولها

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤.

وأصبحت ذات بأس، وقد أدى تكاثرها إلى انقسامها إلى بطنين كبيرين هما عوف وجشم .تحالفت عوف مع غاضرة وهي بطن من جشم بن مالك، ضد بني مالك ابن حطيط بن جشم، فسموا بذلك الأحلاف، في حين عرفت بقية جشم ببني مالك.ويُلحظ في هذا الشأن أن قبيلة ثقيف أنجبت شخصيات بارزة في الجاهلية والإسلام، ولو أن نسبة هذه الشخصيات في الأحلاف أكثر منها في بني مالك. فمن الأحلاف الحجاج بن يوسف وأخوه محمد بن يوسف والي اليمن، ويوسف بن عمر والي العراق، والقاسم بن محمد والي البصرة، ومحمد بن قاسم فاتح السند، ومنهم كان معتب بن مالك بن كعب الذي بعثه الرسول ﷺ إلى قومه داعية إلى الإسلام فقتلوه، وعروة بن مسعود أول شهيد من ثقيف وأحد الرجلين اللذين عنتهما الآية الكريمة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، والمغيرة بن شعبة والي الكوفة والداهية المشهور، وغيلان بن سلمة صاحب الوفادة المعروفة على كسرى، والحارث بن كلدة طبيب العرب، وأمية بن أبي الصّلت الشاعر المشهور.

ويُنسب إلى الأحلاف المغيرة بن أخنس الذي قُتل مع عثمان ﷺ، وأبو عبيد بن مسعود الذي استشهد يوم الجسر، والمختار بن أبي عبيد ابنه صاحب الفتنة المعروفة باسمه في العراق، وأبو محجن بن حبيب ابن عمرو الذي حُدَّ في الخمر، وأبلى البلاء المشهود في القادسية، ومحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي اشتهر بالفقه وعلم الكلام، والذي يعرف بالحجّاجي، لأن نسبه ينتهي إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، وغير هؤلاء كثير. أما بنو مالك فقد ظهر منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة صاحب لواء المشركين في حنين، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الذي يعرف بابن أم الحكم بن أبي سفيان والي الكوفة. وابنه كان الحر بن عبد الرحمن أمير الأندلس، وسليمان بن عبد الملك، وإليه ينسب البلاط الحر بشرقي قرطبة.ومنهم عثمان بن أبي العاص الذي ولاّه الرسول ﷺ الطائف، وعبد الوهاب ابن عبد المجيد المحدث المشهور. والواقع أن قبيلة

ثقيف أنجبت كثيراً من الرجال والشخصيات التي كان لها أثرٌ مرموق في التاريخ العربي الإسلامي ولا سيَّما في هذا العصر. وقد يضيق مجال البحث عن استقصاء كل نابه وذي شأن في هذه القبيلة التي يبقى الحجاج بن يوسف أبرز أعلامها وأشدهم.

ثقيف والطائف وقريش:

أكسب نزول ثقيف الطائف ميزات عدة أثرت في تاريخها واتجاهات أبنائها، فموقع الطائف المرتفع الحصين هيأ لها منعة طبيعية، وساعدها في صد الغارات الخارجية عليها، واتضح اعتزاز الثقفيين بموطنهم بقول الشاعر الثقفي كنانة بن عبد ياليل:

كَأَنَّ اللهَ لم يُؤْثِرْ عَلَيْنَا ... غَدَاةَ تَجَزَّأُ الأرض اقتساما

فلمَّا أن أبان لنا اصطفينا ... سنام الأرض أن لها سناما

أسافلُها منازلُ كلِّ حيٍّ ... وأعلاها لنا بلداً حراما

وقد أدى ارتفاع موقعها إلى اعتدال مناخها ودوام خضرتها، لتغدو منتجعاً تقصده العرب في الصيف ولا سيَّما المكيين. وعليه اشتهرت الطائف بتنوع محاصيلها، فعرفت ازدهاراً اقتصادياً تمثل في التجارة والزراعة وبعض الصناعات، كالدباغة وعمل الزبيب، ويُلحظ أن الزراعة وصلت في هذه المنطقة إلى درجة متقدمة حيث شهدت إقامة السدود وحفر الآبار وشق الترع حتى إن بعض هذه السدود لا يزال قائماً إلى الآن مثل سد (العياد) الذي بُني في عهد معاوية بن أبي سفيان، وسدي السملقي والجبرجب.

بناءً على ماتقدم ربطت ثقيف بقريش أواصر قوية قبل الإسلام وبعده، إلا أنها بلغت أوجها في الدولة الأموية، فاتسعت حتى شملت النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتذكر المصادر وجود مصاهرات أسرية قديمة بين الجانبين، وروي أن عُيينة بن مُحصن كان يتمنى أن يفتح المسلمون الطائف عنوة حتى يصيب من سبيها امرأة علَّها تنجب له غلاماً يكون له شأن.

وتمتُّعُ ثقيف بتلك المكانة، جعل كبار رجالات قريش ولا سيَّما الأمويين يناسبونها، فهذا عبد شمس بن عبد مناف يزوج ابنته سبيعة بابن مالك بن كعب الثقفي لتنجب معتباً، الجد الأعلى للحجاج بن يوسف، كذلك تزوج أختها رقية أبو الصلت بن ربيعة الثقفي، وخلَّفت له أمية بن أبي الصلت الشاعر المعروف. ولم تكن المصاهرة وحدها ما عزز العلاقة بين ثقيف وقريش؛ بل هناك أيضاً روابط ومصالح اقتصادية، بحكم كونهما محطتين من محطات التجارة العبورية بين اليمن وبلاد الشام من جهة، ومركزين للتبادل التجاري المحلي مع القبائل العربية من جهة أخرى، وإن كانت الطائف قد غلبت عليها الصبغة التجارية في حين احتفظت مكة بمكانتها التجارية والدينية معاً.

وقد توجت أواصر الصلات بقيام تحالف سياسي بين ثقيف وقريش استمر حتى ظهور الدعوة الإسلامية، حيث وقفت كل منهما موقفاً معارضاً من الدعوة ولا سيَّما أصحاب الأموال في مكة والطائف، لكن هذه الأواصر انقطعت بدخول قريش في الإسلام حيث اشتركت هذه في محاربة هوازن وثقيف في غزوة حنين وحصار الطائف، لكن هذا الانقطاع لم يدم طويلاً إذ ما لبثت العلاقات بين الجانبين أن عادت إلى حالتها الطبيعية بعد إسلام ثقيف، ويُلحظ أن حداثة ثقيف وقريش في الإسلام لم تمنعهما من الإفادة، فبرز منهما في تلك الفترة المغيرة بن شعبة عامل الكوفة لعمر بن الخطاب، وعثمان بن أبي العاص عامل الرسول على الطائف وأخوه الحارث عامل البحرين لعمر، وزياد بن أبي سفيان الذي ولي إقليم فارس في خلافة علي بن أبي طالب، وأبو عبيد بن أبي مسعود صاحب موقعة الجسر، وأبو محجن الثقفي صاحب البلاء الحسن في القادسية، وغيرهم. غير أن مكانة ثقيف تعززت بشكل ملحوظ في ظل الدولة الأموية التي اعتمدت في العهدين السفياني والمرواني على كثير من رجالات ثقيف في توطيد حكمها وسلطانها.

نشأة الحجاج وحياته الأولى في الطائف

ولد الحجاج بن يوسف الثقفي في الطائف معقل ثقيف، ويروي الزركلي نقلاً عن سكان تلك المنطقة أن مكان مولد الحجاج كان في قرية بني صخر الواقعة على جبل الهَدَى، وهو من أشهر جبال الطائف. وذكر أبو المحاسن أن مولد الحجاج كان في مدينة الفسطاط بدرب السراجين وهو استنتاج خاطئ لأن الحجاج أقام في الفسطاط مدَّةً ولم يولد فيها .وتختلف المصادر في تحديد سنة ميلاد الحجاج، ولحظ ابن عساكر ذلك عندما ذكر أن مولده كان في سنة تسع وثلاثين، وقيل: سنة أربعين، وقيل: سنة إحدى وأربعين للهجرة(١)، وإن كان معظم المؤرخين والباحثين يحددون ميلاده بالسنة الأخيرة أي سنة إحدى وأربعين، وكاد الطبري وابن الأثير ينفردان بذكر عام اثنين وأربعين تاريخاً لهذا الميلاد .أما الحجاج نفسه فكان يقول إنه ولد سنة أربعين، ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى عدم اهتمام المؤرخين المسلمين عامة بمولد الأشخاص قدر اهتمامهم بسني وفاتهم التي تذكر بعد اشتهار أصحابها.ويذهب ابن دريد إلى أن اسم الحجاج مشتق من قول العرب: حجاج كثير الحج والمقصد، أو من قولهم حججت العظم أو قطعته، مما يجعل اسم الحجاج هنا يعني قاطع العظم. ويُعتقد أن الحجاج لم يعرف صغيراً بهذا الاسم، وإنما كان يسمى كُليباً، وعرف بالحجاج فيما بعد.بينما يرى كثير أنَّه سمي بالحجاج، وأن كليباً لا يعدو أَنْ يكونَ لقباً لُقِّبَ به في الصغر للتفاؤل على عادة العرب.(٢)

أُسبغت على الحجاج في حياته ألقاب عديدة مثل: أخو ثقيف وعبد ثقيف، وجبار ثقيف، وابن أبي رغال، والمبير، والسفاك، وغيرها من الألقاب والصفات التي أطلقها

(١) فوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥ ص ٢٥٦. وسرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. ابن نباتة (ت٧٦٨هـ) ص ١٠٢ . والمختصر في أخبار البشر. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ١، ص١٩٨.

(٢) المعارف. ابن قتيبة الدينوري (ت٣٦٧هـ). ص ٢٣٨. والعقد الفريد. ابن عبد ربه (ت٣٤٩هـ). جـ٣، ص٥.

والكامل للمبرد. مصدر سابق. ص ٢٩٠.

عليه مَنِ ابتغى الإِساءة إِليه.

وذكر المسعودي في مروج الذهب: (**أَنَّ الحجاج ولد مشوهاً لا دبر له، فثقب عن دبره**). ومثل هذا القول لا يستبعد، ولا سيَّما أَنَّه يحدث في حالات نادرة لحديثي الولادة.غير أن المسعودي يمضي في روايته بعيداً محاولاً أن يسوِّغ بها سبب ولع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره، فيقول: إِنَّ الحجاج بعد ولادته (**أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها، فأعياهم أمره، فذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الرابع قَبِلَ ثدي أمه**).وتنتهي الرواية بالقول: إِنَّهم فعلوا به ذلك، فكان بعدُ لا يصبر على سفك الدماء لما كان منه في بدء الأمر.

ومثل هذه الرواية أقرب إلى الأسطورة منها إلى الرواية التاريخية الممكنة، ويبدو أنها وضعت لتسويغ ما يُنسب إلى الحجاج بن يوسف من قسوة وإهراق دماء إِبَّان ولاياته على الحجاز والعراق؛ إلا أن واضعها لم ينتبه إلى أن الحجاج بن يوسف لم تعرف عنه هذه الصفة طوال سني حياته في الطائف وهي تقارب الثلاثين عاماً.

وأورد البلاذري رواية من هذا القبيل حول شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي، تقول: إِنَّ شبيباً ولد سنة ٢٥ هـ يوم النحر، فقال أبوه: ولد في اليوم الذي تراق فيه الدماء، وأحسبه سيكون صاحب دماء.كان والد الحجاج يوسف رجلاً تقياً على جانب من العلم والفضل والشرف، قضى معظم حياته في الطائف يعلم أَبناءَها القرآن الكريم وأصول الدين تقرباً إلى الله وطمعاً في مثوبته، دون أن يتخذ ذلك حرفة واكتساباً على ما يرويه ابن خلدون في مقدمته: (**ولم يكن تعليمه القرآن على ما هو عليه الأمر في هذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي**[1])

(١) مقدمة ابن خلدون. مصدر سابق. ص ٢٢، ٢٣.

ويبدو أن هذه الصفة هي التي جعلت والد الحجاج يعد من أشراف المعلمين؛ ربطته بأسرة مروان بن الحكم رابطة قوية على مايبدو؛ إذ يذكر الذهبي أن يوسف بن الحكم كان مع مروان، وتحدثنا بعض المصادر عن اشتراكه واشتراك ابنه الحجاج في جيش مروان بن الحكم إلى ابن الزبير وتحت إمرته بعض الألوية في موقعة الربذة التي هزم فيها جيش مروان، وتذكر المصادر أنه ولي لعبد الملك بن مروان في بعض الولايات، وتوفي خلال فترة ولاية الحجاج على الحجاز فنعاه ابنه على منبر المدينة قائلاً: (**الحمد لله الذي مضى ولم يدع مالاً**)، كناية عن صلاحه وعدم تهالكه على مغانم الدنيا، وقد ترك من الأبناء: محمداً وهو أكبر أبنائه وقد ولي على اليمن، والحجاج، وزينب التي تغزل بها الشاعر النميري محمد بن عبد الله الثقفي، أما والدة الحجاج فهي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي ليكون بذلك جد الحجاج لأمه عروة بن مسعود الذي كان أول شهيد مسلم في الطائف. ويقال للحجاج أيضاً ابن عظيم القريتين نسبة إلى جده عروة الذي قيل: إنه أحد المعنيين بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝﴾ [الزخرف: ٣١]

وتذكر بعض المصادر أن الفارعة والدة الحجاج تمنت وهي عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج الذي كان يوصف أنه أجمل شباب المدينة مما اضطر عمر بن الخطاب إلى نفيه إلى البصرة بعد أن افتتنت به النساء وسمع الفارعة وهي تنشد في خدرها .واستغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية، فكانوا يدعونه بابن المتمنِّية، وإن كان هناك قول يذهب إلى أنَّ المتمنِّية هي جدة الحجاج لأبيه الكنانية. إلا أن الحجاج كان دائم الافتخار بأصله ونسبه، فقد روي عنه أنه قال (**لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر**)، وكان يفاخر بنفسه ويقول: (**أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش**)[1]

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص٧.

وتكاد تجمع المصادر على أن الحجاج لم يكن جميل الشكل، ويستشهد ابن نباتة على ذلك بقول القاسم بن سلام: (**قاتل الله أهل الكوفة، أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنفة منهم ؟ وأين تجبُّرهم؟ قتلوا علياً، وطعنوا الحسن، وقاتلوا المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة**). ويستدل من بعض الروايات على أن الحجاج لم يكن طويل القامة، فقد ذكر الجاحظ أن الحجاج قال يوماً للمهلب بن أبي صفرة القائد المشهور: (**أنا أطول أم أنت؟**) فأجابه المهلب: (**الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه**)، وذلك كنوع من الرد اللَّبِق، على أن المهلب أطول من الحجاج. وأورد صاحب العقد الفريد رواية تدل على ضعف بصر الحجاج وعزا ذلك إلى كثرة نظره في الدفاتر؛ تقول الرواية: (**خرجنا مع الحجاج حُجَّاجاً، فلما انتهينا إلى البيداء وافينا ليلة هلال ذي الحجة، فقال لنا الحجاج: تبصروا الهلال، فأما أنا ففي بصري عاهة، فقال له نوفل بن مساحق: أو تدري لِمَ؟ لكثرة نظرك في الدفاتر**).

وقد استغل بعض أعدائه من الشعراء هذه الصفة في هجائه، فشبهه أحدهم بطائر بنت الماء ضعيف البصر.

لم تؤثر تلك الصفات عن شخصية الحجاج؛ بل زادته ثقةً بنفسه؛ إذ عرف عنه شدة الاعتناء بمظهره وتأنقه في ملبسه ومشيته إلى درجة جعلته موقع انتقاد خصومه.

قيل: إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادراً عندما يُغلب عليه، تأدب في صغره على يد والده الذي كان كما يصفه ابن خلدون من سادات ثقيف وأشرافها، ويستدل على تعلم الحجاج العلوم الدينية على أبيه، فقد كان من حفظة القرآن الكريم وأشدهم قراءة له حتى حسده عمر بن عبد العزيز على ذلك.

تركت النشأة الفاضلة التي شب عليها الحجاج في كنف والده آثاراً باقية على خلقه وصفاته فيما بعد، إذ ظل يعرف عنه الكرم والأمانة والصدق واجتناب الخمر والمحرمات، ومحافظته على الشرف والأخلاق والقيم التي كانت سائدة في عصره.وقد حفلت هذه المصادر بالكثير من الوقائع والأحداث التي تروي عن كرم الحجاج

وأمانته وحبه للصدق؛ وجرأته وتشدده في طلب الحق ولازمت هذه الصفات الحجاج وكانت علامة مميزة في سياسته المالية التي استهدفت التدقيق في جمع المستحق للدولة الأموية.

أما غيرته وحرصه على شرف أسرته، فيتضح من موقفه من الشاعر الثقفي محمد بن عبد الله النميريّ الذي كان يتغزل بأخته زينب إذ لم يمنعه صغر سنه في ذلك الوقت من أن يتعرض للنميريّ ويسفهه، ويذكر صاحب الأغاني أن الحجاج بن يوسف كان يسير خلف الشاعر النميري أينما سار ويشتمه أقبح الشتائم على مرأى ومسمع من الناس وكبار القوم. وعندما ولي الحجاج أمور الحجاز لعبد الملك همّ بأن يفتك بالنميري لما كان منه لولا شفاعة عبد الملك فيه وإجارته له. ومهما يكن من أمر فإن الحجاج عاش الشطر الأول من حياته في الطائف وأمضى فيها بضعاً وعشرين سنة قبل أن يظهر على المسرح السياسي.

وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة نحاول فيها التعرف إلى الأعمال التي كان يمارسها في مسقط رأسه خلال هذه الفترة. فالمصادر لا تذكر شيئاً يدل على غنى والده أو أنه كان من كبار الملاك الزراعيين في الطائف، إذ توفي والده كما ذكر الحجاج في نعيه دون أن يخلف مالاً، ومثل ذلك غير مستغرب على الذين يقفون حياتهم على التعلم والتعليم والقيام بأمور الدين على رأي ابن خلدون، إلا أن هذا لا يعني أنّه كان محتاجاً، إذ كان شخصية معروفة في الطائف ومتزوجة من ابنة همام بن عروة الثقفي أحد زعماء ثقيف المشهورين ولا بد والحالة هذه أن تكون لديه ولدى زوجته بعض الأموال التي تفي بحاجته وحاجة أسرته.

ويستدل من إشارات وردت على ألسنة خصوم الحجاج أنه عمل في حداثة سنه راعياً للغنم كما عمل في وقت لاحق في دباغة الجلود، وذلك على ما يبدو قبل أن يكمل تعليمه على أبيه ويشترك معه في التعليم.

وعلى أن هذه الأقوال صدرت عن خصوم هم موضع ظن بالنسبة إلى الرواية التاريخية، فإننا لا نستطيع أَنْ ننفي ما ذهبوا إليه نفياً قاطعاً على اعتبار أن الخصم لا بد أن يعتمد على شيء من الحقيقة في ذم عدوه حتى يتقبل الناس قوله.يضاف إلى ذلك ما عرف عن أبناء الطائف من الجد وحب العمل دون أن يجدوا في ذلك مهانة أو انتقاصاً كما هو الحال بالنسبة إلى أهل الوبر من العرب، وكان الحجاج نفسه يفتخر بما عيره به عبد الملك من أن آباءه كانوا يتكسبون من نقل الحجارة وحفر الآبار والمناهل، وقال في معرض رده وافتخاره: (**إن الذي يُعَيَّرُ به القوم من مصانعهم من أشد ما كان يزاوله أهل القِدْمة الذين اجتبَّه الله منهم**).

وقد وردت إشارة عن اشتغاله في الرعي على لسان يزيد بن الحكم الثقفي قريب الحجاج الذي استدعاه ليوليه فارس، ويقول صاحب الأغاني إن الحجاج دفع إليه عهده بالولاية وطلب إليه أن ينشده بعض شعر يزيد الَّذي به يفخر:

وأَبي الــذي سَــلَبَ ابْــنَ كسرى رايــةً بَيْضَـــاءَ تَخفــقُ كالعُقـــابِ الطَّـــائر

فلما سمع الحجاج فخره نهض مغضباً، فخرج يزيد من غير أن يودعه، فقال الحجاج لحاجبه:(**ارتجع منه العهد، فإذا رده فقل له: أيهما خير لك: ما ورثك أبوك أم هذا ؟**) فرد يزيد العهد على الحاجب وقال:(**قل للحجاج:**

ورِثـــتُ جـــدِّي مَجْـــدَهُ وفَعَالَـــهُ ووَرثـــتَ جـــدَّك أَعْنُـــزاً بالطـــائفِ)

وخرج عنه مغضباً، فلحق بسليمان بن عبد الملك.

وأما اشتغاله بالدباغة فورد أيضاً على لسان الشاعر كعب الأشقري الأزدي في أبيات يهجو فيها الحجاج لما أكثر من استعجال المهلب بي أبي صفرة لمنازلة الأزارقة والقضاء عليهم.ويعلق ابن نباتة على ما قيل من اشتغال الحجاج بالدباغة قائلاً: (**وبعض الرواة ينكر هذا القول، ويقول هذه من أكاذيب الشعراء، ويزعم أن الحجاج لم يزل في كنف أبيه وكان أبوه رجلاً نبيلاً جليل القدر**). ومع ذلك فإن كعباً الشاعر قال بعدما عاتبه

الحجاج على هجائه: (**والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب وما يوردنا المهلب من خطرها أن أنجو منها وأكون حجاماً أو حائكاً.**)

ويُلحظُ أن هذه الحرفة ليست الوحيدة التي عُيِّر بها الحجاج، بل عيِّر أيضاً بأن آباءه كانوا يكتسبون بالطائف بنقل الحجارة وحفر الآبار والمناهل، وهو ما كان يفاخر فيه ولا يدفعه.ومع ذلك فقد تكون هذه الأعمال نسبت إلى الحجاج تجوزاً على عادة العرب أحياناً من نسبة البعض إلى الكل، ولا سيَّما وأن تلك الأعمال كان يزاولها بعض أهل الطائف على سبيل التكسب والرزق.وإذا كان في أعمال الحجاج السابقة اختلاف فإن جُلَّ المصادر تجمع على أنه اشتغل أثناء وجوده في الطائف بالتعليم شأنه في ذلك شأن والده يوسف وأخيه محمد.

وقد نفى ابن خلدون، كما ذكرنا، أن يكون الحجاج أو أبوه قد تكسبا بهذا العمل الذي كان القائمون عليه يشتغلون فيه بدافع التقوى ونيل الثواب؛ إذ لم يكن التعليم في صدر الإسلام والدولتين الأموية والعباسية صناعة يتكسب بها أصحابها، وإنما كان (**نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ.**)

وهذا الرأي لابن خلدون قريب من رأى ابن حبيب البغدادي الذي ذكر الحجاج بن يوسف في عداد أشراف المعلمين وفقهائهم، ويبدو أن توافد عدد كبير من أشراف العرب في الطائف، خلال فصل الصيف خاصّة، جعل كثيراً منهم يرسلون أولادهم إلى أمثال هؤلاء المعلمين ليتعلموا القرآن ويتفقهوا في الدين، يدل على ذلك ما ذكره القزويني من أن الحجاج كان في أول أمره معلماً لوشاقية سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان.

وقد عرفت الطائف عدة مدارس من هذا النوع، وظلت تحتفظ بمكانتها كمركز ثقافي مرموق حتى الدولة العباسية، إذْ كان بعض الخلفاء العباسيين يرسلون مواليهم إليها لتقويم ألسنتهم وتعلم اللغة العربية الفصيحة هناك.وقد استغل خصوم الحجاج اشتغاله بالتعليم، فألصقوا به جميع العيوب التي ألصقت بأصحاب هذه المهنة عامة، وفي

ذلك يقول مالك بن الريب:

فلولا بنو مروان كان ابْنُ يوسفٍ كما كان عَبْداً مِنْ عبيد إِيادِ
زمان هو المقري المقرّ بذلِّه يراوح غلمان القرى ويغادي

وقال شاعر آخر في هجاء الحجاج معرضاً باشتغاله بالتعليم:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك ما يرى وآخر كالقمر الأزهر

يشير بذلك إلى خبز المعلمين الذي كان يحضره الأولاد لهم بمثابة الأجر، وقد يكون الشاعر قد بالغ في القول ونسب إليه أوصافاً لما كان عليه المعلمون في وقت لاحق. وإن كان ذلك لا يمنع من الاعتقاد بأن الحجاج وأباه وأخاه كانوا يتلقون هدايا رمزية تقديراً لجهودهم وأتعابهم ومكانتهم العلمية، وهي مكانة أثرت على كل حال في فصاحة الحجاج وسعة أفقه وحزمه حتى عرف بالحاكم والخطيب.

كانت ثقيف شديدة في شِرْكِها حريصة على معتقداتها، وكانت أقوى القبائل إيماناً وأشدها تمسكاً بالإسلام؛ واستمرت ثقيف في إخلاصها للإسلام والمسلمين والخلافة الإسلامية؛[1] وقد اشتهر منها رجال كانوا رواة للحديث وعلماء في الطب واللغة والحرب والسياسة، وسنلمح إلماحاً سريعاً لبعض تلك الشخصيات ليتم البحث.وكان غائباً عن الطائف حينما حاصرها النبي، فقد كان بجرش يتعلم صناعة الدبابات.[2]

ولما قدم الطائف بعد انصراف رسول الله قذف الله في قلبه الإسلام، فخرج إلى رسول الله في شهر ربيع الأول من سنة تسع للهجرة، فأسلم وسُرّ رسول الله بإسلامه، ثم استأذن رسول الله في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقال له الرسول: إنهم

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير (ت٦٣٠). جـ ٢، ص٢٣١.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٧٣.
(٢) الطبقات الكبرى. ابن سعد أبو عبد الله محمد (ت ٢٣٠هـ). جـ ٥، ص٣٩٦.
والعبر. ابن خلدون، مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٤١.

قاتلوك. فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني،[1] فسار إليهم وأعلن إسلامه، فقتله قومه، وكادت تقع بين بطون ثقيف الحروب لولا أنه تصدق بدمه على قاتله - قبل موته - وعدَّ ذلك شهادة ساقها الله إليه. وبلغ النبي ذلك فقال: **(مثل عروة مثل صاحب "يس" دعا قومه إلى الله فقتلوه.[2])**

الحارث بن كلدة: بن عمرو بن علاج الثقفي. طبيب العرب في وقته، رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطب عن أهل تلك الديار في الجاهلية، وأجاد في هذه الصناعة، وعالج بعض عظماء فارس، فأهدى له بعضهم مع جاريته سمية مالاً كثيراً، وتعلم صناعة العود في فارس أيضاً، وكان له تقدم في النحو.[3]

ولما مرض سعد بن أبي وقاص عاده النبي وأوصاه بأن يعرض نفسه على الحارث، وأوصى كل من كانت به علة أن يعرض نفسه على طبيب العرب، مما يدل على نضوجه وتفوقه.[4]

أبو محجن الثقفي الشاعر: كان في جيش أبي عبيدة الثقفي يوم الجسر، وقد أبدى من الشجاعة الشيء العظيم،[5] وقد تجلت شجاعته ووفاؤه في يوم أرماث. ذلك أنه كان في حبس سعد بن أبي وقاص، فاستأذن امرأة سعد أن تحل قيده ليخرج إلى قتال الفرس، فإن قتل فقد نال الشهادة، وإن سلم رجع ثانية إلى حبسه. فحلت قيده وخرج فقاتل المشركين قتالاً شديداً عجب منه الناس حتى قال بعضهم إنه نصر نزل من السماء إلى

---

(١) الطبقات. ابن سعد. مصدر سابق. جـ ٥، ص٣٦٩. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٩٣.

(٢) الطبقات. ابن سعد. مصدر سابق. جـ ٥، ص٣٦٩. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٩٣. وأُسد الغابة في معرفة الصحابة. ابن الأثير. جـ٣، ص ٤٠٦.

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القفطي جمال الدين أبو الحسن (ت٦٤٦هـ). ص ١١١.

(٤) الطبقات الكبرى. ابن سعد، مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٧١. وإخبار العلماء بأخبار الحكماء. القفطي. مصدر سابق. ص ١١٢.

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ). ص ٢٦٠.

الأرض، وظنه بعضُهم الآخر هاشم بن عتبة الأمير المنتظر من الشام؛ وبعد أن انتهت الموقعة رجع إلى قيده وفاءً بوعده.(١)

ودخل ابنه يوماً على معاوية بن أبي سفيان فقال أبوك الذي يقول:

إذا مِتُّ فادفعْني إلى أَصْلِ كَرْمَةٍ   تُرَوِّي عِظامي بَعْدَ مَوْتي عُرُوقُها

فقال أبي الذي يقول:

لا تسألي النَّاس عن مالي وكَثْرَتِهِ   وسائلي النَّاس عن ديني وعَنْ خُلُقي

القومُ يعلمُ أَنِّي مِنْ سَرَاتِهِمُ   إذا تَطِيْشُ يَدُ الرِّعْدِيْدَةُ الفَرِقُ

قد أَرْكَبُ الهَوْلَ مَسْدُولاً عَسَاكِرُهُ   وأَكْتُمُ السِّرَّ فِيْهِ ضَرْبَةُ العُنُقِ(٢)

والمغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب: أحد دهاة العرب الأربعة.

يُروى أن الشعبي قال: إن معاوية للأناة والحلم، وعمرو للمعضلات، والمغيرة للبديهة، وزياد للصغيرة والكبيرة(٣). ويقول عنه معاوية: إن المغيرة للأمر العظيم. ولي البصرة والكوفة لعمر بن الخطاب، وأقره عثمان ثم عزله، ولما قتل عثمان دخل المغيرة على علي ونصحه نصيحة لو عمل بها لاستقر له الأمر.(٤)

وكذلك نراه يقول لمعاوية بعد استقرار الأمر له، وقد رأى عمرو بن العاص بمصر والمغرب وعبد الله ابنه بالكوفة، تفعل هذا فتكون بين فكي الأسد، فمشورته تدل على العقل الناضج والرأي السليم؛ وقد شهد بيعة الرضوان، وشهد حروب اليمامة وفتوحات الشام واليرموك، وقد ذهبت إحدى عينيه في هذه الموقعة، والقادسية، وكان

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٢١، صص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) الشعر والشعراء. ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ). ص ١٦٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت٤٦٣هـ). جـ١، ص ٢٥٨.

وأسد الغابة في معرفة الصحابة. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٠٦.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ابن عبد البر. مصدر سابق. جـ ١، ص ٢٥٨.

من الصحابة الأجلاء والأمراء النبلاء؛ وهو أول من وضع ديوان الأمراء، وأول من سلم عليه بالإمرة، ولما حضرته الوفاة قال: (**اللهم هذه يميني بايعت بها نبيك وجاهدت بها في سبيلك!**) مات وهو أمير الكوفة في سنة خمسين من هجرته ﷺ؛ وقد رثاه بعض الشعراء.[1]

أبو عبيد بن مسعود الثقفي: أول من لبى نداء عمر بن الخطاب في الخروج إلى العراق؛ ولذا ولاه إمرة الجيش دون من خرج معه من المهاجرين والأنصار؛ وسار حتى لقي الفرس بالنمارق[2]، فهزمهم وأسر في الموقعة جابان قائد الجيش؛ وقد أسره رجل من عامة الجيش وأمنه فوفى أبو عبيد بالأمان ولم يقتله على إلحاح الذين معه بوجوب قتله.[3]

وقد أبدى في يوم الجسر [4]من الشجاعة والبسالة والإخلاص ما جعله في مصاف العظماء، وقد قُتل في ذلك اليوم وأخذ اللواء بعده أخوه الحكم، فقُتل ثم ابنه جبر فقتل، وصارت ثقيف تتداوله حتى قتل منها سبعة في ذلك اليوم[5].

المختار بن أبي عبيد الثقفي: كان طموحاً وقد بدا طموحه من صغره، فنراه يشير على عمه سعد بن مسعود الثقفي أمير المدائن حينما جرح الحسن بن علي في مظلم ساباط- بالمدائن - بدفع الحسن إلى معاوية للتقرب به إليه فأبى عمه. ولهذا عد الشيعة المختار عثمانياً.

---

(١) أسد الغابة. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٠٧.

(٢) النمارق : موضع قريبة من الكوفة

(٣) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٢، صص ٢٩٧، ٢٩٩.
وتاريخ الأمم الإسلامية. الخضري. جـ ١، صص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) الجسر : موضع قريب من الكوفة

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. صص ٢٦٠، ٢٦١. وأسد الغابة. ابن الأثير. جـ ٢، صص ٣٠١، ٣٠٢.

ولما ذهب مسلم بن أبي عقيل إلى الكوفة، كان المختار أحد الذين بايعوه وقد حبسه ابن زياد لذلك، ثم توسط له زوج أخته عبد الله بن عمر فأطلق سراحه، فسار إلى ابن الزبير، واشترط عليه أن يوليه أفضل أعماله وأن لا يقطع أمراً دونه، فأظهر ابن الزبير قبول شروطه، وشهد معه حصار الحصين بن نمير، ولكن ابن الزبير لم يف له بالشرط فتركه[1] وسار إلى الكوفة حينما علم أن الفتنة قد برقت فيها ورعدت، وقبل خروجه أتى محمد بن الحنفية،وأبان له أنه سيخرج للطلب بدم الحسين والانتصار لآل البيت، فلم يأمره ولم ينهه وأوصاه بتقوى الله.

ويروى أنه قال:(**إني لأحب أن ينصرنا ربنا، ويهلك من سفك دماءَنا؛ ولست آمراً بحرب ولا إراقة دم، فإنه كفى بالله ناصراً، ولحقنا آخذاً، وبدمائنا طالباً.**)[2]وقد تذرع المختار بهذه الوسيلة التي أخذها عن المغيرة بن شعبة، ذلك أنه بينما كان المغيرة راكباً بسوق الكوفة وكان معه المختار، فقال المغيرة: (**أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال أقواماً فصاروا له أنصاراً، ثم لا سيما العجم الذين يقبلون ما يلقى إليهم.**) فقال المختار: (**وما هي يا عم؟!!**) قال: (**يدعوهم إلى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم**). فكانت هذه الكلمة في نفس المختار حتى دعا.[3]

وقد استعمل المختار دهاءه في ضم الناس إليه بما وهبه الله من فطنة ودهاء، فإن المختار من دهاة ثقيف، وثقيف من دهاة العرب[4]. وخرج بمن انضم إليه وناوَأ الخلافة الزبيرية، وتغلب على عمال عبد الله بن الزبير بالكوفة، وظفر بأغلب قتلة الحسين، وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير معارك انتهت بقتله في سنة تسع وستين للهجرة. وسَمّر مصعب يد المختار على حائط المسجد الجامع، فلم تزل حتى قدم الحجاج بن

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٢١٤، ٢١٦ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ٥، ص ٢١٤، ٢١٨ .

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ، ٥ ص ٢٢٣ .

(٤) المستظرف من كل فن مستظرف. الأُبشيهي، محمد بن أحمد (ت٦٥٢هـ). جـ ٢، ص ٨٥ .

يوسف العراق، فأمر بها فانتزعت ودفنت.(١)

محمد بن القاسم الثقفي: والي ثغر السند من قبل الحجاج في سنة تسع وثمانين، وقد أخضع في ولايته هذه مكران(٢) وواصل تقدمه في المنطقة المعروفة الآن باسم بلوخستان(٣) وفتح الديبل(٤) والبيرون (حيدر آباد)، واستمر في سيره شمالاً حتى وصل الملتان في جنوب البنجاب(٥)، وكان من نبوغه أن ولي قيادة الجيش وهو ابن سبع عشرة سنة(٦)، فنجح ووفق توفيقاً عظيماً.

وقد أتينا على هؤلاء بشيء من التفصيل لبيان أن عصر صدر الإسلام والعصر الأموي كان مليئاً بالثقفيين من مختلف الطبقات؛ وليس هذا حصراً لمن تقدم في الدولة الإسلامية، فإن غيرهم كثير، فمنهم محمد بن يوسف والي اليمن في عهد عبد الملك بن مروان، وزائدة بن قدامة محارب الخوارج، وأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور الذي كان أمِلَ في أنه سيكون النبي المبعوث، والحكم والي البصرة في عهد الحجاج. وفي الحقِّ أَنَّ ثقيفاً أَخرجتْ لنا رجالاً كانوا مروضين للبدو، ضربوا بسهم وافر في الحرب والسياسة والطب. وبهم فتحت الفتوح ومُصِّرَت المدن، مما يدلنا على مكانة هذه القبيلة، والحجاج أحد هؤلاء الذين أثّروا تأْثيراً كبيراً في التاريخ الإسلامي، وأكبر شخصية في عهد الوليد الأول بلا منازع(٧). ولكن مهما كان من أهمية الطائف كمركز ثقافي واقتصادي بالنسبة للحجاز فقد ظلت هذه البيئة بحكم طبيعتها الضيقة وبعدها عن

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥ من ص ٢٢٥، ٢٥٥ .

(٢) مكران الإقليم الجنوبي بمحافظة سجستان وبلوشسستان في إيران ويطل على بحر عُمان.

(٣) بلوخستان أو بلوشستان إقليم يمتد بين إيران وباكستان وأفغانستان.

(٤) الديبل: مدينة على الضفة الغربية لنهر السند وتعرف الآن باسم بهمور.

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص ٤٤٢، ٤٤٥ .

و الفتوحات الإسلامية. أحمد بن زيني دحلان (ت١٣٠٤هـ). جـ ١، صص ١٨٨، ١٩٠ .

(٦) أسد الغابة. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤ ص ١٣٤ .

(٧) الطائف. هنري لامنس اليسوعي (ت١٩٣٧م). ص ١٢٩.

مركز الخلافة دون الآمال والأماني التي كانت تختلج في نفس الحجاج بن يوسف ويطمح لتحقيقها، فكان لا بد من أن ينتقل إلى دمشق مركز الدولة والجاه والسلطان ليجرب حظه فيها ليبدأ مرحلة جديدة من حياته؛ ويحقق نجاحاً قل نظيره؛ ليغدو الرجل الثاني في الدولة الأموية طيلة ربع قرن من الزمان.

ظهور الحجاج على المسرح السياسي

اتصال الحجاج بالأمويين:

يبدو أن العلاقات الطيبة التي كانت تجمع بين الثقفيين والأمويين قد أوجدت نوعاً من العلاقة بين مروان بن الحكم ووالد الحجاج يوسف بن الحكم بن أبي عقيل؛ مما دفع بيوسف بن الحكم وابنه الحجاج إلى الوقوف إلى جانب الأمويين ضد خصوهم السياسيين منذ عهد يزيد بن معاوية، يذكر صاحب الأغاني رواية تفيد باشتراكهما في موقعة الحرة إلى جانب قوات مسلم بن عقبة المري ضد أهل المدينة.

ويتردد اسم الحجاج وأبيه؛ في خلافة مروان بن الحكم، إذ كانا في الحملة التي قادها مروان نفسه لاستعادة مصر، إذ يقول: (**إن يوسف بن الحكم وابنه الحجاج نزلا على حبيب بن أوس الثقفي مقدم مروان في فسطاط مصر**)؛ ليبقى هو وأبوه نَحْوَ شهرين وهي المدّة التي أمضاها مروان ابن الحكم في توطيد حكمه بمصر، ويذكر أبو المحاسن أن الاثنين خرجا بعد ذلك مع مروان إلى الشام، إلا أن بعض المصادر تذهب إلى أنهما خرجا من مصر في بداية حكم عبد الملك بن مروان؛ وفي بلاد الشام، كان لهما مشاركة فعالة في الحملة التي وجهها مروان بن الحكم إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير، بقيادة حبيش بن دلجة القيني؛ إذْ حمل يوسف والد الحجاج لواء الجيش؛ الذي احتل المدينة ليهزم في الربذة[1] على يد القوات البصرية بقيادة الحنتف بن السجف المساندة لابن الزبير، وقد أورد البلاذري وصفاً مسهباً لهذه الموقعة التي انتصر فيها الحنتف؛

---

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ). جـ ٤ ص ٢٢٢.

استفاد الحجاج من هذه التجربة المريرة في معاركه العسكرية فيما بعد؛ انتهت موقعة الربذة[1] على ما هو معروف بقتل حبيش بن دلجة ووقوع أفراد جيشه بين قتيل وأسير[2]، حتى لم يفلت منه إلا من استطاع النجاة بنفسه كالحجاجبن يوسف ووالده الذي ذكر عوانة بن الحكم أنه أردف ابنه خلفه على جمل واحد، ورجعا مع من نجا من الجيش إلى الشام.

وقد ظل الحجاج بن يوسف يذكر هذا اليوم ويقول: (**ما أقبح الهزيمة، لقد كنت ورجل آخر - يعني أباه - في جيش ابن دلجة، فانهزمنا فركضنا ثلاثين ميلاً.... وإنه ليخيل إلينا أن رماح القوم في أكتافنا**). وفي ذلك يقول توسعة بن ثعلبة بن عكابة:

ونَجَّى يوسفَ الثقفيَّ رَكْضٌ   دَرَاكٍ بَعْدَما سَقَطَ اللِّواءُ
ولو أدركْنَه لقضَيْنَ نحباً   به ولكلِّ مخطأةٍ وقاءُ

وعلى انسحاب الحجاج وأبيه من المعركة فقد أبليا فيها بلاءً حسناً؛ وليس أدل على هذا الدور من رصد مصعب بن الزبير مكافأة مالية لمن يأتي بهما أو بأحدهما، ويرجح أن يكون الحجاج قد توجه قبيل موقعة الربذة إلى بلدة تبالة[3] بتهامة عاملاً عليها من قبل حبيش بن دلجة،فكان ذلك أول عهده بالولاية، إلا أن الحجاج لم ترق له هذه البلدة، لموقعها على ما يبدو، إذ ساءَله دليلُه الذي قال عند اقترابهما منها: ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة، فقال الحجاج: (**لا أراني أميراً على موضع تستره أكمة، أهونْ بها ولايةً**)؛ وكرَّ راجعاً ولم يدخلها فذهب قوله مثلاً، وصار الناس يقولون: (**أهون مِنْ تَبَالَةَ على الحَجَّاج**)[4]، بيد أن البلاذري يذكر رواية أخرى لا يرجحها سبباً لهذا المثل، أن الحجاج أقام يسيراً في تبالة فآذى أهلها واستخف بهم؛ ونجد قولاً آخرَ قريباً من هذه الرواية

---

(١) الربذة : قرية قريبة من المدينة المنورة، دفن فيها الصحابي أبو ذر الغفاري، خربت عام ٣١٩هـ.

(٢) تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي (ت٢٩٢هـ). جـ ٣ ص٣. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٥.

(٣) تبالة : بلدة كانت مشهورة من أرض تهامة، في طريق اليمن، تبعد عن مكة ٥٢ فرسخاً = ٢٨٠ كم.

(٤) سرح العيون. ابن نباتة (ت٧٦٨هـ). ص ١٠٥ .

أورده صاحب جمع الجواهر يذهب إلى أن الحجاج وَلِّي على تبالة أعرابياً، فجمع أهلها وقال: (**إن الأمير أوصاني عليكم والله لا أحسن أن أقضي بين خصمين مرتين، ووالله لا أوتى بظالم و لا مظلوم إلا وضربته حتى أقتله فتناصف الناس بينهم**)، وقد أجمعت المصادر على أن استهانته بهذه الولاية، دل على طموحه وتطلعه إلى احتلال مكانة أرفع في الدولة الأموية.

على أن هذه المكانة لم تبدأ إلا في عهد عبد الملك بن مروان، إِذْ يغلب الظن أن والد الحجاج بن يوسف بن الحكم مهَّد لابنه عند الخليفة حين وفد عليه بدمشق ومعه ابنه الحجاج؛ وقد ورد خبر هذه الوفادة على شكل يوحي بوجود معرفة سابقة بين يوسف بن الحكم وعبد الملك؛ إذ قال يوسف لقاضي مصر آنذاك سليم بن عتر التجيبي: (**إني أريد أن آتي أمير المؤمنين، فإذا كانت لك حاجة فأعلمني**)؛ فقال القاضي: (**نعم حاجتي أن تسأله أن يعزلني من القضاء**)، فأجابه يوسف: (**والله لوددت قضاة المسلمين كلهم مثلك، فكيف أسأله هذا؟!**). ويحتمل أن تكون هذه الوفادة لتهنئة الخليفة بمنصبه الجديد وعرض خدماتها عليه، ذلك أننا نسمع بعدها أن يوسف بن الحكم ولي بعض الولايات لعبد الملك دون أن نعرف شيئاً عن تلك الولايات، كما نسمع أن الحجاج ابنه عين على شرط رَوْح بن زِنْباع وأبان بن مروان عامل الخليفة في فلسطين، بعد أن بذل جهوداً كبيرة حتَّى لفت نظر رَوْح بْنِ زِنْباع نفسه، لاعتقاده أَنَّ ذلك يساعده على تحقيق آماله، وقد كشف عن هذه الحقيقة برده على الخليفة: (**وما جَهْلُ المؤمنين أن متابعة رَوْح بن زِنْباع طريق الوسيلة لمن أراد فوقه، وأن رَوْحاً لم يلبسْني العَزْمَ الذي رَفَعَني به أمير المؤمنين عن خوله، وقد ألصقني بروح بن زنباع همَّةٌ لم تزلْ نواظرُها ترمي بي إلى البعيد وتطالع الأعلام.**)

وقد ساعدت الظروف السياسية الصعبة التي واجهت عبد الملك بن مروان في بداية خلافته إتاحة الفرصة للحجاج للظهور على مسرح الأحداث. وتُحدثنا بعض المصادر أن تخاذلاً ظهر على جانب من تلك القوات حين دعاها عبد الملك بن مروان للخروج

لإخضاع زُفَر بن الحرث الكلابي في الجزيرة تمهيداً لقتال مصعب بن الزبير في العراق. وهنا نفسح المجال لصاحب العقد الفريد ليصور لنا المسرح الذي ظهر عليه الحجاج إِذْ يقول: (**إن عبد الملك بن مروان شكا ما رأى من انحلال عسكره، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله**)، فقال روح بن زنباع: (**يا أمير المؤمنين إن في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله، وأنزلهم بنزوله يقال له: الحجاج بن يوسف**). قال: **فإنا قد قلدناه ذلك**[1]. فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع. فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون، فقال لهم: (**ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين**)، فقالوا له: (**انزل يا بن اللَّخْناء فكُلْ معنا**). فقال: (**هيهات ! ذهب ما هنالك**)، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط، وطوفهم في العسكر.

وأمر بفساطيط روح بن زنباع، فأحرقت بالنار. فدخل روح بن زنباع على عبد الملك باكياً فقال له: (**ما لك؟**) فقال: (**يا أمير المؤمنين، الحجاج ابن يوسف الذي كان في عديد شرطتي، ضرب عبيدي، وأحرق فساطيطي**). قال: (**عليّ به**). فلما دخل عليه قال عبد الملك: (**ما حملك على ما فعلت؟!**) قال :(**ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين**)، قال: (**ومن فعله؟**) قال: (**أنت والله فعلته، إنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطَيْنِ وللغلام غلامين، ولايكسرني فيما قدمني له**).[2] فأخلف عبد الملك لروح بن زِنْباع ما ذهب له، وتقدم الحجاج في منزلته، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٥، ٦ . ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣ ص ٥، ٦. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١ ص ١٥٤.

وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٤ .

وهكذا واتت الحجاج بن يوسف الفرصة فأحسن استغلالها عند رجل كان يبحث عن مثله من الرجال ليعينوه على حمل العبء الثقيل الذي يثقل كاهله، وتكاد تجمع معظم المصادر على أن روح بن زنباع هو الذي قدم الحجاج لعبد الملك وزكّاه. شق الحجاج بن يوسف طريقه بثبات، فكسب ثقة الخليفة الأموي ونال الحظوة لديه وكان الحجاج لا يترك مناسبة تمر دون أن يؤكد هذه الثقة ويظهرها، ويظهر ذلك فيما رواه ابن نباتة من أنه لما طال القتال والحصار بين عبد الملك وزفر بن الحارث الكلابي أرسل عبد الملك رجاء ابن حيوة وجماعة منها الحجاج إلى زفر يدعوه إلى الصلح، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة. فقام رجاء فصلى مع زفر، وصلى الحجاج وحده، فسئل عن ذلك فقال: (**لا أصلي مع منافق خارج عن طاعة أمير المؤمنين**)[1]، فسمع عبد الملك بذلك، فزاد عجباً بالحجاج، ورفع قدره، وولاه بلدة تسمى تبالة، وهي أول ما ولي الحجاج. وإذا كانت رواية ابن نباتة المتعلقة بامتناع الحجاج عن الصلاة مع زفر أمراً ينسجم مع سياسة الحجاج ومراميه، فإن الجانب الأخير من الرواية المتعلق بتولية عبد الملك الحجاج تبالة في هذا الوقت يعد أمراً بعيد الوقوع، لكون الحجاز واليمن آنذاك تحت سيطرة عبد الله بن الزبير. ويؤكد هذا الرأي ما تورده معظم المصادر من أن الحجاج شارك في الحملة التي قادها عبد الملك بعد ذلك مباشرة ضد مصعب بن الزبير في العراق، وهي الحملة التي انتهت بقتل مصعب وعودة العراق إلى الدولة الأموية، إذ عين عبد الملك أخاه بشر بن مروان والياً على ذلك الإقليم؛ يقول المسعودي: (**إن الحجاج بن يوسف كان على مقدمة جيش عبد الملك في هذه الحملة، وقيل على ساقته وإنه أحمد أمره في قيامه بما أُهِّلَ له.**)

وكانتْ هذه الوظيفة التي نهض بها الحَجَّاجُ في تلك الحملة في مقدمة الأسباب التي جعلت عبد الملك يرسله على رأس حملة جديدة ضد عبد الله بن الزبير في الحجاز، إذ كانت البداية الحقيقية لتألق نجم الحجاج على المسرح السياسي لدولة بني مروان.

---

(١) سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٤ .

الحَجَّاج وابن الزبير

أخذ معاوية بن أبي سفيان البيعة لابنه يزيد قبل وفاته سنة ٦٠هـ، إلا أن البيعة لم تكن بإجماع كل الصحابة؛ فبايعه بعضُهم، وامتنع آخرون عن مبايعته؛ وكان في جملة هؤلاء الممتنعين الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير اللّذان خرجا من المدينة وأقاما في مكة، إلا أن والي المدينة الأموي عمرو بن سعيد شعر بخطرهما، فوجه إليهما جيشاً بقيادة عمرو بن الزبير الذي انشق على أخيه عبد الله بن الزبير الذي تصدى هو وجماعة من أهل مكة لهذا الجيش، وهزمه وسجن قائده وعذبه، عظم شأن ابن الزبير في الحجاز، واشتد أمره وذاع صيته، إلا أن مكانته ظلت دون مكانة الحسين بن علي، وبخروج الحسين بن علي من مكة إلى العراق ومقتله في كربلاء عام ٦١هـ =٦٨٠م تطورت الأحداث في صالح ابن الزبير الذي قاد المعارضة ضد بني أمية في الحجاز، واتخذ من مكة ملاذاً له واعتصم بها رافضاً إعطاء البيعة إلى يزيد بن معاوية، وراح يظهر مساوئ بني أمية.

شجع موقف ابن الزبير أهل المدينة على الثورة على الحكم الأموي، فنقضوا بيعتهم ليزيد، وأخرجوا بني أمية من المدينة إلى بلاد الشام؛ وشعر يزيد بتفاقم خطر المعارضة في الحجاز، فوجه إليهم حملة بقيادة مسلم بن عقبة المري الذي هزم أهل المدينة في وقعة الحرة عام (٦٣هـ = ٦٨٢م)، وأخضع أهلها، وتوجه بعد ذلك لإخضاع تمرد عبد الله بن الزبير في مكة إلا أنه توفي في الطريق، فعهد بقيادة الجيش الأموي من بعده للحصين بن نمير الذي ضرب الحصار على مكة، وشرع في مهاجمتها، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار والعودة ثانية إلى بلاد الشام إثر وفاة يزيد بن معاوية في دمشق.اغتنم عبد الله بن الزبير فرصة الفوضى السياسية التي أعقبت اعتزال معاوية الثاني الخلافة، والفراغ الذي أحدثه شغور هذا المنصب، فبادر إلى إعلان نفسه خليفة في مكة عام ٦٤هـ =٦٨٣م، ونادى بالعودة بقواعد الحكم إلى الشورى؛ إذ روي عنه قوله أنَّه خرج (**غضباً لله ورسوله والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه يزيد بالفيء، وإنه لم يرد إلا الإصلاح وإقامة الحق**).

وقد استهوت هذه الدعوة معظم أهل الحجاز الذين وجدوا فيها محاولة جادة لإعادة مركز الثقل السياسي الممتاز إلى بلادهم كما كان الحال في عهد الدولة الإسلامية في المدينة.كما استهوت دعوة ابن الزبير كثيراً من أنصار النهج الراشدي ومن الزعماء القيسيين ممن عرفوا آنذاك باسم الزبيرية الذين كانوا منتشرين في معظم أرجاء الدولة الإسلامية بما في ذلك إقليم الشام نفسه حيث عرف من أنصارهم هناك الضحاك بن قيس الفهري ونائل بن قيس الجذامي والنعمان ابن بشير الأنصاري وزفر بن الحارث الكلابي. ولا شك أَنَّ عدداً مِنَ الزُّعماء القيسيين انضموا إلى جانب ابن الزبير خوفاً من استمرار النفوذ اليمني المتمثل في حسان بن مالك بن بحدل الكلبي الذي كان من أشد أنصار بني أمية.ومهما يكن من أمر فإن معظم الأقاليم الإسلامية بايعت ابن الزبير، وكادت الجماعة الإسلامية تجمع عليه لولا قيام أنصار بني أمية بإعادة الحكم لبني أمية ومبايعة مروان بن الحكم خليفة في دمشق.

وقد تميز الصراع الدامي الذي جرى على أرض العراق والحجاز بالعنف والشدة، لما أبداه الطرفان من دفاع مستميت عن معتقداتهما. وزاد من قوة ابن الزبير بالإضافة إلى شخصيته ومكانته بين الصحابة والتابعين سيطرته على الأماكن المقدسة في الحجاز، إذ تقام شعائر الحج التي تشترك فيها سنوياً أعدادٌ كبيرة من المسلمين من جميع الأقاليم والأمصار. وكان عبد الله بن الزبير يغتنم هذه المناسبة، ويأخذ البيعة منهم لنفسه دون الخليفة الأموي وهو أمر جعل الأمويين يتخذون كلّ الوسائل للقضاء على دعوة ابن الزبير في الحجاز.وقد لجأ الأمويون إلى وسيلتين لتحقيق هذا الهدف: الوسيلة الأولى محاولة فرض الحصار على الحجاز. وأما الوسيلة الثانية فهي اللجوء إلى القوة المسلحة لتأكيد سيطرتهم على الأقاليم التابعة لابن الزبير تمهيداً للقضاء عليه في عقر داره في الحجاز.

ولا بد أن الخلفاء الأمويين ومؤيديهم أخذوا يبثون دعاوى في صفوف أنصارهم تظهر ابن الزبير بمظهر المتمرد العاصي، وتؤلب قلوبهم عليه، كما استخدموا وسائل

الإغراء المالي والأماني والوعود الخلابة لتحويل أتباع ابن الزبير عنه واستقطابهم كما فعل عبد الملك خلال حملته المعروفة على العراق واتصاله برجال مصعب بن الزبير وهو الإقليم الذي كان يستمد منه المال والرجال.

الحملات الأموية على الحجاز:

سبقت حملت الحجاج على الحجاز حملات مماثلة لم تنجح في تحقيق أهدافها الكاملة وإن كانت قد أنهكت قوى عبد الله بن الزبير، وأكدت تصميم الخلفاء الأمويين على القضاء على دعوته.ففي عهد يزيد بن معاوية أرسلت الحملة المشهورة بقيادة مسلم بن عقبة المري الذي احتل المدينة تاركاً أمر مكة من بعده إلى الحصين بن نمير الذي آثر الرجوع بجيشه إلى بلاد الشام بعدما ترامى إليه نبأ وفاة يزيد.وعندما تولى مروان بن الحكم الخلافة الأموية أرسل حملة ثانية إلى الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة وأبوه في عداد أفرادها، ولم توفق كما أسلفنا في إتمام مهمتها، ولكن مروان انتزع من دولة ابن الزبير مصر تاركاً مهمة القضاء على الدعوة الزبيرية إلى ابنه عبد الملك بن مروان.

ويذكر البلاذري أن عبد الملك لما بويع بالخلافة أرسل عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام إلى المدينة وأمره ألاّ ينزل على أحد وألاّ يدخل المدينة نفسها وأن يعسكر خارجها.

فكان ابن أنيف يدخل المدينة فيصلي الجمعة بالناس، ثم يعود إلى معسكره، وظل على هذه الحال شهراً لا يبعث ابن الزبير لهم أحداً ولم يلقوا كيداً إلى أن أمرهم عبد الملك بالعودة إلى بلاد الشام.ويبدو أن هذه الحملة كانت بمثابة حملة استطلاعية استهدفت معرفة القوة الحقيقية لابن الزبير في الحجاز.

بعث عبد الملك بن مروان بحملة ثانية إلى الحجاز بقيادة عبد بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف، فبلغت وادي القرى، إلا أنها لم تحقق نجاحاً كبيراً، إذ قتل عدد من أفرادها في وقت لاحق على يد القوات الموالية لابن الزبير؛ ولم يكتف عبد الملك بن مروان بذلك، بل وجه طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان ﷺ على رأس قوة عسكرية

للمرابطة بين أيلة ووادي القرى ليمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، ويحفظ ما بينه وبين الشام، ويسد خللاً إن ظهر له على حد قول البلاذري، وقد هدف عبد الملك من ذلك حماية بلاد الشام من أي غزو لها قد يفكر به ابن الزبير، وضرب حصاراً عليه في الحجاز، نجح طارق بن عمرو في الإيقاع بجيشين لابن الزبير أحدهما حجازي بقيادة أبي بكر بن أبي قيس والآخر بقيادة رجل من البصرة، وعلى ما أحدثته هذه الحملات من إضعاف قوة عبد الله ابن الزبير في الحجاز لم تحقق نجاحاً حاسماً، وتبين لعبد الملك من خلالها أنه لا بد للقضاء على ابن الزبير في الحجاز من استعادة العراق الذي كان عماله الزبيريون يمدون الحجاز بالجيوش والأموال، لصد الحملات الأموية؛ مما جعل عبد الملك بن مروان يقود حملة العراق بنفسه، والتي انتهت بمقتل مصعب بن الزبير. أدى نجاح حملة العراق إلى زعزعة قوة ابن الزبير، ليصبح الطريق ممهداً إلى الحجاز، أمام الحجاج بن يوسف، فقد اختير لقيادة حملة الحجاز والقضاء نهائياً على عبد الله بن الزبير ودعوته.

ويعود اختياره للحجاج إلى عدة أسباب أهمها:

أولاً ـ ظهور كفاءة الحجاج القيادية في ضبط الجيوش وتوجيهها للقتال، مما جعله موضع تقدير وثناء من قبل عبد الملك.

ثانياً ـ إدارك عبد الملك أن مصير عبد الله بن الزبير أصبح في حكم المقرر بعد أن فقد جميع الأقاليم والأمصار التي كانت تمده بالمال، والرجال وأن الأمر ليس من الخطورة على نَحْوٍ يستدعي ذهابه بنفسه إلى الحجاز.

ثالثاً ـ عدم رغبة عبد الملك في البقاء مدة طويلة بعيداً عن بلاد الشام موضع قوته وتخوفه من احتمال قيام عصيان آخر عليه في دمشق كما فعل عمرو بن سعيد خاصة وأن اليمانية هناك كان هواها مع خالد بن يزيد.

رابعاً ـ معرفة عبد الملك بطبيعة خصمه عبد الله بن الزبير، وأنه لا يمكن أن يستسلم بسهولة، وأن الأمر لا بد أن ينتهي بحصاره وقتله والتضييق على أهل المدينة ومكة فأراد ألاَّ يقلد نفسه هذه المهمة التي ستؤثر في سمعته بين المسلمين، فضلاً عن أنه كان

شخصية معروفة لكثير من أهل الحجاز .فأراد أن يقلد رجلاً من غير بني أمية للقيام بهذا العمل، فاختار الحجاج، الذي بدأت النقمة عليه منذ اضطلاعه بهذه المهمة.

وأخيراً، فإن المصادر تحدثنا أن عبد الملك بن مروان ندب الناس بعد أخذه العراق وقتله مصعباً إلى قتال عبد الله بن الزبير، وأن الحجاج بن يوسف تقدم من الخليفة الأموي وقال له: **(أنا له يا أمير المؤمنين)، فقال له عبد الملك: (أنت له، فاخرج إليه!).**

ويذكر صاحب كتاب الأخبار الطوال أن عبد الملك جهز الجيوش بعد فراغه من مصعب لمحاربة عبد الله بن الزبير، وأنه عهد بالقيادة إلى قدامة بن مظعون قبل الحجاج بن يوسف.ثم ما لبث أن وجه الحجاج لهذه المهمة، وعزل قدامة دون أن يذكر سبباً لذلك.

وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج خرج من العراق عام ٧٢هـ =٦٩١م على رأس قوات شامية قاصداً الحجاز. إلا أن هذه المصادر تختلف في تقدير عدد هذه القوات التي رافقت الحجاج في حملته. فابن عبد ربه يقدرها بألف وخمسمئة رجل، في حين يروي ابن سعد أن عددها ألفان، وقد لاحظ الواقدي اختلاف الروايات فقال في رواية أوردها صاحب أنساب الأشراف: لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، وأتى الكوفة وجّه منها الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير في ألفين[1]، ويقال في ثلاثة آلاف[2]، ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام، وذلك في سنة اثنتين وسبعين. ويبدو أن اليعقوبي المعروف بنظرته السلبية للأمويين قد استغل هذا العدد فزاده إلى عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم. وأضاف إليه السيوطي عشرين ألفاً آخرين، فصار جيش الحجاج أربعين ألفاً.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري.أبو جعفر محمد (ت٣١٠هـ). جـ ٥ ، ص ٢٠. والطبقات لابن سعد. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٩. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٤٨.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٣٧. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٤٨.

وقد لا يخلو مثل هذا الرقم من مبالغة ولا سيَّما أن عبد الملك كتب إلى طارق بن عمرو الذي كان يرابط في شمالي الحجاز يأمره باللحاق بالحجاج، فسار في أصحابه، وعددهم خمسة آلاف رجل، إذ انضم إلى قوات الحجاج، كما أن عبد العزيز بن مروان وجه حملة بحرية من مصر إلى الحجاز ضمت ثلاثة آلاف رجل لمعاونة الحجاج في مهمته، وأغلب الظن أن قوات الحجاج لو كانت تضم أصلاً أربعين ألف رجل ما احتاج لكل هذه الإمدادات، ولا سيَّما إذا علمنا أن الحجاز نفسها لم تكن في ذلك الوقت مركزاً لتجمع القوى البشرية بعد أن هاجر عدد كبير منها إلى الأقاليم و الأمصار.

ويرجح أن الحجاج خرج من العراق على رأس بضعة آلاف من الجند الشامي الذي كان برفقة عبد الملك، وأن الخليفة أمده لذلك في وقت لاحق ببضعة آلاف أخرى من القوات الأموية المرابطة في شمال الحجاز ومصر، وعلى الصعوبة في تحديد القوات التي اجتمعت تحت إمرة الحجاج في الحجاز لاختلاف المصادر في تحديدها، إنَّها لم تكنْ كافيةً لتحقيق أهداف الحملة الحجازية. ويحدثنا الطبري وابن الأثير أن عبد الملك ابن مروان كتب أماناً لابن الزبير ومن معه أن دخلوا في طاعته وأرسله مع الحجاج. كما أورد البلاذري رواية لعوانة بن الحكم تفيد أن عبد الملك زود الحجاج قبل مسيره إلى الحجاز بتعليمات أشار عليه بها ابن الهيثم بن الأسود النخعي عندما قال له: (**يا أمير المؤمنين أوص هذا الغلام الثقفي بالكعبة، وأمره ألاَّ ينفر أطيارها، ولا يهتك أستارها، ولا يرمي أحجارها، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج عنها مخلوعاً**)[1]. فقال عبد الملك للحجاج: (**افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف**). بهذه التعليمات الواضحة سار الحجاج إلى الحجاز عن طريق العراق ومعه بضعة آلاف من جند الشام، وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٢هـ=٦٩١م، فلم يعرض للمدينة ولا طريقها وسار على الربذة حتى أتى الطائف في شعبان ٧٢هـ =يناير٦٩٢م

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. جـ ٥، ص ٣٥٧.

وأقام هناك نحو شهرين يبعث البعوث إلى عرفة ويبعث ابن الزبير إليه أصحابه فيقتتلون هناك.

اتخذ الحجاج من الطائف قاعدة حربية له لمناعتها وموقعها الاستراتيجي استجابة لطلب الخليفة الذي أدرك أهمية موقعها ومعرفة الحجاج التامة فيها، بالإضافة إلى ولاء أهلها للأمويين .ومع اقتراب موسم الحج؛ بدأت مخاوف الحجاج من ازدياد قوة ابن الزبير، والتفاف حجاج بيت الله الحرام حوله؛ من قيام عبد الله بشن هجوم على قوات الحجاج لإخراجها من الحجاز؛ فأرسل إلى عبد الملك يستأذنه في قتال ابن الزبير ودخول الحرم[1]، قائلاً: (**إلى متى تدع ابن الزبير وتكف عنه، ولا تأمر بزحمه ومصادمته؟ فأذن لي في قتاله ومناجزته!**).

وبناءً على ما تقدم كتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره بمن معه بالحجاج فسار متوجهاً إلى المدينة في خمسة آلاف رجل من أصحابه، فسيطر عليها بسهولة، وأخرج عامل الزبير منها وصيَّر عليها رجلاً من أهل الشام يقال له ثعلبة، وواصل سيره للالتحاق بقوات الحجاج؛ ويقول صاحب الإمامة والسياسة أن عبد الملك جعل يرسل الجيوش إلى الحجاج رسلاً حتى توفّر من الناس عنده قدر ما يظن أنه يقدر على قتال عبد الله بن الزبير؛ ويحتمل أن يكون عبد الملك قد كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان في مصر في هذا الوقت لإرسال نجدة إلى الحجاج، حيث تذكر المصادر أن هذه النجدة التي تضم ثلاثة آلاف رجل قد أبحرت من مصر إلى الحجاز عام ٧٢هـ؛ ولما تكاملت قوات الحجاج في الطائف أصدر إليها أمراً بالتجهز للحج، ولكنه أبقى بضعاً منها في حالة تأهب؛ مجهزةً بأدوات الحصار وآلات المنجنيق، وجعلها تتقدم مسيرته، وذلك استعداد

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٥٧ . وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ٢٠. العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٣٧ . وفوات الوفيات. ابن شاكر. جـ ٥، ص ١٠.

والخميس في أحوال أنفس النفيس. الديار بكري (ت٩٦٦هـ). جـ ٢، ص ٣٠٤.

للطوارئ

ويبدو أن الحجاج هدف من وراء دخوله مكة مع أصحابه حجاجاً، إحراج ابن الزبير؛ فجعل من رفضه إدخالهم حجة عليه ليستخدموا السلاح لإرغامه على الدخول في الطاعة. وتذكر المصادر أنه بنزول الحجاج بقواته بئر ميمون في منى [1] مطلع ذي القعدة عام ٧٢هـ بدأ حصار مكة. وهنا عرض الحجاج على ابن الزبير الأمان وبذل له العرض، فأبى أن يقبله؛ بدأ الحجاج بتشديد الحصار على ابن الزبير محاولاً احتلال جبل أبي قبيس المطل على مكة لينصب آلات المنجنيق فوقه. ويختلف المؤرخون في تحديد الوقت الذي بدأ فيه بقصف مكة بحجارة المنجنيق؛ فعوانة بن الحكم يرى أن القصف كان قبيل موسم حج عام ٧٢هـ، ليقول: فلما هبطوا إلى منى رأى من في عسكر الحجاج المنجنيق منصوبة على جبل أبي قبيس.

ويذكر البلاذري رواية أخرى للواقدي تؤيد ما جاء في الرواية الأولى، وهي أن عبد الله بن عمر الذي حج في تلك السنة طلب إلى الحجاج أن يكف عن الرمي بالمنجنيق؛ لأن حجارتها منعت الناس من الطواف، فكف الحجاج عن الرمي حتى قضى الناس ما يجب عليهم بمكة من مناسك الحج، وخرجوا منها إلى مِنى وعرفة.

ويُلحظ أن الطبري لم يورد في حوادث سنة ٧٢هـ من الروايات ما يدل على أن الحجاج قصف مكة في بداية موسم الحج، بل أورد روايةً للواقدي في هذه السنة يقول صاحبها: (**حججت سنة اثنتين وسبعين فقدمنا مكة، فدخلناها من أعلاها، فنجد أصحاب الحجاج وطارق في ما بين الحجون إلى بئر ميمون، فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم حج بالناس الحجاج فرأيته واقفاً بالهضبات من عرفة على فرس، وعليه الدرع والمِغْفر، ثم صدر، فرأيته عدل إلى بئر ميمون، ولم يطف بالبيت وأصحابه متسلحون**)؛ وليس في هذه الرواية ذكر للرمي من أبي قبيس ورؤية الراوي مجانيق على جبال مكة، وإلى ذلك يذهب ابن كثير ويكاد يصرح بمثل ذلك صاحب الإمامة

(١) منى : قرية بشرقي مكة من أماكن الحج.

والسياسة إذ يقول: (**إن الحجاج سار من الطائف، فنزل منى، فحج بالناس وعبد الله بن الزبير محصور بمكة، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ونواحي مكة كلها فرمى أهل مكة بالحجارة**).

وبالعودة إلى وصية عبد الملك بن مروان، التي يوصي الحجاج بها خيراً بالكعبة وأخذه على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها حتى يموت جوعاً أو يخرج عنها مخلوعاً، استبعدنا نصب الحجاج للمنجنيق على جبل أبي قبيس وضرب الكعبة ومكة بالحجارة للمرة الثانية من دخول مكة؛ ويرجح أن وساطة عبد الله بن عمر في وقف القصف تمت في هذا الوقت، وقد أشار إلى ذلك بوضوح ابن الأثير بقوله: (**حج ابن عمر تلك السنة، فأرسل إلى الحجاج: أن اتق الله، واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شهر حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً**[1]**؛ وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة، فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسَعَوا. ولم يمنع ابن الزبير الحاجّ من الطواف والسعي. فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج: انصرفوا إلى بلادكم، فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير**).

وهكذا توقف القصف فترة حتى أتم الناس باقي مناسك الحج، وأدى المسلمون فريضتهم، ويذكر ابن كثير أن الحجاج كان معه خمسة مجانيق، وأنه ألح على مكة بالرمي من كل مكان، وحبس عنها الميرة والماء، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة والحجاج يصيح بأصحابه: (**يا أهل الشام الله الله في الطاعة!!**)، فيشتد حملهم على قوات ابن الزبير.

ويحدثنا المسعودي أن الحجاج كتب بعد أن تم له حصر ابن الزبير كتاباً إلى عبد الملك يخبره بالوضع العسكري لقواته ويقول: (**إني قد ظفرت بأبي قبيس**)، فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمكة والظفر بأبي قبيس، فكبر عبد الملك ومن معه في

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٣٨.
وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٧٦.

داره، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق، فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر، فقيل لهم: (**إنَّ الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبي قبيس**)، فقالوا: (**لا نرضى حتى يحمله إلينا مكبلاً على رأسه برنُس على جمل يمر بنا في الأسواق**).

ومهما كان نصيب هذه الرواية من الصحة فإنها تدل على أن الحجاج لم يحتل جبل أبي قبيس بسهولة، وأن احتلاله لهذا الجبل الاستراتيجي رجح الكفة نهائياً إلى جانب الجيش الأموي مما جعل الخليفة بدمشق وأنصاره يبتهجون دلالة على اقتراب النصر والظفر.

طالت مدة حصار الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير في مكة، وتختلف المصادر في تحديد مدة هذا الحصار، فيذكر بعضها أن الحصار امتد أكثر من سبعة شهور، من مطلع ذي القعدة عام ٨٢هـ إلى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ. وهو ما نرجحه لأن فترة الحصار الأخيرة كما تقول المصادر كانت وقت أمطار ورعود وصواعق مما يؤكد أن الفصل كان شتاء. نتج عن طول فترة الحصار ازدياد قوة الحجاج وضعف قوى ابن الزبير، إذ كانت المؤن والإمدادات لا تنفك ترد على الحجاج من دمشق مما عزّز قوته ورفع معنويات جنوده.

ويروي الواقدي عن شاهد عيان (**أنه رأى الطعام عند جند الحجاج كثيراً، وشاهد القوافل تأتي من الشام محملة بالمؤن كالكعك والسويق والدقيق**،[1] - **ويضيف قائلاً** - : **رأيت أصحابه مخاصيب، ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم، فكفانا إلى أن بلغنا الجحفة وإنا لثلاثة نفر**).

ومِنْ ثَمَّ اختلف الوضع بالنسبة إلى ابن الزبير، فلقد أدّى طول الحصار إلى نقص المؤن وارتفاع كبير في الأسعار حتى بيعت الدجاجة كما يقول الواقدي بعشرة دراهم ومُدّ الذرة بعشرين درهماً؛ في الوقت الذي كانت فيه مستودعات ابن الزبير مملوءة قمحاً

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصر سابق. جـ ٥، ص ٢١ والمنتقى في أخبار أم القرى. الفاكهاني. عمر بن علي بن سالم اللخمي (ت٧٣٤هـ). ص ٢٥ . و العبر في ديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون . مصدر سابق. جـ ٣، ص ٣٨ .

وشعيراً وتمراً لا ينفق منها إلا ما يسد الرمق حتى لا تنضب فتضعف نفوس أصحابه. فتراجعت الأحوال ولا سيّما أن مكة تعتمد في اقتصادها على ما يرد إليها من الأقاليم ومصر.

وزاد من ضعف جبهة ابن الزبير أنه لم يحسن الإفادة من مدّة الهدنة التي قبلها الحجاج بعد وساطة عبد الله بن عمر، وذلك عن طريق استمالة عدد كبير من الحجاج الذين دخلوا مكة لاستكمال مناسك الحج. فقد وفدت على ابن الزبير جموع من الناس ليقاتلوا معه إعظاماً للبيت وحرمته، فيهم قوم من الأعراب لم يكونوا كاملي السلاح، وطلبوا إليه أن يعينهم على قتال القوات الأموية، إلا أن ابن الزبير ردهم عنه و نفرهم منه وقال لهم: (**يا معشر الأعراب لا قربكم الله! فوالله إن سلاحكم لرث، وإن حديثكم لغث، وإنكم لعيال في الجدب وأعداء في الخصب**). وكان عبد الله بن الزبير قد اتخذ موقفاً مماثلاً عندما رفض مساعدة جماعة من الخوارج يبغضون عثمان، وقال: (**والله ما أحب أن أستظهر على عدوي بمن يبغض عثمان، ولا بأن ألقى الله إلا ناصراً له**)، وجعل يماكرهم حتى تفرق الخوارج عنه، فأدى ذلك كما يقول الواقدي إلى اختلال عسكره وتراجع قواته وتقدم عدوه منه حتى قاتله في المسجد؛ يضاف إلى ذلك تراجع جماعة الأحباش الرماة القادمة من الحبشة للقتال مع ابن الزبير أمام جند الشام.

لم ينفك الحجاج حتى في فترة اشتداد الحصار عن توجيه النداءات السلمية إلى عبد الله بن الزبير وأصحابه يستميلهم فيها عارضاً عليه أمان عبد الملك بن مروان والدخول في طاعته.فكان ينادي عبد الله بن الزبير قائلاً: (**ويلك يا بن ذات النطاقين اقبل الأمان وادخل في طاعة أمير المؤمنين**). ثم يوجه نداءه إلى الناس: (**علام تقتلون أنفسكم؟ من خرج إلينا فهو آمن لكم عهد الله وميثاقه وفي حرم الله وأمنه.ورب هذه البنية لا أعذر بكم ولا لنا حاجة بدمائكم**).

ويرى بعض الباحثين أن الحجاج بن يوسف اتبع مع ابن الزبير وأصحابه الأسلوب نفسَه الذي اتبعه عبد الملك مع مصعب أخيه في العراق عندما راسل أصحابه الأمان

ومناهم ليفرقهم من حوله. ولم يغفل الحجاج وهو يعرض على أصحاب ابن الزبير الأمان والأماني أن يستنهض همم أصحابه، ويقوي روحهم المعنوية، ويعظم عندهم أمر الخلافة وطاعة الخلفاء. فكان يقول: (**يا أهل الشام! الله الله في طاعة إمامكم! فيشتدون الشدة الواحدة جميعاً**).

وتصور لنا المصادر الأيام الأخيرة من حصار عبد الله بن الزبير، إذ اشتد رمي مكة بخمسة من المجانيق من كل مكان، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة حتى ارتجت ووَهَتْ. ويروى أن صاعقة وقعت آنذاك على واحد من المجانيق فأحرقته، وقتلت اثني عشر رجلاً من رماته من أصحاب الحجاج، فذعر جند الشام، وكفوا عن القتال ظناً منهم على ما يبدو أن ذلك علامة على نقمة الله عليهم. ليبادر الحجاج إلى تبديد هذه المخاوف ويقف في جنده خطيباً ويقول: (**أنا ابن تهامة وهي بلاد كثيرة الصواعق**[1]**، فلا يروعَنَّكم ما تَرَوْن**).

ولم يكتف بذلك، بل رفع أطراف قبائه، وغرزها في حزامه، وأتى بمنجنيق آخر، وعاود الرمي، وأمر أصحابه أن يفعلوا مثله. وتشاء المقادير أن تنزل صاعقة في اليوم التالي على بعض أصحاب ابن الزبير، وتقتل عدداً منهم مما أكد صدق قول الحجاج لأصحابه بأن تلك الصواعق ظواهر طبيعية تألفها تهامة، لينبري لهم قائلاً:(**إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم، وإنهم يصابون وأنتم على الطاعة، وهم على خلاف الطاعة**).[2]

ويصور ابن عساكر حالة الضعف التي كان عليها الجنود الزبيريون المرابطون في المواقع المهمة بأنهم كانوا يتناوبون على أعمال الحراسة الليلية (**وهم على ذلك مبلوغون من الجوع ما لا يقدر الرجل يقاتل ولا يحمل السلاح لما به من ضعف**). وهنا أَيقن أصحاب عبد الله بن الزبير أنهم لا بد هالكون عن آخرهم إذا استمروا في القتال فإما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٠. وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٦٨.

يلاقون حتفهم في ميدان المعركة وإمّا يموتون جوعاً.

فقرر معظمهم قبول الأمان الذي ما انفك الحجاج يعرضه عليهم منذ بداية الحصار. وتقدر المصادر عدد الذين خرجوا إلى الحجاج من أهل مكة ليؤمنهم بنحو عشرة آلاف شخص بينهم بعض أفراد أسرة ابن الزبير نفسه، منهم أخوه عروة بن الزبير وابناه حمزة وخبيب، وقد وفى لهم الحجاج بالأمان. وشجعت هذه البادرة عدداً آخر من أصحاب ابن الزبير على انتهاج السبيل نفسها. ويورد صاحب الإمامة والسياسة رواية تصور واقع الاستسلام الذي ظهر على أنصار ابن الزبير في الساعات الأخيرة من القتال، تقول الرواية: فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم: **(ما ترون؟)**

فقال رجل منهم من بني مخزوم: **(والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لنا ولك، وإما أن تأذن لنا فنخرج)**... فقال رجل آخر: **(اكتب إلى عبد الملك!)**، فقال له عبد الله: **(وكيف أكتب إليه: من عبد الله أبي بكر أمير المؤمنين، فو الله لا يقبل ذلك مني أبداً،أم أكتب إليه: لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير، فو الله لأَنْ تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك)**.

قال أخوه عروة: **(يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة... فقال عبد الله: من أسوتي؟ قال: الحسن بن علي بن أبي طالب؛ خلع نفسه وبايع معاوية)**.فرفع عبد الله رجله، وضرب عروة حتى ألقاه، ثم قال: **(يا عروة قلبي إذن مثل قلبك، والله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلاً وقد أخذت الدنية، وما ضربةٌ بسيفٍ إلاَّ مثلُ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ، لا أقبلُ شيئاً مما تقولون)**.

أَدَّى هذا الموقف المتشدد اليائس بالكثير من أصحاب ابن الزبير إلى الخروج إلى الحَجَّاج بن يوسف طالبين الأمان.ويبدو أن الحجاج حاول استخدام عروة في إقناع أخيه بقبول الأمان وإنهاء عصيانه وإن هذه المهمة لاقت قبولاً واستحساناً من عروة

لإنقاذ أخيه من موت محقق.

ويقول المسعودي: (**إنَّ عروة خرج إلى الحجاج ورجع إلى أخيه وقال له: هذا خالد بن عبد الله بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك وأن تنزل أي بلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه وغير ذلك من الكلام، فأبى عبد الله قَبُولَ ذلك**).

كذلك عرض عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ابن الزبير قبيل مقتله أن يخرج إلى الحجاج ليأخذ له أماناً فأبى. ويبدو أن عبد الله بن الزبير أخذ يراجع موقفه في الساعات الأخيرة ومال إلى قبول الأمان، فأخذ يحدث ابنه الزبير على أخذ الأمان كما فعل أخواه، كما دخل على أمّه أسماء بنت أبي بكر وقال لها:(**يا أمة خَذَلَني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير مِمَّنْ ليس عنده مِنَ الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟!**) فقالت: (**أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكنْ مِنْ رقبتك يتلعَّبُ بها غلمانُ بني أمية، وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنتَ. أهلكْتَ نفسَك وأهلكْتَ مَنْ قُتِلَ مَعَك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فليس هذا فِعْلَ الأحرار ولا أَهل الدنيا. وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن**). بهذه الكلمات ثبتت أسماء موقف ابنها، وخرج من عندها مصمماً على القتال مدركاً مصيره المحتوم.

وهنا أدرك الحجاج قرب نهاية عبد الله بن الزبير، فخطب في أصحابه بقوله: (**هذا الفتح قد حضر، وقد ترون خفة من ابن الزبير من الرجال وقلتهم وما فيه أصحابه من الضيق والجهد، ففرحوا واستبشروا وملؤوا ما بين الحجون إلى الأبواب**)[1].

حصر ابن الزبير داخل الحرم المكي حيث أقام الحجاج رجالاً يقودهم قائد من بلاد مختلفة على كل باب من أبواب المسجد. مستهدفاً إشراك جميع أهل الأمصار في دم ابن

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٣٧٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣ ص ٣٨.

الزبير حتى يصعب على قومه أن يثأروا له.أظهر عبد الله بن الزبير شجاعة فائقة في قتال جند الشام إلا أن شجاعته مع قلة أصحابه لم تغن عنه شيئاً، وانتهى الأمر بأن رماه رجل من السكون بآجرة فأصابته في وجهه فوقع، وتولى قتله رجل آخر من مراد واحتز رأسه، وأتى به الحجاج، فسجد وأوفد الرجلين إلى عبد الملك فأجازهما، وزاد في عطائهما وكان ذلك في ١٧ جمادى الأولى[١] عام ٧٣هـ، وبذلك قضى الحجاج على أكبر خطر حقيقي واجهته الدولة الأموية، وظل يتصدّى لأعدائها زهاء عشر سنين.

حدت جسامة الخطر بالحجاج إلى إرسال رأس عبد الله بن الزبير ورؤوس عدد من كبار أعوانه إلى المدينة، ومنها إلى دمشق لتكون عبرة لكل من قد تحدثه نفسه بالخروج على الخليفة الأموي وسلطانه، وهو تقليد كان متبعاً في ذلك العصر حتى يصدق الناس أخبار القضاء على أصحاب الفتن والثورات، ولم يكتف الحجاج بذلك، بل أمر بصلب جثة ابن الزبير.[٢]

أما بالنسبة إلى والدة ابن الزبير؛ فقد روى عوانة بن الحكم أن الحجاج بعث بعد صلبه ابن الزبير إلى السيدة أسماء لتأتيه فأبت، وقالت لرسوله: **(قل لابن رغال[٣] لست أفعل)**. فذهب الحجاج إليها وسألها كما تزعم الرواية:**(كيف رأيت ما صنعت بطاغيتك؟)** قالت:**(من عنيت؟!)** قال:**(عبد الله)** قالت: **(رأيتك أفسدت عليه دنياه،**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٣. والطبقات الكبرى. ابن سعد. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص ١٦٩ . وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. بدر الدين العيني (ت٨٥٥هـ). جـ ١١، ص ٢٧٦. و الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٥.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٦٨. وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٢

(٣) أبو رغال: تردد ذكره من قبل، وهو شخصية عربية من ثمود (ثقيف) توصف بأنه رمز الخيانة، إذ قام أبو رغال بمهمة الدليل لجيش ابرهة الأشرم الحبشي، وحينما تلقبه السيدة أسماء بابن رغال فإنها تجعل من الشخص الخائن جد الحجاج.

وأفسد عليك آخرتك).

وهنا يستبعد أن يكون الحجاج قد وجه أي تهديد إلى أسماء التي لم تعرف عنها تلكوة الأهمية السياسية التي عرفت عن أختها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فضلاً عن أن هذا الأسلوب يتنافى مع ما عرف عن العرب عامة من احترامهم للنساء وعدم الفحش لهن في القول. ولاسيما أن الحجاج قد احتج فيما بعد على كلمة نابية قالها أحد أعوانه لوالدة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بعد مصرع ابنها.

وعليه لا يعقل أن يوجه الحجاج أية إهانة للسيدة أسماء التي كانت تتمتع باحترام المجتمع الإسلامي آنذاك لموقفها المعروف إبان الدعوة الإسلامية. والأقرب إلى الواقع أن تستنكر السيدة أسماء صَلب ابنها؛ إذ بعثت بهذا الاستنكار إلى الحجاج فقال لها: **(إني استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة، فكانت اللجة به، فسبقني إليها).**

فاستأذنته في تكفينه ودفنه، فأبى عليها ذلك، ووكل بجثته من يحرسها، وكتب إلى عبد الملك بذلك. والأقرب إلى الواقع أيضاً أن يذهب الحجاج إلى أسماء بنت أبي بكر يعزيها بابنها عبد الله بن الزبير، ويسأل عن حاجتها، وأن لا تستقبله استقبالاً كريماً وهي الأم الثكلى؟

وقد أورد الذهبي رواية بهذا المعنى تقول: **(إنه لما قتل الحجاج ابن الزبير دخل على أسماء وقال لها: يا أمه: إن أمير المؤمنين وصاني بك، فهل لك من حاجة؟ قالت: لست لك بأم، ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، وما لي من حاجة، ولكني أحدثك، سمعت رسول الله يقول: يخرج في ثقيف كذاب ومبير[1] فأما الكذاب فقد رأيناه- تعني المختار بن أبي عبيد - وأما المبير فأنت. فقال لها: مبير المنافقين)**

ويقول اليعقوبي: إن الحجاج استجاب آخر الأمر لطلب أسماء، وأمر بإنزال جثة ابن الزبير المصلوبة، وذلك عندما جاءت إلى الحجاج، وقالت له: **(أما آن لهذا الراكب أن**

---

(١) المُبير: الذي يسفك الدماء ويعتدي على الناس ويظلمهم.

ينزل بعد؟!)، وطلب مثل ذلك عبد الله بن عمر. وقيل إنَّ عروة بن الزبير طلب إلى عبد الملك بن مروان أن يهب جثة أخيه إلى أمه، فكتب إلى الحجاج بذلك.

ومهما يكن من شيء فإن القضاء على دعوة عبد الله بن الزبير في مكة على يد الحجاج بن يوسف لم يكن، كما يقول المستشرق والمؤرخ فلهاوزن، سوى الفصل الأخير القليل الشأن في الرواية. ذلك أن الحجاز منذ مقتل عثمان ابن عفان ﷺكان قد أصبح ميتاً من الناحية السياسية، ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية.وأعاد هذا الحدث أيضاً على ما فيه من مآسٍ الوحدة للدولة الإسلامية بقيادة الأمويين بعد أن تزعزع مفهوم هذه الوحدة، وكادت الجماعة الإسلامية تنقسم منذ ذلك العهد إلى شيع وأحزاب وممالك، فقد رفعت في عام ٦٨هـ=٦٨٧م أربعة ألوية في عرفات: لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه، ولواء مع ابن الزبير، ولواء مع نجدة بن عامر الحروري، ولواء مع بني أمية.

وهو وضع كانت تستحيل معه الوحدة الإسلامية مالم يتغلب لواء من هذه الألوية وتنخفض الألوية الأخرى شاءت ذلك أم أبت، وهو ما حدث بالفعل، إذ قدر للحجاج أن يرفع لواء الوحدة ويثبته في مكة باسم الدولة الأموية.

وإذا كنا لا نؤرخ لدعوة ابن الزبير وحركته فإن ذلك لا يمنع من تقرير حقيقة ثابتة وهي أن هذه الحركة كان لها أكبر الأثر في بروز شخصية الحجاج على مسرح السياسة الأموية، وبدء حملة جمهور المؤرخين المسلمين عليه، فقد أثار القضاء عليه بهذا الشكل حفيظة المؤرخين، فصبوا نقمتهم على الحجاج على قيام جماعة أخرى من المسلمين تسوِّغ القضاء على ابن الزبير، وتتهمه بأنه استحل حرمة البلد الحرام باتخاذه مركزاً لحركته المناوئة للأمويين.

وقد أوردت هذه الفئة من الأحاديث ما يعزز موقفها منها حديث عن عثمان بن عفان ﷺ قال فيه:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول: يلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله عليه نصف أوزار الناس). وقيل: إنَّ عبد الله بن عمر ابن الخطاب حذر عبد الله بن الزبير من الإقدام على مثل هذا العمل قائلاً له: **(يا بن الزبير إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر! لا تكنه!)**.

والواقع أن عبد الله بن الزبير ما كان يمكنه أن يختار غير هذا الموقف والمصير، ولا سيَّما أنه شغل منصب الخلافة لمدة تقارب عشر سنوات، فضلاً عن أن مصيره لو اختار الاستسلام لن يكون مضموناً كما قالت والدته أسماء، وإذا قدر له أن ينجو من عقاب الأمويين فإنه سيعيش ما تبقى له من العمر حياة منسية مغمورة لا تتفق مع سجل حياته الحافل بالشجاعة والجرأة وعلو الصيت.

سجل التاريخ هذا الموقف الشجاع لابن الزبير في كثير من عبارات الإعجاب والثناء. وكال للحجاج بن يوسف في المقابل كثير من الإساءات والتهم، وبذلك استطاع ابن الزبير أن يسوّد صفحة الحجاج وبني أمية في التاريخ، ويزيد نقمة جمهور الجماعة الإسلامية، عليه وهو شعور ساعدت جملة حوادث على تعميقه ابتداء بمأساة المدينة المنورة ومكة المكرمة ومقتل الحسين وانتهاء بحملة الحجاز الثانية التي قادها الحجاج، وكان من أمرها ما كان.

ولاية الحجاج على الحجاز:

أقام عبد الملك بن مروان الحجاج عاملاً على مكة المكرمة عندما وجهه لقتال عبد الله بن الزبير، فلما دخل مكة وقضى على ابن الزبير صار عاملاً لعبد الملك على هذه المدينة. أما طارق بن عمرو الذي ساعد الحجاج في الحملة على الحجاز فقد جعله الخليفة الأموي عاملاً من قبله على المدينة المنورة وأخذ بيعة أهلها لعبد الملك حيث بقي في منصبه زهاء خمسة شهور؛ وبعد انقضاء هذه المدة عزل عبد الملك طارقاً، عن المدينة، وضمها إلى الحجاج بالإضافة إلى الطائف التي نزلها هو وجنوده من قبل، فأصبح

الحجاج بذلك والياً على الحجاز كله، وذلك في أوائل عام ٧٤هـ= ٦٩٣م. ويبدو أن سياسة الحجاج وكفاءاته الإدارية قد راقت لعبد الملك، فضم إليه اليمن واليمامة، وذلك لإيجاد موارد مالية كافية تحت تصرف الحجاج لاعتماد الحجاز مالياً واقتصادياً على موارد خارجيّة تأتيه من الأقاليم.

الحجاج في مكة:

واجه الحجاج لدى دخوله مكة وضعاً متوتراً لا يحسد عليه، لتضررها من الحصار؛ كما أصيبت الكعبة وبعض البيوت بأضرار مادية مِنْ جرَّاءِ رميها بحجارة المنجنيقات، وتناثرت بساحاتها جثث القتلى وآثار الدماء، وعمت أهلها موجة من الحزن والأسى حتى ارتجت بالبكاء أسفاً على مقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه.

فاتخذ الحجاج إزاء ذلك عدة خطوات في محاولة لتهدئة الحال لإعادة الوضع إلى حالته الطبيعية في مكة، وأول عمل قام به هو كنس المسجد الحرام من الحجارة والدماء، وأخذ بيعة أهل مكة لعبد الملك بن مروان. واتبع أسلوباً ليناً في معاملة الناس وتأليف قلوبهم، واعتذر إليهم على مهاجمته البلد الحرام، وسوغ ذلك بعصيان ابن الزبير في مكة، وخلعه طاعة الخليفة الأموي فيها، مما اضطره إلى محاربته في المدينة المقدسة. وقد ردد هذا التسويغ في خطبة للحجاج بمكة عقب قتله ابن الزبير قال فيها: (**يا أهل مكة بلغني إكباركم واستفظاعكم قتل ابن الزبير،[1] إلا أن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها أهلها، فخلع طاعة الله واعتصم بحرم الله ولو كان شيء نافعاً العصاة لمنع آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم**). وفي هذا القول محاولة واضحة من الحجاج لتخفيف حدة التوتر التي سادت مكة عقب مقتل ابن الزبير

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر علي بن حسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ). جـ٤، ص ٥٠. والبداية والنهاية. ابن كثير أبو الحسن الجزري (ت٦٣٠هـ). جـ٩، ص ١٢٠.

وأصحابه. ويُلحظُ أن خطبته هذه خالية من التهديد والوعيد، وأقرب ما تكون إلى تسويغ الحملة العسكرية التي قادها ضد عبد الله بن الزبير في مكة.

ويستدل من خطبة لاحقة له أنه انتهج مع أهل مكة سياسة لينة، وأنه وصلهم بالأموال لكسب رضاهم وضمان استمرار طاعتهم، وربما للتخفيف عنهم وطأة الحصار الطويل الذي تعرضوا له.

ولا بد أن يكون الحجاج قد استعان على ذلك أيضاً بالأموال التي وجدها في بيت مال ابن الزبير والتي قدرتها بعض المصادر بعشرة ملايين درهم، وهو مبلغ قد تكون هذه المصادر قد بالغت فيه، ولا سيَّما أن الروايات تذكر أن أموال عبد الله بن الزبير كانت عند أخيه عروة، وأن هذا الأخير أخذ هذه الأموال قبيل مقتل أخيه، وذهب إلى عبد الملك حيث بايعه بالخلافة، وقد حاول الحجاج جاهداً أن يسترجع تلك الأموال منه، وكتب بذلك إلى الخليفة، إلا أن عبد الملك تغاضى عنه، وطلب إلى الحجاج ألاّ يراجعه في أمره.

ويبدو أن سياسة اللين هذه قد جرأت أهل مكة عليه، فأراد أن يؤكد لهم من جديد قوته وحزمه، فخطبهم متهدداً متوعداً فقال: (**موج ليل التطم، وانجلى صبحه، يا أهل الحجاز، كيف أُرِيتُموني؟ ألم أكشف ظلمة الجو**[1] **وطخية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق وعطفة رحيم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه، فأقطع عنكم ما وصلْتُه لكم بالصَّارم البتَّار، وأقيم من أَوَدِكم ما يقيم المُثَقِّفُ مِنَ أَوَدِ القَنَاةِ بالنار، ثم نزل وهو يقول:**

أَخُو الحُرْبِ إنْ عَضَّتْ به الحَرْبُ عَضَّها وإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ شَمَّرا)

الحجاج في المدينة:

استقرت للحجاج أمور مكة بفضل سياسة الترغيب والترهيب التي اتبعها مع

---

(١) الجو بمعنى الأجواء، والطخية السحاب الأسود.

أهلها، وجلهم من القرشيين ذوي الأنفة والعنفوان. وأقام فيها بضعة شهور حتى عزل عبد الملك طارقَ بن عمرو عن المدينة، وضمها إلى ولاية الحجاج وذلك أوائل عام ٧٤هـ = ٦٩٣م.

أصبح الحجاج والياً على المدينة المنورة بالإضافة إلى مكة والطائف، فقرر التوجه إلى المدينة ليؤكد سلطانه عليها، ويضبط أمورها بعد ما عُرف عن أهلها من عدائهم التقليدي لبني أمية واستشراء هذا العداء بعد موقعة الحرة.

وقبل أن يتوجه الحجاج إلى المدينة عين نائباً عنه في مكة، وهو رجلٌ من خزاعة يدعى عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث، وقدم المدينة أوائل عام ٧٤هـ فأقام فيها شهراً شرع فيه في تنظيم شؤونها، إلا أنه اضطر للعودة ثانية إلى مكة المكرمة إِثر ورود كتاب من عبد الملك يأمره فيه بإعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل ابن الزبير، فغادر المدينة عائداً إلى مكة.

وهنا تختلف المصادر في تحديد بداية سياسة الشدة التي اتبعها الحجاج مع أهل المدينة وأسبابها، فالطبري لا يذكر شيئاً عن هذه السياسة خلال المدة القصيرة التي أقام فيها الحجاج في المدينة، ويقال: إن الحجاج أخذ يتعبث بأهل المدينة، ويتعنّتهم لدى عودته ثانية إلى المدينة بعد انتهائه من بناء الكعبة؛ في حين يذكر البلاذري أَنَّ استخفاف الحجاج بأهل المدينة وإساءته إليهم إنما كانت في أثناء زيارته الأولى؛ وهو أمر بعيد الاحتمال؛ إذ لا بد أن يكون قد بدر من أهل المدينة من التصرفات والأقوال ما جعل الحجاج يقرر اللجوء إلى سياسة الشدة والعنف معهم.

وهناك إشارات تدل على ذلك، منها أن بعض الصحابة في المدينة رفضوا الصلاة خلف الحجاج، وأَنَّ بعضاً آخر كان يعارضه في أقواله، ويتهمه بتأخير موعد صلاة الجمعة، وهي أمور على جانب كبير من الخطورة ولا سيَّما في ذلك العصر. وإن دلت هذه المعارضة على شيء فإنما تدل على استخفاف أهل المدينة بالحجاج، وهو أمر منتظر من جانب الأرستقراطية الدينية في المدينة.

ولم يكد الحجاج ينتهي من ترميم الكعبة حتى عاد مسرعاً إلى المدينة في صفر عام ٧٤هـ = ٦٩٣م؛ إذ يقول الطبري: إن الحجاج أقام فيها ثلاثة شهور يتعبث بأهلها ويتعنتهم، ويتهمهم بأنهم لم ينهضوا لنصرة عثمان يوم الدار؛ وختم على أيدي عدد من الصحابة كما كان يفعل بأهل الذمة إذلالاً لهم.

ويبدو أن الحجاج هدف بذلك تأكيد السيادة الأموية على المدينة كما حدث في مكة؛ وإخضاع الأرستقراطية الدينية في المدينة بالتهديد والقوة حتى يرهب باقي أهلها ويذعنوا له؛ وإظهار ولائه من جديد لبني أمية، وذلك بالانتصار لعثمان بن عفان ﷺ، والاقتصاص من الذين تخلوا عنه.

نجح الحجاج في تحقيق هذه الأهداف إلى أبعد الحدود وإن أدى تحقيقها كما هي الحال بالنسبة إلى اقتحامه مكة إلى زيادة النقمة العامة عليه، وشرع بعض الرواة في تحريف عدد من الوقائع والافتراء ضده، وتجاهل الأعمال والإصلاحات التي قام بها خلال ولايته القصيرة على الحجاز؛ ومن بين تلك الافتراءات ما ذكره بعض الرواة من أن الحجاج عمل على التخلص من الصحابي المشهور عبد الله بن عمر لمعارضته له في تأخيره الصلاة. وقد شك أبو اليقظان في قول هؤلاء الرواة فقال: (**فيزعمون أن الحجاج دس له رجلاً، فسم زج رمحه، فزحمه في الطريق، وطعنه في ظهر قدمه**)؛ وتمضي الرواية فتقول: إن الحجاج دخل على ابن عمر بعدما أصيب، وقال له: (**يا أبا عبد الرحمن من أصابك؟**) فأجابه ابن عمر: (**قتلتني وأصحابك**). فقال له الحجاج: (**ولِمَ تقول هذا رحمك الله؟**) فأجابه ابن عمر: (**حملت السلاح في بلد لم يكن يحمل فيه السلاح**). ثم لم يلبث عبد الله بن عمر أن مات.

ومما يزيد الشك في صحة هذه الرواية أن عبد الله بن عمر المعروف بورعه وتقواه كان يؤيد دائماً وحدة الجماعة الإسلامية، ويبايع من تجمع عليه الأمة. ومن هنا كانت مبايعته ليزيد بن معاوية واستنكاره إقدام عبد الله ابن الزبير على الخروج عليه، ولمَّا أعلن ابن الزبير نفسه خليفة في مكة رفض أن يبايعه، واستنكر قيام عامل عبد الله بن الزبير على

المدينة بإجلاء الأمويين عنها. ويروي ابن شهاب الزهري أن ابن عمر اتهم ابن الزبير بالبغي على الأمويين؛ لأنه أخرجهم من ديارهم، ونكث عهدهم.

وقد بايع عبد الملك بعد مقتل ابن الزبير، وقبل الحجاج وساطته في وقف قصف مكة حتى يتسنى للمسلمين أن يكملوا شعائر حجهم، بل إن بعض المصادر ذكرت أن عبد الملك كتب للحجاج أن يأتمّ بابن عمر، ويقتدي به في موسم الحج.

وهذه كلها قرائن تجعل من مصلحة الحجاج الإبقاء على هذه الشخصية، وتنفي عنه تهمة التخلص منها، وبالإضافة إلى ذلك فإن الحجاج لم يتبن في حياته السياسية مبدأ الغدر بخصومه وحبك المؤامرات الوضيعة ضدهم.

وهناك أقوال كثيرة نسبت إلى الحجاج في هذه الفترة، من ذلك ما ذكر من قوله لدى خروجه من المدينة المنورة: (**الحمد لله الذي أخرجني من أم نتن، أهلها أخبث أهل، أغشه لأمير المؤمنين وأحسده له على نعمته، والله لو ما كان يأتيني من كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار،أعواد يعوذون بها ورِمَّة قد بليت يقولون: منبر رسول الله وقبر رسول الله ﷺ**).

ويغلب على الظن أن هذا القول إنما وضعه خصوم الحجاج من أهل المدينة الذين كان يجمعهم عداء تقليدي مع بني أمية وعمالهم، وهو أمر يوضحه النص كل الوضوح، يضاف إلى ذلك أن النص المذكور ورد في الكامل للمبرد (ت ٢٨٥هـ)؛ والاشتقاق لابن دريد (ت ٣٢١هـ) على نحوٍ مختلف منه أن الحجاج استنكر قيام الناس بالطواف بقبر الرسول ومنبره كما يطوفون بالكعبة تعظيماً لهما وتقديساً، وهو أمر يتنافى مع روح العقيدة الإسلامية السمحاء التي دعت إلى التجريد وعدم تقديس أي شيء آخر مع الله.

ويبدو أن الوُضَّاع تعمدوا إساءة فهم هذا الاستنكار، ووضعوه بشكل أقرب ما يكون إلى التهجم على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وهو أمر لا يمكن أن يقوله الحجاج لما عرف عنه من حسن الخلق. إلا أن هذه الروايات مهما قيل فيها وحولها تدل على أن أهل الحجاز ولا سيَّما أهل المدينة والأرستقراطية الدينية فيها لم تكن تنظر إلى الحجاج

نظرة تقدير واحترام، بل كانت تضمر له العداء، وتسعى للنيل منه عند الخليفة.

حرص الحجاج من ناحيته أن يحصل على مبايعة جميع الشخصيات البارزة فيهم، واستخدم في ذلك وسائل الترغيب والترهيب كما فعل مع عدد غير قليل من الصحابة وكبار التابعين، وفي مقدمتهم عبد الله بن عمر ومحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيَّة، وإن كان حرصه على أخذبيعة الأخير لعبد الملك أشد وأكبر؛ لأنه كان يمثل زعامة الطالبيين في ذلك الوقت وتطلعهم إلى الخلافة.

والواقع أن عبد الملك في حرصه على أخذ البيعة من محمد بن الحنيفة كان يتحاشى الاصطدام الدموي مع آل أبي طالب حتى لا تتكرر مأساة كربلاء التي راح ضحيتها الحسين بن علي وعدد من آله وأصحابه؛ فكتب إلى الحجاج في الحجاز يقول له: (**جنبني دماء آل بني أبي طالب! فإني رأيت آل حرب لما نهجوا بها لم ينصروا.**)

وقد تقيد الحجاج بهذه التعليمات، ولكنه في الوقت نفسه ظل يلح على محمد بن الحنيفة حتى أخذ منه البيعة لعبد الملك. ويروي المقريزي في كتابه المقفَّى تفاصيل وافية عن هذه البيعة التي تمت بعد أن أمّن عبد الملك ابن الحنفية وأصحابه، ودعاه إلى القدوم عليه، في دمشق، فصحبه الحجاج في جماعة من كبار التابعين؛ فكان ذلك بمنزلة تأكيد واضح وإعلان صريح بولاء الحجاز كله للخلافة الأموية بفضل جهود الحجاج.

إصلاحات الحجاج في الحجاز:

امتدت ولاية الحجاج على الحجاز بعد مقتل ابن الزبير نحواً مِنْ سنتين من جمادى الآخرة ٧٣ إلى رجب ٧٥هـ، وخلال هذه المدة القصيرة قام الحجاج بعدة أعمال وإصلاحات عمرانية واقتصادية ظلت آثارها باقية بعده لفترة طويلة. وتنقسم هذه الأعمال إلى قسمين: الأول خاص بالعمارة الدينية والثاني يتعلق ببناء مرافق اقتصادية.

عمارة الكعبة:

بدأت العمارة الدينية خلال ولاية الحجاج على الحجاز في مكة المكرمة، إذ تلقى الحجاج وهو في المدينة كتاباً من عبد الملك بن مروان يدعوه فيه إلى إعادة شكل الكعبة

وحجمها كما كانت قبل أن يعيد بناءها عبد الله بن الزبير فكتب الحجاج بذلك إلى عبد الرحمن بن نافع الخزاعي نائبه في مكة، الذي شرع في ذلك، ولم يلبث الحجاج أن لحق به إذ أشرف على إكمال العمل، وذلك بعد أن استخلف على المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة الذي كان ينوب عنه في المدينة كلما أتى مكة أو دمشق. ولا بد هنا من التوقف قليلاً لمعرفة خلفية هذا العمل حتى تتضح لنا الدوافع التي دعت إليه، فقد بنيت الكعبة المشرفة أَوَّلَ مرة في عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وقيل أول من بناها شيث بن آدم عليهما السلام.

وتذكر بعض المصادر أن بناءها جاء على شكل مستطيل غير منتظم تماماً، إذ بلغ ارتفاعها تسع أذرع وطولها اثنتين وثلاثين ذراعاً واحدةً وثلاثين ذراعاً، في حين بلغ عرضها اثنتين وعشرين ذراعاً وعشرين ذراعاً على التوالي، وكان لها باب واحد ولم يكن لها سقف. وأعيد بناؤها منذ ذلك الوقت عدة مرات بسبب تعرضها للسيول والاحتراق، وحدث قبل البعثة أن أعادت قريش بناء الكعبة، وشارك الرسول ﷺ في عملية البناء إذ وضع الحجر الأسود في مكانه، وجنب قريشاً الاختلاف حول الانفراد بهذا الشرف كما هو معروف في كتب السيرة.

وتقول المصادر: إنَّ قريشاً أحدثت تغييراً في شكل الكعبة وأطوالها، فجعلت ارتفاعها ثماني عشرة ذراعاً، ودعتها قلة النفقات إلى إنقاص طولها السابق ستّ أذرع وشبراً، وهي الجهة التي عرفت فيما بعد باسم الحجر؛ لأن قريشاً حجرت على الموضع ليعلم أنه من الكعبة، ورفعت الباب عن الأرض بمقدار أربع أذرع وشبر وكسوا أرضها بالتراب حتى لا تدخلها السيول.

وظلت الكعبة على هذه الحال بعد البعثة وطيلة عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، إلى أن قام عبد الله بن الزبير عام ٦٤هـ بهدمها و إعادة بنائها بعد أن أصيبت بأضرار بالغة خلال حصاره الأول من قبل الحصين بن نمير، إذ ضربت بالمنجنيقات وأصابتها نار فاحترقت.

وقد اغتنم ابن الزبير فرصة الأضرار البالغة التي لحقت بمبنى الكعبة، فأراد أن يجدد عمارتها، ويعيد أسسها على قواعد إبراهيم ﷺ وإسماعيل ﷺ، واعتمد في ذلك على حديث للنبي ذكر أن الرسول ﷺ قاله لعائشة، رضي الله عنها، وجاء فيه: (**إن قومك استقصروا في بناء البيت، وعجزت بهم النفقة، فتركوا في الحجر منها أذرعاً؛ ولولا حداثة قومك بالكفر لهدمت الكعبة، وأعدت ما تركوا منها، ولجعلت لها بابين موضوعين بالأرض باباً شرقياً يدخل منه الناس وباباً غربياً يخرج منه الناس**).

وعلى أن أعمال الحفر أظهرت الأساسات الحجرية القديمة للكعبة في الحجر وموافقة عدد من كبار القرشيين على إعادة بناء الكعبة، استنكر معظم المسلمين في مكة هذا العمل الذي من شأنه أن يغير معالم الكعبة كما عرفت وأقرت في عهد الرسول ﷺ، وسرت موجة من الهلع في نفوسهم خشية أن تحل بهم كارثة ونقمة من الله.

ويروي الأزرقي أن معظم الناس في مكة عارضوا الهدم، وخافوا خوفاً شديداً، وأنهم خرجوا إلى منى ينتظرون العذاب ثلاثة أيام حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها، وأعظموا ذلك إعظاماً شديداً؛ ولم يكتف عبد الله بن الزبير بتنفيذ ما جاء في الحديث، بل زاد في ارتفاع الكعبة وجعلها سبعاً وعشرين ذراعاً حتى يُوجد تناسباً في أطوالها الجديدة كما جعل ارتفاع كل من البابين إحدى عشرة ذراعاً.

ويبدو أن شعوراً من الاستياء قد عم المسلمين خارج مكة أيضاً احتجاجاً على عملية الهدم وتغيير شكل الكعبة عما كان عليه زمن الرسول، فاستغل الخليفة الأموي هذا الشعور، وراح أعوانه ومؤيدوه يؤلبون الناس على ابن الزبير، ويتهمونه بالخروج على الطاعة، وبأنه أحدث في البيت ما لم يكن فيه؛ فقد ذكر أن الحجاج كان يحرض قواته على رمي مكة بالمنجنيقات لإرغام عبد الله بن الزبير على الاستسلام، ويأمرهم بأن يصبوا رميهم على الزيادة التي أحدثها ابن الزبير من ناحية الحجر ويقول لهم: (**ارموا الزيادة التي ابتدعها هذا المتكلف!**).وهكذا قدم عبد الله بن الزبير لأعدائه مبرراً اضافياً يتذرعون به لمهاجمتهم مكة المكرمة والقضاء عليه.

وتختلف المصادر حول صاحب الدعوة إلى إعادة بناء الكعبة إلى ما كانت عليه قبل ابن الزبير، فالأزرقي صاحب أخبار مكة يذكر رواية تقول: إن الحجاج كتب بعد دخوله مكة إلى عبد الملك أن ابن الزبير زاد في البيت إلى ما كان عليه في الجاهلية، فرد عليه عبد الملك بكتاب أمره فيه أن يسد بابها الغربي الذي فتحه ابن الزبير، وأن يهدم ما كان زاد فيها من الحجر، وأن يكسبها به على ما كانت عليه.

أما البلاذري فيقول: إنَّ عبد الملك هو الذي كتب بذلك إلى الحجاج أثناء وجوده في المدينة، وإنَّ الأخير بعث به إلى نائبه على مكة؛ يأمره بالشروع في تنفيذ هذه المهمة، ثم لحق به إذ تمت إعادة بناء البيت إلى حالته السابقة بحضور الحجاج.

وتذكر المصادر أن الحجاج أمر بهدم ست أذرع وشبر من الكعبة مما يلي الحجر، وبنى جداراً في واجهة الحجر على أساس قريش، وسد الباب الثاني الذي فتحه ابن الزبير، كما رفع باب الكعبة مسافة أربع أذرع وشبر أي نحو مترين من سطح الأرض.وجعل طول الباب الكلي ست أذرع وشبراً كما كان الحال في بناء قريش، وزاد بعد تمام هذه العملية عدة أحجار من الجزء الذي هدم من الكعبة، فرصفها الحجاج داخل البيت، وبنى في داخله درجة ليستعين بها الناس على النزول من الباب إلى جوف الكعبة. أما الارتفاع من الخارج فبقي على حاله زمن ابن الزبير أي سبعاً وعشرين ذراعاً وهو يعادل ستة عشر متراً تقريباً، إلا أن الارتفاع الداخلي للكعبة ظل يقارب الارتفاع الخارجي للبيت على بناء قريش، وهو ثماني عشرة ذراعاً أي ما يعادل أحد عشر متراً تقريباً، وبعد ذلك كسا الحجاج الكعبة بالديباج [1].

ويتضح من ذلك أن الحجاج لم يهدم الكعبة ولم يُعد بناءَها كما توهم بعض المؤرخين، وإنما أعادها إلى ما كانت عليه زمن الرسول، وإن كان قد أبقى ارتفاعها الخارجي على ما

---

(١) أخبار مكة. الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت حوالي ٢٥٠هـ) . جـ١، ص١٦٨. العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٢، ص٣٣٨ و البلدان. الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد (ت٣٤٤هـ) . ص ٢٠ .

كان عليه زمن ابن الزبير.

وقد حافظ المسلمون منذ ذلك الوقت على التقيد بالشكل الذي تركه الحجاج للكعبة، وإن كان ذلك لا يعني أن البناء الحالي للكعبة الشريفة هو بناء الحجاج، إذ تعرض البيت الحرام في ١٩ شعبان ١٠٣٩هـ (٣ إبريل ١٦٣٠م) إلى أمطار غزيرة وسيول جارفة أتت عليه، مما جعل السلطان العثماني مراد الرابع يصدر فرماناً بإعادة بناء الكعبة كما كانت عليه زمن الحجاج، واستعان في ذلك بواليه على مصر محمد علي باشا.

مسجد بني سلمة:

أما العمارة الدينية الثانية فقد أنشأها الحجاج في المدينة، إذ بنى فيها مسجداً جديداً في منازل بني سلمة نسب إليه فيما بعد فقيل مسجد الحجاج.

وفيما يتعلق بالمرافق الاقتصادية التي تمت في ولاية الحجاج القصيرة للحجاز نجد هذه العمارة تشمل الآبار والسدود.

وذكر الأزرقي أن الحجاج جدد بئر الياقوتة التي كان قد حفرها بمنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وقد زاد الحجاج من عمقها وأحكم بناءها، ويضيف إلى ذلك أن الحجاج بنى أيضاً ثلاثة سدود في شعب عمرو بن عبد الله بن خالد على مقربة من ثبير النصع، وهو جبل المزدلفة، وأكبر هذه السدود يقال له سد آثال عمله الحجاج في صدر شعب عمرو، وجعله حبساً على وادي مكة.

أما السدّان الآخران فكان موضعها على يمين المقبل من الشعب ويسكبان بأسفل منى في صدر وادي مكة.ونُلحظ هنا أن الحجاج في حفره لهذه الآبار والسدود قد تأثر- ولا شك -ببيئته الزراعية في الطائف التي عرفت، كما ذكرنا في فصل سابق، كثيراً من وسائل الري المتقدمة ولا سيّما حفر الآبار وإقامة الترع وبناء السدود التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن. ومن يدري فقد كنا نسمع مزيداً من أخبار هذه الإصلاحات الاقتصادية، لو قدر للحجاج أن تطول ولايته على الحجاز كما حدث حقّاً إبّان ولايته

الطويلة على العراق.

وأخيراً فإن نجاح الحجاج في القضاء على دعوة ابن الزبير كان له أثر غير مباشر في قيام نهضة علمية وفنية ملموسة في الحجاز، ذلك أن كثيراً من أبناء المهاجرين والأنصار لما فقدوا الأمل كلياً في استعادة نفوذ بلادهم السياسي أقبلوا على الاشتغال بالدراسات الدينية الخاصة بالاهتمام بالحديث والسنة والسيرة النبوية، في حين أقبلت العناصر الدينية الأخرى على الاهتمام بالأدب واللغة والنَّحو.

نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق:

امتدت ولاية الحجاج على الحجاز واليمن واليمامة زهاء سنتين، وقد بدأت هذه الولاية كما ذكرنا منذ مقتل عبد الله بن الزبير في ١٧ جمادى الأخرى سنة ٧٣هـ، وانتهت في رجب سنة ٧٥هـ حين جعله عبد الملك ابن مروان والياً على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان في أول سنة ٧٥هـ.

ويختلف المؤرخون المسلمون الأوائل في أسباب نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق، ويعزوها بعضهم إلى تذمر عدد من رجالات الحجاز وأبناء الصحابة من الحجاج وسياسته نحوهم، وأن وفداً من هؤلاء قدم مع الحجاج على عبد الملك بدمشق بينهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله وعمر ابن عبد الرحمن بن عوف، فكلّمه هذان في عزل الحجاج عن الحجاز حتى عزله.

وقد أورد البيهقي تفصيلاً لهذه الرواية إذ قال: وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج عن الحجاز أنه وفد وفد منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان، فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: **(يا أمير المؤمنين من أنا؟)** قال: **(عيسى بن طلحة بن عبيد الله)**، قال: **(فمن أنت؟)** قال: **(عبد الملك بن مروان)**، قال: **(أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا؟)** قال: **(وما ذاك؟)** قال: **(ولّيت علينا الحجاج يسير فينا بالباطل، ويحملنا على أن نثني عليه بغير الحق، والله لئن أعدته علينا لنعصينّك! فإن قاتلتنا وغلبتنا وأسأتَ إلينا**

قطعت أرحامنا، ولئن قوينا عليك لنغصبنّك ملكك!). فقال له عبد الملك: (انصرف والزم بيتك! ولا تذكرنّ من هذا شيئاً!)، فقدم إلى منزله، وأصبح الحجاج غادياً على الوفد في منازلهم يجزيهم الخير. ثم أتى عيسى بن طلحة فقال: (جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيراً، فقد أبدلني بكم خيراً لي منكم، وأبدلكم بي غيري وولاني العراق). وأورد ابن نباتة رواية قريبة من هذه إلا أنه نسبها إلى إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله لا إلى عيسى بن طلحة كما في الرواية السابقة.

ويذكر ابن نباتة أن إبراهيم بن طلحة هذا تقدم بنصيحة خالصة إلى عبد الملك يرجوه فيها عزل الحجاج عن الحجاز، وقال له: (يا أمير المؤمنين إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من أبناء المهاجرين والأنصار من قد علمت، يسومهم الخسف، ويتوعدهم بالعنف، ويطؤهم بطغام[1] أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل؛ ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فيكف بك إذا جاثاك محمد ﷺ غداً لخصومة بين يدي الله تعالى؟ أما والله إنك لن تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة، فاتق لنفسك أو دع)؛ فقال عبد الملك: (قد علمت صدق مقالتك، ولوآثرت الدنيا لكان لك في الحجاج أمل. وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت ولايته عليهما.... ووليته العراق لما هناك من الأمور التي لا يدحضها إلاَّ أمثاله).

وعلى وجود بعض الاختلاف في هاتين الروايتين لا يستبعد أن يكون أبناء الصحابة وكبار التابعين قد استنكروا تولية رجل غير قرشي عليهم، وأبدوا تبرمهم بالحجاج إلى عبد الملك في وقت كان فيه الخليفة الأموي يبحث عن وال ليرسله إلى العراق الذي اضطرب أمره إلى درجة خطيرة بعد موت بشر بن مروان.لكن يظل سبباً غير مباشر في نقل الحجاج من الحجاز، إذ إن هذه الخطوة جاءت دون شك بسبب موت بشر، وحاجة عبد الملك إلى رجل قوي موثوق به ليضبط له العراق، فوقع اختياره على الحجاج لما

---

(١) الطغام العامة والغوغاء، وجاثاك أي أجلسك من فعل جثا يجثو.

هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا أمثاله على حد قول عبد الملك نفسه.

وأما ما ذكر من أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يقول: **(إني قد حزت الحجاز بشمالي وبقيت يميني فارغة)**[(1)] - يُلمح إلى العراق - وأن عبد الملك بعث إليه بعهده على ذلك الإقليم، فهو قول نُسب إلى كثير من الولاة قبل الحجاج، وما أظنه إلا قولاً موضوعاً لبعده عن واقع الأمور.

ولاية الحجاج للعراق:

احتل العراق مكانة خطيرة في تاريخ الدولة الأموية؛ لأنَّه أَلَّفَ مركز الثقل في الدولة، لموقعه المهم، فهو ظهير لحماية الدولة في الشام من أي خطر يتهددها من المشرق؛ بالإضافة إلى وفرة خراجه؛ لكثرة الكثافة السكانية فيه؛ التي تجمعت بعد الفتح في الكوفة والبصرة؛ ومِنْ ثَمَّ كثرة خيراته.

استقرت الأحوال للخليفة عبد الملك بن مروان في الحجاز بفضل ما أوتيه عبد الملك من رباطة جأش وحسن سياسة وعظيم توفيق في اختيار ولاته وفي مقدمتهم الحجاج الذي عمل جاهداً على توطيد نفوذ الدولة الأموية في الحجاز بالقضاء على ثورة ابن الزبير ومن والاها. إلا الأمر لم ينته عند ذلك، بل ظهرت على ساحة السياسة الأمويةمشكلات بلاد العراق مهد الثورات وموطن الخارجين على القانون والخلافة.

فالكوفة لم تزل متأثرة بالدعوة الشيعية على مقتل المختار بن أبي عبيد الثقفي، بينما ظلت البصرة مقر حركة الخوارج وثوراتهم المتتالية، وذلك لعدم كفاءة الولاة الذين عجزوا عن القضاء على الثائرين فيها، وأخفقوا في توجيهها نحو الاستقرار. إلا أن عبد الملك لم يحسم الشأن العراقي لوجود أخيه بشر والياً عليها، إلا أن وفاته في رجب سنة أربع وسبعين للهجرة، جعلته يعيد التفكير في وضع الأمور في نصابها؛ بعد أن عجز نواب بشر في الكوفة والبصرة من ضبط الأمور فيهما، فلم يتردد في إسناد ولاية العراق

---

(1) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص٧. وشذرات الذهب. ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ). جـ١، ص٨٥.

إلى الحجاج بن يوسف الثقفي واليه على الحجاز واليمن واليمامة؛ لما اتصف به من الشدة والحزم وحسن التدبير، بالإضافة إلى ولائه الشديد للأمويين بعد أن رأى فيه من يسد عنه خلل أهل العراق؛ وقد أثبتت الحوادث بعد نظر الخليفة الأموي بعد أن وطد الحجاج للدولة الأموية المنابر وذلل لها أهل العراق.

اختلف المؤرخون في الطريقة التي اتبعها عبد الملك في تولية الحجاج، فقال بعضهم: إنه كتب إليه بعهده عليه وهو في الحجاز، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه خرج من المدينة إلى العراق رأساً؛ ويرى آخرون أن الحجاج ولي العراق في آخر وفادة له على عبد الملك في دمشق، إذ تهيأت الفرصة لذلك بوفاة بشر بن مروان كما ذكرنا خلال هذه الوفادة؛ إلا أن الاعتقاد يميل إلى أن العهد بولاية العراق أرسل للحجاج وهو بالحجاز وذلك لسببين:

أولهما: أن الخبر قد روي في الطبري وابن الأثير وابن عساكر وابن خلدون وصاحب أنساب الأشراف - في أقرب روايتيه إلى الدقة - في حين أن قصة الشام لم ترد إلا في المسعودي والأبشيهي وأنساب الأشراف في رواية ظاهرة الضعف.

وثانيهما: أن أولئك الذين قالوا بتوليه الحجاج العراق وهو بالشام قد أحاطوها بقصص تتحد في معناها، وتختلف كثيراً في مبناها، واختلاف القصص في نفسه من أدلة الوضع .ذلك أن الحجاج لم يكن في نظر عبد الملك بالفكرة التي تصورها لنا القصص الموضوعة؛ فهو صاحب شرطته في حرب مصعب وقائده الفذ في الحجاز، ومن غير المعقول أن يسأل الحجاج عن قبيلته، فمنذ الذي لم يكن ليعرف وقتذاك من هو الحجاج؟ !إلا أن المصادر أجمعت على وفادة الحجاج على عبد الملك كأنها وفادة واحدة،[1] بينما انفرد به صاحب أنساب الأشراف من أنها كانت أكثر من وفادة[2].

والمعقول أن الحجاج وفد على عبد الملك بالشام بوفوده من عيون أهل الحجاز مرات

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص١٤٩، ١٥٠. وثمرات الأوراق. ابن حجة الحموي. ص٢٢٦. وسرح العيون ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٠٥، ١٠٦.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ٥، ص٣٧٤.

عدّة، منها تلك الوفادة الطبيعية التي لا بد أن تكون قد حدثت إثر مقتل ابن الزبير. ومن المرجح أن الحجاج اصطحب معه فيها محمد بن الحنفية. ومن المؤكد أيضاً أنه وفد مرة أخرى وبصحبته إبراهيم ابن طلحة إذ جرى الحديث بينه وبين الخليفة، وإليه ينسب بعض المؤرخين ظفر الحجاج بولاية العراق. وقد أشار المؤرخون إلى وفادة ثالثة كان من أعضائها عيسى بن طلحة وعمر بن عبد الرحمن بن عوف، وأجروا على لسان أحدهما حديثاً أشبه بحديث عيسى بن طلحة، ورتبوا عليه النتائج نفسها؛ ويرجح أن الأقوال التي وردت على لسان الوفود المختلفة إن صحت فقد كانت دليلاً جديداً على حنكة عبد الملك. إذ استطاع أن يرضي أهل الحجاز بإقصاء الحجاج عن بلادهم نزولاً ظاهرياً على إرادتهم، بينما كان يريد أن ينتفع به في العراق حيث كانت الحال تتطلب شخصية قوية حازمة وهكذا ولي الحجاج العراق؛ ودليل ذلك كتاب الخليفة بخطه إلى الحجاج والذي جاء فيه (**أما بعد يا حجاج فقد وليتك العراقَيْنِ صدقة، فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل أمامها أهل البصرة، وإياك وهوينى الحجاز فإن القائل يقول هناك ألفاً ولا يقطع بها حرفاً، وقد رميت بك الغرض الأقصى، فارمه بنفسك، وأردْ ما أردته بك والسلام**).[1]

مما سبق يوضح أن الخليفة رسم للحجاج خطة يتبعها في إدارة العراق، مبيناً له أن سياسته في الحجاز لا تصلح للعراق، وأنه ينبغي له أن يصل إلى الهدف الذي يريده منه، وهو إعادة النظام وخلق روح الطاعة في نفوس المحاربين من أهل الكوفة والبصرة الذين انتهزوا فرصة موت بشر بن مروان، وعادوا إلى بيوتهم بغير إذن تاركين قائدهم المهلب في ميدان القتال مع الخوارج، وأمره أن يبدأ بأهل الكوفة حتى تتسامع البصرة بما أصابهم فتدين لطاعته؛ وبذلك يتم له إخضاع هؤلاء المتمردين للنظام وإرغامهم على الإقلاع عن الفوضى وإرهابهم منذ البداية؛ وقد انتهج الحجاج السياسة التي رسمها له الخليفة.

---

(١) تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٩. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٤.

مسير الحجاج إلى الكوفة وخطبته في أهلها:

خرج الحجاج من المدينة [1] حين أتاه كتاب ولايته على العراق في منتصف سنة خمس وسبعين للهجرة، [2] فوصل إلى الكوفة حين انتشر النهار في اثني عشر راكباً، [3] فبدأ بالمسجد فدخله، [4] ثم صعد المنبر، وهو متلثم بعمامة خز حمراء، [5] متقلداً سيفاً متنكباً قوساً، [6] وقال عليَّ بالناس، فقام الناس نحوه، فسكت سكتة طويلة أهمهم بها، وأحبوا أن يسمعوا كلامه. [7] فكثرت الضوضاء، وكثر الكلام، فمنهم من كان يعرف أنه الأمير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٠. والبداية والنهاية. ابن كثير اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ). جـ ٩، ص٧. والمختصر في أخبار البشر. أبو الفدا اسماعيل بن علي بن شاهنشاه صاحب حماة (٧٣٢هـ). مصدر سابق. ج١، ص١٩٦. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٠٠.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٠.
وتاريخ الإسلام وطبقات المشاهير. الذهبي الحافظ محمد بن أحمد شمس الدين (ت٧٤٨هـ). جـ٣، ص٤٥٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٧. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٠٠. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٠. ودول الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٥٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٤٠. وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٥. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. ج٣، ص٤٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٧.
ودول الإسلام. الذهبي. مصدر سابق ج٣، ص٤٥٢ في إحدى روايتيه.

(٤) تاريخ الأمم والملوك الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٠. والبدء والتاريخ. البلخي. جـ ٦، ص٢٩.

(٥) تاريخ الأمم والملوك الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٧.

(٦) التاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤، ص٥٣.

(٧) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٥٢. وتاريخ الإسلام. الذهبي. جـ ٣، ص٤٥٣. والبداية والنهاية. ابن كثير. جـ ٩، ص٧.

الجديد،[1] ومنهم من لم يكن يعرف ذلك، فظنه وأصحابه خوارج [2]إذ إن طريقتهم في دخولهم المسجد كانت لا تختلف عن ذلك. ولما طال السكوت قال عمير ابن ضابئ لحاجب بن زرارة ولعبد الرحمن بن الأشعث ولابنه محمد (**ألا أحصبه لكم**)[3]وتناول حصباء ليحصبه، فقالوا له: (**حتى نسمع ما يقول**)، فقال عمير (**لعن الله بني أمية حيث يستعملون مثل هذا، وضَيّع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فو الله لو دام هذا أميراً كما هو لما كان بشيء**). [4]وقال محمد بن عمير بن عطارد: (**لعن الله هذا، ولعن من أرسله؛ أرسل إلينا غلاماً لا يستطيع أن ينطق عِيّاً**،[5]**قاتله الله ما أغباه وأذمّه! والله إنِّي لأحسب خبره كروائه**)[6]وأخذ حصى بيده ليحصبه بها، فقال له جليسه: (**لا تعجل حتى ننظر ما يصنع**). [7]وقال بعض الناس: (**أعرابي ما أَبْصَرَ حُجَّتَه**). [8]وقال بعضٌ

---

(١) كتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص٢١٥. والمستطرف من كل فن مستظرف. الأبشيهي محمد بن أحمد المحلي (ت٨٥٢هـ). جـ١، ص٥١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ٥، ص٤١. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤١.

وعقد الجمان. العيني جـ١١، ص٣٠٠.

(٣) عيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ٥، ص٤٨.

(٤) عيون التواريخ . ابن شاكر. مصدر سابق. جـ٥ ص٤٨.

والمستطرف من كل فن مستظرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ١، ص٥١.

(٥) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦.

(٦) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٤١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٨.

وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ١١، ص٢٦٧.

(٧) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦. التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ٤، ص٥٢.

والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٧. وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٥٣.

(٨) مروج الذهب. المسعودي علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ). جـ٢، ص٩٥.

آخر: (حَصِرَ الرجلُ، فما يقدرُ على الكلام).[1]

وبينما هم في لغطهم وضوضائهم إذ حسر اللثام عن فيه ونهض قائماً فقال:

أَنــا ابْــنُ جَــلا وطَــلاّعُ الثَّنايــا ... مَتَــى أَضَــعِ العِمامــةَ تَعْرِفُــوني

يا أهل الكوفة: إني لأرى رُؤُوساً قد أينعتْ وحَانَ قِطافُها، وإني لصاحبُها، وكأني أنظرُ إلى الدماء بين العِمائم واللِّحى.

هــذا أوان الشــد فاشــتدي زِيــمَ ... قــد لفهــا اللَّيْــلُ بســواقٍ حُطَــمْ

لَــيْسَ براعــي إبــل ولا غَــنَمْ ... ولا بجــزار عــلى ظَهْــرِ وَضَــمْ

قــد لَفَّهــا اللَّيْــلُ بعصــلبي ... أروع خــراج مــن الــدّوي

مهاجر ليس بأعرابي:

قــد شــمرت عــن ســاقها فشــدوا ... وجــدت الحــرب بكــم فجــدوا

والقــوس فيهــا وتــر عــردّ ... مثــل ذراع البكــر أو أشــدّ

لا بُــدَّ مِمَّــا لَــيْسَ مِنْــهُ بُــدُّ

إني والله يا أهل العراق ما يُقعقعُ لي بالشّنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءَه - نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً، فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم كأهل قرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص٩٥. وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٥.

وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهمُّ إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريتُ[1] وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه[2].

وما فعله الحجاج من أنه دخل المسجد على الهيئة التي وصفناها وصعوده المنبر، يمكن تأكيده بأن الحجاج كان موفقاً في سياسته منذ دخوله العراق حيث عمد إلى نوع من التأثير النفسي، جذب به انتباه القوم، وأرهف أسماعهم لتلك النغمة القوية التي أعدها لهذا الموقف. بل نجح في إثارة بعضهم على الاستخفاف والزراية ببني أمية لاختيار مثله والياً على العراق، حتى إذا بلغ الاستغراب والتهيؤ من الناس مبلغه حسر اللثام عن وجهه، ثم تكلم، فملأ القلوب والأسماع دوياً أرهب به نفوس سامعيه.

وفي خطبته التي أوردها المبرد وغيره من المؤرخين والأدباء يمكن استخلاص خطة الحجاج وسياسته؛ وقد بدت تلك الوسائل التي لجأ إليها الحجاج غريبة في نظر المسلمين في تلك العصور، إذ كانت عقوبة المتخلف عن ميدان القتال في عهد عمر وعثمان وعلي، خلع عمامته والتشهير به بين الناس، وفي عهد مصعب بن الزبير صارت بحلق الرؤوس واللحى، ثم تطورت في عهد بشر بن مروان إلى تسمير اليدين في الحائط[3]. لكن من الإنصاف للحجاج أن نقر إن الظرف الذي صادفه في العراق كان يستلزم المبالغة في الشدة.وقد سار الحجاج بالسياسة التي رسمها، ونفذ تلك القوانين العسكرية، فأحدثت أثرها المطلوب.

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ١١، ص ٢٧٥. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤١.

(٢) كتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص ٢١٥.

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٧٥. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤١.

وبعد فراغه من خطبته التي رسم فيها سياسته قال: **(يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين)** فقرأ: **(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين: سلام عليكم)** فلم يرد أحد السلام. فقال الحجاج: **(اقطع يا غلام)**، ثم قال مغضباً: **(يا أهل العراق يا عبيد العصا يسلّم عليكم أمير المؤمنين، فلا يرد راد منكم السلام، أما والله لأُؤَدِبَنَّكُمْ أدباً غير هذا الأدب[1] اقرأ يا غلام)**، فلما وصل إلى السلام لم يبق أحد بالمسجد إلا وقال: **(وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته)** .[2]

وبعد فراغه من قراءة الكتاب، قال: **(قوموا إلى بيعتكم)**، فقامت القبائل قبيلةً قبيلةً تبايع وهو يستفهم عن كل قبيلة تتقدم إليه[3]. بعد ذلك أمر الحجاج بإعطاء الجند أعطياتهم، [4]ثم دعا بالعرفاء، فقال: **(ألحقوا الناس بالمهلب وائتوني بكتبه بموافاتهم،[5] ولا أستبطئنكم فاضرب أعناقكم،[6] ولا يغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٤٤ . وكتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص ٢١٦ . ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢، ص٩٦. وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص ٤٨ .
والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٥٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. مصدر سابق جـ ٥، ص ٤٤ . ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٩٦.
وكتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص ٢١٦.

(٣) تاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٥٣ . والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٥٢.

(٤) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٩٦. والتاريخ الكبير ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ص ٥٤.

(٥) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٧١. وتاريخ الأمم والملوك الطبري .مصدر سابق. جـ ٥، ص ٤٢.

(٦) نساب الأشراف البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص ٢٧١.

حتى تنقضي هذه المدة)[1].

وقال ليزيد بن علاقة السكسي - صاحب شرطته - (**اجعل سيفك سوطاً، فمن وجدته بعد ثلاثة فاقتله**)[2]؛ وعلى إثر ذلك انصرف الحجاج من المسجد إلى قصر الإمارة فلزمه[3]، وبينما كان الحجاج ملتزماً داره كان أهل الكوفة أحد رجلين رجل يتأهب للحاق بالمهلب عملاً بأوامر الوالي الجديد، ورجل يفكر في موقفه وآله وعصبته من هذا الذي استهلَّ عهدَه فيهم بالتهديد والوعيد، وكان من الطبيعي أن يتبادل المتذمرون الرأي، وأن يبيتوا له أمراً وهم المشهورون بالثورات.

ذلك أنه في اليوم الثالث اجتمعوا في السوق، وكبروا تكبيراً عالياً، فسمع الحجاج تكبيرهم، فخرج إليهم، وصعد المنبر وقال: (**يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق! إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامى! ألا يربع رجل منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه، ويعرف موضع قدمه، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها**)[4]؛ بهذه الشدَّة استطاع الحجاج أن يجابه مقدمات الثورة فأخمدها في مهدها.

وبينما كان الحجاج في المسجد جالساً يستعرض الناس قام إليه عمير ابن ضابئ الحنظلي التميمي من أشراف الكوفة، وقال: (**أصلح الله الأمير أنا في هذا البعث وأنا**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق جـ ٥، ص ٤٢. ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢ ، ص ٩٧.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٧١ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص ٩ . وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٥١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٤٣. وأنساب الأشراف البلاذري. جـ ١١، صص ٢٧١،٢٧٢. العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢ ، ص ١٣٠. كتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق ٢٦١.

شيخ كبير وعليل وابني هذا أشد مني)، فقال الحجاج: (هذا خير لنا من أبيه)، ثم قال: (ومن أنت؟) قال: (أنا عمير بن ضابئ). قال: (أسمعت كلامنا بالأمس؟) قال: (نعم.) قال:(ألست الذي غزا عثمان بن عفان؟) قال: (بلى). قال: (يا عدو الله، أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً؟ فما حملك على هذا؟) قال: (إنه حبس أبي - وكان شيخاً كبيراً). قال: (أَوَليس أبوك الذي يقول:

هَمَمْتُ ولَمْ أَفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصرَيْنِ[1]، وإنه لقبيح بمثلي أن يكون كذاباً[2]، يا حرس اضرب عنقه). فضرب عنقه، ونهب ماله.[3] وبهذا جعل الحجاج منه أمثولة وعبرة لغيره ليلزم أهل الكوفة الطاعة. هذا فضلاً عن أن لتصرف الحجاج هذا سبباً آخر هو أن ابن ضابئ تعدى بالضرب على أحد العرفاء حتى أدماه حينما أمره هذا العريف باللحاق بمعسكره، فشكاه العريف للحجاج،[4] فكان الأمر بينهما على ما ذكر.

والسبب الأوثق هنا ما ذكره أبو هلال العسكري في الأوائل وتحت عنوان: (أول رجل قتله الحجاج)، وهو أن عميراً هذا لما استشهد عثمان داس على صدره فكسر له ضلعين.بعد ذلك أمر الحجاج منادياً فنادى:

(ألا إن عمير بن ضابئ أتى بعد الثالثة وكان قد سمع النداء فأمرنا بقتله،[5] ألا فإن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٤٤. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص ٢٧٥ . والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣ ، ص ٤١ . والبداية والنهاية. ابن كثير . جـ ٩ ، ص ٩.

(٢) مروج الذهب. المسعودي. جـ ٢، ص ٩٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص ٤٤. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٢٧٥. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق جـ٣، ص٤١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق جـ ٩، ص٩.

ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢، ص ٩٦.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٧.

(٥) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص٩.

ذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب).[1]

فلما فعل ذلك خرج الناس بكثرة حتى إنهم ازدحموا على القنطرة الموصلة بين الكوفة ورامهرمز، فسقط بعضهم في النهر، فأمر الحجاج بإنشاء قنطرتين أخريين،[2] فكان الناس يخرجون ويرسلون إلى ذويهم أن زودونا ونحن بمكاننا.[3]

ويمثل لنا الرهبة التي حدثت في نفوس الناس وخروجهم إلى الأزقة أصدق تمثيل قول عبد الله بن الزَّبِيْر الأسدي حينما لقي صديقه إبراهيم بن عامر فسأله عن الخبر:

تجهَّزْ وأَسْرِعْ والْحَقِ الجَيْشَ لا أَرَى ... سوى الجيش إلاَّ في المهالك مَذْهبا

تَخَيَّرْ فإما أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضابِئٍ ... وإمَّا أَنْ تَزُورَ المُهَلَّبَا

وبذلك تطاير العصاةُ إلى أمكنتهم التي رفضوها، ولم يبق من أصحاب المهلب أحد إلا لحق به،[4] حتى إنه لتروي بعض المصادر[5] أنه خرج في تلك الليلة أربعة آلاف من مذحج وحدها. فكان في قتل عمير صلاح المِصْرَيْن.

وخرج العرفاء إلى المهلب وهو برامهرمز، فأخذوا كتبه بالموافاة، فقال المهلب حينما رأى ذلك: (**قدم العراق اليوم رجل ذكر اليوم قوتل العدو**)[6] ثمَّ أرسل الحجاج الحكم بن أيوب الثقفي إلى البصرة عاملاً عليها من قبله، وأمره أن يشتد على خالد بن عبد الله،

---

(١) عيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٣. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٠٠ . والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤١.

(٢) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢ ، ص٩٦ .

(٣) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص٩٦، وكتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص٢١٧ .

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٧٥ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص٩.

(٦) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٤٤ . وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص٥٥. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص٩.

فلما بلغ خالد الخبر خرج منها قبل أن يدخلها الحكم، فشيعه أهل البصرة فقسم فيهم مليوناً.[1]

ولاية عبد الرحمن التميمي لشرطة الحجاج:

كانت مجافاة الحجاج لأهل الكوفة قاصرة على استنهاضهم للحاق بالمهلب. أما في شؤون الدولة الأخرى فقد جرى على استشارتهم، إذ نراه يوماً يقول لأهل الكوفة (**دلوني على رجل أوليه الشرطة**) فقيل له: (**أي الرجال تريد**) قال: (**أريد رجلاً دائم العبوس طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة، لا يحنق في الحق على حرة، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة**)؛ فقالوا له (**عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي**)؛ فأرسل إليه ليستعمله، فقال: (**لست أقبلها إلا أن تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك**)، فقال الحجاج: (**يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه**)[2].

وتبدو حكمة الحجاج في الصفات التي اشترط توفرها في صاحب شرطته، إذ نراه يريد رجلاً دائم العبوس حتى لا يطمع فيه أحد، وطويل الجلوس حتى يمكنه أن يتفرغ لفهم القضايا، فتصدر أحكامه عن روية واتّزان، وسمين الأمانة أعجف الخيانة حتى يؤتمن على الأرواح والأموال، لا يحنق في الحق ولا يتأثر بوساطة الأشراف لديه فلا يطمع فيه أحد؛ وبذلك تنقطع المحسوبية ويتساوى الجميع أمام القانون، فتتحقق العدالة.

ويبدو بعد نظره في مسلكه إزاء عبد الرحمن؛ إذ إن عبد الرحمن اشترط ألا يتدخل أحد في عمله من عماله وولده وحاشيته حتى يتمكن من أداء مهمته، فكان الحجاج حين

---

(١) تاريخ الأمم والملوك الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٥. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص٩. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٣. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق .جـ ١١، ص٣٠٠ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣ ، ص٧. وعيون الأخبار . ابن قتيبة. جـ١، ص١٦ .

أراد نادى مناديه أن الذمة بريئة من هؤلاء إذا تدخلوا في شؤونه.

ولما كان الحجاج قد كفل لصاحب شرطته كل ما أراد من ضمانات فقد استطاع صاحب الشرطة أن يكون مثلاً أعلى في إدارته، فكان لا يحبس إلا في دين، وكان إذا أُتيَ برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وإذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة أو أظهر سلاحاً قطع يده، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد[1]. وبمثل ما كان الحجاج يحسن معاقبة المسيء كان يحسن مكافأة المحسن؛ فسرعان ما تبين له توفيق عبد الرحمن في شرطة الكوفة، فضم إليه شرطة البصرة، فاستتب الأمن وساد النظام.

وبعد أن وضع الحجاج الأمور في نصابها في الكوفة، وأخرج أهلها للقتال، خرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، وكان أهلها قد علموا بما فعله بأهل الكوفة، فخطبهم خطبة شديدة اللهجة فقال:

(أيها الناس: من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعليَّ أَنْ أُعْجِلَه، ومن ثقل عليه رأسه وضعتُ عنه ثِقَلَه، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه؛ إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدفعه بسفك دمه، إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم، ومن استرخى لببه ساء أدبه. إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يدي، ونجاده في عنقي، وذبابه قلادة لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه،[2] ومن

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص٧.

(٢) نهاية الأرب. النويري أحمد بن عبد الوهاب القرشي التيمي (ت٧٣٣هـ). جـ٧، ص١٤٤. وصبح الأعشى. القلقشندي أحمد بن علي الفزاري (ت٨٢١هـ). جـ١، ص٢٢٠ . وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٢٢.

كان بالبصرة من جيش المهلب فليلحق به فمن وجدته بعد ثالثة ضربت عنقه)[1].

وجلس لإعطاء الناس أعطياتهم، فأتى بشريك بن عمرو اليشكري، وكان عريفاً،[2] وقيل: هذا عاص، فقال (**أصلح الله الأمير إن بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان، فعذرني، وهذا عطائي قد جئتك به لترده إلى بيت المال**) فأمر به فضربت عنقه لاستعفائه،[3] فلم يبق بالبصرة أحد من عسكر المهلب إلا لحق به، فقال كعب:

(لَقَدْ ضَرَبَ الحَجَّاجُ بالمِصْرِ ضَرْبَةً   تَقَرْقَرُ مِنْها بَطْنُ كُلِّ عَرِيفِ)[4]

وبذلك تسابق الناس للخروج إلى القتال، فكان الرجل منهم يسارع بالخروج، ثم يطلب إلى أهل بيته إسعافه واللحاق به شأنهم في ذلك شأن أهل الكوفة.رأى الحجاج أن يتابع سياسته في شد أزر المهلب بأن يخرج إلى مكان قريب من ميدان القتال، فخرج إلى رُستقباذ،[5] ومعه وجوه أهل البصرة، ولمَّا نزلها قام خطيباً فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (**يا أهل البصرة هذا والله مكانكم جمعة بعد جمعة وشهراً بعد شهر حتى يهلك الله عز وجل هؤلاءِ الخوارجَ المطلين عليكم**)،[6] وبعث بالقرار إلى المهلب بن أبي صفرة

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٧٦ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٧٦ . وكتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص٦٦٦ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ص١٠. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٢ . وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١ ص٣٠٠ . وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٢٧٦ . وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٤٦ .

(٤) كتاب الكامل. المبرد. مصدر سابق. ص٦٦٦ . وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٢٧٦ .

(٥) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٧٧. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق جـ٣، ص٤٢ .
وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق جـ ٥، ص٤٦.

(٦) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٢٧٧ . والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٢ .

وهو برامهرمز[1].

والمستعرض لسلوك الحجاج إزاء المهلب لا يسعه إلا أن يكبر في الحجاج صفات جمة. فهو رجل قد ملكت عليه العاطفة الدينية كل حواسه، إذ نراه يعمل بكل ما في وسعه لتأييد حملة المهلب على الخوارج وأهدافها السياسية والدينية.

التنظيمات الإدارية والمالية والأمنية لولاية الحجاج:

استمر الحجاج في تطبيق النظام الإداري في العراق والأقاليم الشرقية التابعة لولايته حفاظاً على استقرار الهيكل العام للإدارة في الدولة الأموية التي تكفل لهم اتخاذ القرارات وتنفيذها الرجوع للخليفة إلا في الأمور المهمة، وهو أمر استدعاه اتساع الدولة وطبيعة وسائط المواصلات في ذلك العصر. حيث استعان كل وال بنظام إداري ومالي تأكيداً لسيادة الدولة في ولايته وإقرار الأمن والنظام فيها، وتطبيق القوانين على أهلها المختلفي العقائد والانتماءات، وهو ما جعل التنظيمات الإدارية والمالية متداخلة في هذا العصر، وذلك لوقوع مسؤولية الإدارة وجباية الأموال على الوالي.

ولا عجب، فالملك كما كان يقول عبد الملك بن مروان (**لا يصلح إلا بالرجال، والرجال لا يقيمها إلا الأموال، والأموال لا تجمع إلا بالتوفير، والاحتياط وأداء الأمانة**). وعليه حَرَصَ الحجاج على أن يضم جهازه الإداري والمالي كل من توسم فيه الكفاءة والأمانة.

وهنا لا بد للبحث من تعرُّف المناطق والأقاليم التي كانت تتبع ولاية الحجاج في العراق والمشرق. إذ امتدت ولايته من شرق الجزيرة الفراتية والموصل وأذربيجان وأرمينية لتشمل العراق وطبرستان وخراسان وما وراء النهرين - تركستان - وفارس وسجستان[2] وكرمان وحوض نهر السند (باكستان)، وشملت بالإضافة إلى ذلك الأهواز والبحرين واليمامة وحضرموت واليمن. ويروي المدائني (**أَنَّ عمل العراق من**

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ ١١، ص٢٧٨ .

(٢) سجستان أو سيستان منطقة في جنوب شرق إيران، شمالي بلوجستان.

هيت إلى الصين والسند والهند). كذلك الري وخراسان والديلم وجيلان والجبال وأصبهان - سرة العراق- ومن ولي العراق فقد ولي البصرة والكوفة والأهواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان.

والعراق في الطول من عانة إلى البصرة، والبصرة تتاخم الأهواز، والأهواز تتاخم فارس، وفارس تتاخم كرمان، وكرمان تتاخم كابل، وكابل تتاخم زرنج، وزرنج تتاخم الهند.وعليه أدار الحجاج أمور ولايته التي كانت تعد أخطر ولايات الدولة الأموية على الإطلاق؛ من الكوفة والبصرة أول الأمر، ثم انطلق من واسط ليحقق أهداف الحكم الرئيسة، وهي ضمان ولاء جميع أجزاء ولايته للخلافة الأموية والقضاء على أي فتنة أو حركة انتفاض ضدها، وجمع الأموال اللازمة لها، واستئناف حركة الفتوح.وعليه لُقِّب الحجاج بالأمير شأنه في ذلك شأن كبار الولاة والعمال في الدولة الأموية، واستمد قوته من تأييد الخليفة لتصبح القوة أكثر وضوحاً زمن الوليد بن عبد الملك مما كانت عليه خلال حكم عبد الملك الذي كان يراقب سيرته وأعماله موجهاً إليه التعليمات والإرشاداتبين الفينة والأخرى.

ويروى في هذا الشأن أن عبد الملك بعث عبد الرحمن بن مسعود الفزاري إلى أهل العراق لينظر في مظالمهم وشكاويهم من الحجاج، كما لامه على الإساءة للصحابي أَنس بن مالك وأيضاً حذّره من سفك الدماء.إلا أن مكانته ونفوذه ازداد في عهد الوليد، وتجلت هذه المكانة في مقولة الوليد فيه: (**ألا إِن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول: إِن الحجاج جلدة ما بين عيني** [1]**، ألا وإنه جلدة وجهي كله**)[2]. اعترافاً منه بفضل الحجاج بعد أن وطَّأ لبني مروان المنابر، على حد قول عبد الملك. وقد تمثلت في الحجاج صفات

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢ ، ص٩٢ . وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ١١، ص٢٤٩. وذيل الأمالي والنوادر. أبو علي القالي (ت٣٥٦هـ). ص٧١.

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٨. والبيان والتبيين. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ). جـ١، ص٢٣٧ ، و جـ ٢، صص١٦٤،١٦٦

الرجل الإداري الحازم القوي، المؤمن بحق الخلافة الأموية ووحدة دولتها، والأمين على مصالحها وأموالها. وهي صفات جعلت عبد الملك يثني على الحجاج ثناءً عاطراً ويصفه بـ(**الناصح الجيب الأمين الغيب القليل العيب**).

وعلى تحامل معظم المصادر على الحجاج، تكاد تُجمع على أمانته وحسن إدارته لأموال الدولة، وعدم محاباته لأقربائه و أصهاره والمقربين إليه، إذ كان يؤثر مصلحة الدولة على أي اعتبار آخر. ويُروى في هذا الشأن أن الحجاج رفض أن يعطي الجحَّاف بن حكيم السلمي أحد زعماء قيس شيئاً من أموال الدولة، وقال له: (أعهدتني خائناً؟) فقال: لا، ولكنك سيد قومك ولك عمالة واسعة). فأجابه الحجاج: (لقد ألهمت الصدق، ونظرت بنور الله)، فأمر له بمئة ألف درهم، وكانت عمالة الحجاج - أي مخصصاته الإضافية في السنة - خمسمئة ألف درهم؛ كما يروى أن الحجاج حبس مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري شقيق زوجته هند لتصرفه بالأموال أثناء ولايته على أصفهان، ولشربه الخمر ورفض والده أن يتوسط له لدى الحجاج لأن الأخير لم يكن يقبل الوساطة، وقال:

أَبَنِي فَزَارَةَ لا تُعَنّوا شَيْخَكم ... مالي وما لزيارة الحجاج

لا تَطْلُبوا حَاجاً إليه فإنّهُ ... بِئْسَ المُؤَمَّلُ في طِلابِ الحَاج

وليس أدل على تجرد الحجاج ورفضه الوسطاء والشفعاء من أنه حَذر أفراد أسرته وحاشيته من مغبة التدخل في شؤون صاحب شرطته، وهدد بقتل كل من يفعل ذلك.

إدارة الأقاليم:

حرص الحجاج على توفر مثل صفاته في عماله ومساعديه وأعوانه الذين ضمهم جهازه الإداري والمالي، فكان يجتهد لدى اختيار عماله على الأقاليم والنواحي، فاختار من فيه صفات رئيسة كالولاء المطلق للدولة والكفاءة في العمل والأمانة في أدائه، واحتلال العامل مركزاً مرموقاً في قومه واضعاً نصب عينيه مصلحة الدولة في هذا

الاختيار قبل كل شيء، وكان يقول :(**إِني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته**).

وأكد هذه الصفات في مناسبة أخرى حين بعث أدهم بن محرز الباهلي عاملاً من قبله على سجستان، وكتب إلى أهلها يقول: (**أما بعد فإني قد بعثت إليكم أدهم بن محرز وهو ما علمته طويل الجلوس دائم العبوس سمين الأمانة أعجف الخيانة، فاسمعوا له وأطيعوا**).

وكان الحجاج بعد اختيار عماله يحثهم على التزام جانب الحق والعدل في السيرة الذاتية، كما يستدل من الخطبة الافتتاحية التي ألقاها عامله على المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة لدى وصوله المدينة، إذ قال: (**أيها الناس إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاَّني عليكم، وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة. فان عملت بها أمرني أسعد الناس وإِنْ لم أفعل فنفسي أَوْبَقْتُ وحظَّ نفسي ضيّعتُ، إلا أني جالس لكم العصرين، فارفعوا إلي حوائجكم، وأشيروا علي بما يصلحكم ويصلح بلادكم، فإني لن ألومكم خيرا ما استطعت**).

وسار على هذه السياسة عامل الحجاج على السند محمد بن القاسم الثقفي حتى قيل إِنَّ أهل السند بكوا محمداً حين عزل عنهم، وزادوا على ذلك بأن صوروه لمحبتهم له ورضائهم عن سيرته. وبالرغم من إطلاق الخليفة يده في أمور عدة، يُلْحَظُ اختيار الحجاج عمال الأقاليم والنواحي وتعيينهم إلاَّ عامل إقليم خراسان، إذ كان الحجاج يرشحه للخليفة للموافقة حتى يصبح الترشيح نافذ المفعول، كما حدث حين أصر على عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، ورشح له مجاعة بن سعر السعدي ليحل محله، فلم يوافق عليه عبد الملك، وطلب إليه أن يرشح شخصاً آخر يمتاز بالحزم والصرامة، فسمّى له قتيبة بن مسلم، فوافق عليه[1]، وأمضى تعيينه. ويرجع ذلك إلى أهمية إقليم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٩٢ . ووفيات الأعيان. ابن خلكان أحمد بن محمد بن ابراهيم الإربلي (ت٦٨١ هـ). جـ ٢، ص ٣٥٥. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٥٤ .

خراسان لكونه ثغراً مهماً للمسلمين.

ويسأل هؤلاء العمال أمام الحجاج عن أعمالهم مباشرة إذ ينوبون عنه، ويعقدون العهود والمواثيق باسمه. ومن هنا كان الحجاج يراقب تصرفاتهم، ويتسقط أخبارهم، ويشتد في محاسبتهم، إذا ظهر منهم تقصير في العمل أو سوء تصرف أو بوادر تمرد أو تلاعب في الأموال. وكان يغتنم موسم الحج، فيسأل من يجتمع بهم من الأمصار والأقاليم التابعة له عن سيرة عُمّالهم.

كما كان يسأل من يفد عليه من الأقاليم عن مثل ذلك. وقد أورد الطبري رواية بهذا الخصوص تفيد أنه كان يتتبع أخبار يزيد بن المهلب، وتذهب الرواية إلى أن الخيار بن أبي سبرة قدم على الحجاج فسأله عن يزيد، فقال: (**حسن الطاعة لين السيرة**)، فارتاب الحجاج في إفادته، وقال له:(**اصدقني عنه**). فأجابه الرجل: (**الله أجل وأعظم، قد أسرج ولم يلجم**). فصدقه الحجاج، وكان ذلك في مقدمة الأسباب التي أدت إلى عزل يزيد ابن المهلب. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد صدق مخاوف الحجاج من يزيد إذ ما لبث الأخير أن قام بثورة خطيرة في العراق ضد الدولة الأموية في خلافة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٢هـ وهو أمر عمل الحجاج على تجنبه. وعزل الحجاج حمزة بن المغيرة عامله على همذان، وحبسه حين علم بمساعدته السرية لأخيه مطرف لدى خروجه على الدولة. ويروي ابن دريد صاحب الاشتقاق أَنَّ الحجاج وّلى علي بن أصمع على البارجاه، وهو موقع قريب من البصرة، وحذره من الخيانة قائلاً: (**والله لئن بلغتني عنك خيانة لأقطعن ما أَبْقَى عليٌّ من يدك**)، وكان علي بن أبي طالب قد استعمله، فظهرت منه خيانة، فقطع أصابع يده، وعاش حتى أدرك الحجاج. وحبس الحجاج مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري عامله على أصفهان؛ لأنه لم يف بالأموال المطلوبة منه. وهذا سفيان بن الأبرد الكلبي القائد اليمني المشهور وصاحب البلاء المعروف في قتال الخوارج جعله الحجاج عاملاً على طبرستان تقديراً لخدماته، إلا أنه لم يلبث أن عزله وحبسه لما بلغه عنه من تقصير في أداء الأموال المستحقة عليه. ووجه مثل هذه التهمة إلى يزيد بن المهلب

وأخويه المفضل وعبد الملك، وحبسهم بعد أن عجزوا عن دفع المبالغ المطلوبة منهم، وقدرها ستة ملايين درهم.

وبلغت شدة الحجاج في محاسبة عماله درجة جعلته يحصي تركة عماله، ويشك في مصدر أموال تلك التركات إذا جاوزت الحد المعقول، من ذلك شكه في الأموال التي وجدت في حوزة أخيه محمد بن يوسف عامله على اليمن بعد وفاته، بل إن الحجاج كان يصر على أن ينال كل من أساء من العمال عقابه الرادع حتى يكون عبرة لغيره، كما حدث حين طالب عبد الملك بإنزال العقوبة الصارمة بعروة بن الزبير عامل اليمن الذي التجأ إلى الخليفة حين بلغه أن الحجاج عازم على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله. واتخذ مثل هذا الموقف من موسى بن نصير، واتهمه باقتطاع جزء كبير من أموال العراق حين كان مسؤولاً عن خراج العراق زمن بشر بن مروان.

وقد حاول الحجاج جاهداً القضاء على هذه الظاهرة التي كانت تؤثر في خزانة الدولة، وترفع من شأن أولئك العمال لدى المنتفعين بهم على حساب الحجاج وسمعته. وكان يتمنى لو أدرك مقاتل بن مسمع، فيقتله لأنه ولي سجستان فأتاه الناس، وأعطاهم الأموال، فلما عزل دخل مسجد البصرة، فبسط الناس له أرديتهم، فمشى عليها، وقال لرجل يماشيه: (**لمثل هذا فليعمل العاملون**).

ويبدو أن حرص الحجاج على ضمان ولاء عماله للدولة الأموية وإخلاصهم لها جعله يستعمل عدداً من أفراد أسرته وقبيلته، بينهم أخوه محمد بن يوسف عامله على اليمن، وابن عمه الحكم بن أيوب بن الحكم عامله على البصرة، وعروة بن المغيرة بن شعبة أخوه لأمه نائباً عنه على الكوفة، وحمزة بن المغيرة عامله على همذان، ومطرف بن المغيرة عامله على المدائن، والقاسم بن محمد بن الحكم الثقفي ابن عمه على البصرة، وابنه محمد بن القاسم على فارس ثم السند. لاعتقاده بولاء الثقفيين المطلق للأمويين بحكم العلاقات التقليدية الوطيدة بينهما، حتى إنه استبعد نسبة مطرف إلى المغيرة بن شعبة لما أعلن ثورته، ونسبه إلى بني شيبان المشهورة بالخروج على السلطان، وكان ذا سمع

وطاعة وسلامة. وقال أيضاً: (**ما لثقيف وهذا الرأي، وإنما هذا الرأي لبني شيبان**).

على أن ذلك لم يحل دون استعانة الحجاج بأشخاص من خارج أسرته وقبيلته ممن توسم فيهم الإخلاص والولاء والكفاءة مثل قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان وسجستان، والجراح بن عبد الله الحكمي عامله على البصرة، وقطن بن زياد بن الربيع الحارثي عامله على البحرين، وعبد الرحمن بن سليم الكلبي ثم عبد الجبار بن سبرة المجاشعي عامليه على عمان، وإبراهيم بن عربي عامل اليمامة.

وقدم لنا الهيثم بن عدي مثلاً لهؤلاء العمال هو عبيد الله بن أبي المخارق القيني الذي استعمله الحجاج على الفلوجة العليا على غير قرابة ولا دالة ولا وسيلة، فاستشار هذا العامل دهقاناً مجرباً من أهل المنطقة قبل مباشرته العمل فسأله الدهقان: (**أقدمت لرضا ربك أم لرضا من قلدك، أم لرضا نفسك؟**) فقال له عبيد الله: (**ما استشرتك إلا لرضا الجميع**)، فأجابه الدهقان قائلاً: (**لا يكون لك بواب حتى إذا تذكر الرجل من أهل عملك بابك لم يخفْ حُجَّابك، وإذا حضر شريف لم يتأخر عن لقائك، ولم يحكمْ على شرفك حاجبك، وليطل جلوسك لأهل عملك يحبّك عمالك، ويبقى مكانك ولا يختلف لك حكمٌ على شريف ولا وضيع، ليكن حكمك واحداً على الجميع يشق بعقلِك النَّاسُ، ولا تقبل من أحد هدية فإن صاحبها لا يرضى بأضعافها مع ما فيها من الشهرة**).وهذا نموذج يصور التعاون بين العمال والدهاقين أو عمداء القرى الذين ظلوا يتولون مهمة جمع الضرائب كما كان الحال في الدولة الساسانية.

حرص الحجاج في اختيار عماله ومعظم أعضاء جهازه الإداري والمالي من ذوي المكانة والشرف والصلاح، وكان يرى أن الوظيفة تكليف بعمل إلا في حالات قليلة، فقد استعمل أبا حرب بن أبي الأسود الدؤلي على جوخا، ووصفه ابن قتيبة الدينوري بأنه كان عاقلاً شاعراً... لم يزل عليها حتى مات الحجاج، واستدعى أبا وائل بن سلمة الأسدي، وكان قد تقدمت به السن ليوليه السلسلة، فاعتذر إليه لضعفه وكبر سنه، فلما تحقق صدق مقالته وعده بقبول عذره وإعفائه من هذه المهمة إذا وجد غيره.

الإدارة في إقليم العراق:

كثيرة هي المصادر التي تحدثت عن التنظيمات الإدارية والمالية في إقليم العراق في عهد الحجاج، في حين تقل المعلومات بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى التي كانت تتبع ولايته، ويرجع ذلك إلى اتخاذ العراق مقراً للولاية فضلاً عن أن معظم المؤرخين المسلمين الأوائل ينتسبون إلى هذا الإقليم. وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى تركيز الضوء على الإدارة في إقليم العراق الذي تولاه الحجاج مباشرة.

امتدت حدود هذا الإقليم زمن الحجاج حسب المصادر من هيت إلى تكريت شمالاً وإلى خليج البصرة جنوباً، ومن غير التمر والقطقطانة غرباً إلى إقليم الجبال شرقاً. ونجد أن منطقة الموصل ضمت منذ نشوء الدولة الأموية إلى ولاية الجزيرة وأرمينية بعد أن كانت تتبع مع أذربيجان وأرمينية الكوفة، في حين تقلصت الأجزاء الشاسعة التي كانت تتبع البصرة والتي كانت تشمل معظم أقاليم المشرق.

اتخذ الحجاج من الكوفة أول الأمر عاصمة لولايته، وجعل على البصرة وغيرها من مدن الأقاليم كالمدائن والدسكرة وجوخا وتستر وعين التمر والفلوجتين عمالاً يتولون عنه تصريف الأمور في هذه المدن والمناطق، ولم تكن إقامته في الكوفة دائمة، بل كان من عادته التنقل بين الكوفة والبصرة ليمضي فيها بضعة أشهر ليعود ثانية، وعليه جعل أخاه لأمه عروة بن المغيرة بن شعبة الثقفي عاملاً عليها.

وكان يقيم في قصره المعروف بقصر الإمارة في الكوفة، ثم بنى قصراً آخر عندما تحول إلى واسط اشتهر بقبته الخضراء. وكان على بابه حراس وحجاب، وعند خروجه يسير بين يديه قادة حرسه الخاص وبعض رجال شرطه.

واهتم باختيار حجّابه، فكان يقول: (**حاجب الرجل وجهه وكاتبه كله**). ومارس تصريف الأمور من داخل قصره في معظم الأحيان؛ إذ ضم مجلسه عدداً من جلسائه ومستشاريه من ذوي المكانة والأدب، يشاورهم، ويستطلع رأيهم فيما يعضل من الأمور ولا سيّما في أوقات الحروب. منهم عنبسة بن سعيد بن العاص أحد الأمراء الأمويين

وشقيق عمرو بن سعيد الأشدق الذي حاول اغتصاب الحكم من عبد الملك. وكان عنبسة أثيراً لدى الحجاج لا يكاد يفارقه، وكذلك عامر بن شراحيل الشعبي فقيه الكوفة وأديبها المعروف، وأيوب بن القِرِيَّة صاحب الأسلوب الأدبي والحكم المأثورة، وعبد الله بن هانئ الأودي اليمني الذي شهد مع الحجاج جميع وقائعه وحروبه، وسمير بن الجعد الذي لم يكن الحجاج يطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه علماً.

بالإضافة إلى مولاه يزيد بن أبي مسلم كتابع، وحاجبه على ما وراء بابه ومولاه عبد الرحمن بن زياد صاحب الرأي والمشورة والفقه والأدب والنصيحة. ويقول صاحب الإمامة والسياسة: إنَّ الحجاج عهد إلى رجل من ثقاته يدعى يحيى بالقيام خلف ظهره ينبهه إذا غفل أو نسي شيئاً في مجلسه، ويقول له في مثل هذه الحالة: (**اذكر الله يا حجاج**) فيفطن إلى ذلك (**ويذكر ما بدا له أن يذكر**).

كان الحجاج جاداً كل الجد في مجلسه وفي حياته بصفة عامة حتى قيل: (**إنه كان قليل الضحك إلا أن يغلب على نفسه، فيوالي بعدها الاستغفار**)، كما كان يعتني بمظهره، فيرجل[1] شعره، ويخضب أطرافه[2]. ويحظر على أحد أن يقلده في لباسه، فإذا وضع على رأسه (**عِمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها**). ومثل ذلك كان يفعل عبد الملك إذا لبس خفه الأصفر فلا يلبس أحد من الخلق خفاً أصفر حتى ينزعه، وساعده ذلك بالإضافة إلى حزمه وشدته على أن يهابه الناس هيبة شديدة حتى أقرب المقربين إليه.

ويروي أبو مخنف كيف كان جلساء الحجاج يرتعدون خوفاً إذا غضب، وكيف أن أحدهم وهو حميد بن الأرقط قطع حديثه معه حين رفع الحجاج صوته للتنديد بأعشى همدان لهجائه إياه، فلما سأل الحجاج محدثه عن سبب توقفه عن متابعة الحديث أجابه قائلاً: (**ماهو إلا أن رأيتك غضبت، فأرعدت فصائلي، واحزألَّتْ مفاصلي، وأظلم**

---

(١) يخفف من تجعده دون أن يجعله سبلاً.

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦ .

بصري، ودارت بي الأرض) وهذه السطوة هي التي جعلت الحجاج يقبض على ناصية الأمور في العراق بيد من حديد، وجعلت الناس يهابونه؛ حتى قال له أبو وائل شقيق ابن سلمة الأسدي: **(والله ما رأيت الناس هابوا أميراً قط هيبتهم لك)**. وقد أسهبت المصادر في ذكر الهيبة والسطوة اللتين كانتا تحيطان بشخصية الحجاج حتى قيل: إن أحد الأسرى جيء به إليه، فشهق ومات. وأُتي برجل آخر من أصحاب ابن الأشعث إليه فقال له الرجل: **(أسألك الله أن تقتلني وتخلصني)**، فلما سأله الحجاج عن سبب ذلك قال له: **(إني أرى كل ليلة في المنام أنك تقتلني وقتلة واحدة خير)** فضحك وخلَّى سبيله. وهذا شقيق الأسدي أحد أعيان الكوفة يقول للحجاج: **(وايم الله أيها الأمير لأذكرك من الليل فيمتنع مني النوم)**.

ولإشاعة الهيبة من حوله لجأ إلى تهديد كبار رجالات العراق كما فعل بأنس بن مالك والهذيل بن عمران البرجمي، وذلك حتى يثبت للناس قدرته على النيل منهم إذا أساؤوا كما نال من سادتهم. فقد روي أنه قال لأنس معتذراً عن إساءته إليه: **(إن الذي فرط مني إليك عن غَيْرِ نيَّةٍ ولا رضى بما قلت؛ ولكنّي أردت أن يعلم أهل العراق إذا كان منك ما كان أَني إذا بلغتُ منكَ ما بلغتُ كنتُ إليهم بالغِلظة والعقوبة أسرعَ)**.

وذكر البلاذري أن وجهاء العراق دخلوا عليه ذات يوم، فرأى الهذيل ابن عمران بن الفضيل البرجمي وكان من أشراف أهل البصرة . . . وهو يجر ثوبه فقال له: **(يا هذيل ارفع ثوبك)**، فقال:**(إن مثلي أيها الأمير لا يقال له هذا القول)**. فقال الحجاج: **(بلى والله وتضرب عنقه!)**. فخرج الهذيل وهو يقول: **(قاتله الله جدياً ما أتيهه في نفسه!)**، وفي الهذيل يقول الشاعر:

يا أيها السائل في الرفاق ... إن الهذيل سيد العراق

وتحدثنا بعض المصادر أَن الحجاج كان بعد انتهاء عمله اليومي في النهار يخلو إلى نفسه مدة طويلة في الليل في مقصورة خاصة حيث يرجح أن تكون شؤون ولايته من بين الأمور التي يفكر فيها، إذ كان شديد اليقظة والحذر والحيطة، ويقول: **(والله إني**

لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً)، وكان أحياناً يطوف ليلاً في أرجاء عاصمته لاستطلاع أحوال رعيته وأخبارهم حرصاً منه على الوقوف على ما يدور في ولايته، كما كان الحال بالنسبة إلى زياد بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان. ترأس الحجاج الجهاز الإداري والمالي في ولايته، إلا أنه لا بد للبحث من التحدث بإيجاز عن الأجهزة الإدارية والمالية الأخرى التي كانت تتولى بإشرافه تصريف شؤون العراق. والتي أطلق عليها الدواوين في تلك الحقبة.

ديوان الرسائل:

ويلحق هذا الديوان بقصر الإمارة، ويختص بكتابة الرسائل والتعليمات إلى العمال وإصدار عهود توليتهم العمل واستلام رسائلهم الموجهة إلى الحجاج والرسائل والالتماسات التي يرفعها الناس إليه للنظر في مطالبتهم، وكان يتولى هذا الديوان عدد من الكُتَّاب الذين امتازوا بالفصاحة وحسن الأسلوب.

وقد ترأسهم مولى الحجاج يزيد بن أبي مسلم الذي كان يتقاضى على عمله راتباً شهرياً قدره ثلاثمئة درهم، وظل يشغل هذا الإقليم لأمانته، وكان يثني عليه ويقول عنه: إنه **(أبو عبيدة هذا القرن)**، ويبدو أن التماسات الناس كانت تعرض عليه أولاً للنظر في صلاحية عرضها على الحجاج؛ فقد روي أن رجلاً أتى برُقْعَةٍ إلى يزيد، وطلب إليه أن يرفعها إلى الحجاج، فنظر فيها يزيد، وقال: **(ليست هذه من الحوائج التي ترفع إلى الأمير)**. فقال له الرجل: **(إني أسألك أن ترفعها، فلعلها أَنْ توافق قدراً، فيقضيها وهو كاره)**، فأدخلها، وأخبره بمقالة الرجل. فنظر الحجاج في الرقعة وقال ليزيد: **(قل للرجل قد وافقتْ قدراً وقد قضيناها ونحن كارهون)**.

كذلك شارك في مهنة الكتابة كتاب آخرون براتب أقل؛ منهم نافع مولى مصعب بن الزبير الذي دخل في خدمة الحجاج حين ولي العراق والمهاجر بن جابر البجلي وحسان النبطي، وكانت مهمتم إعداد الرد المناسب على الرسائل وفقاً لرغبات الحجاج ورأيه. وأورد صاحب العقد الفريد نماذج من توقيعات الحجاج، أي تعليقاته على رسائل عماله

امتازت بالإيجاز والدلالة البعيدة، من ذلك توقيعه على كتاب ورده من قتيبة بن مسلم **(لا تخاطرْ بالمسلمين حتى تعرفَ موضعَ قدمِك ومرمى سهامك)**.

وفي قصة مجبوس ذكروا أنه كتب: **(ما على المحسنين من سبيل)**، وفي كتاب صاحب الكوفة إليه يخبره بسوء طاعتهم وما يقاسي من مداراتهم كتب: **(ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه)**. ختمت رسائل الحجاج بخاتم الأمير، واحتفظ بنسخ عنها منعاً للتلاعب والتزوير؛ إذ اتُّبِع مثل هذا الإجراء زمن زياد بن أبي سفيان، ويقال: إنَّ الحجاج أول من استخدم القراطيس أي ورق البردي في الكتابة، إذ كان هذا النوع من الورق ينتج في مصر، ويرسل منها إلى دمشق حيث يوزع على الولاة والعمال. ويبدو أن تداوله كان على نطاق ضيق لارتفاع تكاليفه مما جعل عمر بن عبد العزيز يطلب إلى عماله الاقتصاد في استعماله. كذلك نقلت الرسائل العادية بواسطة البريد، أما الرسائل المهمة فيقوم بنقلها مبعوث خاص. وقد تطور فن كتابة الرسائل أواخر العصر الأموي، فوضعت له قواعد وأصول بلغت أوجها على يد عبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

ديوان البريد:

بلغ نظام البريد مرحلة متقدمة في عهد عبد الملك مما أسهم في ضبط شؤون الدولة العربية الإسلامية وإدارتها، فكان الحجاب يحملون البريد في أي ساعة من ليل أو نهار، **(فربَّما أفسد على القوم سنة حبسهم البريدَ ساعةً)** على حدّ قول عبد الملك نفسه. وعليه أفاد الحجاج كثيراً من نظام البريد في إيجاد اتصال سريع ومنتظم بين أجزاء ولايته المترامية الأطراف، إذ كانت تصل إليه أخبار عماله واحتياجتهم، ويبعث إليهم بالتعليمات والمعونات اللازمة. وتحدثنا المصادر أن الحجاج كان يساوره قلق شديد إذا تأخر عنه بريد عماله وقادته أو انقطعت رسائلهم عنه لسبب أو لآخر، خشية تعرضهم لمخاطر أو اجتاحهم عدو كما حدث عندما حوصر قتيبة بن مسلم وقواته في بيكند فيما وراء النهر، وانقطعت أخباره بضعة شهور، **فأشفق الحجاج**، كما جاء في الطبري، على

الجند، وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار)؛ كذلك قدَّم البريد خدمة كبرى للحجاج إبّان ثورة ابن الأشعث؛ وذلك حين أرسل إليه عبد الملك طلائع المدد والنجدة على خيول البريد السريعة وتمكن بذلك من الصمود في وجه قوات عدوه الكبيرة. ولأهمية البريد طوَّر الحجاج هذا الجهاز، فعززه بنظام مراسلات سريع عن طريق المناظر والنارات التي كانت تصل بين مقر الحجاج في واسط والثغور النائية حيث تدل إشاراتها الضوئية في الليل؛ والدخان المنبعث عنها في النهار على الوضع في الأقاليم المتاخمة للأعداء وحاجتها إلى المدد السريع.

جهاز الأمن:

ويمكن تقسيم هذا الجهاز إلى قسمين: أحدهما جهاز الأمن الداخلي، والآخر جهاز الاستخبارات للمحافظة على أمن الدولة. ويتولى الجهاز الأول رجل قوي حازم يطلق عليه صاحب الشرطة، يساعده في أداء عمله شرطة وحراس وعَسَسٌ، وكان الحجاج يختار أصحاب شرطته بعناية فائقة، ويشترط فيهم قوة الشخصية والمهابة والشدة في الحق والنزاهة والأمانة حتى يستطيع بوساطتهم تحقيق الأمن والاستقرار داخل ولايته.

ويبدو أن كثرة هذه الجرائم هي التي حدت بالحجاج إلى التشدد في نوع العقوبة. وهو أمر يتفق على كل حال مع شدة الحجاج وحزمه إذ كان قد أوصى صاحب شرطته لدى وصوله العراق أن يجعل سيفه سوطاً. ويعد صاحب الشرطة الرجل الإداري الثاني بعد الوالي أو العامل، ويستدل على أهميته من الواجبات الكثيرة الملقاة على عاتقه، فهو الذي يحفظ الأمن، ويفض المنازعات، ويتعقب اللصوص وقطاع الطرق والثوار، ويعاقب الذين يخرجون على النظام والعرف العام، ويتولى معاونوه أعمال الحراسة في الليل والنهار ومراقبة تطبيق القوانين والأنظمة ومعاقبة المخالفين من الذين يتخلفون عن الخروج في الحملات العسكرية، أو أولئك الذين يخرقون نظام منع التجول في الليل، والمتقاعسين عن أداء ديونهم، وغير ذلك من الأمور العامة التي تحدث داخل المدن.

ولعل ثقل هذه الواجبات هي التي جعلت اختيار صاحب الشرطة من المهام العسيرة، إذ لا بد أن يكون قوي الشخصية والعصبية مهاباً مسموع الكلمة، وموضع ثقة مطلقة من الوالي والعامل، ومن هنا لا نعجب إذا رأينا مرتب صاحب الشرطة مرتفعاً كما كان الحال زمن بشر بن مروان، إذ بلغ مرتب عكرمة بن ربعي بن عمير صاحب شرطته مئة ألف درهم سنوياً. وقد شغل هذا المنصب أيضاً زمن الحجاج، إذ يحتمل أنه كان يتقاضى هذا المرتب نفسه تقريباً.

انحصرت أعمال صاحب الشرطة داخل المدن فقط، ويساعده في أداء عمله أعوان أي رجال شرطة وحراس وطائفون من الصعب تحديد عددهم، إذ بلغ عددهم زمنه في البصرة وحدها أربعة آلاف. وينتمي معظم رجال الشرطة إلى العرب، وإن كان عبيد الله بن زياد والحجاج استخدما بعض العناصر التركية في أعمال الحراسة الخاصة في كل من البصرة وواسط؛ أما ضبط الأمن خارج المدن فقد أنيطت مسؤوليته بالسكّان من القبائل والسكان الأصليين، وجعل كل قوم مسؤولين عن أي حادث يقع في المنطقة التي ينزلونها، وأنذروا بإنزال أشد العقوبات الجماعية بهم إذا وقع حادث في منطقتهم. ويروى أَنَّ بني عمرو بن حنظلة قطعوا الطريق الذي يمر بهم، فكتب الحجاج إليهم محذراً: (**أقسم بالله لئن عاودتم الظلم وسعيتم في الإثم لأبعثن إليكم خيلاً تدع نساءكم أيامى وأولادكم يتامى! فأيما رفقة وردت ماء قوم لكم فأهل الماء ضامنون لها، إن تجاوزتهم إلى ماء غيرهم، تقدمة مني إليكم إنذاراً لكم، فالانتقام يعقب العفو، والإنذار لا بقية معه والسلام!**).

ويبدو أن هذا الإجراء كان متبعاً زمن زياد بن أبي سفيان، إذ روي عنه قوله: (**لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه**). ولم يكتف الحجاج بهذه الإجراءات، بل لجأ إلى إقامة مراكز للشرطة على مفارق الطرق الرئيسة ولا سيَّما تلك التي كانت تؤدي إلى منطقة أخرى في ولايته الواسعة، وقد أشارت المصادر إلى اثنين من هذه المراكز عرضاً. ويقع المركز الأول في سفوان على الحدود العراقية المتاخمة للكويت، حيث كان

يوجد هناك مركز يعرف باسم قصر سفوان ينزله المجيزون الذين **يحفظون الطريق ويجيزون السابلة**، أي يسمحون للمسافرين بالمرور؛ ويبدو أن سلطة الحجاج الفعلية على العراق كانت تنتهي عند هذا المكان كما يفهم من قول أحد الفارين من الجيش في زمنه وهو الشاعر سوار بن المضرب:

أقاتلي الحجاج إن لم أزر له ... دراب وأترك عند هند فؤاديا

فإن كان لا يرضيك حتى تردَّني ... إلى قَطَريٍّ لا إخالك راضيا

إذا جاوزت درب المجيزين ناقتي ... فباست أبي الحجاج لما ثنانيا

أترجو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي ... وقوميَ تميمٌ والفلاةُ ورائيا

وأما المركز الثاني فكان في الطريق المؤدية من العراق إلى الرقة حيث يذكر عمر بن شبة وجود **أهل مسلحة في الطريق يمنعون النساء**. ويرجح وجود عدة مراكز من هذا النوع عبر الطرق الرئيسة التي تربط مختلف أقاليم الولاية.

وقد أفصح الحجاج عن هدفه من إشاعة الأمن والاستقرار في ربوع ولايته، وذلك حتى يتفرغ لمناهضة أعداء الدولة ومواصلة فتوحها وجباية الأموال، وتحقيق هيبة الحكم. وكان يقول: (**إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قُتل عدو ولا جُبي فيء ولا عز دين**)؛ وأوردت بعض المصادر عدة حكايات وقصصاً حول اهتمام الحجاج بإقرار الأمن والنظام وتعاقب المخلين بهما، من ذلك صلبه للص البصرة المشهور شظاظ الذي أورد صاحب الأغاني أخباره، وجحدر بن مالك من بني حنيفة الذي كان يهدد أهل حجر باليمامة، ويقطع الطريق، ويغتصب الأموال.

وقد اشتهر بأسه، وانتشر صيته حتى أمر الحجاج عامله على اليمامة أن يبعث به إليه مهما كلف الأمر، فوضع الأخير مكافأة كبيرة لمن يقتله أو يأسره، فاحتال عليه قوم من بني يربوع وأسروه، وأُرسل إلى الحجاج مقيداً. فقال له الحجاج: (**ما حملك على ما كان منك؟**) قال: (**جرأة الجَنَان،وجفاء السلطان، وكَلَبُ الزمان**). قال الحجاج: (**وما الذي**

بلغ منك، فيجترئ جنانك، ويجفوَك سلطانك، ويكلُبَ زمانُك؟) فقال جحدر: (لو بلاني الأمير - أصلحه الله - لوجدني من صالح الأعوان وبهم الفرسان، ولوجدني من أنصح رعيته، وذلك أني ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً). فقال له الحجاج: (إنا قاذفون بك في حائر فيه أسد عاقر ضار، فإن هو قتلك كفانا مؤونتك، وإن أنت قتلته خلينا سبيلك)، وتمضي الحكاية فتقول إن الحجاج بعث إلى عامله أن يبعث إليه بأسدٍ ضارٍ عاتٍ، فوضع في حائر، وأجاعه ثلاثة أيام، وأدخل عليه جحدراً بعد أن ربط يده اليمنى إلى عنقه وأعطاه سيفاً في يده اليسرى. فلما نظر إليه الأسد زَأَرَ زأرةً شديدةً وتمطَّى وأقبل نحوه، فلمّا صار منه على قَدْرِ رمحٍ وَثَبَ وثبةً شديدةً، فتلقّاه جحدرٌ بالسيف، فضربه ضربةً خالط ذباب السيف لهواته، فخرَّ الأسد كَأَنَّهُ خيمةٌ، قد صرعتْها الرِّيحُ، وسقطَ جحدرٌ على ظهره من شدّة رميةِ الأسدِ وموضع الكبول، فكبَّر الحجَّاج والناس جميعاً. والتفت جحدر إلى الحجاج وقال:

ولئن قصدْتَ لِيَ المنيةَ عَامِداً إِنِّي لَخَيْرك يا بن يوسفَ راج

عَلِمَ النِّساءُ بأنّني لا أنثني إذ لا يثقنَ بغَيْرَةِ الأزواجِ

وعلمتُ أنّي إن كرهتُ نزالَه إني من الحجَّاج لستُ بناجِ

فقال له الحجاج: (إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك)، فقال: (بل أختار مجاورة الأمير أكرمه الله،) ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته.

وروي عن جليس الحجاج عنبسة بن سعيد حكاية أخرى مشهورة قال فيها: ثم أُتِيَ برجل آخر فقال: (ما أخرجك في هذه الساعة؟) فقال: (والله لا أكذبك، لزمني غريم لي على بابه، فلما كانت الساعة أغلق بابه دوني، وتركني على بابه، فجاء الطائف فأخذني). فقال: (اضربوا عنقه!) ثم أُتِيَ بآخر فقال: (ما أخرجك هذه الساعة؟) فقال الرجل: (كانت معي شربة، فشربت، فلما سكرت خرجت، فأخذني الطائف، فذهب عني السكر فَزَعاً،) فقال الحجاج: (يا عنبسة ما أراه إلا صادقاً خلّوا سبيله!).

جهاز الاستخبارات:

لم يكتف الحجاج بجهود الشرطة في المحافظة على الأمن الداخلي، بل استعان بمجموعة كبيرة من العيون والمخبرين لصيانة أمن الدولة من المتربصين بها ومدبري الفتن والدسائس ضدها، فكان مخبروه يوافونه بكل ما يحتاج إليه من معلومات لكشف أولئك الأعداء وإحباط خططهم في الوقت المناسب، وكان يقول: (**والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً**) ويرى أن (**الفتنة تلقح بالشكوى، وتتم بالنجوى**) أي يكتمل التدبير لها بالسر والخفاء. ومن هنا جاء اهتمام الحجاج ببث العيون والجواسيس لتسقط أخبار الناس والوقوف على رأيهم في حكمه، ودفعه إلى ذلك معرفته ببعض أهل العراق له وسعيهم فيه حتى قال المدائني: (**ما تناجى اثنان دون واحد إلا ظنَّ - الحجاج - بهما اغتياباً له أو طياً لأمرهما عنه**). وعليه انتشر العيون في كل مكان مما جعل مطرف بن المغيرة، يخشى حين تحدث في المدائن عن خلع الحجاج وعبد الملك أن تبلغ مقالته الحجاج، ويزاد على كل كلمة عشر أمثالها؛ ولكفاءة مخبري الحجاج تمكن خلال يومين فقط من معرفة الوجهة التي قصدها يزيد بن المهلب بعد فراره من السجن إلى بلاد الشام؛ حيث التجأ إلى سليمان بن عبد الملك في فلسطين، وبهذه الطريقة أيضاً علم الحجاج المكان الذي التجأ إليه سعيد بن جبير في مكة؛ ويروى أنه قال حين مثل سعيد بين يديه: (**لعن الله ابن النصرانية- يعني خالداً القسري- أما كنت أعرف مكانه؟ بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة**).[1]

بلغ تيقظ الحجاج واحتراسه درجة جعلته يعهد إلى مخبريه بالتجسس على جميع رسله الذين يوفدهم في مهام رسمية ليتأكد من قيامهم بالمهام الموكلة إليهم على خير وجه. وأدى انتشار العيون في كل مكان إلى حذر الناس من الخوض في شؤون السياسة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص٢٦٢ . والبداية والنهاية . ابن كثير. جـ ٩، ص٩٧. وعقد الجمان. العيني. جـ ١١، ص٣٣٥. والعيون والحدائق. (مؤلف مجهول) تح. دي غويا. جـ ٣، ص١٣ . والقول فيه شتم بالخروج عن ملة الإسلام إلى غيرها.

والحكم والارتياب بكل غريب يطرقهم، كما يتضح من قول الشاعر حميد الأرقط يذكر ضيفاً:

إذا مـــا أتانـــا وارد المصر مُـــرْمِلا ... تـــأوَّبَ نـــاري أَصْـــفَرُ العقـــل قافـــلُ

فقلـــتُ لعَبْـــدَيَّ أَعْجِـــلا بعَشَـــائِهِ ... وخَـــيْرُ عَشـــاءِ الضَّـــيْفِ مـــاهو عاجـــلُ

يقـــول وقـــد ألقـــى المـــراسي للقِـــرى ... أبـــن لي مـــا الحجـــاجُ بالنَّـــاس فاعـــلُ

فقلـــتُ لعمـــري مـــا لهـــذا طرقتَنـــا ... فكـــلْ ودَعِ الأخبـــارَ مـــا أنـــت آكِـــلُ

وكان بالإضافة إلى ذلك يسأل كُتَّابه وموظفيه عن رأي الناس فيه، ويذكر صاحب الوزراء والكتاب أن الحجاج سأل بعض كتابه يوماً أن يخبره بما يقول الناس فيه؟ فاستعفاه فلم يعفه، فقال: (**يقولون إنك ظلوم غشوم قتّال عَسُوف كذّاب**)، فأجابه الحجاج: (**كل ما قالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب، فو الله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله!**).

ولم يكتف الحجاج بكل هذه المصادر، فقام بجولات ليلية في أرجاء عاصمته بنفسه ليستطلع أحوال الناس، ويتسقط أخبارهم، ويسمع آراءَهم فيه وفي حكمه. وقد ذكر الأصمعيُّ أَنَّ الحجَّاج مر ليلة بدكان لبان وعنده بستوقة فيها لبن وهو يتمنى ويقول: (**أنا أبيع هذا اللبن بكذا درهماً، وأشتري به كذا، ثم أبيعه، ثم يكثر مالي، ويحسن حالي، وأخطب إلى الحجاج ابنته، فأتزوج بها، فتلد لي ابناً، فأدخل عليها يوماً، فتخاصمني فأضربها برجلي هكذا**). ومد رجله فكسر البستوقة، فقرع الحجاج بابه، واستفتحه، فضربه خمسين، وقال: (**أليس لو ضربْتَ ابنتي بوَكْزَةٍ هكذا لفجعتَني بها**). وسواء صحت هذه الحكاية أم كانت كما يبدو من نسيج خيال الراوي، فإنها تدل في أساسها على أن الحجاج كان يطوف بالليل أحياء عاصمته ويستطلع أمورها.

وأخيراً كان جهاز الاستخبارات من أهم الأجهزة التي حفظت الدولة الأموية من الانهيار المبكر، بل إِنَّ تطرُّق الخلل إلى هذا الجهاز في أواخر الدولة كان في مقدمة

الأسباب التي أدت إلى سقوطها كما اعترف بذلك أحد أفراد البيت الأموي حين قال: (**وكان أوَّل زوال ملكنا استتار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا**).

السجن والسجناء:

وتطبيقاً للأمن وحفظه كان الحبس من بين العقوبات المعمول بها ضد بعض المخالفين والجناة بالإضافة إلى عقوبات أشد، من بينها الجلد والتعذيب وسيلةً لحمل المتهمين على الاعتراف بالتهم الموجهة إليهم واستيفاء الأموال والحقائق منهم، وأجريت عقوبة القتل للخارجين على الدولة أو أولئك الذين يصرون على المجاهرة بموقفهم المعادي منها والنيل من ولاتها وخليفتها عندما يمثلون أمام المحكمة كما يفعل كثير من الخوارج المتعصبين.

ويُلحظُ قبل التعرض للسجن والسجناء في ذلك العصر أن العقوبات آنذاك امتازت بالشدة التي تصل أحياناً إلى حد القسوة، ويبدو أن الفوضى التي سادت العراق قبل الحجاج وتعوّد الناس المخالفة والتمرد جرَّأ عدداً غير قليل منهم على الخروج على الدولة أو عصيان أوامرها، ولا سيَّما أولئك الذين لم يتقيدوا بظاهرة الانضباط في نطاق الدولة والتقيد بطاعة أنظمتها وقوانينها. ولا بد من الإشارة إقراراً للحقيقة أن فرض هذه العقوبات الشديدة قد سبقه العديد من بيانات التحذير والإنذار والوعيد التي ترددت كثيراً في خطب الحجاج ورسائله وأقواله ومنها قوله المشهور (**الانتقام يعقب العفو، والإنذار لا بقيةَ معه**).

وتحدثنا المصادر أن السجناء كانوا يوضعون في سجنين أحدهما للرجال في واسط ويدعى "الديماس"، والآخر للنساء في البصرة ويدعى "قصر المسيرين". ومن الصعب إعطاء فكرة واضحة عن ديماس الحجاج؛ لأن معظم المصادر التي أتت على ذكره تعمدت تقديم صورة شائهة عنه، حتى تعطي دلائل جديدة على ظلم الحجاج وقسوته؛ الأمر الذي يبعث على الشك؛ لأن مثل هذا الوضع من شأنه أن ينشر الأوبئة والأمراض الفتاكة لا بين السجناء فحسب، بل في واسط نفسها التي كان الحجاج يحرص كل

الحرص على نظافتها، ويحبس كل من يتغوط أو يبول في شوارعها وأحيائها. ومما يزيد في هذا الشك أن سجن الحجاج كان يضم عدداً غير قليل من الرجال النابهين أمثال يزيد بن المهلب، ومالك بن أسماء وسفيان بن الأبرد الكلبي ومسمع بن مالك وغيرهم. ولا يعقل أن يبقى هؤلاء طوال مدة حبسهم في الديماس الذي ليس له سقف يقي من البرد والمطر ولا ظل يقي من هجير الحر.

وهذا اليعقوبي في تاريخه يصف حالة يزيد بن المهلب داخل سجن الحجاج بما يشبه الاعتقال الاحترازي مع تعرضه للتعذيب ليفي بالأموال المطلوبة منه. ويذكر أن التجار والشعراء والناس كانوا يترددون عليه داخل السجن مما يسهل عملية هربه. ويبدو أن السجن في تلك الأوقات يضيق على نزلائه حتى قيل: إنه لم يكن لكل سجين مقعد إلا قدر ما يمد رجله، وكان كل اثنين يربطان بسلسلة ليصعب عليهما الهرب.

أما طعام السجناء فتجمع معظم المصادر على أنه كان رديئاً للغاية؛ فقد كان يتألف من دقيق الشعير مخلوطاً بالرماد. ويذكر المدائني أن سجناء الديماس لم يكن لهم أدم إلا الملح وخبز الشعير، وأن الماء كان يلقى فيه الملح أيضاً. ويحتمل أن يكون هذا هو طعام عامة السجناء، إذ وردت إشارات تدل على أن كبار المسجونين كان يسمح لهم بتناول طعام خاص كما كان الحال بالنسبة إلى يزيد بن المهلب وإخوته، وتتضارب الروايات حول الوضع الصحي للسجناء، فمعظمها يشير إلى أن المسجونين تغيرت وجوههم وألوانهم من جرَّاءِ أوضاعهم السيئة وطعامهم الرديء. إلا أن البلاذري أورد رواية يستفاد منها أن بعض السجناء زاد وزنهم داخل السجن من قلة الحركة. تقول الرواية: إن الحجاج سأل الغضبان بن القبعثرى عندما كان يتفقد المحبوسين: **(ما أَسْمَنَكَ؟)** فقال: **(القيد والرَّتعة، وقلَّة التَّعتعة، ومن كان في ضيافة الأمير فقد سمن)**

أما سجن النساء فكان بقصر عبد الرحمن بن زياد بن أبي سفيان في البصرة وهو قصر داخل قصر، وسمي قصر المسيَّرين لأن الحجَّاج سير عيالَ مَنْ خَرَجَ مَعَ عبد الرحمن بن الأشعث إليه فحبسهم فيه. وكان إذا قتل رجلاً وتزوجت امرأته كف عنها، وإذا لم

تتزوج حبسها في هذا القصر، وهذا يثبت أن الحجاج كان يفصل بين السجناء والسجينات، ولا يضعهم جميعاً في مكان واحد، كما ذهب صاحب محاضرات الأدباء.

أما عدد المسجونين في عهد الحجاج فالاختلاف كبير بين الرواة والإخباريين في تقديره وإن كانوا جميعاً يجمعون على أن هذا العدد يصل إلى عشرات الألوف؟؟ فالراويةُ البصريُّ المحَدِّث هشام بن حسام الأزدي (توفي ١٤٧هـ) يقدر سجناء الحجاج بثلاثة وثلاثين ألفاً، وهو أقل رقم تذكره الروايات. ويرفع المدائني وعوانة بن الحكم هذا الرقم ليصل إلى ستين ألف محبوس، ويزيده الهيثم بن عدي وابن الأعرابي المؤرخ والمحدث البصري (ت ٣٤٠هـ) إلى ثمانين ألفاً بينهم ثلاثون ألف امرأة؟ كما يضاعف الراغب الأصفهاني ليصل إلى مئة وأربعة وثلاثين ألفاً بينهم عشرون ألف امرأة. ويضاعف الدميري صاحب حياة الحيوان الكبرى هذا العدد ليصل إلى ثلاثمئة ألف سجين ما بين رجل وامرأة، وذهب آخرون إلى أن عدد الذين ماتوا منهم في الحبس بلغ عشرين ألف سجين. وضوعف هذا العدد حتى وصل إلى ثمانين ألفا منهم ثلاثون ألف امرأة!!. وقيل مثل ذلك في ضحايا الحجاج، فالقزويني مثلاً يعجز عن تقدير عدد الضحايا، ويقول: (**إن قتلاه بالسيف لا تُعدُّ ولا تحصى**)، في حين يقدرهم رواة آخرون ما بين مئة ألف ومئة وعشرين ألفاً عدا من قتلفي البعوث والمعارك والحملات.وهذه الأعداد سواء ما يتعلق منها بعدد السجناء وموتى السجون أم بعدد ضحاياه ومن لقي حتفه على يديه لا يمكن للباحث أن يصدقها لعدة أسباب، منها أن الديماس وقصر المسيرين وهما السجنان الوحيدان في عهد الحجاج اللذان أشارت إليهما المصادر لا يمكن بأي حال مهما بلغ اتساعهما أن يستوعبا هذا العدد فضلاً عن الموارد الضخمة التي يحتاج إليها الحجاج للإنفاق عليهم. ومنها هذا الاطراد المستمر في الأرقام كلما بعدنا عن عهد الحجاج، مما يدل على أنها وضعت عمداً في وقت لاحق للإساءة إلى الرجل وإظهار مخالفيه بمظهر الشهداء، ولا سيَّما أَنَّ بعضهم كان من القرَّاء والمتدينين.

يضاف إلى ذلك أن مسألة المبالغة في الأرقام والتقديرات أمر شائع ومعروف في كثير

من المصادر العربية، مما جعل العلامة ابن خلدون ينبه على ذلك في مقدمته حيث يقول: (وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سميناً.... ولا سيَّما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول، وعرضها على القواعد)، ويضيف إلى ذلك قائلاً: (وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين. توغلوا في العدد، وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الأعراب، فإذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أموال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم، فلن تجد معشار ما يعدّونه، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش، فيرسل عنانه، ويسيم في مراتع الكذب لسانه، ويتخذ آيات الله هزواً، يشتري بها لهو الحديث ليضلَّ عن سبيل الله، وحسبك بها صفقة خاسرة). وعلى أن ابن خلدون قطع قول كل خطيب في هذا الشأن فإن ضخامة الأرقام التي قيلت في سجناء الحجاج وضحاياه تدل من غير شك على أن العدد في الحالتين كبير، لكنه مع ذلك يظل كما قال ابن خلدون دون معشار ما أحصوه وعدوه، ولا سيَّما حين هدم سليمان بن عبد الملك الديماس، وأخرج المحبوسين منه ومن قصر المسيرين نكاية بالحجاج الذي كان يحقد عليه.

القضاء:

جعل الحجاج في كل مدينة بولايته قاضياً بين الناس، وقد كان هناك تساهل في تطبيق القوانين حتى تطرق الفساد والرشوة إلى القضاة، وذلك حين التقى الحجاج في

الحجاز سعيدَ بن جبير، وسأله عن الوضع في العراق، فقال له: (**تركت الخمر تباع بالكوفة ظاهرة، ويباع الحكم بالرُّشا**)، فقال الحجاج: (**والله لئن وُلّيت لأغيّرن**). وفي الحقِّ أَنَّه ما إِن وصل الحجاج إلى العراق حتى اجتهد في تولية القضاء أفقه الناس وأتقاهم، وكاد يختار لهذا المنصب عبد الرحمن بن أبي ليلى أحد القُرَّاء المشهورين، إلا أن صاحب شرطته أبا العوام بن حوشب صرفه عنه، فعين شريح بن الحارث الكندي قاضي الكوفة المشهور بالعدل، وظل يشغل هذا المنصب مدَّةً طويلة على تقدمه في السن إلى أن اتهمه أحد الناس بالجور والتحيز، فطلب إلى الحجاج أن يعفيه من هذه المهمة،فقال له الحجاج: (**والله لا أعفيتك أو تدلني على من إذا غضب على الخصوم رجع به حِلْمُه عن الهجوم، ومن إذا دعتْه كثرة المال لم يُنهضْه إليه سوءُ الحال**).

فقال: (**أدلك على شريف عفيف يمنعه شرفه من التسلط عليه وتحجبه عفته عن التملق**)، قال: (**من هو؟**) قال: (**ابن أبي موسى الأشعري**)، فأحضره وولاَّه.

وجعل سعيد بن جبير كاتباً له ومساعداً، ويستدل من هذا النص على صفات الحلم والعفة والنزاهة التي كان الحجاج ينشدها فيمن يوليه القضاء. ومع ذلك فإن بعض الفقهاء والأتقياء كانوا يعزفون عن تقلد منصب القضاء خوفاً من التباس الحق عليهم وتعرضهم للفتنة، كما كان الحال بالنسبة إلى عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي المعروف بأبي قلابة الجرمي، الذي أراده الحجاج على قضاء البصرة، فهرب منها إلى اليمامة مع رغبة أهلها فيه، ولم يلبث أن التجأ إلى الشام حين أراده أهلها على قضائهم. وكان الحجاج يوقع أشد العقوبات بكل من تثبت عليه تهمة الرشوة التي لم يقض عليها نهائياً مع تلك العقوبات.

ويستدل مما أورده صاحب عيون الأخبار أن القاضي كان يعاونه كاتب يتولى تسجيل القضايا والأحكام ويقوم الوقت نفسه بمهمة المساعد والمشير، وكان يشغل هذا المنصب أيضاً رجل ذو علم وفقه مثل سعيد بن جبير الذي عينه الحجاج كاتباً ووزيراً للقاضي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. تقاضى القاضي شهرياً خمسمئة درهم، وهو

مبلغ لا بأس به إذا علمنا أن كاتب الحجاج ومولاه يزيد بن أبي مسلم كان يتقاضى في الشهر ثلاثمئة درهم فحسب. ومع أن مهمة القاضي كانت بتّ القضايا المهمة والعويصة من قضايا الأحوال الشخصية وأن الناس فيما عدا ذلك ظلوا يحلون مشكلاتهم بأنفسهم دون حاجة إلى عرضها على القضاة، وهو تقليد لا يزال شائعاً في كثير من المجتمعات. أما القضايا الخطيرة المتعلقة بأمن الدولة أو حقوق الناس مثل محاكمة الثوار والخارجين على الدولة والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق ومرتكبي الكبائر، فكان الحجاج نفسه ينظر فيها، ويصدر على أصحابها الأحكام المناسبة، وإن كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة.

ويُلحظُ هنا أن معظم المصادر لا تذكر شيئاً عن وجود شخص يتولى النظر في المظالم في عهد الحجاج، وهو أمر مستغرب، ولا سيَّما أن هذا المنصب كان موجوداً زمن بشر بن مروان والي العراق قبل الحجاج، إذ كان عامر بن شراحيل الشعبيّ ينظرُ فيها نيابة عن بشر نفسه كما كان الخليفة عبد الملك يجلس للمظالم في دمشق، وهو أَوَّلُ مَنْ أَفرد يوماً للمظالم يتصفح فيه المظلمات؛ ولا بد والحالة هذه أن يستمر مثل هذا الإجراء في العراق بعد ذلك، وأن يكون الحجاج المتهم بالجور والظلم قد تولى النظر في المظالم، وتعمدت المصادر العباسية عدم الإشارة إلى ذلك لبغض الحجاج وسياسته الأموية. وينفرد صاحب الأغاني فيما نعلم بتقرير هذه الحقيقة في رواية نسبها إلى حمَّادٍ الراوية المعروف بميوله الأموية، إذ تذهب الرواية إلى أن الشاعر العُديل بن الفرخ قال شعراً يحرض فيه أهل العراق على الحجاج، فأمر بطلبه فهرب وقال أبياتاً منها:

وَدُوْنَ يَدِ الحَجَّاجِ مِنْ أَنْ تنالَني ... بساطٌ لأَيدي النَّاعجات[1] عَرِيْض

فجد الحجاج في طلبه حتى ضاقت عليه الأرض، فأتى واسطاً، وتنكر، وأخذ رقعة

---

(١) الناعجات: م ناعجة، أي المرأة السمينة البيضاء الجميلة.

بيده، ودخل إلى الحجاج في أصحاب المظالم .فلما دخل بين يديه أنشأ يقول:

هـا أَنـا ذَا ضَـاقَتْ بي الأَرْضُ كُلَّهـا ... إليـك وقـد جوّلـتُ كُـلَّ مكـانِ

فلـو كُنْـتُ في ثهـلان أو شُـعْبَتَيْ أَجـا ... لَخِلْتُـك إلا أَنْ تصـدَّ تَـرَاني

فقال له الحجَّاج: (**العديلُ أنت؟**) قال: (**نعم أيها الأمير!**)، فلوى قضيب خيزران كان في يده في عنقه، وجعل يقول: (**إيه: بساط لأيدي الناعجات عريض**)، فقال العُديل: (**لا بساط إلا عفوك**). فعفا الحجاج عنه وقال له: (**اذهب حيث شئت**).

وهناك قرائن أخرى يستدل منها على اهتمام الحجاج بالنظر في المظالم، بينها حرصه لدى اختيار عماله أن يكون كل منهم طويل الجلوس، أي يجلس طويلاً للنظر حوائج الناس ومظالمهم. وأشار إلى ذلك بصريح العبارة مطرف بن المغيرة عامل الحجاج على المدائن في قوله للناس: (**إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة ... إلا أني جالس لكم العصرين، فارفعوا إلي حوائجكم وأشيروا علي بما يصلحكم ويصلح بلادكم فإني لا آلوكم خيراً ما استطعت**). وتضمنت بعض المصادر أنباء تفيد بأن الناس كانوا يرفعون إلى الحجاج مظالمهم وحوائجهم في رقاع يتسلمها منهم كاتبه وحاجبه يزيد بن أبي مسلم، حتى قال الفرزدق في مدح الحجاج:

ومـا تُبْتَغَـى الحاجـاتُ عِنْـدَكَ بالرُّشـا ... ولا تُـقْضَى إلا بـما في الرسـائلِ

رسـائل ذي الأسـماءِ مَـنْ يَدْعُـهُ بهـا ... يجِـدْ خـيرَ مسـؤولٍ عطـاءً لسَـائِلِ

كما رويت وقائع عن استقبال الحجاج لبعض المتظلمين لينصفهم من المسؤولين عن ديوان العطاء أو ديوان الخراج أو ظلم وقع بأحدهم ولا يستطيع دفعه. من ذلك ما رواه الهيثم بن عدي من أن رجلاً دخل على الحجاج يشكو إليه المسؤولين عن ديوان العطاء الذين أسقطوا اسمه من السجلات وحرموه عطاءه كما هدم منزله لخروج أخ له مع ابن الأشعث. وقد أنصفه الحجاج عندما سمع حجته، وتأكد من ولائه وطاعته، فرد اسمه

في سجلات ديوان العطاء، وأمر بإعادة بناء بيته، وذكر صاحب محاضرات الأدباء أَنَّ أحد المزارعين الأعاجم قدم على الحجاج يشكو إليه فساد غلته الزراعية لذلك الموسم، فوضع عنه الخراج تلك السنة.

وروى الأصمعي أَنَّ فتًى قام بين يدي الحجاج يشكو إليه اغتصاب أقاربه أمواله وقال: (**أصلح الله الأمير مات أبي وأنا حَمْلٌ، وماتت أمي وأنا رضيعٌ، وكفلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي، فاجتاحت، وهو هارب مني ومن عدل الأمير**).

وهذه أمثلة واضحة على قيام الحجاج بالنظر في المظالم، مع وجود أمثلة عديدة أخرى من هذا النوع، إذ يعتقد أن المصادر المذكورة أغفلتها للنيل من سيرته مع أنه كان حريصاً على تنفيذ الحدود والوقوف إلى جانب الحق والعدل في كثير من المواطن، وإن كان الأمر يتعلق بأنصاره الشاميين كما حدث حين قتل أحد الكوفيين جندياً شامياً همَّ بالاعتداء على حرمة بيته، فلمَّا تحقق الحجاج قال لولاةِ الشَّامي: (**ادفنوا صاحبَكم! فإنه قتيلُ الله إلى النار لا قود له ولا عقل!**).

ولا بدَّ أن نشير هنا إلى أن معظم أحكام الإعدام التي أصدرها الحجاج كانت بحق أشخاص خرجوا على الدولة أو انقلبوا ضدها، ونفذت هذه الأحكام بناء على أوامر صريحة من عبد الملك مروان وموافقته، وهي عقوبات كانت مألوفة في ذلك العصر. وإذا كانت هذه العقوبات قد تميزت بالشدة، وشملت عدداً كبيراً من المشتركين في نشاطات معادية للدولة، فما ذلك إلا لحمل أولئك الأشخاص السلاح في وجه الحكومة القائمة واشتراكهم في ثورات خطيرة استهدفت القضاء على الدولة الأموية واستئصال جميع المتنفذين فيها، مما جعل الخلافة الأموية وأعوانها وفي مقدمتهم الحجاج يجدون أنفسهم في موضع لا خيار لهم فيه، فإما أن يقضوا على أعدائهم وإِمَّا يقضي أعداؤهم عليهم، ومع ذلك فقد عفا الحجاج عن كثير من هؤلاء من موقع القدرة على العقاب، وذلك بعد أن أعلنوا ندمهم على اشتراكهم في الثورة، وأحسنوا في الاعتذار كما فعل مع عامر

بن شراحيل الشعبي الذي اشترك في ثورة ابن الأشعث. وخارجي من أصحاب قطري بن الفجاءة أسره الحجاج ثم عفا عنه، فلما دُعِيَ إلى قتال الحجاج من جديد قال: (**هيهات غلَّ يداً مطلقُها واسترقَّ رقبةً معتقُها!**)، وأنشد:

أَأُقَاتِـلُ الحجَّـاجَ عَـنْ سُـلطانِهِ   بيـدٍ تقـرُّ بأَنَّهـا مولاتُـه

إِنّي إِذنْ لأخـو الـدَّناءةِ والـذي   عَفَّـتْ عَـلَى عرفانـه جهلاتُـه

مـاذا أقـول إذا وقفـتُ موازيـا   في الصَّـفِّ واحتجَّـتْ لـه فعلاتُـه

أَأَقُـولُ جـارَ عـليّ، إِنِي فـيكم إِذَنْ   لأحـقُّ مـن جـارتْ عـليّ ولاتُـه

وتحـدَّثَ الأقـوامُ إِنَّ صـنائعاً   غرسـتْ لـديَّ فحنظلـتْ نخلاتُـه

وقد يقول قائل: إن خروج أولئك على دولة بني أمية وولاتها كان تضحية منهم بأرواحهم في سبيل رأي رَأَوْه أو قضية انتصروا لها. لكن يظل هذا القول في نظر الدولة والقائمين عليها يمثل فئة قليلة من الناس خارجة على القانون. ومن هنا أطلق المسلمون على الخوارج الاسم، كما أطلقوا كلمة فتنة على كل ثورة قامت ضد النظام القائم. ولا نَنْسَى أن نشير إلى أن هذه الأمور تدخل في نطاق القضايا السياسية التي يصعب تطبيق العدالة عليها؛ لأن الصراع السياسي يتميز دائماً بالشدة والعنف.

ديوان العطاء:

ومهمته تسجيل أسماء آخذي العطاء ومقدار أعطياتهم، وظلَّ هذا الحقُّ مقصوراً على العناصر العربية التي نزلت أصلاً الأمصار كالبصرة والكوفة كقوات مقاتلة، ثم ما لبث أن لحقت بها أُسَرُها وقطاعات من القبائل التي تنتمي إليها حين تم الفتح، وتحوَّلت كلٌّ من الكوفة والبصرة إلى مدينة عسكرية ومدنية في آن واحد، ولم يكن من الممكن عملياً أن يظل باب العطاء مفتوحاً أمام كل عربي وافد إلى الأمصار، مما جعل بعض القبائل تدخل في نصيبها من العطاء أبناء قبيلتها الوافدين الذين عرفوا بالروادف، في حين ظل الباقون في موضع اقتصادي قلق ينافسون إخوانهم على الامتيازات التي

يتمتعون بها، وينضم جانب منهم مِنْ ثَمَّ إلى صفوف الخوارج الذين كان من أسباب ثوراتهم الاستئثار بالفيء أي حصر الدولة العطاء والغنائم بفئة معينة من الناس، ومن الطبيعي إن ترفض هذه الفئة رفضاً شديداً إشراك عناصر أخرى في الامتيازات التالية التي تتمتع بها كما حدث حين نقم عرب الكوفة على المختار بن أبي عبيد لإدخاله مواليهم في العطاء، وانضموا إلى مصعب بن الزبير في مقاومته المختار والقضاء عليه. وكان في العراق أول الأمر ديوانان للعطاء أحدهما في الكوفة والآخر في البصرة. ولا بد أن الحجاج أنشأ ديواناً ثالثاً في واسط لإثبات أعطيات العناصر العربية الموالية له ولا سيَّما جند الشام، وأمدتنا المصادر بتفصيلات وافية عن ديوان العطاء في كل من الكوفة والبصرة، إذ كان يشرف عليهما كتاب يجيدون العربية، ويقومون بتسجيل أسماء أصحاب العطاءات في المدينتين على شكل مجموعات عرفت في الكوفة بالأرباع بينما عرفت في البصرة بالأخماس.

ويرجع هذا التقسيم الإداري والمالي إلى عهد زياد بن أبي سفيان الذي قسم العرب في الكوفة إلى أربع زمر، فلا ينتسب الشخص إلى قبيلته بل إلى زمرته، وعين على كل زمرة رئيساً مسؤولاً أمامه مباشرة. استهدف زياد من وراء ذلك التقسيم الجديد إضعاف الولاء القبلي الضيق وإحلال ولاء الأفراد للدولة محله، وظل هذا التنظيم قائماً زمن الحجاج ومن بعده مدة طويلة. وعليه دفع العطاء إلى رؤساء هذه التقسيمات الذين يسلمونه إلى عرفاء القبائل، إذ يوزع على المسجلين في ديوان العطاء، ويبدو أن عدد هؤلاء العرفاء كان كثيراً يتناسب مع عدد القبائل والعشائر العربية التي نزلت المدن. وكان لهؤلاءِ أثرٌ بارزٌ في التنظيم الإداري والمالي والعسكري بالنسبة إلى السكان العرب في ذلك الوقت، إذ كانوا مسؤولين عن إحصاء مستحقي العطاء وما يزيد أو ينقص منهم. كما كان عليهم تقديم العدد اللازم من الجند عند إرسال البعوث بالإضافة إلى أنهم اعتبروا مسؤولين عن تصرفات أفراد قبائلهم وعشائرهم أمام الأمير ورفع التقارير عن المشاغبين منهم ولهم صوت مسموع في تقرير موقف القبيلة أو العشيرة من

الأحداث السياسية الكثيرة في ذلك العصر، وفي الجملة كان العرفاء صلة الوصل المباشر بين الولاة والعمال ورعاياهم العرب، ومن هنا كان نفوذهم واسعاً، وغالباً ما كانوا يقفون إلى جانب موقف الدولة والدفاع عن مصالحها قبل أي اعتبار آخر، وذلك لأن ممثلي الدولة من الولاة والعمال هم الذين يختارونهم لهذا المنصب، ويستمرون في شغله ما داموا يسيرون وفقاً لرغباتهم، وهذا الوضع هو المسؤول عن مشاعر البغض التي كان الناس يكنونها لهم حتى قيل: (**لا بد للناس من عريف، والعرفاء في النار**)، كما قيل: (**إنَّ الله لا يستجيب لدعاء عريف ولا شرطي ولا جابٍ ولا عشار**)، وهؤلاء هم الجهاز الإداري والمالي الذي عرفه الناس. أدرك الحجاج أهمية دور العرفاء، فحرص منذ قدومه العراق على تولية من يثق بهم هذا المنصب فعزل العرفاء القدامى، واختار عرفاء جدداً للقبائل من ذوي العلم والمكانة والنفوذ، وكان يدرج أسماءهم في شرف العطاء الذي بلغ زمن الحجاج ألفي درهم في السنة. ومن الصعب تقدير عدد العرب الذين كانوا يتناولون العطاء زمن الحجاج؛ إذ لا بد أن هذا العدد كان في صعود وهبوط لكثرة الحروب الداخلية والخارجية والكوارث الطبيعية كالطواعين التي كانت تأتي على عدد غير قليل من المسجلين في ديوان العطاء، وأورد لنا الذهبي في تاريخه رقماً إجمالياً يتضمن مجموعات من كان يتناول العطاء في الدولة الأموية في جميع الأمصار زمن الوليد بن عبد الملك، وهذا الرقم هو ثلاثمئة ألف شخص، وهو رقم معقول إذا علمنا أن عدد الذين أخذوا العطاء في البصرة زمن زياد ابن أبي سفيان بلغ تسعين ألفاً. أما قيمة العطاءات فكانت تختلف حسب الفئة التي ينتمي إليها الشخص، فهناك العرفاء والأشخاص الذين قدموا خدمات كبيرة للدولة، إذ كانوا يصنفون في شرف العطاء أي في الدرجة الأولى، إذ يتقاضى كلٌّ منهم ألفي درهم سنوياً في حين تتراوح أعطيات المقاتلين بين ألفي درهم وثلاثمائة درهم، وهو الحد الأدنى الذي كان يشمل عامة الجند. أما النساء فكان عطاؤهن مئتي درهم في السنة. ويذكر البلاذري روايةً يستدلُّ منها على أن عبد الملك قطع عطاء الأطفال إلا عمن شاء، وهو أمر لا يستبعد، ولا سيَّما أن الدولة الأموية

كانت تعاني في أوائل عهدها أزمة مالية حادة، ولعل هذه الأزمة هي التي حدت بالحجاج إلى إلغاء الزيادة في العطاء، ومقدارها مئة درهم، وهي التي كان مصعب بن الزبير قد زادها أصحاب العطاء في العراق، مما جعلهم يثورون ضده بقيادة عبد الله بن الجارود. أما عطاء عامة الجند الشامي في العراق فكان يزيد على عامة المقاتلين العراقيين زيادة كبيرة، إذ كان يتقاضى الواحد منهم مئة درهم في الشهر أي ألفاً ومئتي درهم في السنة، وهو مبلغ يعادل أربعة أضعاف عطاء المقاتل العراقي، وكان هذا التفاوت من أهم أسباب نقمة عرب العراق الدائمة على الحكم الأموي.

وإلى جانب العطاء السنوي النقدي الذي كان يتقاضاه المسجلون في ديوان العطاء جعلت لهم مخصصات عينية من المواد الغذائية الرئيسة التي عرفت بالأرزاق، وكانت المواد توضع في دار الرزق أي مركز التموين، وفيه يصرف لكل شخص جريبان من الحنطة شهرياً دون مقابل، ويُلحظُ أن الدولة هي التي كانت تشرف على توزيع الأعطيات على الناس. ومن هنا كانت تلوح بقطعها عنهم إذا بدرت منه بادرة عصيان، وقد لجأ عبد الملك إلى هذه الوسيلة بعد معركة دير الجماجم حين منع أهل العراق أعطياتهم لمدة سنتين لمؤازرتهم ثورة ابن الأشعث ولم يعدها إلا بعد توسط الحجاج.

ديوان الجند:

وإلى جانب ديوان العطاء كان هناك ديوان للجند يضم سجلات المقاتلين وأسماءَهم ونسبهم وأوصاف كل واحد منهم ومقدار العطاء السنوي المخصص له. وقد ذكرنا أن أعلى عطاء في هذا الديوان كان ألفي درهم وأقله ثلاثمئة درهم، وكان على كل جندي أن يجهز نفسه بالسلاح والعتاد اللازم بما في ذلك فرسه، إلا أن صاحب الأغاني قد أورد روايةً تذهب إلى أن الحجاج حاسب جندياً باسلاً على الخيول التي عقرت تحته، وخصم ثمنها من عطائه، مما يدل على أن الخيول كانت تقدمها الدولة للفرسان، وكان عليه أيضاً أن ينخرط فوراً في البعوث العسكرية كلما دعي إلى ذلك، ويبدو أن كثرة حروب الحجاج وفتوحه العسكريةأدت إلى ازدياد الطلب على المقاتلين وإرسالهم في حملات

حربية متتابعة مما جعلهم يتذمرون من الحرب، ويفضلون البقاء في أمصارهم.

ولم يعد ممكناً والحالة هذه تطبيق النظام القديم في البعوث، إذ كان يصيب الجندي غزوة واحدة فقط كل أربع سنين كما كان الحال زمن عثمان بن عفان ﷺ، وكان يتحتم على الجند المسجلين في هذا الديوان البقاء في مصرهم، وهم في حالة تأهب لتلبية نداء الواجب الذي تعلنه الدولة سواء لمقاومة فتنة داخلية أَم الاشتراك في فتح جديد.

وعلى أن كل من أدرج اسمه في الديوان كان يشترك في أداء الواجبات العسكرية كان بعضهم يتفق مع غيره ليخرج بدلاً عنه في تلك الحروب، ويتولى العرفاء بالإضافة إلى أعمالهم الأخرى مهمة اختيار البعوث ووضع كشوف بأسماء جندها، كما يقوم العراض باستعراض هؤلاء الجند، والتأكد من لياقتهم البدنية واكتمال سلاحهم وعدتهم قبل التوجه إلى جهات القتال. أما العَجَزَة والزَّمنى أي المصابون بعاهات دائمة ومشوهو الحرب فكانوا يعفون من الخدمة العسكرية، ولكن يرجح أنه كان لهم عطاء سنوي إذ خصص لهم عمر بن عبد العزيز خمسين درهماً في السنة.

وكان الحجاج نفسه يشترك أحياناً في استعراض الجند وتفقد استعداداتهم واكتمال عدتهم ويروى في هذا الشأن أن الحجاج عرض الجند يوماً، فمر به رجل لا سلاح عليه فقال له: (**أين سلاحك يا بن نوح؟**) فقال: (**تغافل أيها الأمير!**)، فكف عنه، ومر به رجل من أهل حمص لا سلاح عليه فقال له:(**أين سلاحك؟**) قال: (**تغافل أيها الأمير!**). فأمر به فضرب مئة سوط. أما في حالة كثرة تغيب الشخص عن العرض وعدم وجوده في مكتبه أي في المكان المسجل فيه اسمه، فإنه يسقط من الديوان، ويتعرض إن ضبط إلى عقوبات صارمة، وكان لا يسمح بنقل اسم جندي من ديوان إلى آخر إلا بعد موافقة أولي الأمر. فقد رفض عبد الملك نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني وعطائه من ديوان الجند في الكوفة إلى ديوان الجند في دمشق خوفاً من أن يكثر المتنسبون إلى بكر وتميم في بلاد الشام.

وقد أشرنا إلى أن عطاء جند الشام في العراق كان أكثر خاصّة بكثير من عطاء جند العراق بسبب اعتماد الدولة الأموية عامة والحجاج عليهم في دعم مركزه وسلطانه في العراق، وذلك لما جبل عليه جند الشام من حبهم لتلك الدولة وطاعتهم العمياء لها حتى وصف الحجاج جند الشام بأنهم الجنة والرداء والعدة والحذاء[1]. وقال: **(لما تبوأت الأشياء منازلها قالت الطاعة أنزل الشام، وقال النفاق أنزل العراق)**. ولهذا كان معظم ديوان جنده في واسط من الشاميين. والمعروف أن أول من أنشأ ديوان الجند في الدولة العربية الإسلامية كان عمر بن الخطاب ﷺ حتى يعلم غيبة من يغيب منهم، ومن يتخلف ويخل بمكانه.

ديوان الخراج:

يعد هذا الديوان أهم الدواوين على الإطلاق؛ ذلك أنَّه مصدر جميع الأموال للإقليم والدولة معاً، وكان عبد الملك بن مروان يدرك هذه الحقيقة ويقول **(الملك لا يصلح إلا بالرجال، والرجال لا يقيمها إلا الأموال)** كما اعتدَّ عمر بن عبد العزيز الأموال أحد الأركان الأربعة التي تثبت السلطان، وقال جعفر بن يحيى "البرمكي": **(الخراج عمود السلطان، ما استغرز بمثل العدل، ولا استنزر بمثل الجور)**.

والخراج كما يذهب الماوردي هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدَّى عنها، أي هو جزية الأرض أو الضريبة التي فرضها المسلمون عليها بعد الفتح. وكان في كل إقليم من ولاية الحجاج ديوان خاص ينظم وضع هذه الضريبة وجبايتها كما كان هناك ديوان مركزي للخراج في الدولة الأموية بدمشق.

ونقصر الحديث هنا على ديوان الخراج في العراق باعتبار الحجاج مسؤولاً عنه

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٢، صص ١١٧، ١١٩. ومروج الذهب. المسعودي. جـ ٢، صص ٩٧، ٩٨. والتاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤، صص ٥٥، ٥٦. والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص ١٣٠.
ونهاية الأرب. النويري. مصدر سابق. جـ ٧، ص ٢٤٥.

مباشرة، ولأنَّه أهم دواوين الخراج في الدولة، لما كان يدره سواد العراق من أموال خراجية اعتمدت عليها الخلافة الأموية في توطيد ملكها وسلطانها حتى قيل: (**ما للشام رجال العراق وأموالها**). وقيل: (**الشام عروس بين نسوة جلوس تجلب إليها الأموال**).

ويرجع السبب في ذلك إلى قلة خصب بلاد الشام بالنسبة إلى العراق ومصر وتحويل الطريق التجاري بين الشرق والغرب من طريق الحجاز والبحر الأحمر وبلاد الشام إلى طريق خليج البصرة والعراق الأمر الذي جعل مالية الشام تعتمد أساساً على فائض الأموال المتحصلة من الأقاليم الغنية ولا سيَّما العراق.

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع ضريبة الخراج على أرض العراق التي فتحت عنوة إلاّ بعض القرى والنواحي مثل الحيرة وأليس وبانقيا. واستقر رأي عمر على ما هو معروف على عدم تقسيم الأرض المفتوحة بقوة السلاح على الفاتحين وإبقائها وقفاً على المسلمين تفيد منها أجيالهم القادمة. وسمح لمالكيها الأصليين بالبقاء فيها واستغلالها على أنَّهم مستأجرون للأرض مقابل دفع إيجار أو ضريبة سنوية عنها عرفت بالخراج الذي كان يتوقف مقداره على مساحة الأرض ونوع مزروعاتها. وفرضت على جميع السكان القادرين بالإضافة إلى ذلك ضريبة الجزية أو ضريبة الرأس التي كانت تقوم بمقادير مختلفة حسب الوضع المالي والاقتصادي للأفراد. أما سكان القرى التي فتحت صلحاً فقد تم الاتفاق بينهم وبين قادة الفتح العربي على دفع مبلغ معين للمسلمين كل سنة مقابل حمايتهم وبقاء الأرض في ملكيتهم.

وقد أطلق الماوردي اسم الخراج أيضاً على هذا الجعل ووصفه بمثابة جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم، وتسقط عنهم بإسلامهم. لكن مساحة أراضي تلك القرى المعدودة لا تقاس بالنسبة إلى مساحة باقي الأراضي الزراعية التي عرفت بالسواد والتي قدرت بستة وثلاثين مليون جريب. ويُلاحظُ ارتباط ضريبة الخراج بضريبة الجزية منذ وقت مبكر ولا سيَّما في الأقاليم التي فتحت عنوة كالعراق، فقد ذكر أبو عبيد صاحب كتاب الأموال أنَّ حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف اللذين أرسلهما عمر ابن الخطاب

لمسح سواد العراق وتقدير الضرائب عليه: **(فلجا الأرض على أهل السواد - أي قسّماها عليهم - ثم فلجا الجزية على كل إنسان أربعة دراهم في كل شهر، ثم حسبا أهل القرية وما عليهم وقالا لدهقان كل قرية: على قريتك كذا وكذا فاذهبوا فتوزعوها بينكم.... فكانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على أهل قريته).**

وهذا النص يلقي ضوءاً على أنظمة الخراج والجزية وطرق جبايتها بعد الفتح الإسلامي للعراق، وهي أنظمة وطرق ترجع في أصولها إلى نظام الضرائب الساساني، ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من النص المذكور الحقائق الآتية:

١. أنَّ العرب الفاتحين قسموا أرض العراق إلى وحدات زراعية يقيم على كل منها أو يمتلكها مجموعة من السكان الأصليين سواء كانوا ملاكاً كباراً كالدهاقين أم ملاكاً صغاراً حيث وضعوا الخراج على أرضهم.

٢. وأن الفاتحين فرضوا على أولئك السكان جزية معينة.

٣. وأن جميع أهل القرية أو الناحية متضامنون في أداء ما عليهم من جزية وخراج.

٤. وأنَّ الدهاقين أو عمداء القرى من النبلاء والمتنفذين اعتبروا أمام العرب كما كانوا في عهد الفرس مسؤولين عن جباية الضرائب المفروضة من خراج وجزية.

واستمر هذا الوضع طوال القرن الأول الهجري، وأصبح الخراج والجزية مِنْ جرَّاءِ ذلك ضريبتين مترابطتين أشد الارتباط حتى إنَّ بعض المصادر التاريخية تذكر أحياناً الخراج بمعنى الجزية والجزية بمعنى الخراج، وتعني أحياناً أخرى بالخراج على أنه مجموعة الضرائب المجبيَّة بما فيها الجزية، بل إنَّ البلاذري ويحيى بن آدم سميا أرض الخراج باسم أرض الجزية.

وكانت القاعدة المتبعة زمن الخلفاء الراشدين أن المنتفع من الأرض الخراجية إذا أسلم رفعت عنه جزية رأسه، وظل يدفع الخراج عن الأرض باعتبارها أصلاً ملكاً لعامة المسلمين، وهو يقوم بزراعتها كمستأجر لها. ومع ذلك فإن هذه القاعدة لم تطبق على ما يبدو بدقة؛ إذ نسمع عن أشخاص زمن عمر بن الخطاب كانوا يدفعون الجزية مع

إسلامهم، ولعل ذلك ناشئ عن ارتباط الضريبتين معاً، كما ذكرنا، وحرص جباة الضرائب من الدهاقين على المحافظة على الأنصبة التي يدفعها كل شخص في قراهم ونواحيهم لجامعي الأموال المطلوبة والمكلفين بجبايتها من قبل الدولة، لكن هذا الوضع لم يتسبب في خلق أزمة حادة كما حدث زمن الحجاج لقلة عدد أولئك الأشخاص في ذلك الوقت.

تولى شؤون ديوان الخراج زمن الحجاج موظفون ينحدرون من أصول فارسية ويتقنون لغتها بالإضافة إلى إلمامهم بالعربية؛ وذلك لأن سجلات ديوان الخراج التي شملت جميع الأراضي الخراجية بما في ذلك أراضي الصوافي أي أراضي الدولة وحدود جميع هذه الأراضي وأسماء أصحابها والمبالغ المستحقة عليها كانت تسجل بالفارسية كما كان الحال في العهد الساساني.

وكانت هذه الظاهرة شيئاً طبيعياً بعد الفتح بحكم معرفة أولئك الموظفين التامة بقواعد فرض الخراج ومقاديره وأسماء القرى والنواحي وأداة الجباية القادرة عليها. ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكاتب الخراج، ويتمتع بمنزلة عالية لدى الأمير، وتقلد هذا المنصب في عهد الحجاج ثلاثة أشخاص هم زادان فروخ بن بيري وابنه مردانشاه وصالح بن عبد الرحمن الذي تم على يديه تعريب سجلات ديوان الخراج في العراق كما سنتحدث عن ذلك في الفصل القادم. أما المسؤول عن ديوان الخراج كله فكان الحجاج نفسه، لما لهذا الديوان من أهمية لديه. وظل الأمر كذلك حتى قبيل وفاته، حينما عهد إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه ومولاه مسؤولية الخراج لأمانته. وقد أشرنا إلى أن جباية الخراج ظلت تقع على عاتق الدهاقين، واستبعد العرب من القيام بهذه المهمة وسوّغ عبيد الله بن زياد هذا الإجراء بقوله: (**كنت إذا استعملت الرجل من العرب، فكسر الخراج فأقدمت عليه، أَوْغَرْتُ صدر عشيرته أو أغرمته، فحملت على عطاء قومه أضررت بهم، وإن تركته تركت مال الله، وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون عليّ مطالبةً**) .واستمر هذا الحال في زمن

عبد الملك والحجاج الذي كان يقول: (**ما أبغض إلي أن تكثر العرب في أرض الخراج**).

وقيل: إن هشام بن عبد الملك لم يول الخراج عربياً قطُّ، ومع ذلك فإن الولاة الأمويين كانوا يجعلون أمناء من قبلهم على أعمال الدهاقين وتصرفاتهم خشية أن يتمادوا في ظلم الناس كما فعل عبيد الله بن زياد. ومن المرجح أن الحجاج كان لديه أيضاً مثل هؤلاء الأمناء ولا سيَّما أنه اشتهر بحرصه على جباية الأموال ومحاسبة عماله على المقادير التي تجبى في أقاليمهم. ويروى أنه كتب لأحدهم يحثه على جمع الخراج ويقول: (**إياك والملاهي حتى تستنظف خراجك**). وقيل: إنَّ الحجاج كتب إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد، فمنعه من ذلك، وكتب إليه يقول: (**لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً**).

ومع ذلك رويت أخبار أخرى تفيد أن الحجاج كان يقدر الظروف الاستثنائية التي يتعرض لها الخراج مِنْ جرّاءِ انحباس المطر أو سوء الغلة، وتعرض المزروعات للتلف، من ذلك أَنَّ قتيبة بن بن مسلم الباهلي عامله على خراسان كتب إليه يشكو كثرة الجراد وذهاب الغلات، فرد عليها الحجاج قائلاً: (**إذا أزف خراجك فأنظر رعيتك في مصالحها، فبيت المال أشد اضطلاعاً بذلك من الأرملة واليتيمة وولي العيلة**).

وذكر صاحب محاضرات الأدباء أَنَّ صاحب أراض زراعية من الأعاجم شكا للحجاج فساد غلته، فوضع عنه الخراج. ويبدو أَنَّ الحجاج كان يفعل ذلك حين يتأكد من صدق الشكوى، ولا سيَّما أَنَّه كان يعلم بأحوال ولايته، ويقف على أوضاعها الزراعية من أعوانه ومخبريه والوفود التي تفد عليه من جميع النواحي، إذ كان يسألهم دائماً عن تلك الأحوال ومعدل الأمطار لديهم. وربما كان الحجاج أول من قدم القروض الزراعية للفلاحين حتى يتمكنوا من التغلب على الكوارث الطبيعية التي تنزل بمحاصيلهم ليستأنفوا إنتاجهم الزراعي من جديد إذ أسلفهم مليوني درهم لهذه الغاية، وسددوا هذا المبلغ عند جباية الخراج.

وتحدثنا بعض المصادر أن أهل أصفهان كسروا خراجهم ثلاث سنين متوالية زمن الحجاج، وظلوا طوال هذه المدة يماطلون في دفع ما عليهم من أموال، وينقصون منها مما اضطر الحجاج إلى إرسال عامل حازم من ثقيف استخدم معهم التهديد والوعيد حتى أدّوا ما عليهم كاملاً. ويوضح لنا هذا المثل أنَّ سكان الأقاليم المفتوحة لم يتعودوا أداء ما عليهم من ضرائب بانتظام وعن طيب خاطر، وشاركهم في ذلك بعض العرب المسلمين الذين كانت في أيديهم أراض عشرية انتقلت ملكيتها إليهم عن طريق الإقطاع والهبات وغيرها من أسباب الملك.فكان بعضهم يلجأ إلى طرق وأساليب ملتوية للتهرب من دفع ما يطلب إليه من أموال.

وأشار أبو عبيد القاسم بن سلام إلى بعض تلك الطرق، إذ كان الذمي يتفق مع المسلم، ويستأجر منه أرضاً عشرية، فلا يدفع المسلم شيئاً لأن الزرع لغيره، ويعفى الذمي من دفع أي شيء؛ لأن الأرض ليست له!! وبذلك يتخلص الجانبان من دفع العشر والخراج، يضاف إلى ذلك أنَّ بعض المسلمين كانوا يمتنعون عن دفع الزكاة عن موالهم وممتلكاتهم إلى الإدارة الأموية باعتبارها لم تأت إلى الحكم عن طريق شرعي.

ويُلحظُ أن كلاً من الدولة ورعاياها حاول اللجوء إلى مسوغات شرعية تسوِّغ إجراءاته المالية وإن اختلف الهدف عند كلٍّ منهما إذ سعت السلطة إلى زيادة الضرائب أو المحافظة على معدلها السابق على الأقل في حين حاولت الرعية التخلص من التزاماتها المالية.

وهذا يؤكد أنَّ الدولة كانت تمر في ذلك الوقت بأزمة اقتصادية رافقتها تحولات اجتماعية كبيرة تمثلت في تحول عدد غير قليل من السكان الأصليين إلى الإسلام وهجرة أعداد ضخمة من الفلاحين الذين أسلموا إلى المدن للتخلص من دفع التزاماتهم المالية إذا ظلوا يعملون في الأرض كمزارعين، وقد أثرت هذه الأمور في دخل الدولة من الخراج مما حدا بالحجاج إلى اتخاذ إجراءات حاسمة لمعالجة الموقف بينها إرجاع جميع تلك الضرائب.

لم يقتصر نشاط الحجاج على الميدان السياسي؛ ولم تقف همته عند القضاء على الثورات وتيسير الجيوش للفتوحات، بل تعدى ذلك إلى ميدان الإصلاحات الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

الإصلاحات التي قام بها الحجاج

عنايته بالقرآن

أما في ميدان الدين فقد أجمع على أن الحجاج كان في مقدمة المسلمين الذين عملوا جاهدين على المحافظة على كتاب الله، وكان يقرأ القرآن في كل ليلة [1] كما في بعض الروايات أو يقرأ ربعه كل ليلة كما في بعضها الآخر. [2] ويَرْوي ابن الجوزي [3] أنَّ الحجاج كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة في جوف الكعبة؛ وفي شهر رمضان كان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء.

وبلغ من حرصه على أن يظل الكتاب الكريم بمنجى عن أن يتطرق إلى رسمه تحريف أو أن يلابس تلاوته لحن، أن أمر بمراجعة القرآن ونقط كلماته وشكله وتجزئته ثم كتابة عدة مصاحف منه، وبعثها إلى الأمصار حتى لا يختلف الناس؛ وانتشر في زمن الحجاج بن يوسف، [4] فهاله ذلك الأمر، وصمم على وضع حدنهائي لهذه الاختلافات، فطلب إلى كُتَّابه أن يضعوا علامات للحروف المشتبهة، فكان نقط الحروف وشكل أولها وأوسطها وآخرها. [5] بدأ نصر بن عاصم الليثي، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً، وخالف

---

(١) المصاحف. السجستاني ابن أبي داوود (ت٣١٦هـ). جـ١، ص١٢٠. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ١١، ص٤٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. جـ١، ص٥٦.

(٣) مختصر صفوة الصفوة. ابن الجوزي أبو الفرج (ت٥٩٦هـ). ص١٥١.

(٤) وفيات الأعيان. ابن خلكان. جـ١، ص٥٥. والتعريف بالقرآن الشريف. البيلاوي. ص٩٠، ٩٢. وتاريخ القرآن. تيودور نولدكه. جـ٣. ص١٢٤.

(٥) وفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق جـ١، ص٥٥. والتعريف بالقرآن الشريف. البيلاوي. ص٩٢.

بين أماكنها حتى لا تشتبه واستمر الناس زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً؛ ولكن هذا العمل لم يكن كفيلاً بعدم وقوع التصحيف،[1] فعهد الحجاج إلى لجنة مكونة من الحسن البصري ويحيى بن يعمر بإحداث الشكل.[2]

وقد جمع الحجاج القراء والحُفَّاظ والكُتَّاب، وطلب إليهم أن يحسبوا عدد حروفه، وأن يجددوا نصفه وثلثه وربعه وسبعه، فقاموا بهذا العمل في أربعة شهور،[3] وأما الأعشار فيروى أنها من عمله. وقيل: إنها من عمل المأمون[4] وبمثل ما استهدف الحجاج للنقد في سياسته وإدارته، وافتريت عليه في ذلك شتى الافتراءات، استهدف كذلك بشيءٍ من الافتراء في هذه الناحية. فقد روى السجستاني بسنده أنه غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً،[5] ولأنها تهمة خطرة لو صحت لأوجبت إخراج الحجاج من عداد المسلمين، ولشككت في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، رأينا أن نعالج هذه الرواية الفجة لنثبت أنها محض افتراء.فبالرجوع إلى رجال الرواية نجد أن عبد الله بن أبي داود السجستاني صاحب كتاب المصاحف مجروح وكَذَّبَهُ أبوه،[6] كما وجدنا أن عباد بن صهيب وهو أحد الرواة متروك الحديث.[7]

من كل هذا نستنتج أن الإسناد غير صحيح وبالتالي فحديث السجستاني غير صحيح، ومِنْ ثَمَّ الناحية العلمية البحت. أما من حيث الوقائع فنستطيع أن نقطع بأن

---

(١) وفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق جـ١، ص٥٥. وتاريخ القرآن. نولدكه. مرجع سابق. جـ٣، صص١٠٣، ٢٦٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن القرطبي. مصدر سابق. جـ١، ص٥٤ .

(٣) المصاحف. السجستاني. جـ١، صص١١٩، ١٢٠. الجامع لأحكام القرآن القرطبي. مصدر سابق. جـ١، صص٥٥،٥٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. مصدر سابق. جـ١، ص٥٤ .

(٥) المصاحف. السجستاني أبو بكر بن أبي داوود (٣١٦هـ). جـ١، صص٤٩، ١١٥، ٥٠ .

(٦) ميزان الاعتدال في نقد الرجال. شمس الدين الذهبي الحافظ (ت٧٤٨). جـ١، ص٤٣ .

(٧) ميزان الاعتدال في نقد الرجال. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٠ .

الحجاج لم يفعل ما أسنده إليه السجستاني، فلو أنه تناول المصحف بالتغيير لشاع ذلك في حياته ولاستهدف الحجاج لحملات لا قبل له بها من الصحابة والتابعين، ولكانت تحت أيديهم وثيقة دامغة بكفر الحجاج؛ ولا يمكن لنا أن نتصور أنهم خافوا بطش الحجاج فسكتوا، فهذه مسألة من أهم أصول الدين لا يسكت عنها مسلم، ولو كان السيف مسلطاً على رقبته. وإذا فرضنا جدلاً أن الصحابة والتابعين من سكان العراق خافوا بطش الحجاج فكيف يسكت غيرهم من سكان الشام وأهل الحجاز؟ وإذا كان هؤلاء جميعاً قد جبنوا عن أن يجابهوا الحجاج في هذا الأمر الجلل فهل يعقل أن يكونوا قد سكتوا على هذا التحريف بعد وفاته؟

أما من الناحية التاريخية فنستطيع أن نقطع كذلك بأن الحجاج لم تمتد يده إلى مصحف عثمان بتغيير أو إبدال، وإلا لجعله المؤرخون هدفاً لحملة شعواء ترتكز على أساس سليم. على إن قصة تحريف القرآن التي أوردها السجستاني قد آمن بها ورددها من المستشرقين نولدكه، [1]فنسب إلى الحجاج أنه قام بأعمال في توحيد القرآن الكريم مثل الأعمال التي قام بها عثمان بن عفان ﷺ، وأنه حاول أن يضغط على مصحف ابن مسعود الذي كان له من يقرؤه بالكوفة وقتئذ.

إلا أن الموقف لا يعدو أن يكون الحجاج - وهو أحد المؤمنين بصحة مصحف عثمان- قد هاله أن يرى شيعة لابن مسعود يقرأون مصحفه على ما فيه من اختلاف عن مصحف عثمان الذي أقره جمهرة الصحابة كما أنه رأى نسخاً فجة من القرآن يقرأُها غيرهم. لذلك أمر بالعود إلى مصحف عثمان، ونهى عن تلاوة أي مصحف سواه. فإذا قال أشياع ابن مسعود: إنه حرّف في القرآن، فإنه صحيح في نظرهم؛ لأنه حرّف في مصحفهم، وهو باطل في نظر عامة المسلمين؛ لأنه لم يحرف في مصحف عثمان.

والواقع أن القرآن الكريم جمع في أيام أبي بكر الصديق - الخليفة الأول- ووضعت نسخة منه عند حفصة بنت عمر كانت هي فيما بعد مصحف عثمان. وهذا المصحف

---

(١) تاريخ القرآن. تيودور نولدكه. مرجع سابق. جـ١، ص ١٠٣ .

بكل ما جاء فيه هو المصحف المعروف اليوم. فلو أنه جاء بهذا المصحف إشارات جارحة وماسة بالأسرة الأموية - كما يقول الكندي - لبقيت هذه العبارات حتى اليوم، والمصحف اليوم لا يحتوي على عبارة واحدة مما يشير إلى هذا الأمر.

سك الحجاج للعملة:

كانت العملة الفارسية واليونانية متداولة في بلاد العرب في الجاهلية؛ ولما ظهر الإسلام ظل العرب يتعاملون بها حتى كانت السنة الثامنة عشرة من الهجرة، وقد كثرت الفتوحات في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فحاول ضرب النقود، فضرب دراهم على نفس الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها "الحمد لله" وفي بعضها الآخر "محمد ﷺ رسول الله" وفي بعض ثالث "لا إله إلا الله وحده". ثم جاء من بعده عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فضرب دراهم ونقش عليها "الله أكبر". ولما استقر الأمر لمعاوية ضرب دنانير عليها تمثالٌ متقلِّد سيفاً، وكذلك ضرب عبد الله بن الزبير دراهم مستديرة بمكة، ونقش على أحد وجهيها "محمدﷺ رسول الله" وعلى الآخر "أمر الله بالوفاء"[1] ونقش بدورها "عبد الله"، وضرب مصعب بن الزبير بالعراق دراهم.[2] ولكن المعاملات في الدولة الإسلامية إلى ذلك الوقت لم تقتصر على هذه العملة، بل ما زالت العملة البيزنطية والعملة الساسانية تتمتع بمكانة ممتازة في العالم العربي ولم يكسبها الصبغة الرسمية إلا عبد الملك بن مروان.

وقد أورد المؤرخون أسباباً لعمل عبد الملك هذا: فذكر فريق أن عبد الملك كتب إلى الإمبراطور جستنيان الثاني خطاباً ذكر فيه النبيّ ﷺ في التاريخ الهجري، وبدأه بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾. فاستاء الإمبراطور من هذا الخطاب، وأجاب بأنه إذا

---

(١) النقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. صص ٤،٥.

(٢) النقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. ص ٥. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٧١.

والمقدمة. ابن خلدون. مصدر سابق. ص ١٨٣.

تكررت هذه الإشارة فسينقش على العملة الذهبية للإمبراطورية عبارات جارحة وماسة بالإسلام فكبر ذلك على الخليفة عبد الملك بن مروان، فأشار عليه خالد بن يزيد[1] بتحريم دنانيرهم، وضرب عملة للناس يتعاملون بها.

وذكر فريق آخر أن سبب ذلك أن عبد الملك حينما غير الطراز من الرومية إلى العربية لما ترجمت له العبارة المكتوبة عليه، "باسم الأب والابن وروح القدس" وكتب عليه "لا إله إلا الله" استاء من ذلك ملك الروم، وهدد عبد الملك بسب النبي على النقود... مما يتفق مع الرواية السابقة[2].

وروى فريق ثالث أن خالد بن يزيد قال لعبد الملك: (**يا أمير المؤمنين إن أهل الكتب الأول يذكرون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في دراهمه**) فعزم عبد الملك على ذلك، ووضع السكة الإسلامية[3].

وفي رأينا أن الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى ذلك هي الرغبة في التنظيم المالي وإيجاد شخصية للدولة الإسلامية؛ وقد شجعه على ذلك استمرار نار العداء بينه وبين قسطنطين الرابع وجستنيان الثاني[4]. ولعل مسألة الخطاب أو تغيير الطراز كان سبباً مباشراً للقيام بهذا العمل. وأما ما رواه المقريزي فهو في رأينا من الأساطير التي تعود المؤرخون أن يحيطوا بها الحوادث.

وعليه وجد عبد الملك في ترويج عملة عربية خالية من كل نقش أجنبي، ففرض على الناس التعامل بها، وهدد من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير، وأوقف العمل بالنقود القديمة وسحبها وردها إلى دار الضرب لصوغها صياغة جديدة[5].

---

(١) النقود الإسلامية. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ). ص ٦. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٤٩.

(٢) حياة الحيوان الكبرى. الدميري، محمد بن موسى (ت٨٠٨هـ). مج١، ص ٧٧.

(٣) النقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. ص ٦.

(٤) النظم الإسلامية. د. حسن ابراهيم. ص٢٢٠.

(٥) حياة الحيوان الكبرى. الدميري. مصدر سابق. جـ١، ص ٧٨.

وضرب عبد الملك بن مروان الدنانير عام الجماعة في دمشق من سنة أربع وسبعين من الهجرة، وكتب إلى الحجاج أن اضربها قِبَلَكَ، فضرب دراهم من الفضة سنة خمس وسبعين[1]؛ ولكن الضرب لم يتخذ أهمية حقيقية ويعمم في جميع النواحي إلا في سنة ست وسبعين[2].

وقد وكل الحجاج أمر ضرب عملته الفضية ليهودي يدعى سميراً، ولهذا سميت عملته بالسميرية، وقد كتب عليها الحجاج "بسم الله" "الحجاج" ثم بعد سنة نقش عليها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾[3]

وقد استهدفت نقود الحجاج السميرية حملةُ الفقهاء، وذلك أنهم كانوا يستنكرون أن يكتب عليها "بسم الله" في وقت هي عرضة لأن يأخذها الجنب والحائض[4].وفي رأينا أن الفقهاء الذين استنكروا العملة السميرية أفرطوا في تعصبهم ضدها. بدليل أن المعتدلين لم يكرهوها فقد دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبها بقايا الصحابة، فلم ينكروا منها سوى نقشها؛ لأن به صورة. وكان سعيد بن المسيب يبيع ويشتري بها، ولا ينكر من أمرها شيئاً، وسئل الإمام مالك عن الدراهم والدنانير التي فيها ذكر الله عز وجل، فأفتى بأن التعامل بها لا شيء فيه، محتجاً بأن أهل المدينة لم ينكروا التعامل بها حين

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٧٣. والمقدمة. ابن خلدون. مصدر سابق. ص ١٨٣.

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٧٣. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. جـ ٤، ص ٥٣. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ٨٣. والمعارف. ابن قتيبة. ص ١٧٦. والأحكام السلطانية. الماوردي أبو الحسين علي بن محمد (ت٤٥٠هـ). ص ١٤٨. والمقدمة. ابن خلدون. مصدر سابق. ص ١٨٣. والأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص ١٣٩.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٧٣. والنقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. ص٨.
والأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص ١٣٩.

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٧٣. والنقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. ص٨.

قدومها، وأن ابن سيرين كان يبيع ويشتري بها. يضاف إلى ذلك أن عمر بن عبد العزيز امتنع من محو ما عليها من الكتابة حينما أشير عليه بذلك[1].

وقد حدث في العصر العباسي - في خلافة المنصور - أن سميت نقود الحجاج بالمكروهة، ورتّب العلماء على هذا الأساس خلافاً لا محل له. فقد ذكر[2] أن المنصور لم يكن يقبل من نقود بني أمية في الخراج غير الهبيرية والخالدية واليوسفية؛ فسميت الدراهم الأولى (التي ضربها الحجاج) المكروهة. ثم أورد البلاذري العلة في ذلك، فأشار إلى العناية التي بذلت في ضرب النقود المذكورة حتى قال: فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية .ومن ذلك يستنتج أن تصرف المنصور ضد نقود الحجاج كان لعلة مدنية بحت هي الجودة في الصناعة ولم يكن لعلة دينية. فلم يكن من العدل أن تكون أساساً لخلاف يرتبه العلماء.

وأنشأ الحجاج في الكوفة ثم في واسط داراً للضرب، أوجد بها السباكين، فكان يضرب المال للسلطان بما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة[3]. ولكي يتلافى محاولات الغش والسرقة لم يكتف بمراقبة عمال الضرب مراقبة صارمة، بل وسمهم بعلامة في أيديهم.[4]

ولم يكن مع ذلك أشد المراقبين قسوة، ففي عهد يزيد الثاني اشتد عمر ابن هبيرة في تخليص الفضة. ثم ولي خالد القسري لهشام بن عبد الملك، فاشتد أكثر من شدة ابن هبيرة حتى أحكم أمر النقود أبلغ من إحكامه، ثم ولي يوسف بن عمر الثقفي من بعده، فأفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب الغيار، فقطع الأيدي وضرب الأبشار[5].

---

(١) النقود الإسلامية. المقريزي. مصدر سابق. ص٦ .

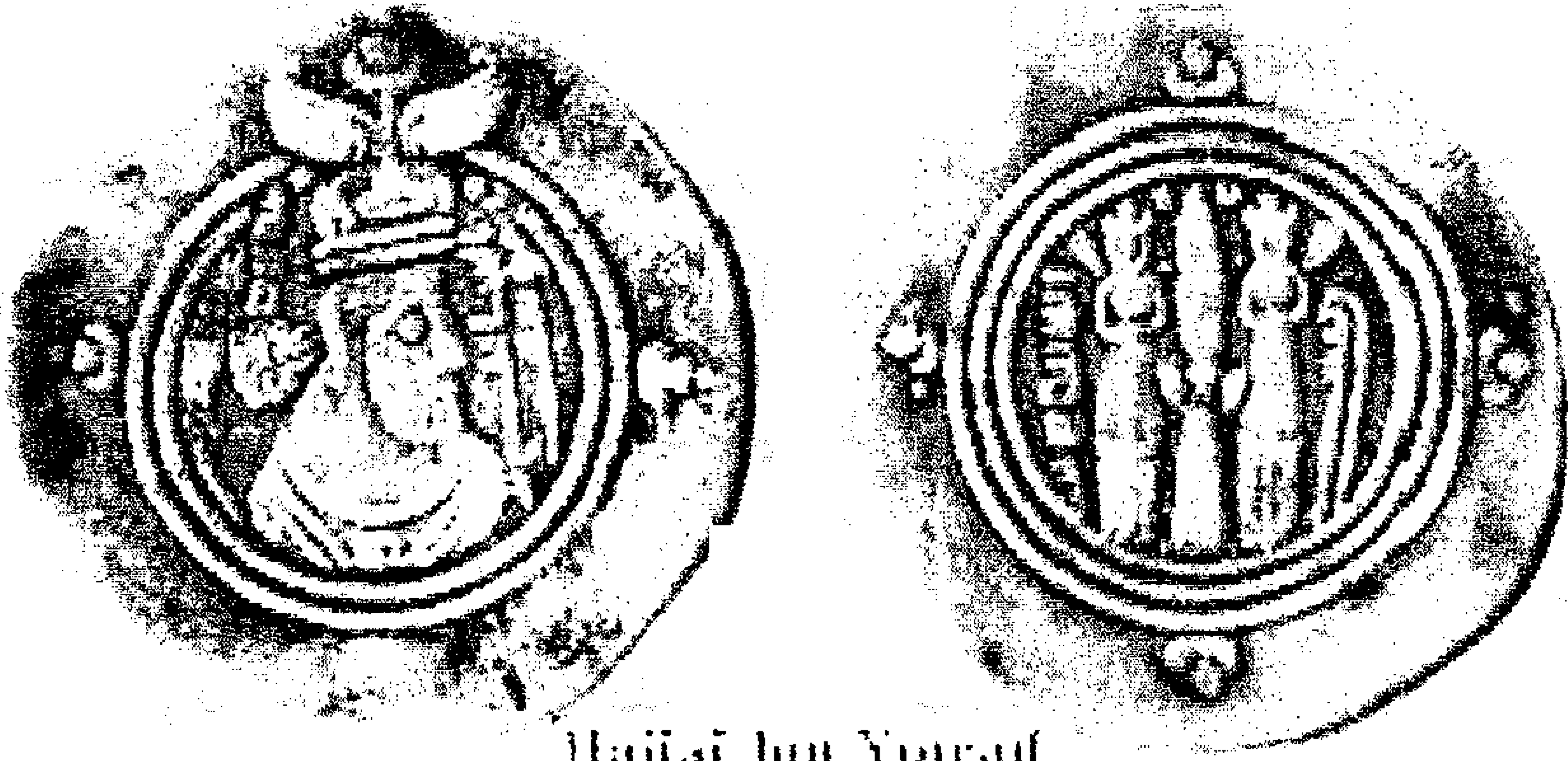
(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٧٤ .

(٣) الزيوف والستوقة والبهرجة: الدراهم الرديئة المزيّفة والباطلة.

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٧٤ .

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٧٤ .

وهكذا كان للحجاج فضل السبق في سكّ العملة العربية في الدولة الإسلامية، وإنشاء دار الضرب ووضع القواعد والأصول التي تسير عليها؛ فهو رجل الدولة بإصلاحاته، ولم يكن مصلحاً فحسب، بل كان مصلحاً ومجددا.



Hajjaj bin Yousuf

تعريب الدواوين:

كان الحجاج أول من عمل على ترجمة دواوين السواد وسائر بلاد العراق. وذلك أنه كان بالكوفة والبصرة ديوانان: أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذي كان قد وضعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، والآخر لوجوه الأموال، وكان بالفارسية، واستمر ذلك إلى عصر عبد الملك بن مروان(١).

وكان الحجاج لما ولي العراق استكتب زادان فروخ بن بيري، ويعاونه صالح بن عبد الرحمن - مولى بني تميم - فوصل زادان صالحاً بالحجاج، فأحبه الحجاج وقربه إليه. ولما شعر بذلك صالح من الحجاج قال لزادان: (**إني قد خففت على قلب الحجاج، ولا آمن أن يقدمني عليك، وأنت رئيسي والسبب في وصولي إليه فتضيع مكانتك**). فأجابه زادان بقوله: (**لا تظن ذلك هو أحوج إلي منه إليك؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيره**). فقال صالح: (**والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته**). فقال زادان: (**فحول منه**

(١) الوزراء والكتاب. الجهشياري. مصدر سابق. ص ٢٣ .

شطراً حتى أرى). ففعل صالح ذلك[1]. فطلب إليه زادان أن يتمارض. ولعله أراد بذلك أن يعرف مكانته عند الحجاج، فأرسل الحجاج إليه طبيبه الخاص، فلم ير به علة، وبلغ زادان ذلك، فأمره أن يظهر حتى لا يكشف الأمر، وقد عرف قربه من الحجاج. وقتل زادان في فتنة ابن الأشعث، وهو خارج من منزل إلى منزله[2]، فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه، فأخبره بما كان بينه وبين زادان في نقل الديوان، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية، وعهد بهذا العمل إلى صالح، فلما نجح صالح فيما أسند إليه قال له مردانشاه بن زادان: **(قطع الله أصلك كما قطعت أصل الفارسية)**. وقد آلم ذلك الأمر الفرس، وحزّ في نفوسهم، فبذلوا لصالح مئة ألف درهم ليظهر عجزه عن نقل الديوان فأبى ونقله[3]. وقد تخرج على يديه كثير من الكتاب، فكان عبد الحميد الكاتب يقول: **(لله در صالح ما أعظم منته على الكُتَّاب)**![4]

وقد كان لنقل الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية؛ فإنه لَمَّا أصبحت العربية لغةَ الدواوين ساعد ذلك على تقلص نفوذ أهل الذمة وغير العرب من المسلمين بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب كما ساعد على ظهور طبقة من الكتاب العرب ونَقْلِ كثيرٍ من الاصطلاحات الفارسية[5]. وكان ذلك من أهم الأسباب التي أقيم عليها بناء القومية العربية في المهالك الإسلامية، وقطع به

---

(١) الوزراء والكتاب. الجهشياري. مصدر سابق. ص ٢٣. فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٠٨.
والأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص ١٩٢.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. جـ ١١، ص ٣٥٢. والأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص١٩٣.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٠٨. الأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص١٩٣ .

(٤) المقدمة. ابن خلدون. مصدر سابق. ص ١٧١ . فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٠٩ .

(٥) النظم الإسلامية. د. حسن ابراهيم. مرجع سابق. ص ٢٢٠ .

آخر مظهر من مظاهر الأعاجم، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها.[1]

الزراعة:

ولي الحجاج شؤون العراق بعد قضية ابن الزبير المشهورة التي كادت تدك صرح الخلافة الأموية. ولي شؤونه والعراق يشق عصا الطاعة على الخلافة، ويأبى أن يسهم مع المهلب بن أبي صفرة في حرب الخارجين على الخلافة. ولي شؤونه والخوارج في كثير من النواحي يتربصون بالخلافة الدوائر. ولي شؤونه والأقطار المتاخمة للدولة الإسلامية تنتظر الفتح. إزاء هذه المشكلات المتعددة - داخلية وخارجية - لم يكن الحجاج يستهدف لأي لوم لو أنه أهمل شؤون العراق العمرانية ليعنى بهذه الشؤون الحيوية للدولة. إلا أن هذا الوالي المنقطع النظير كان واسع الأفق عالي الهمة لا يقاس به أترابه في هذا الشأن: فلقد اتسعت همته، فوسعت تجهيز الجيوش وإدارة الحروب من ناحية والقيام بشتى الإصلاحات العمرانية من الناحية الأخرى. ومما لا شك فيه أن الحجاج قد سبق عصره في طريقة تفكيره وحسن تدبيره، فإذا قسناه بمن سبقه من الولاة أو الفاتحين كان مجتهداً، وإذا قسناه بمن أتى بعده كان مبتكراً. عرف الحجاج - الذي لم يألف حياة السواد من قبل - أن الدولة لا تقوم لها قائمة إلاَّ إذا ساد الرخاء أرجاءها، فاستطاع الزارع أن يدفع ما عليه للدولة من الخراج، فإذا ضنت عليه الأرض بما يريد من ثمرات ضن هو على الدولة - مضطراً - بما تريده من خراج. لذلك عني الحجاج بإحياء موات الأرض بأن شق القنوات وحفر الأنهار، وأصلح الأرض البور، وجفف المستنقعات، وأكثر من الثروة الحيوانية، وبذل في كل ذلك جهد الجبابرة.[2]

وكان الحجاج في إصلاحاته لا يعرف كلمة (مستحيل). سأل دهّاقو العراق سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهراً، فكتب ابن أبي وقاص إلى سعد بن عمرو بن حرام يأمره

---

(١) الحضارة العربية. محمد كرد علي. جـ٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق جـ٨، ص ٣٦٠.

بحفره لهم، فجمع الرجال لذلك، فحفروا فيه حتى انتهوا إلى جبل لم يتمكن الفعلة من شقه فتوقف العمل فيه. واستمر كذلك حتى ولي الحجاج العراق فجمع الفعلة من كل ناحية، وقال للقائمين بالأمر: (**انظروا إلى قيمة ما يأكل كل رجل من الحفارين فإن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تمتنعوا من الحفر**)، فأنفقوا عليه حتى استتموه، فنسب الجبل إلى الحجاج والنهر إلى سعد بن حرام[1]. ورأى الحجاج بأرض العراق كثيراً من المستنقعات جفف قليلاً منها من سبقه من الولاة وقد بقي أكثرها على حاله فأمر الحجاج حسان النبطي مولى بني ضبة بتجفيف المستنقعات المحدودة، فقام حسان بذلك، واستخرج للحجاج أراضي صلحت للزراعة[2].

أما المستنقعات الواسعة فكان يستشير في أمر الإنفاق عليها أمير المؤمنين، فقد انفجرت بثوق غمرت جزءاً كبيراً من الأرض فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه بها، ويخبره أنه قدر لردمها ثلاثة ملايين من الدراهم، فاستكثرها الوليد. فقال له أخوه مسلمة: (**أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ما قدر لها، وأن يتولى إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج بن يوسف**).فأجابه الوليد إلى ما أراد، وقام بالعمل تحت إشراف الحجاج، فحصلت له أرضون كثيرة، فحفر النهرين المسميين بالسيبين، وتألّف الأكرة والمزارعين، وعمر تلك الأرضين. وذهب إلى تلك الجهة أناس كثير لزراعة تلك الجهات، حين توفرت المياه العذبة، ولا سيَّما أن مسلمة بن عبد الملك كانت له ضياع هناك[3]. وكانت بالعراق أراضٍ كثيرة تبدو عليها الخصوبة، ولكن تنقصها الأيدي العاملة لذلك نراه يقطع هذه الأرض لمن يتوسم فيه المقدرة على زرعها ممن أخلص في خدمته مكافأة له على الإخلاص من ناحية وجنياً

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٨٣.

(٢) الأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص ١٧١

(٣) المسالك والممالك. ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله (٢٨٠هـ). ص٢٣١. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٠٢.

للخراج من ناحية أخرى. ومن أمثلة ذلك أنه أقطع بشار بن مسلم (أخا قتيبة بن مسلم) مئات من الجربان[1]، فعمر بشار تلك الأرض بشق قناة فيها وزرعها[2]، وأقطع خيرة بنت ضمرة القشيرية (زوج المهلب) عباسان[3].

وكان من رأي الحجَّاج - كما يرى ساسة اليوم - أن يسهم الناس في جهود الإصلاح لا أن يترك الأمر كله للحكومة. لذلك نراه ينيط صيانة الجسور وترميم السدود بأصحاب الضياع التي تنتفع بها ولا سيَّما إذا كانوا من الدهاقين الأغنياء. فإذا أهملوا ذلك ففاضت مياه الأنهار والقنوات على أراضيهم وقاموا يطالبون الحكومة بالتعويض أبى عليهم الحجاج ذلك حتى يكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم في المستقبل، فيسهرون على صيانة أراضيهم من أن تطغى عليها مياه الفيضان. ولا قيمة لما رُمي به الحجاج من أنه كان يضن بالتعويض على بعض الدهاقين؛ لأنهم كانوا يناوؤن سياسته؛ وليس لهم من الأموال ما يمكنهم من سد تلك الفتحات[4]، فالحجاج لا يلام على سياسته هذه من حيث المبدأ.

أما من حيث التطبيق فأكبر الظن أن الحجاج ما كان ليمتنع عن مساعدة هؤلاء لو وثق بضيق ذات يدهم. يؤيد ذلك أن الحجاج كان لا يضن بالمال إذا كان لازماً للمصلحة العامة أو عائداً على بيت المال بالفائدة، فكان يقرض الزراع مساعدة لهم على زرع أرضهم كما يفعل بنك التسليف الزراعي اليوم. ومحال على من يفعل ذلك أن يضن بالتعويض إذا كانت المطالبة عادلة. هال الحجاج إقبال الناس على ذبح البقر، وما يتهدد البلاد من وراء ذلك من انقراض النسل وقلة الخيرات، فحرَّم ذبح البقر. وقد بدت تلك الوسيلة غريبة شاذة في نظر الناس، فتألموا من ذلك كل الألم، فقال بعضُهم:

---

(١) الجربان ومفردها جربة: المزرعة.

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٦٩.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٧٦.

(٤) الحجاج من مصادره العربية. (بالفرنسية) الأب ج. بريه. ص ٢٦٤.

شكوْنا إليه خَرَابَ السَّوَادِ فحَرَّمَ جَهْلاً لُحُومَ البقر[1]

والمستعرض لهذا الإجراء في ضوء الأساليب الحديثة في العمران لا يسعه إلا الإعجاب بمواهب الحجاج، فها نحن أولاء نرى اليوم حظر الذبح وسيلة من وسائل إنماء الثروة الحيوانية من لحوم وألبان ومستخرجاتها فضلاً عن أثر الحيوان في العمل في المزارع وتسميدها. فكان الحجاج قد سبق إلى أساليب العصر الحديث بعشرات المئات من السنين. كذلك هاله انصراف الناس عن الزراعة بالهجرة إلى المدن حيث تكثر البطالة، وما يستتبعها من جرائم، فضلاً عما يترتب على ذلك من بوار الأرض، وما يتلوه من نقصان الخراج، فأمر بإرجاع هؤلاء المهاجرين إلى قراهم، واشتد في ذلك، فأمر بأن يكتب على يد كل واحد منهم اسم قريته حتى لا يبرحها إلى غيرها[2]. تعدى اهتمامه بالزراعة إلى المياه ليشيد في القرن الأول الهجري صهريجاً للمياه النقية بالبصرة عرف باسمه ليشرب الناس منه[3].

هذا ما حدثتنا به المصادر من إصلاحات الحجاج بالعراق، ولو اتسع أفق المؤرخين لم تطغ عليهم حفيظتهم على الحجاج، لملأوا عن إصلاحاته المجلدات. ولكن الحجاج كان ضحية سمعته العامة من بطش وقسوة، ملكت المؤرخين الحفيظةُ عليه، فطمسوا معالم إصلاحاته ما لو دُوِّنَ لكان مناراً لرجال الإصلاح في العصور المتأخرة؛ ومع هذا القليل الذي أورده المؤرخون فإن الحجاج لم يفلت من نقدهم. وقد أوردوا لنا أرقاماً عن الخراج في عهد عمر بن الخطاب ومعاوية والحجاج وعمر بن عبد العزيز محاولين إثبات أن الحجاج قد أخرب العراق. وعلى اضطراب المصادر وخلطها في هذا الشأن.

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٥، ص ٩٤. والمسالك والممالك. ابن خرداذبة. ص ١٤. ومعجم البلدان. ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله (ت٦٢٦هـ). جـ٥، ص ١٦٣.

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. جـ٢، ص ٧٧. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ١٨٢. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ٢٨٥.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٧٧.

نرى لزاماً علينا أن نناقش هذه الأرقام حتى نخرج منها بأن الحجاج لم يخرب العراق. وعليه يبدو الاضطراب في تفاوت الأرقام، وإذا كان الخراج في وقت عمر بن الخطاب قد تراوح بين مئة مليون على رأي البلاذري [(1)] ومئة وثمانية وعشرين مليوناً على رأي ياقوت [(2)] والبشاري [(3)] وابن خرداذبة، [(4)] وهذا فارق مستساغ إلى حدٍ ما، فإنا نراهم قد نزلوا بالخراج في أيام عمر بن عبد العزيز إلى ثمانين مليوناً على حد رواية ابن عساكر [(5)] وابن كثير [(6)] عن عمر بن عبد العزيز، ويطغى إلى مئة وأربعة وعشرين مليوناً على رواية ياقوت وابن عساكر أيضاً. أما الحجاج فقد ذكر البشاري وابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر أنه وصل إلى ثمانية عشر مليوناً، وذكر اليعقوبي [(7)] أنه وصل إلى خمسة وعشرين مليوناً وذكر البلاذري وابن عساكر وابن كثير في رواية عن عمر بن عبد العزيز أنه بلغ أربعين مليوناً، وينفرد الماوردي [(8)] بذكر رقم محترم وهو مئة وثمانية عشر مليوناً.

وهنا لا يمكن البحث التوفيقُ بين الحد الأدنى وهو ثمانية عشر مليوناً والحد الأعلى وهو مئة وثمانية عشر مليوناً إلا بافتراض الخطأ في رواية الماوردي لأنها رواية مفردة. بينما الثمانية عشر رواها أربعة هم ابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر والبشاري. وثمة مظهر آخر من مظاهر الاضطراب في هذه الروايات؛ فقد حدثنا بعض هؤلاء المؤرخين عن خراج العراق، وحدثنا بعضهم الآخر عن خراج السواد؛ ونحن نعلم أن ولاية

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٧٩ .

(٢) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٦٢ .

(٣) أحسن التقاسيم . المقدسي مطهر بن طاهر (ت+٣٥٥هـ). ص ٢٣.

(٤) المسالك والممالك. ابن خرداذبة. مصدر سابق. ص ١٤ .

(٥) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٨٠ .

(٦) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص١٣٦ .

(٧) تاريخ اليعقوبي. أحمد بن اسحق اليعقوبي (ت٢٩٢هـ). جـ٣، ص٣٥ .

(٨) الأحكام السلطانية. الماوردي. مصدر سابق. ص١٦٧

العراق في عهد الحجاج لم تكن كلها سواداً. ولم تحدثنا هذه المصادر عن الأرقام التي أوردتها هل كانت هي كل ما جبي من العراق أو من السواد؟ أو كانت هي ما أداه الحجاج للخليفة؟ والفارق بين هذا وذاك أن الحجاج قد يجبي الملايين ولا يؤدي منها إلى دار الخلافة إلا النذر اليسير. ذلك أنه انفرد من بين الولاة جميعاً بالإنفاق عن سعة على الحروب التي لم تهدأ يوماً طيلة عهده، وكان يضطر في كثير من الأحيان إلى مضاعفة العطاء، وهي حروب ليس من ورائها فتح ولا فيء، فهي حروب داخلية قوامها إخضاع ثائرين مفلسين.يضاف إلى ذلك أنه كان كما رأينا معنياً بالإصلاحات الداخلية لا يدخر وسعاً ولا جهداً في سبيل إنجازها. لذلك من الممكن النظر إلى أن هؤلاء المؤرخين قد تحدثوا عما أداه الحجاج لدار الخلافة من فائض الخراج بعد أن أنفق في العراق ما أنفق.

لم تذكر المصادر في حديثها عن الجباية عاماً معيناً، فإذا كانت الأرقام التي ذكرتها هي ما جبي أو ما أرسل إلى دار الخلافة زمن الثورات فمن الميسور أن يصدق أن يكون الخراج قد نقص إلى هذا الحد زمن العسف والفتن. [1] ومع احتراق ديوان الخراج إبان ثورة ابن الأشعث [2] ضاعت معالم الدخل والخراج في العراق. وفي تقدير أهل العلم أن رجلاً كالحجاج واجه من المصاعب ما واجه، وأخضع من الفتن ما أخضع، وأجرى من الإصلاحات ما أجرى، كان يتحتم عليه ألاَّ يؤدي إلى دار الخلافة شيئاً، فلولا همة الحجاج ويقظته وحسن بلائه في الإنفاق على الجيوش واستهواء القلوب لضاعت الخلافة الأموية. ولخدماته الجليلة كان موضع الرضى التام من عبد الملك بن مروان، فقد أتته جباياته كثيرة موفورة، [3] ولم يكن كذلك لنزعه عبد الملك في خلافته لوماً

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية. الخضري. مرجع سابق. جـ٢، ٢٦٣ .

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٨١ . والخراج. أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ). ص٥٧ .

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١، ص٣١١ . والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص٩٩ .

عندما أوصى به ابنه الوليد؛ ولذا استحق هو وزياد الثقفي مثله حسد العباسيين، وضح ذلك في قول أَبي جعفر المنصور (**الخلفاء ثلاثة معاوية وكفاه زياد، وعبد الملك وكفاه الحجاج، وأنا ولا كافي لي**).[1]

بناء المدن: اهتم الحجاج بالعمران وتوفير الرفاهية وتقدُّم الحال في عهده؛ فلم يكد ينتهي من حرب ابن الأشعث في سنة ثلاث وثمانين من الهجرة،[2] حتى بدأ في بناء مدينة واسط. ويختلف المؤرخون في السبب الذي دعاه إلى بناء هذه المدينة، فيروي ياقوت أن الحجاج لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة، فآنس من أهلها الملال والبغض له، فقال لرجل ممّن يثق بعقله: (**امض وابتغ لي كرشاً من الأرض أَبنِ فيه مدينة، وليكن على نهر جار!**). فأقبل ملتمساً ذلك حتى سار إلى قرية فوق واسط بيسير يقال لها واسط القصب، فبات واستطاب ليلها، واستعذب أنهارها، واستمرأ طعامها وشرابها.[3] ويروي غيره أن الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان، وكان فتى من أهل الكوفة حديث عهد بعرس، فانصرف من العسكر إلى ابنة عمه ليلاً، فطرق الباب طارق، ودقه دقاً شديداً، فإذا سكران من أهل الشام، فقالت العروس لزوجها: (**لقد لقينا من هذا الشامي شراً يفعل بنا كل ليلة ما ترى**) تريد المكروه. وقد شكوته إلى مشيخة أصحابه. فقال لها زوجها: (**ائذني له،**) فأذنت له، فدخل وقال لها: (**قد آن لكم،**) وكانت المرأة قد بخرت منزلها وطيبته، وبعد دخوله أغلق زوج المرأة الباب وقتله، فلما أذن الفجر خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه: (**إذا صليت الفجر فابعثي إلى الشاميين ليأخذوا صاحبهم، فإذا أحضروك عند الحجاج فأصدقيه الخبر على وجهه**) ففعلت

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص١٧٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٨٤. ومعجم البلدان. ياقوت. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٧٩. والمختصر في أخبار البشر. أبو الفدا. مصدر سابق. جـ ١، ص١٩٨. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٥١. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٣٨.

(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨ ص٣٨٠.

فأحضرت لدى الحجاج، فأخبرته بحقيقة الأمر، فقال للشاميين: (**خذوا صاحبكم لا قود له ولا عقل فإنه قتيل الله إلى النار**). ثم نادى مناديه (**لا ينزلَنَّ أحد على أحد، واخرجوا فعسكروا**). وبعث رواداً يرتادون له منزلاً حتى اهتدى إلى مكان واسط فبنى فيه. [1] وهكذا لم يشأ الحجاج أن ينزل الشاميين الذين لم تكن لهم منازل ثابتة على الكوفيين، وذلك كي يمنع الخلل، ويرفع المستوى الأدبي والأخلاقي لجنوده الشاميين، فأمر ببناء واسط.إلا أن أسباباً اجتمعت لدى الحجاج دفعت به إلى بناء واسط:

أولها: اختيار الحجاج مكاناً وسطاً بين البصرة والكوفة، [2] فاختار هذا الموقع الممتاز على الضفة الشرقية لنهر دجلة بين البصرة والكوفة والأهواز؛ إذ إنها تبعد عن كل منها نحو خمسين فرسخاً تقريباً حسب رواية المسعودي وياقوت.[3]

ثانيها: رغبة الحجاج في ترك أثرٍ مادي يخلد ذكره فأمر ببناء المدينة. وكما اختلف المؤرخون في سبب بناء الحجاج لها اختلفوا كذلك في سبب تسميتها بهذا الاسم. فيذكر ياقوت خمسة عشر بلداً يحمل كلٌّ منها اسم واسط، ويقول: إن واسط الحجاج أعظمها وأشرفها، وإن سبب هذه التسمية أنه كان قبل عمارة واسط موضع يسمى واسط قصب، فلما عمر الحجاج مدينته سماها باسمها. [4]

أما البلاذري والمسعودي [5] فيعزوان تسميتها بواسط القصب أن واسط كانت أرض قصب فسميت بواسط القصب. وقد يكون سبب التسمية توسط موقعها بين البصرة والكوفة والأهواز. ومهما يكن من أمر فقد كتب رائد الحجاج إليه بالخبر، ومدح

---

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص١٨٤.

(٢) الخلافة. موير. ص٣٤٩.

(٣) التنبيه والإشراف. المسعودي. مصدر سابق. ص ٢١١. ومعجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨ ، ص٣٧٨ .

(٤) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٧٨ .

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٩٨. والتنبيه والإشراف. المسعودي. مصدر سابق ص٣١١ .

له الموضع، فكتب إليه (اشتر لي متسعاً أبني فيه المدينة). وكان موضع واسط لرجل من الدهاقين فساومه بالموضع فقال له الدهقان: (ما يصلح هذا الموضع للأمير). فقال: (لم؟) فقال: (أخبره عن ثلاث خصال تخبره بها ثم الأمر إليه؛) قال: (وما هي؟) قال:(هذه بلاد سبخة؛ البناء لا يثبت فيها، وهي شديدة الحر والسموم، وإن الطائر لا يطير في الجو إلا ويسقط ميتاً لشدة الحر، وهي بلاد أعمار أهلها قليلة). فكتب بذلك إلى الحجاج، فقال الحجاج: (هذا رجل يكره مجاورتنا، فأعلمه أننا سنحفر بها الأنهار، ونكثر منها ومن الغرس فيها ومن الزرع حتى تغدو وتطيب، وأما قوله إنها سبخة وإنَّ البناء لا يثبت فيها فسنحكمه ثم نرحل عنه فيصير لغيرنا، وأما قلة أعمار أهلها فهذا إلى الله تعالى لا إلينا. وأَعلمْه أننا نحسن مجاورتنا له، ونقضي ذمامه بإحساننا إليه). فأخبر الرجل الدهقان بكلام الحجاج واشتراه منه.[1]

فسار الحجاج إلى المكان الذي ستبنى فيه مدينته لينظره.

ومن القصص المتواتر أنه لما وصل إليه إذا براهب قد أقبل على حمار له، فلما كان بموضع واسط بال الحمار، فنزل الراهب، واحتفر ذلك البول، واحتمله ورماه في دجلة والحجاج يراه، فقال: (عليّ به) فأتى به فقال: (ما حملك على ما صنعته؟) قال: (نجد في الكتب أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده). فاختط الحجاج مدينة واسط، وبنى المسجد في ذلك الموضع [2]. وغني عن البيان أن أمثال هذه النبوءات في كتابات المؤرخين العرب كثيرة، وسترى أمثالها في مواطن متعددة قد تكون قد نقلت عن رهبان النصارى واليهود.

تتكون واسط من بلدين يقعان على ضفتي دجلة؛ البلدة القديمة التي كانت مقام الدهاقين على الضفة الشرقية وهي كسكر، فبنى الحجاج مدينته على الضفة الغربية،

---

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٧٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص١٨٤، ١٨٥ . وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٣٨ .

وربط بين البلدين بقنطرة من المراكب [1]، وهذا يشبه ما كان في أمر الكوفة عند بنائها، فقد بنيت قرب المدينة القديمة المسماة بالحيرة.بنى الحجاج في واسط الغربية مسجده وقصره والقبة الخضراء التي أطلق عليها اسم خضراء واسط[2] وأدار الحجاج سور المدينة، وجعل حولها خندقين. ويصف ياقوت بعض أبعاد العمائر، فيقول: إن القصر كان ذراعه أربعمئة في مثلها وذراع المسجد الجامع مئتين في مئتين [3] كما يصف لنا أيضاً السجن الذي أقامه الحجاج داخل المدينة، وكان يسمى ديماس [4] ومشرعة الفيل التي سميت كذلك؛ لأن محمد القاسم - والي السند- أهدى إلى الحجاج فيلاً، فحمل البطائح في سفينة، فلما صار بواسط أخرج في المشرعة التي دعيت بعد ذلك بمشرعة الفيل [5]، ونقل الحجاج إلى قصره والمسجد الجامع أبواباً من المدن المجاورة، فضج أهل هذه المدن، وقالوا: (**قد أومنا على مدننا وأموالنا**،) فلم يلتفت إلى قولهم [6]. وقد نقل هذه الأبواب أبو جعفر المنصور فيمابعد من واسط، وجعلها لمدينته الجديدة (بغداد[7]). أنفق الحجاج على قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم، فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن: (**هذه نفقة كبيرة وإن احتسبها لك أمير المؤمنين وجدها في نفسه**). فقال الحجاج: (**فما نصنع؟**) قال: (**الحروب لها أجمل**). فاحتسب منها في الحروب أربعة وثلاثين ألف ألف درهم، واحتسب في البناء تسعة آلاف درهم [8].

---

(١) تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي. مصدر سابق. ص ٣٢٢ .

(٢) تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي. مصدر سابق. ص ٣٢٢ .

(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨٢ .

(٤) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٤، ص١٨٧ .

(٥) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨١. وص٢٩٩

(٦)معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨١. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص٢٩٨، ٢٩٩ .

(٧) تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ). جـ١، ص٧٥.

(٨) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨١ .

ولما أتم الحجاج بناء القبة الخضراء جلس في صحنها، وقال: (**كيف ترون قبتي هذه؟**)، قالوا: (**ما بني لأحد قبلك مثلها**). قال: (**فإن فيها مع ذلك عيباً، فهل فيكم من يخبرني به؟**)، قالوا: (**لا نرى بها عيباً**) فأمر بإحضار الغضبان القبعثرى - وكان في حبسه - لعلمه بصراحته وجرأته فأُتِيَ به يرسف في قيوده، فلما دخل عليه قال له الحجاج: (**إني أراك قد سمنت**)، قال: (**أيها الأمير، القَيْدُ والرَّتَعَة وقلّة التَّعتعة، ومن يكن ضيف الأمير يسمن**)، قال: (**فكيف ترى قبتي هذه؟**). قال: (**أرى قبة ما بني لأحد مثلها إلا أن بها عيباً، فإن أمنني الأمير أخبرته به**)، قال: (**قل آمنا**). قال: (**بُنيت في غير بلدك لغَيْرِ ولدك لا تتمتع به ولا تنعم، فما لا يتمتع به من طيب ولا لذة**)، قال: (**ردوه فإنه صاحب الكلمة الخبيثة**)، ولكنه عفا عنه بعد ذلك [1].

ولما فرغ من بناء المدينة كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (**إني قد اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطاً**)، ولذلك سمي أهل واسط بالكرشيين [2]. واتخذ المناظر بينها وبين قزوين [3]- وكانت قزوين ثغراً حينئذ حتى يمكن درء الخطر عن ذلك الثغر. وبعد أن أتم الحجاج مدينته وما يلزمها وأصبح لا حاجة له بالأنباط الذين استخدمهم في البناء أمر بإخراج كل نبطي بها وقال: (**يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة**)[4]، وقد وصف الصفدي الحارثي بالحمق؛ لأنه بنى تلك المدينة في بادية النبط وأمرهم بعدم دخولها، فلما مات دلفوا إليها من قريب [5]، واتخذها الحجاج مقر حكومته، وأسكنها الشاميين وبعض الأسر الأجنبية وكثيراً مِمَّن ترك ما وراء النهر

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص١٠٥ .

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٢٩٨. ومعجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ٨، صص٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٣) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢ ، ص٤٨ . و معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨٢.

(٤) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٨٢.

(٥) البيان والتبيين. الجاحظ. جـ١، ص٢٢٦ و جـ٣ ، ص٢٣٢.

معظمهم من بخارى جلبوا أسرى حرب[1] وبعض وجوه المِصْرَيْنِ (البصرة والكوفة).[2] ويقدر أن الحجاج جعل من واسط مدينتين، جعل إحداهما مساكن لجند الشام بعيدين عن أهل الكوفة منعاً لما يتطرق إليهم من هؤلاء من بذور الفتنة وتوسطاً بهم بين أمهات مدن العراق الثلاث، الكوفة والبصرة والأهواز. حتى إذا ما قامت فتنة في إحداها هرع إليها جند الشام من واسط.

أما المدينة الأخرى - أو بعبارة أدق الحي الآخر - فقد جمع فيه الحجاج بين أبهة الإمارة بابتناء المسجد والقصر وغير ذلك من المباني، ثم أسكنه فئات مختلفة من الناس؛ رأى مصلحته في أن يكونوا تحت بصره في العاصمة التي اتخذها مقراً لَهُ بدل أن يقيموا بعيداً عنه في الكوفة والبصرة، فيكون لهم في غيبته عنهم فرصة لتفريخ المؤامرات. ويبدو أن هذا الخليط من الناس استمر يقيم بواسط حتى كانت أيام الدولة العباسية، فقال فيهم بشار بن برد.

عَلَى وَاسِطٍ مِنْ رَبِّهَا أَلْفُ لَعْنَةٍ ... وتِسْعَةُ آلافٍ عَلَى أَهْلِ وَاسِطِ
أَيَلْتَمِسُ المَعْرُوفُ مِنْ أَهْلِ واسطٍ ... وواسطُ مَأْوى كُلِّ عِلْجٍ وسَاقِطِ؟!
نَبِيطٌ وأَعْلاجٌ وخُوزٌ تَجَمَّعُوا ... شِرَارُ عِبَادِ اللهِ مِنْ كُلِّ غَائِطِ [3]

ومن طريف ما يروى من القصص في هذا الشأن أن الحجاج كان معجباً بقصره، فبينما هو ذات يوم في مجلسه إذ أتاه بعض خدمه، فأخبره أن جارية من جواريه - وكان مائلاً إليها - قد أصابها لمم[4]، فغمَّه ذلك، ووجه إلى الكوفة يطلب أشخاص عبد الله بن هلال الذي يقال له صديق إبليس؛ فلما قدم عليه أخبره بذلك فقال: **(أنا أحل السحر عنها)** فحله عنها، وزال ما كان بها، فقال الحجاج: **(ويلك إني أخاف أن يكون هذا**

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص٣٨٣، ٣٨٤.
(٢) عيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٢.
(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ٨، ص٣٨٣.
(٤) مس خفيف من الجنون.

القصر محتضراً)، فقال: (**أنا أصنع فيه شيئاً فلا ترى ما تكرهه**).فلما كان بعد ثلاثة أيام جاء هلال بن عبد الله، ودخل على الحجاج يخطر بين الصفين، وفي يده قُلَّة[1] مختومة فقال: (**أيها الأمير تأمر بالقصر أن يمسح ثم تدفن هذه القلة في وسطه، فلا ترى فيه ما تكرهه أبداً**). فقال الحجاج: (**يا بن هلال وما علامة ذلك؟**) قال: (**أن يأمر الأمير برجل من أصحابه بعد آخر من أشداء أصحابه حتى يأتي على عشرة منهم، فليجهدوا أن يستقلوا بها من الأرض، فإنهم لا يقدرون**). فأمر الحجاج من حضره بذلك، فكان كما قال ابن هلال. وكان بين يدي الحجاج مخصرة[2] فوضعها في عروة القلة، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ثم رفع القلة، فارتفعت على المخصرة، فوضعها ثم فكر منكساً رأسه ساعة، ثم التفت إلى ابن هلال فقال له:(**يا بن هلال: خذ قلتك والحق بأهلك**) قال: (**ولم؟**) قال: (**إن هذا القصر سيخرب بعدي، وينزله غيري ويحتفر محتفر فيجد هذه القلة، فيقول: لعن الله الحجاج، إنما كان يبدأ أمره بالسحر**). فأخذها ولحق بأهله[3]. ولا يبعد أن تكون هذه القصة من الموضوعات على الحجاج؛ فإذا افترضنا صحتها فإنها تدل على أن الحجاج كان يشك بالدجل والشعوذة.

بقيت واسط مقراً للحكومة حتى بعد موت الحجاج، وصارت أعظم الأوساط الحربية في العالم الإسلامي، واحتفظت بأهميتها من الوجهة (الاستراتيجية) طيلة عهد الخلافة[4]. ازدادت ثروة واسط بعد عهد الحجاج؛ وقد كان حولها قرى وبساتين كثيرة ومزارع خصبة ومروج بها نخيل كثير وشجر الفاكهة. وزرع السهل القريب منها قمحاً، وصاد الناس من دجلة كميات من السمك. زار ياقوت الحموي واسط مرات عدة،

---

(١) جرة عظيمة.

(٢) عصا

(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، صص ٣٨١، ٣٨٢ .

(٤) الخلافة. موير. مرجع سابق. ص٣٤٩

فكانت تجارة المواد الغذائية وأسواقها رائجة رواجاً عظيماً، وكانت الأغذية رخيصة حتى إن جرة الزبد كانت بدرهمين، وكان يشتري الناس بدرهم اثنتي عشرة دجاجة أو أربعة وعشرين فروجاً، وبهذا الثمن نفسه كان يشتري الإنسان اثني عشر رطلاً من السمن، وأربعين رطلاً من الخبز، وكذلك مئة وخمسين رطلاً من اللبن، وهكذا بقية صنوف الأطعمة[1]. ومع هذا فإن مدينة واسط لم تسلم من ألسنة أعداء الحجاج ولا من قدح الشعراء الساخرين[2]، وهاهو ذا أيوب بن القِريَّة يظهر الشفقة على الرجل الذي بنى هذه المدينة فيقول: **(إنه بناها في غير بلده، ويتركها لغير ولده)**.[3]

* * *

آثار واسط:

عنيت دار الآثار في بغداد بالتنقيب عن آثار واسط، وأسفر التنقيب عن اكتشاف مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وحصن وسوق؛ وقد عرضت الآثار التي استخرجت من الحفائر المذكورة في غرفتين من غرف دار الآثار العربية (ببغداد). ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك في أن المسجد الذي اكتشف هو المسجد الذي شيده الحجاج بن يوسف الثقفي عند تأسيس المدينة. وقد أسفرت أعمال الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة، ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتيمتراً؛ والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة، وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة .وقد بنى الحجاج مدناً أخرى فمن ذلك مدينة النيل [4]التي بناها على النهر الذي احتفره وسماه بهذا الاسم، وفي عهده بنيت

---

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨ ص٣٨٣ .

(٢) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، صص٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٢٩٨ .

(٤) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص٣٦٠. فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٢٩٨.
والنيل : بليدة صغيرة في سواد الكوفة .

أيضاً بلدة مشهورة بنواحي خوزستان[١] بالقرب من رستقباذ سميت بمكرم نسبة إلى مكرم بن معزاء الحارثي صاحب الحجاج[٢]، وقيل: مكرم مولى للحجاج أرسله الحجاج لمحاربة خُرّزاد بن إياس حين عصى وتحصن بقلعة تعرف به، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفياً ليلحق بعبد الملك بن مروان، فلحق به مكرم، وأخذه وبعث به إلى الحجاج.[٣]

وبنى محمد بن القاسم للحجاج أثناء ولايته لفارس مدينة شيراز[٤]. وبنى الحكم بن نهيك الهجيمي في أرجان مسجدها ودار إمارتها، وكان والي كرمان من قبل الحجاج.[٥]

عنايته بالأسطول:

ونختم هذا الفصل بما قدمه الحجاج إلى الأسطول الإسلامي من خدمات، فهو أول من بنى السفن المقيّرة والمسمرة والمدهونة والمسطحة غير ذوات الجآجيي[٦]. مضيفاً إلى الاسطول الإسلامي بالخليج العربيّ أنواعاً جديدة من السفن رآها أكثر ملاءمة للظروف التي عاش فيها.



---

(١) خوزستان أو عربستان منطقة تقع شرق محافظة البصرة.

(٢) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٦ ، ص١٧٦. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٩٠ .

(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٦ ، ص١٧٦. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٩١ .

(٤) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٥ ص٣٢٠. والمسالك والممالك. الاصطخري الكرخي أبو إسحق بن محمد الفارسي (ت٣٤٦هـ). ص١٢٤ .

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٠ .

(٦) الأعلاق النفيسة. ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر (ت أوائل القرن الرابع الهجري). مج٧، صص١٩٥، ١٩٦. والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٢ ، صص٢٤٢ ، ٢٤٣. وسفن الأسطول الإسلامي. عبد الفتاح عبادة. ص١٠، ٢٢ .

الفَصْلُ الثَّانِي

الثورات في عهد الحجاج

قلنا إن الحجاج أمضى السنوات العشرين من حياته والياً على العراق والمشرق من رجب ٧٥هـ إلى شوال ٩٥هـ، إذ قضى النصف الأول تقريباً من هذه المدّة في إخماد حركات التمرد والثورة التي استأثرت بكل طاقاته وجهوده. وقد وجد الأمويون أنفسهم أمام أمرين، إما الإستكانة وإمّا الحزم لإخضاع الخارجين على الدولة.

ثورة عبد الله بن الجارود:

تعد هذه الفتنة أول حركة تمرد يواجهها الحجاج منذ قدومه إلى العراق؛ وقعت حين كان الحجاج يعسكر بعدة آلاف من أهل الكوفة في رستقباذ ليشد أزر المهلب بن أبي صفرة في حربه مع الأزارقة أواخر شعبان لعام ٧٥هـ.

أسبابها:

إرغام الحجاج أهل البصرة والكوفة على الخروج من ديارهم لمحاربة الخوارج؛ مع عدم تحديده مدة للمرابطة في مواقع القتال؛ حيث قام الحجاج خطيباً، فحمد الله عز وجل، وأثنى عليه، ثم قال (**إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليته كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون. ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفَرَس الذين لا يقرأون القرآن إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً. ألا وإنما الدنيا عرض زائل يأكل منها البر والفاجر، والآخرة آجل مستأخر يحكم فيها ملك قاهر. ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر؛ واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة والشر كله بحذافيره في النار. ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره؛ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. ألا وإن الزيادة التي زادها ابن**

الزبير في أعطياتكم زيادة فاسق منافق لسنا نجيزها)، وإعلانه عن عزمه على إنقاص عطاء كل محارب مئة درهم، وهي الزيادة التي منحهم إياها مصعب بن الزبير؛ هذا الإعلان جعل عبد الله بن الجارود يقول: (**إنها ليست بزيادة ابن الزبير، وإنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك، قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر بن مروان**) فقال له الحجاج: (**ما أنت والكلام؟! لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه**) فقال: (**ولم؟ إني لك لناصح وإن هذا قول من ورائي**). واستمرت المشادة العنيفة بين الحجاج وابن الجارود وكل منهما يجادل الآخر في أمر هذه الزيادة، فالحجاج يقول إنها زيادة ابن الزبير لا يلتزمها، هو بها، وابن الجارود يقول إنها زيادة أجازها عبد الملك على يد أخيه بشر وهي بذلك ملزمة للحجاج.

ومما يلفت النظر في موقف ابن الجارود قوله: (**إن هذا قول من ورائي**) مما يدل على أن أمر الزيادة في أعطيات الجند كان من المسائل التي بيتها بعض أهل البصرة، وأنابوا عنهم ابن الجارود في الكلام عليها. وهذا إن دل على شيء فإنه يفسر نقمة أهل البصرة على الحجاج لشدته وعنفه قبل مجيئه للبصرة [1]، فما كانوا ليتركوا أمراً من الأمور يثير الجدل بينهم إلا التمسوه، وكانت أعطيات الجند تكأة للخروج على الحجاج في أمر يبدو فيه بعض الحق في جانب الثائرين عليه.

ويرجح أن ما فرضه مصعب من زيادة في أعطيات الجند لم تكن إلا وعداً يعطيه مُحْرَجاً؛ ويرجح بأنه لم ينفذه. تدل على ذلك حالة الجند السيئة في عهده وقلة المواد الغذائية، فيقول بعضهم عندما تزوج مصعب سكينة بنت الحسين أو عائشة بنت طلحة:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة   مِنْ ناصحٍ ما إنْ يريدُ متاعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل   وتبيت قادات الجيوش جياعا [2]

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. ص٦٦٦ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٢٨٢ .

وعن فرض زيادة أعطيات الجند في عهد مصعب بن الزبير، فمن المرجح أن هذه الزيادة ما فرضت إلا في أيام المحنة التي كان يعانيها مصعب في أواخر أيامه؛ ولا يستبعد أن يكون قد فرضها استثارة لهمة الجند وحفزاً لهممهم على الاستمرار في حرب عبد الملك.

إلا أن الحكومة بعد مقتل مصعب بن الزبير لم تبدأ عهدها بإلغاء الزيادة في أعطيات الجند اجتناباً لثورة قبل أن يستقر أمر العراق، فتركت أعطيات الجند دون إقرار للزيادة أو إلغائها، لكي يواجهها الحجاج بقدومه إلى العراق. ولمعرفة ابن الجارود بأهل البصرة؛ فإن الشكوك ساورته حول مؤازرتهم له؛ وإن كان قد واجه الحجاج بقوله: (**إن هذا قول من ورائي**)، أما الحجاج فقد رأى في وقفة ابن الجارود ما يحتمله التفكير، فآثر التريث حتى يتخذ له الترتيبات اللازمة، وظل على هذه الحال ستة أشهر لا يذكر أمر هذه الزيادة لا بخير ولا بشر.

خلال هذه المدّة، أخذ ابن الجارود يجمع إليه الأنصار والأعوان من معتقدي رأيه؛ والراغبين في الخروج على الحجاج، بينما استطاع الحجاج أن يستميل مصقلة بن كرب بن رقبة العبدي، ويعده للرد على قريبه ابن الجارود، إلا أن نوايا ابن الجارود كشفت حين أثيرت مشكلة الأعطيات؛ فبينما كان ابن الجارود يوجه حديثه إلى الحجاج بمثل ما سبق إذا بمصقلة ابن كرب العبدي يقول: (**إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها، وقد سمعنا ما قال الأمير، فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكرهنا**)، فشتمه ابن الجارود، وقال له: (**يا بن الجرمقانية ما أنت وهذا؟ ومتى كان مثلك يتكلم وينطق بمثل هذا؟**)[1] اجتمع القوم إلى ابن الجارود وعلى رأسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي والهذيل بن عمران البرجمي وغيرهما من أشراف أهل البصرة، وصوبوا رأيه وقوله، وأبانوا أنهم معه وأعوانه؛ وقالوا: (**إن هذا الرجل غير كاف حتى ينقصنا هذه الزيادة، فهلم نبايعك على إخراجه**

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٨١. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، صص ٣٦، ٣٧. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٢. والجرامقة قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام.

من العراق، **ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره، فإن أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج)**، فوافق الحاضرون على ذلك، وبايعوا ابن الجارود، وأخذوا المواثيق والعهود بعضهم على بعض بالوفاء. وقد سر أهل البصرة بتلك الحركة، وتوسموا في ابن الجارود القائد الكفء.[1]

ترامت إلى مسامع الحجاج أخبار استعدادات ابن الجارود، فأحرز بيت المال، واحتاط فيه حتى يستعين به، وفرق بين تجمعات السكان في الكوفة والبصرة، ووضع الحراس على الطرق، ليمنع اختلاط أي منهم بالآخر؛ إلا أن الاحتياطات لم تمنع إعلان التمرد في ربيع الآخر من سنة ٦٧هـ = ٦٩٥م؛ بقيادة ابن الجارود الذي استولى على خزائن الحجاج ومخازن سلاحه. فأرسل الحجاج إلى أعين صاحب حمام أعين بالكوفة - مولى بشر بن مروان - إلى ابن الجارود يستدعيه إليه؛ فقال ابن الجارود للرسول **(لا ولا كرامة لابن أبي رغال، ولكن يخرج عنا مذموماً مدحوراً وإلا قتلناه)**.

أبلغه عندها أعين رسالة الحجاج شفوياً فقال: **(أتطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك؛ والذي نفسي بيده لئن لم تَأْتِ لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة حديثاً للغابرين)**. فقال ابن الجارود: **(لولا أنك رسول والرسل لا تقتل لقتلتك)**؛ وأمر به فضرب وأخرج.

وبدأ زحفهم نحو الحجاج- والحجاج ليس معه إلا خاصته وأهل بيته - حتى وصلوا فسطاطه، فنهبوا ما قدروا عليه من متاع ودواب، واحتمل أهل اليمن امرأته ابنة النعمان بن بشير، وجاءت مضر فأخذت امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن إسماعيل بن عمرو[2]، خشية أن تتعرضا لسوء على يد السفهاء، كما يقول البلاذري،

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤ ص ٣٧ والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣. ص ٤٢.

(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٧. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣ ص، ٤٢ . وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٨٣.

ولعل الثوار كانوا يريدون إرهابه وتخويفه حتى يخرج من العراق؛ دون حرب فيها خروج على الخليفة، وأكبر الظن أنهم كانوا هائبين للحجاج، حين أتاه قوم من أهل الكوفة والبصرة، فصاروا معه، فلما كثر إقبال الناس على الحجاج، قال الغضبان ابن القبعثرى الشيباني لابن الجارود **(تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك، أما ترى من قد أتاه منكم، ولئن أصبح ليكثرن ناصره)**[1] فقال ابن الجارود: **(قد قرب المساء ولكننا نعاجه بالغداة)**.

بدأ الحجاج يفكر في الأمر ويشاور خاصته؛ وكان معه عثمان بن قطن الحارثي وزياد بن عمرو العتكي، فأشار زياد- صاحب شرطة البصرة- بأن يأخذ له الأمان من ابن الجارود، ويخرج فيلحق بأمير المؤمنين لأن الناس قد انصرفوا عنه.

وأشار عثمان بمخالفة هذا الرأي قائلاً: **(إن أمير المؤمنين قد شركك في أمره، وخلطك بنفسه، واستنصحك وسلطك، فسرت إلى ابن الزبير، وهو أعظم الناس خطراً، فقتلته، فولاك الله شرف ذلك وسناه، وولاك أمير المؤمنين الحجاز، ثم رفعت، فولاك العراقَيْنِ فحيث جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام؟! والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من سلطان أبداً وليتضعن شأنك. ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك، فنقاتل حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً)**. فقال له الحجاج: **(الرأي ما رأيت)**. وحفظها لعثمان وحقدها على زياد. ومن حسن فطنته أنه لما جاءه عمر بن مسمع يقول له: **(قد أخذت لك أماناً من الناس)** جعل الحجاج يغالطه رافعاً صوته ليسمع الناس ويقول: **(والله لا أؤمنهم أبداً حتى يؤتوني بالهذيل بن عمران وعبد الله بن حكيم!)**. وبذلك استطاع الحجاج أن يوهم سامعيه بقدرته على إخماد الثورة وأن كفته لا تزال هي الراجحة. على أنه بينما كان يفعل

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٧. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٢.
وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٨٤.

ذلك كان في الوقت نفسه يستثير زعماء البصرة لنجدته، فقد أرسل إلى عبيد بن كعب النميري يقول له: (**هلم إليّ فامنعني!**). فقال عبيد للرسول قل له: (**إن أتيتني منعتك**). فقال الحجاج بنفسه العالية: (**لا ولا كرامة!**). وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد فقال: (**لا ناقتي في هذا ولا جملي؛ ولكن إن أتى منعته**) وهكذا لم يجبه أحد[1]. ولما قعد هؤلاء عن تلبية طلبه أحس الحجاج بالحرج، وكاد اليأس يتطرق إليه لولا أن صادفه ظرف لم يكن في الحسبان. ذلك أنه بينما كان ابن الجارود وابن الهذيل وابن الحكيم- زعماء الحركة - يتكلمون في رسم الخطط مر بهم عباد بن الحصين الحبطي فقال لهم: (**أشركونا في نجواكم**). فقالوا: (**هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبَط**)، فغضب وسار إلى الحجاج في مئة رجل، فاطمأن الحجاج وقال: (**ما أبالي من تخلف بعدك**). وهنا تظهر حكمة الحجاج وبعد نظره في قوله هذا، فهذه الجملة من شأنها أن تستهوي عباداً، إذ كان أول من انضم إلى الحجاج. وسعى إلى الحجاج قتيبة بن مسلم في جماعة قائلاً: (**والله لا ندع قيسياً يقتل وينهب ماله**)[2] ثم جاءه سبرة بن علي، وأسلم بن زرعة الكلابي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف، وأرسل إليه سمع بن مالك (**إن شئت أتيتك، وإن شئت أقمت، وثبطت الناس عنك**) فقال له الحجاج: (**أقم وثبط الناس عني**). وقد أنصف الحجاج في اتباع هذه السياسة، فتثبيط الناس عن الحجاج لا يقل أهمية عن القتال معه، ولم يأت الصباح حتى كان جمع الحجاج نحو الستة آلاف فعبأهم الحجاج.

وقد أرعب ذلك ابن الجارود، واستشار عبد الله بن ظبيان في الموقف، فقال ابن ظبيان: (**الرأي تركته بالأمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك، وقد ذهب الرأي وبقي الصبر**). عبأ ابن الجارود أصحابه، فجعل على ميمنته الهذيل

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٧. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣. أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ، صص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣.

وعلى ميسرته عبد الله بن ظبيان. أما الحجاج فجعل على ميمنته عباد بن الحصين وقيل قتيبة بن مسلم وعلى ميسرته سعيد بن أسلم. ودارت رحى المعركة مدة من الزمن كانت الغلبة في مبدئها لابن الجارود، وانتهت لمصلحة الحجاج بعد أن قتل ابن الجارود(١).حين ذلك نادى منادي الحجاج بأمان الناس جميعاً إلاّ الهذيل وابن حكيم وأن يلحق الناس بأمصارهم(٢). وكان من حسن سياسته عدم اتباع المنهزمين من عامة الناس، فقد قال: **الاتّباعُ من سوء الغلبة**(٣).

أما زعماء الحركة - أولئك الذين عدّهم الحجاج مسؤولين عن هذه الفتنة فلم تأخذه فيهم رحمة ولم تنفع لديه شفاعة- ذلك أن الحجاج كان يعتقد أنهم خرجوا عليه في أحرج الأوقات، وهو مشغول بحرب الخوارج، ولو نجحت فتنتهم لفسد عليه الأمر وتقوَّى العدو الذي كان يرقب الحالة عن كثب، وينتظر هزيمة الحجاج.

تبع الحجاج هؤلاء فلم تنفع لديه الوساطات ولا الشفاعات مهما كان الشافع عظيماً، فقد تقدم إلى الحجاج ثلاثة من خيرة أصحابه هم عباد بن الحصين وسعيد بن أسلم وقتيبة بن مسلم يشفعون لابن هذيل وابن حكيم معتمدين في شفاعتهم على أن لهم فضلاً عظيماً في نصرة الحجاج، ولكن الحجاج حين أحس بأن هؤلاء سيحدثونه في شأنهم وأنه قد لا يستطيع ردهم بادر إلى قتلهم حتى يصبح الوسطاء لديه أمام الأمر الواقع.(٤)

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣

(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣.

(٣) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣ .

وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٩٢.

(٤) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤ ص ٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣ .

وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٩١.

وكان الحجاج يعتقد أن في قتل هذين الزعيمين قضاء تاماً على الفتنة إذ إنه لو أبقى عليهما لألّبا عليه الناس، شجع الحجاج على ما فعل أن الهذيل كان يرى في نفسه ألاّ سلطان لأحد عليه، وأن الحجاج كان يحفظ عليه أنه دخل عليه مرة وهو يجر ثوبه فقال: (**يا هذيل ارفع ثوبك !**) فأجابه هذيل: (**إن مثلي أيها الأمير لا يقال له هذا القول**[1]**!**) وما كان الحجاج ليرضى وهو يعاني أزمة الخوارج أن يبقى على ظهر الوجود رجل يجابهه بهذا القول ويشترك اشتراكاً فعلياً في ثورة كادت تفسد الأمر على الحجاج. رفع انتصار الحجاج على ابن الجارود الروح المعنوية لجند الخلافة، وفتَّتَ عضد الخوارج الذين كانوا ينتظرون هزيمة الحجاج أمام ابن الجارود، ولا سيَّما بعد أن بعث الحجاج برأس ابن الجارود ورؤوس ثمانية عشر من أصحابه إلى ميدان معسكر المهلب[2] فكان لذلك من النتائج ما توقعه الحجاج.

هرب عبد الله بن ظبيان من صاحب ميسرة ابن الجارود، فقدم إلى عمان عند سعيد بن الجلندي الأزدي، فقيل لسعيد: (**إنَّ ابن ظبيان رجل فاتك، فاحذره**)، فأرسل له نصف بطيخة مسمومة، وقال له: (**هذا أول شيء جاءنا من البطيخ**)، فأكله فمات واستراح الحجاج منه[3].

استتب الأمر للحجاج بالبصرة، وأقبل على مجلسه كثير ممن خرج عليه، فكان الحجاج يعاتبهم تارة ويلومهم أخرى ويستهزئ بهم ثالثة. كابن عمير وابن كعب -

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٣. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٣٨. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١، ص ٢٧٩.

(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٣.

وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ٤٦. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢٩٢، ٢٩٤.

(٣) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٩٠.

اللّذين استنصر بهما الحجاج في بدء الثورة، فلم يحسنا الرد عليه ورفضا معونته - فلم تأخذ الحجاج فيهما رحمة، إذ استهزأ بهما أمام أصحابه، ثم أمر بهما فحُبسا، فمات ابن كعب في سجنه[1]، وعفا عن محمد بن عمير[2].

وأما الغضبان بن القبعثرى الذي قال لأصحاب ابن الجارود: **(تعشّ بالجدي قبل أن يتغدى بك)**، فقد أمر الحجاج بسجنه، ولكن عكرمة بن ربعي كلم في شأنه روح بن زنباع ليشفع له لدى عبد الملك فشفع له وأمّنه[3]، وأرسل إلى الحجاج بأمانة فدعا الحجاج به وقال له: **(قد سمنت وصفا لونك)**. قال: **(القيد والرتعة ومن يكن ضيف الأمير يسمن)**. فقال له: **(أنت القائل تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك)**. فقال: **(ما نفعت من قيلت له ولا ضرت من قيلت فيه)**. قال: **(أَوَتحبُّني)**. قال: **(أَوَ فَرَقاً خيرٌ مِنْ حُبَّيْنِ؟)** قال: **(ولِمَ لا تحبني؟)** قال: **(لأنك أخذت مالي، ووضعت شرفي)**. قال: **(فإن رددت لك مالك ورفعت قدرك؟)** قال: **(الرِّضا مع الإحسان والسخط مع الغضب)**. قال: **(لأحملَنَّك على الأدهم)** قال: **(مثلُ الأمير يحملُ على الأدهم والأشهب)**. قال: **(إنه حديدٌ،)** قال: **(لأنْ يكونَ حديداً خيرٌ من أن يكون بليدا)**. فحمل بين يديه ليطلق من حديده، فلما استقل به من حمله قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. فضحك الحجاج وعفا عنه[4].

من نتائج هذه الثورة ازدياد ثقة عبد الملك بالحجاج، وانهيار الثقة بين الحجاج وعرب العراق؛ ولا سيَّما بقضائه على كثير من وجوه العراق وشخصياته البارزة، وبروز العصبية القبلية في العراق.

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) مجمع الأمثال. الميداني أبو الفضل جمال الدين (ت٧١١هـ). ص ١٤٤ .
وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ١٧٤ .

(٣) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٨ .أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٢٩١ .

(٤) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

انتصر الحجاج على ابن الجارود، فأخمد ثورته، ونكل بأنصاره، ثم كتب إلى عبد الملك **(أما بعد فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين أني لما أنزلت منزلي من رستقباذ وثب عليّ أهل العراق، فخالفوني ونابذوني ودخلوا فسطاطي، وانتهبت أموالي، وقالوا: اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا، ففارقني البعيد، وأسلمني القريب، ويئس مني الشفيق، فشددت عليهم بسيفي، ولقيتهم بشيعتي، وقلت: الموت خير من البراح، فو الله ما رمت الفرصة حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً، فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم، فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم، وضرب الله عز وجل وجوههم، فأخذوا شرقاً وغرباً، ثم إني أمنت الناس غائبهم وشاهدهم، فتراجعوا واجتمعوا، وألحقت الناس بأمصارهم، ولله الحمد كثيراً والسلام).**

فكتب إليه عبد الملك يقول: **(أما بعد فقد بلغني كتابك، وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب، فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم والسلام!).**[1]

يبين هذان الكتابان المتبادلين فطنة الحجاج وحسن تصويره للأمور بما يعتقد أن فيه إرضاء لعبد الملك وبلاغة في عرض الموقف، وما عاناه في سبيل الخلافة مما جعل الخليفة يقر الحجاج على ما فعل، ويوصيه بالشدة في معاملة أهل العراق بعد أن كبر على الخليفة قيام الثورة ضده أو ضد عامله في قطر من الأقطار ولا سيَّما أن هذه كانت أول ثورة تقوم في عهده في قطر معروف بالثورات والتقلبات.

لم يَيْأَس أهل العراق بعد تلك المحنة التي أصابتهم؛ فبينما كان الحجاج وعبد المل يتبادلان المراسلات وردت على عبد الملك شكاوى أهل العراق يجأرون إليه من ؛ الحجاج، ويسندون أن أموراً يحسن بالخليفة العادل أن يجعلها موضع تحقيق، وء أحاط عبد الملك به عامله من مظاهر وما أوصاه به من الشدة مع أهل العراق ؤ

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

الأخير، انصاع لما ورد في كتاب الشكوى، فعمد إلى إيفاد عبد الرحمن بن مسعود للاستماع إلى شكاوى أهل العراق، ولعله أراد بذلك أن يستهوي إليه القلوب بهذا المظهر من مظاهر العدل والبعد عن التحيز. وكان الخليفة قد شفع لديه لبعض الثائرين فحمل رسوله إلى العراق الأمر بإطلاق سراح هؤلاء. ولمّا علم الحجاج بما يحمله رسول الخليفة من أوامر تتعارض مع رغبته الخاصة في التخلص ممن كاد يكون هو وأهل بيته أول ضحاياهم؛ أَمَرَ بقطع أيديهم وأرجلهم قبيل وصول ابن مسعود، وبذا فوّت عليهم ما كانوا يريدون.(١)

وصل عبد الرحمن بن مسعود إلى البصرة، والتقى بالحجاج، فذهب إلى المسجد والقوم فيه مجتمعون، فصعد الحجاج المنبر وصعد ابن مسعود درجتين اثنتين، ثم اتجه ابن مسعود إلى القوم، وقال: (**ألا من يطلب الحجاج بمظلمة فليقم**). فبادر الحجاج إلى إسكات ابن مسعود قائلاً: (مه) (٢). فأجابه ابن مسعود: (**لا والله ما من مه**). ويخيل إلينا أن ابن مسعود استعرض موقفه سريعاً، فأدرك ما آل إليه أمره من حرج، فوجه إلى الناس خطاباً هو أبعد ما يكون عمّا كُلِّفَه من الاستماع لشكواهم إذ قال: (**يا أهل العراق جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة، فإياكم والشقاق والفتنة. إني قد شركت ورائي جبلاً من حديد، وقوماً لهم دين، وليست لهم دنيا، فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم؛**) وبذلك رأى ابن مسعود أن مأموريته قد انتهت، فقفل راجعاً إلى عبد الملك.

خرج ابن مسعود من العراق دون أن يمكنه الحجاج من أداء مأموريته، فحفظها في نفسه، وأقر للخليفة بظلم واليه على العراق لأهل البلاد؛ ولم يكد الخليفة يتم استماعه إلى ابن مسعود حتى جاءه كتاب طعن بابن مسعود من الحجاج، يقول: (**إنه امرؤ ظنين عليّ، وإنه قد بلغني أنه أساء الثناء علي، وإنْ شيعة ابن الزبير لن تحبني أبداً، وهو من شرارها وفجارها، وليس لمثله قرب ولا صدق والسلام**) .على أن تصرف الحجاج

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١ ، ص ٢٩٥.

(٢) مه: اسم فعل أمر بمعنى كفى، أو اسكت.

وإسرافه في الطعن السافر على ابن مسعود لم يصادف في نفس الخليفة هوى، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يدافع عن ابن مسعود قائلاً: (**أما بعد: فقد بلغني كتابك ابن مسعود، وليس مثله اتهم، ولا ظُنَّ به ظن السوء والسلام**).[1]

الحجاج وأنس بن مالك:

واجه الحجاج أزمة جديدة هي أزمة أنس بن مالك. ذلك أن عبد الله بن أنس كان قد خرج مع ابن الجارود فقتل[2]. فلمّا وصل نبأ ذلك إلى مسامع الحجاج قال: (**ولا أرى أنساً يعين علي**)، وحين دخل عليه أنس وجه إليه ألفاظاً قاسية، فكان مما قال:(**لا مرحبا ولا أهلاً بك يا بن خبيثة! شيخ ضلالة جوّال في الفتن! مرة مع أبي تراب، ومرة مع ابن الزبير، ومَرَّةً مع ابن الجارود**[3]**؛ والله لأجردنّك جرد القضيب، ولأعصبنّك عصب السلمة، ولأقلعنّك قلع الصمغة!**)[4].

فقال أنس: (**من يعني أصلح الله الأمير**). قال: (**إياك أعني أصم الله صداك**)[5]،فقال أنس: (**إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت ولا أي ميتة مت**)[6]. ورجع إلى منزله؛ فأخبر أولاده بما حدث، فأشاروا عليه بأن يكتب

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٩٨ . و الكامل في التاريخ. ابن الأثير مصدر سابق. جـ ٤، ص٣٨. والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٢ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٣ . و التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٣.

والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣ ، ص١٢ .

(٤) الصمغة: المادة اليابسة في مجاري ضرع الناقة بعد ولادتها. والسلمة شجرة لها أغصان طوا عظام ولها شوك كبير.

(٥) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٩٨. الكامل في التاريخ. ابن الأ مصدر سابق. جـ ٤، ص٣٩ والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٢ .

(٦) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٣ . والكامل في التاريخ. ابن مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٣.

للخليفة[1]، فكتب إليه. (**بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، من أنس بن مالك أما بعد:فإن الحجاج قال لي هجراً، وأَسمعني نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه، فإني أمُتُّ بخدمة رسول الله ﷺ وصحبتي إياه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**)[2].

ولما وصل عبد الملك الكتاب استشاط غضباً، وكتب إلى أنس كتاباً يسترضيه ويبين له أنه عند حسن ظنه به، وأنه يعرف خدمته لرسول الله ﷺ وصحبته إياه، وكتب إلى الحجاج كتاباً آخر ملأه بقوارص الكلم.وكان كتابه إلى أنس (**بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد:فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج ما سلطته ولا أمرته بالإشارة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إليّ بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي والسلام**)[3].

وكتابه إلى الحجاج:

(**أما بعد يا بن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور، فعلوت فيها حتى عدوت طورك، وجاوزت قدرك، يا بن المستفرمة[4] بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك!**

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٩٨ .

والكلام جارح وخليع يتطاول فيه الخليفة عبد الملك بن مروان على أم الحجاج! ليمعن في شتمه في أعز الناس عليه!

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤. و البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص١٣٣ . وخلاصة الذهب المسبوك. الأربلي. ص٧ .

(٣) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٤.. وخلاصة الذهب المسبوك. الأربلي. مصدر سابق. ص٧.

(٤) البيان والتبين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ١، ص ٣٠٣. أخفش العينين: ضعيف البصر. أصك الرجلين: ذو عاهة بحيث تتقارب الركبتان ويتباعد الكاحلان. الجاعرتان. المؤخرتان

أما تذكر حال آبائك بالطائف حين كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحتفرون الآبار في أوديتهم ومياههم؟ أنسيت حال آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً، وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره، فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدماً فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين ممسوح الجاعرتين؛ ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل إليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى يأتي بك أنساً فيحكم فيك. فأكرم أنساً وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك منأمر أنس وبره وإكرامه، فيبعث إليك من يضرب ظهرك، ويهتك سترك، ويشمت بك عدوك، والقه في منزله متنصلاً له، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله والسلام)[1].

وأرسل بالكتابين إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر؛ وكان مصادقاً للحجاج وقال له: (دونك كتابيَّ ذَيْنِ، فخذهما واركب البريد إلى العراق، فابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وادفع كتابه إليه وبلغه عني السلام؛ وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أَمَتِك)[2].

فسار إسماعيل حتى وصل العراق، وبدأ بأنس فأعطاه كتابه، وأخبره برسالة الخليفة إلى الحجاج، فلما قرأ الكتاب قال: (جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً، وعافاه وكافأه عني بالجنة، هذا الذي كان ظني به والرجاء منه)[3]؛ فقال له إسماعيل يا أبا حمزة: (إن الحجاج

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٠٠. و الكامل في التاريخ. ابن الأثير مصدر سابق. جـ ٤، ص٣٩. التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٩٩. وخلاصة الذهب المسبو الأربلي. مصدر سابق. ص٧. والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤.

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٤. و عقد الجمان. العيني. مصدر سـ جـ ١١، ص٤١٠.

عامل أمير المؤمنين، وليس بك عنه غناء ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقدرك أن يضر وينفع فقاربه وداره)[1].

وتروي بعض المصادر أنه قال له: (يا أبا حمزة إن أمير المؤمنين قد بلغ لك ما تريد، واعلم أنه ليس عنده أحد يعدل الحجاج، والصواب أن تمضي إليه، فيعتذر إليك، ولا تحوجه أن يركب هو إليك بأمر، فيوغر ذلك صدره عليك، وها أنا ذا أمضي بكتابه إليك، وأقرر لك ما يرضيك إن شاء الله)[2].

ثم خرج إسماعيل من عنده، وذهب إلى الحجاج، فقال الحجاج مرحباً برجل أحبه، وكنت أحب لقاءه؛ فقال له إسماعيل: (وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به). فقال: (وما أتيتني به؟). قال: (فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً)؛ فاستوى جالساً مرعوباً؛ فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل ينظر فيه مرة، ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما قرأ الكتاب كله قال: (قم بنا إلى أبي حمزة، نعتذر إليه ونترضاه). فقال: (لا تعجلْ). فقال الحجاج: (كيف لا أعجل وقد كان من أمير المؤمنين ما كان؟)[3]. فقال له إسماعيل: (بل آتيك به)، وسار إلى أنس فأتى به، فلما بصر به الحجاج رحب به[4]، وقال: (عجلت علينا أبا حمزة باللائمة، والذي كان مني إليك كان على غير نية، ولكن أهل العراق لا يحبون أن يكون لأحد عليهم سلطان، فأردت أن

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣٣، ص١٣ . أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٠٠. التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٧٤ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٤ .

(٢) حياة الحيوان الكبرى. الدميري. جـ ١، ص ٧٠ .

(٣) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٧٤ والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٣٦ . العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣٣ ص ١٣ .

(٤) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣٣، ص١٣ . وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٠٠.
والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٩ .

يعلم منافقوهم وفُسَّاقهم أني إذا أقدمت عليك فهم عليّ أهون، وأنا إليهم أسرع، ولك عندنا العُتْبَى).[1]

فقال أنس: (**ما شكوت حتى بلغ مني الجهد، وحتى زعمت أنّا الأشرار، وقد سمانا الله الأنصار؛ وزعمت أنّا أهل النفاق ونحن الذين تبوأُوا الدار والإيمان، وسيحكم الله بيننا وبينك فهو أقدر على التغيير، لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب؛ وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلماً إلى مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عليك مني؛ ولم يكن لي عليك قوة، فوكلتك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين، فحفظ من حقي ما لم تحفظ، فو الله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم عيسى بن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرف أنت من حقي وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين؛ وبعد فإن رأينا خيراً حمدنا الله؛ وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان**) .فرد عليه الحجاج ما كان قد قبضه من ماله[2] ولم يزل مكرماً له حتى مات[3]. وكتب إلى الخليفة خطاباً يعتذر فيه عما حدث منه في حق أنس. إلاّ أنه يستبعد أن يصدر عن أمير المؤمنين عبد الملك المعروف بجم أدبه كتاب كهذا - بما احتواه من لاذع الكلم.

ثورة الزنج

انتهز الزنج المتكاثرون في جنوب العراق، انشغال الحجاج بإخماد ثورة عبد الله بن الجارود، فثاروا وجمعوا صفوفهم، وضموا إليهم لفيفاً من الرعاع، وولوا عليهم رجلاً يسمى رباح شيرازنجي (أسد الزنج)[4]؛ فغلبوا على ضواحي البصرة المحيطة بالفرات،

---

(١) حياة الحيوان الكبرى. الدميري. مصدر سابق. جـ١، ص ٣١٢. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ص ٣٩ .

(٢) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٣٩ .

(٣) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٣ .

(٤) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٠٥. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٠ والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣ ص ٤٣ .

مما شكل خطراً على أمن العراق، وكان على الأبلة[1] والفرات كراز السلمي الذي وصله كتاب من شيرازنجي يحقره فيه ويضع من شأنه، إذ يقول له: (**من أمير المؤمنين رباح شيرازنجي إلى كراز السلمي. أما بعد: فقد حضرت ولادة سكة أم أمير المؤمنين فأرسل إليها امرأتك لِتَقبلها والسلام**). ولمَّا وصل هذا الكتاب كرازا هرب وخلّى عمله وقصد البصرة[2]. فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمرو العتكي - وكان على شرطة البصرة - أن يرسل إليهم جيشاً بقيادة ابنه حفص فقتلوا حفصاً، الذي قتل بعد نزال عنيف وهزم جيشه؛ وبذلك قويت شوكة رباح وعظم خطره. فلما قدم الحجاج البصرة قال: (**يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم، وايم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل**)[3]. وقد أثر هذا التهديد، فأقبل المحاربون من كل خمس من أخماس البصرة، وجعل الأمير عليهم كراز بن مالك السلمي[4]. ولعل الحجاج فعل ذلك ليجد كراز في قتلهم محواً للعار الذي لحقه من كتاب شيرازنجي، فقاتل الزنج حتى اضطرهم إلى الفرار إلى صحارى دورق[5]. ثم اتبعهم إلى أن قتل زعيمهم شيرازنجي وجماعة كثيرة معه وقل من أفلت منهم. وبذلك سكنت حركتهم ولم يظهر لهم أثر إلا في منتصف القرن الثالث الهجري.

ثورة الخوارج الأزارقة:

يقول الشهرستاني في تعريفهم: (**كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء أكان الخروج على الصحابة أيام الخلفاء الراشدين أم كان**

---

(١) الأبلّة مدينة في العراق قريبة من البصرة.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٠٤ .

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٠٥. والكامل في التاريخ. ابن الأثير. مصدر سابق. جـ ٤ ص ٤٠ والعبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣ ص ٤٣ .

(٤) وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٠٥ .

(٥) صحارى دورق : بلد في خوزستان.

بعدهم على التابعين وتابعيهم من الأئمة في كل زمان).[1]

ويقول البغدادي: (**هم الذين خرجوا على علي لأنه رضي بالتحكيم فرفضوه كما رفضوا معاوية**)[2]، وعلى ذلك يكون تعريف الشهرستاني تعريفاً عاماً لكل ثائر وخارج على الإمام.

وأما تعريف البغدادي فهو تعريف للطائفة المصطلح على تسميتها باسم الخوارج الذين نحن بصددهم. انقسم الخوارج إلى فرق كثيرة يبلغ عددها نحو عشرين فرقة[3].

ويهمنا في كتابنا من هذه الفرق: الأزارقة الصفرية (الصالحية والشبيبية) وسبب انقسامهم أنه عندما كان الحصين بن نمير محاصراً لابن الزبير بمكة قدم إليها جماعة من الخوارج للدفاع عن الكعبة؛ فلما وضعت الحرب أوزارها، انصرف الخوارج عن مكة، فعاد فريق إلى العراق، سادتُهم نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر وعبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض بن بيهس.

ونزل فريق اليمامة[4]؛ بينما نزل خوارج العراق البصرة، ثم لم يلبث نافع بن الأزرق أن اختلف مع نجدة حول بعض المبادئ ولا سيَّما التقية والإقامة في دار الكفر وتكفير القعدة من الخوارج واستحلال قتل الأطفال. فلما استحال التوفيق بينهما رحل نجدة إلى اليمامة فأسس فرقة النجدات[5]. وبعد ذلك بقليل رحل الأزرق إلى الأهواز في شوال من سنة أربع وستين في ثلثمئة من أصحابه، وكانت فكرته في الخروج من البصرة أنها دار كفر والإقامة فيها غير جائزة، وأرسل كتاباً إلى من بقي بالبصرة من الخوارج، فقرأه ابن إباض، ولم يَرَ ما أتى فيه وقال: (**إن القوم كفار بالنعم فقط**)، وقرأه ابن صفار فقال:

---

(١) الملل والنحل. الشهرستاني. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٥٥.

(٢) الفرق بين الفرق. البغدادي. ص ٥٤ .

(٣) الفرق بين الفرق. البغدادي. مصدر سابق ص ٥٥ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٤، صص ٤٣٦، ٤٣٩ .

(٥) كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٧٧ .

(برئ الله منك، فقد قصرت، وبرئ الله من نافع، فقد غلا!) وبذلك صارت فرق الخوارج في العراق ثلاثاً: الأزارقة والصفرية والإباضية .[1]

مكث الأزارقة سنوات طويلة في الأهواز وما حولها يعترضون الناس، ويقتلون الأطفال، ويجبون الخراج ؛ استطاع الأزارقة غزو الأهواز كلها سنة ثلاث وسبعين وأربع من الهجرة وصاروا بالفرات[2]؛ فلما ولى عبد الملك أخاه بشراً البصرة جمع له العراقيين ليعينوه على القضاء على الخوارج الذين كانوا يهددون كيان الدولة، كما بين له وجوب تعيين المهلب بن أبي صفرة لحربهم.

ولما كان بشر لا يميل إلى المهلب لا سيَّما أن إمرته جاءت من قبل عبد الملك، فقد رأى أن يوفق بين أمر أمير المؤمنين وبين الاستبداد بالأمر وحده، فعين المهلب بن أبي صفرة قائداً للجيش، ثم كتب إلى الخليفة بالكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف، فلما قدم هذا الجيش على بشر خلا بابن مخنف، وأغراه بالمهلب ووجوب مخالفة أمره وإفساد رأيه [3].

وسار الجيش قاصداً الأزارقة فلما أحسوا بدنو المهلب منهم انكشفوا عن العراق، فتبعهم إلى الأهواز، فنفاهم عنها، ثم إلى رامهرمز، فهزمهم فيها وأقصاهم إلى فارس، ولم يلبث المهلب برامهرمز إلا عشرة أيام حتى أتاه نعي بشر بن مروان [4]. فاضطرب الجند على ابن مخنف، وصاروا يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم قائلاً: **(إنكم تذبون عن مصركم وحرمكم**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٤، صص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢)كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢١١ .

(٣)كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢١٢.
وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٦.

(٤) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢١٢.
وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص ٣٧.

وفيئكم). فأقام جماعة وتسلل آخرون [١]. وبينما كان المهلب مقيماً برامهرمز يحاول جمع فلول الجيشين وينتظر ما تأتي به الأقدار وفد على العراق الحجاج بن يوسف واضعاً نصب عينيه أن يلحق الناس بالمهلب، وأن يقسو على العراقيين ما شاءت له القسوة عقاباً لهم على فرارهم من ميدان الحرب وتركهم المهلب في ميدان القتال؛ ولم يقتصر الحجاج على تجنيد الجند وإرسالهم إلى المهلب في ميدان القتال، بل خرج بنفسه إلى رستقباذ حتى يشرف بنفسه على حركة المهلب، ثم بعث إلى المهلب وابن مخنف بكتاب قصير يقول فيه: (**إذا جاءكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج والسلام**)[٢]، وفي هذا الكتاب تبدو عظمة الحجاج إذ اتجه ببعيد نظره إلى هدفه الأسمى وهو محاربة الخوارج وجعلها الكلمة الأولى والأخيرة في خطابه. اطمأن المهلب وابن مخنف على مصير الحرب بفضل ما كان يبذله لهما الحجاج من معونة وما يؤيدهما به من جند، فاستطاع المهلب أن يقوم بالهجوم، فأجلاهم عن رامهرمز[٣] ولم يكلفه هذا الجلاء قتالاً شديداً، فساروا حتى نزلوا بكازرون من أرض سابور[٤]، والمهلب يتبعهم ماراً بأرجان[٥] وسردان[٦]، وذلك في أول رمضان من سنة خمس وسبعين للهجرة[٧]. وحينما نزل خندق على نفسه وعسكر كما كانت عادته في حروبه.

أما الكوفيون بقيادة عبد الرحمن بن مخنف فلم يخندقوا على أنفسهم مع نصيحة

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ٤٦ .

(٣) رام هرمز مدينة إيرانية تقع شرق خوزستان

(٤) كازيرون مدينة في جنوب إيران على بعد حوالي ٨-١٢ كم من بهبهان غربي شيراز.

(٥) أرّجان مدينة مندثرة. أو لها اليوم اسم آخر

(٦) سردان: مدينة مندثرة أيضاً أو لها تسمية أخرى اليوم.

(٧) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص ٤٧ .كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢١٤. وشرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد عز الدين (ت٦٥٥هـ). مج ١، ص ٣٩٧.

المهلب لهم بذلك، فقد ملأهم الغرور حتى أنهم ردوا على رسول المهلب قائلين (**إنما خنادقنا سيوفنا**).[1]

وكان مِنْ جرّاءِ هذا الغرور أن الخوارج زحفوا ليلاً، فوجدوا المهلب قد أخذ حذره، فمالوا على ابن مخنف فقاتلوه فانهزم عنه كثير من جيشه، وثبت هو في قلة من أصحابه، حتى قتل في عشرين من رمضان من سنة خمس وسبعين للهجرة[2]. هذه رواية أهل البصرة في سبب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله.

وأما رواية أهل الكوفة فهي أن الخوارج ضغطوا على المهلب ضغطاً شديداً حتى اضطروا إلى معسكره، فأرسل إلى ابن مخنف يطلب إليه المدد قائلاً له: (**إنما عدونا واحد، وقد ترى ما لقي المسلمون، فامدد إخوانك يرحمك الله**).

فأرسل إليهم المدد بقيادة ابنه جعفر، فلما رأى الخوارج قلة من مع ابن مخنف جعلوا تجاه المهلب جزءاً من الجيش ليشغله وليحول بين المهلب وابن مخنف، وحملوا على ابن مخنف، فانكشف عنه كثير، وبقي في عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه. علم المهلب بمكيدة الخوارج فأرسل إليه فرقة من الجيش لتنقذه كان منهم جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف إلا أن الخوارج حالوا بينه وبين أبيه، فقاتلهم حتى صرع وفي هذه الأثناء كان عبد الرحمن قد قتل، فوجه المهلب إليهم ابنه حبيباً فكشفهم[3].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. جـ ٥، ص ٤٧. و كتاب الكامل في اللغة والأدب . المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢١٦ و شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٣٩٨. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٣٩٨ .

(٢) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص ٢١٦ . وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص ٤٧. وشرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٣٩٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ٤٧ ، ٤٨. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢١٦. وشرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد. مصدر سابق مج ١، ص ٣٩٨.

وMما يلفت النظر أن بين الروايتين تبايناً واضحاً، فبينما يحاول رواة الكوفة إلصاق تهمة الهزيمة بأهل البصرة، ويصورون أهل الكوفة أهل نجدة ومروءة نرى رواة البصرة يعزون الهزيمة إلى غرور الكوفيين واعتدادهم بأنفسهم وعدم اتباعهم لنصيحة المهلب.

وأياً كان الأمر فقد قتل ابن مخنف وكتب المهلب بمصابه إلى الحجاج، فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكان بمنى فنعى عبد الرحمن وذم أهل الكوفة.[1] وبعث الحجاج على جيش الكوفة عتاب بن ورقاء، وطلب إليه أن يسمع ويطيع للمهلب فساءه ذلك، ولكنه لم يجد بداً من طاعة الحجاج ولم يقدر على مراجعته.[2]

وسار عتاب من أصبهان - وكان والياً بها- إلى كازرون وقاتل الخوارج تحت إمرة المهلب، ولكنه كان يستبد ببعض الأمور فيقضيها دون أخذ رأيه. كان من الطبيعي أن تثير تلك الأمور غضب المهلب، فأراد أن يخفض من شأنه، فاصطنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة وأغراهم بعتاب. وفي ذات يوم جرى بين عتاب والمهلب نقاش بخصوص أرزاق الجند أغلظ فيه كل منهما لصاحبه، فرفع المهلب القضيب على عتاب، فوثب إليه المغيرة بن المهلب، وقبض على القضيب، وقال: **(أصلح الله الأمير! شيخ من أشياخ العرب وشريف من أشرافهم إن سمعت منه بعض ما تكره فاحتمله له، فإنه لذلك أهل)** .[3]

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٤٨. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ،ص ٤٨ . و البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص ١٠. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٥٧ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣. ص ٤٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٤٩. وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص ٥٧ .

واصطخر : مدينة بفارس شمال شرق من شيراز واسمها اليوم تشِهِلّ منار أي الأربعون منارة.

قام عتاب بعد ذلك من لدن المهلب فاستقبله بسطام بن مصقلة فشتمه ووقع فيه، فلما رأى عتاب أن الخلاف بينه وبين المهلب قد استفحل خطره، كتب إلى الحجاج يشكو إليه المهلب، ويخبره أنه قد أغرى به سفهاء المصر، ويسأله أن يضمه إليه، فوافق ذلك من الحجاج حاجة إليه فيما لقي أشراف الكوفة من شيب بن يزيد بن نعيم الشيباني زعيم فرقة الصفرية التي ظهرت في المدائن، فبعث إليه أن أقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلب، فتركه وقدم فأرسل ابنه حبيباً على أهل الكوفة [1].

وبانتهاء ثورة ابن الجارود عاد الحجاج إلى تأييد المهلب المقيم بسابور يقاتل الأزارقة الذين انقطعت عنهم موارد فارس لسقوطها في يد المهلب، يعتمدون في تموينهم على كرمان البعيدة عنهم، ولمّا اشتدت وطأة المهلب عليهم اضطروا إلى النزوح إلى كرمان، فتبعهم المهلب إلى سرجان [2] وحاربهم فيها حتى أقصاهم عنها إلى جيرفت عاصمة كرمان [3]، فتبعهم وظل يطاردهم ويحاربهم بأرضهم ثمانية أشهر، دون أن يحرز عليهم نصراً حاسماً، وظلت الحال كذلك إلى أن دب نزاع داخلي فيما بينهم، فقضوا على أنفسهم بأنفسهم. [4]

وبجلاء الخوارج عن فارس صارت كلها بيد المهلب، وكان من الطبيعي أن يجعل عليها ولاة من قبله، ولكن الحجاج بادر، فبعث بعماله عليها، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إلى الحجاج:

(أما بعد: فدع بيد المهلب خراج جبل فارس، فإنه لا بد للجيش من قوة ولصاحب

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٥٠. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢ ص ٢٢٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠٠. البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٠.

(٢) سرجان: مدينة فارسية في مقاطعة كرمان.

(٣) كرمان: منطقة في جنوب شرقي إيران

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢٠ .

الجيش من معونة، فدع كورة فسا[1] ودرابجرد[2] وكورة اصطخر)، فنفذ الحجاج ذلك، وبعث المهلب بعماله عليها.[3]

وقد بلغ من اعتزازه بنفسه أن طلب مصوراً من قتيبة بن مسلم في حروبه في بلاد ما وراء النهر ليدرس المواقع على الصور، ويشير بالجهة التي ينبغي منها الهجوم، فكان فيما أشار به موفقاً. وقد بلغت الحال بالحجاج أنه رمى المهلب بالجبن عن مواجهة خصمه تارة وبالمطاولة المغرضة أخرى، فكان المهلب يجيب عن ذلك بالأدلة المادية على أنه لا يطاول الخوارج إلا تمشياً مع مقتضيات الظروف التي يلمسها عن قرب.

وقد حقق الزمن وجهة نظر المهلب، إذ وقع نزاع داخلي في صفوف الأزارقة كان السبب في القضاء عليهم.

اختلاف الأزارقة:

تعد الخوارج من أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن معتقداتها وحماسة لأفكارها واندفاعاً وتهوراً فيما تدعو إليه وما تفكر فيه. وهم في اندفاعهم وتهورهم يتمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وجعلوها ديناً مقدساً لا يحيد عنه مؤمن، ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه إلى البهتان ودفعته إلى العصيان، تستهويهم الألفاظ البراقة، وتأخذ على مداركهم السبيل. كان جلُّهم من عرب البادية، وقد أصاب الإسلام شغافَ قلوبهم، إلا أنه لم يطورهم، بل ظل أغلبهم بعيداً عن العلوم، مما أسفر عن نفوس مؤمنة متعصبة لما ترى؛ وقد استغل المهلب حماستهم وشدة تعصبهم لآرائهم وسذاجة تفكيرهم وضعف مداركهم، فأثار نيران العداوة بينهم، وأجج لهيب الاختلاف في صفوفهم. فانتهز من فرصة وقوع نصال مسمومة في معسكره، وسيلة لإيقاع الخلاف فيما بينهم. وتثبيتاً لذلك أرسل رجلاً إلى معسكر الخوارج، فألقى كتاباً موجهاً إلى الحداد

---

(١) Fasa مدينة تقع في محافظة فارس جنوب شيراز.

(٢) دراب جرد: محلة متصلة بالصحراء في أعالي نيسابور.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢٠ .

يشكره على إرسال السهام، ويطلب إليه الزيادة، وينبئه بأنه أرسل له برفقة الكتاب ألف درهم. فلما وجد الخوارج الدراهم في العراء رفعوا الأمر إليقَطَري بن الفُجاءة زعيمهم، فثارت ثائرته، ولم يخطر على باله أن قد يكون في الأمر دسيسة، بل تخوّن الحداد، فبعث إليه وسأله عن الكتاب والدراهم، فأنكر الحداد معرفته بالأمر، فأمر بقتله.

وبذلك خلق المهلب مشكلة في معسكر قطري، إذ جاء عبد ربه الصغير - مولى بني ثعلبة - فقال لقطري: (**أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا برهان؟**) فقال له: (**فما حال هذه الدراهم؟**) قال: (**يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون حقاً**)، فقال قطري: (**قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما يراه صالحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه**).

غضب عبد ربه لإجابة قطري الممتلئة اعتزازاً بالنفس وإنكاراً لحقوق الغير، فحملها في نفسه، فكانت نواة للنزاع بين قطري وعبد ربه؛ ولما بلغ المهلب ما كان من فرقة بين قطري وعبد ربه أدرك نجاح خطته، فشجعه ذلك على متابعة سياسة الدس والوقيعة بين الخوارج أنفسهم، فبعث إلى قطري رجلاً نصرانياً، وأمره بالسجود لقطري، فإذا سأله قطري عن هذا السجود أكد النصراني أنه يسجد له.

فلما فعل ذلك، ورأى الأزارقة هذا السجود لقطري، قال رجل منهم:(**إنه قد عبدك من دون الله**،) وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقال قطري: (**قد عبد النصارى عيسى، فما ضر ذلك عيسى شيئاً**،) فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر ذلك عليه وقال: (**أقتلت ذمياً؟**) فاختلفت الكلمة[1]؛ وبلغ ذلك أيضاً المهلب، فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين إليهم، فمات أحدهما في الطريق، ووصل الآخر فامتحنوه، فلم

---

(١)كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢١. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٢٢.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠١.

يجز المحنة، فقال بعضهم: (**أما الميت فمن أهل الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر**). وقال بعضهم الآخر: (**هما كافران حتى يجيزا المحنة**؛) فكثر الاختلاف، وخرج قطري إلى حدود اصطخر[1]، فأقام شهراً والقوم في اختلافهم. ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق: (**يا قوم إنكم أقررتم عين عدوكم، وأطمعتموهم فيكم بما يظهر من خلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة**)؛ وقد صادفت هذه الدعوة قبولاً لدى بعض زعمائهم، فخرج عمرو القنا، ونادى: (**أيها المحلون هل لكم في الطراد**)، فخرجوا إليه، ونشبت بين الفريقين معركة أبلى فيها المغيرة بلاءً حسناً[2]. وبينما هم في حربهم حدثت جملة من الخلافات كانت الأسباب الأخيرة لانفصالهم. وقد أعطاهم المهلب الفرصة للتمادي في الجدل بالقعود عن حربهم، فأصبح معسكر الخوارج مسرحاً للمجادلات التافهة في كثير من الأحيان.

فمن ذلك أن المقعطر الضبي كان عاملاً على ناحية من كرمان، فخرج في سرية، فقتل رجلاً من الخوارج كان ذا بأس فيهم، فطلب الأزارقة إلى قطري أن يمكنهم من المقعطر ليقتصوا للقاتل، فأبى قطري وقال: (**رجل تأول فأخطأ في التأويل، وهو من ذوي الفضل والسابقة فيكم**)[3].

ومن ذلك أن عبيدة بن هلال- أحد زعمائهم - اتهم بامرأة رجل نجار رأوه يدخل منزله مراراً في غيبة صاحبه، فذكروا ذلك لقطري، فقال لهم: (**إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ومن الجهاد بحيث رأيتم**). فقالوا: (**إنا لا نقار على الفاحشة**). ثم انصرفوا، فأرسل قطري إلى عبيدة وأخبره بما حدث وقال له: (**أنا لا أقارُّ على الفاحشة**). فقال عبيدة: (**بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟**) فقال قطري لعبيدة: (**إني جامع بينك**

---

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٢ .
(٢) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢٢.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠١.
(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢١.

وبينهم، **فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البريء،**) فجمع بينهم فتكلموا.

فقام عبيدة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ إلى آخر الآية [النور: ١١]: فأثر ذلك في الحاضرين، وقاموا إليه فاعتنقوه، وطلبوا إليه أن يستغفر لهم. وبتلك الحيلة أمكن قطرياً إنقاذُ عبيدة معتمداً في ذلك على سذاجة تفكير الخوارج.

ولكن عبد ربه الصغير - وقد سبق له أن أخذ حذره من قطري في حوادث المهلب - لم تجز عليه هذه الخدعة، فقال: (**لقد والله خدعكم!**) فتابعه كثير منهم، ولكنهم لم يظهروا وصاروا يلتمسون الأسباب للخروج على قطري، فتكلموا معه بشأن دهقان كان قد استعمله قطري، فظهرت له أموال كثيرة قائلين: (**إن ابن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا**)، فقال لهم قطري: (**إني استعملته وله ضياع كثيرة وتجارات**)، فأوغر ذلك صدورهم.

فقالوا له: (**ألا تخرج بنا إلى عدونا؟**) فقال: (**لا**) ثم خرج. فقالوا: (**قد كذب، وارتد،**) فاتبعوه يوماً، فأحس بالشر، فدخل داراً مع جماعة من أصحابه، فاجتمعوا عليه، وصاحوا:(**اخرج إلينا يا دابة،**) فخرج إليهم، فقال: (**رجعتم بعدي كفاراً**) قالوا: (**أَوَلَسْتَ بدابة؟!**) قال الله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، ولكنك قد كفرت بقولك: (**إنا قد رجعنا بعدك كفاراً فتب إلى الله**). فشاورَ عبيدةَ في ذلك، فقال له: (**إن تُبْتَ لم يقبلوا منك، فقل: إنّي استفهمتُ، فقلت: أرجعتمْ بعدي كفاراً؟**) فقال لهم ذلك، فقبلوا منه، ورجع إلى منزله[1].

ولما رأى قَطَري كثرة اختلافهم وظهور بغضهم له عزم على أن يبايع للمقعطر الضبي، ويخلع نفسه، فمهد لذلك بجعله أمير الجيش في الحرب، فلم ترضهم إمارة المقعطر.

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢٦.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص ٤٠٢، ٤٠٣.

وقال له صالح بن مخراق: (**ابغ لنا غير المقعطر**). فنهاهم قطري، فقال صالح: (**إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاص عنهم، ففعل ويجب على الإمام أن يعفي الرعية مما كرهت**)، فأبى قطري أن يعزل المقعطر؛ فلما لم يجب إلى طلبهم خلعوه، وبايعوا عبد ربه الكبير [1]، وانفصل معه أكثر من الشطر جلهم من الموالي والعجم [2].انقسم الخوارج أنفسهم إلى فريقين يتعصب كل منهما لبني جنسه، فتعصب أغلب العرب لقطري لأنه عربي، وتعصب أغلب الفرس لعبد ربه لأنه مولى.

ويستنتج فلهاوزن [3]من ذلك أن العنصرية كانت العامل الأساسي فيما أصاب الأزارقة من انقسام، وأنها كانت كفيلة من حيث هي بانقسام الخوارج دون حاجة إلى ما دبره المهلب.

وفي رأينا أن منطق الحوادث يوحي بأن الخلاف على الأسس الدينية ذلك الخلاف الذي أذكاه المهلب كان فاتحة الانقسام. أما العنصرية فمع التسليم بوجودها فإنها كانت كامنة لم تظهر إلا حين دفعتها الحوادث إلى الظهور. افترق الأزارقة، ففريق مع قطري، وفريق مع عبد ربه، ووقعت الحرب بين الفريقين، فقتل في اليوم الأول ألف قتيل، وفي اليوم الثاني أخرج العجم العرب من مدينة جيرفت، فخندق قطري على نفسه خارج المدينة.[4]

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢١. وعيون التواريخ. ابن شاكر جـ ٥، ص ٩٠.

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٦١.

(٢)كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢٦. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠٣.

(٣) أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة. يوليوس فلهوزن. تر. محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة، ١٩٦٨م. ص ٤١.

(٤) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٠٤. .

أما المهلب فقد كتب إلى الحجاج بما كان من أمر الخوارج وما يراه من أن هذا الخلاف سيكون سبب هزيمتهم؛ فكتب إليه الحجاج يطلب إليه انتهاز فرصة هذا الخلاف ومهاجمة الخوارج؛ ولكن المهلب كان لا يرى هذا الرأي ما داموا يقتل بعضهم بعضاً، وكتب بذلك إلى الحجاج [1]. وقبع المهلب شهراً لا يحارب الخوارج [2]، ودس إلى قطري [3] دسيسة جعلته يترك الميدان إلى طبرستان، فسهل على نفسه وعلى غيره القضاء عليهم [4].

وعند ذلك ارتحل المهلب عن مكانه ونزل مكان قطري، وصار يقاتل عبد ربه، وأرسل يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره أنه مقيم على حرب عبد ربه، ويسأله أن يوجه في إثر قطري رجلاً شجاعاً، فسر الحجاج بذلك، وكتب إلى المهلب يستحثه على مناجزة القوم، ويجد في قتاله حتى يحسم الداء، وأنه على استعداد لإمداده بالرجال وأمامه الأموال.[5]

فشدد المهلب الحصار على عبد ربه حتى اضطره هو وأصحابه إلى الخروج من جيرفت بحرمهم وأموالهم وما خلف من متاعهم فدخلها المهلب؛ فسار عبد ربه حتى نزل على أربعة فراسخ من جيرفت، فسار المهلب في إثره، والتحما في معركة أسفرت عن قتل عبد ربه وانهزام أصحابه، فجلوا عن الميدان تاركين أربعة آلاف ما بين قتيل وجريح وأسير، وبذلك تم النصر للمهلب على هذا الفريق من الأزارقة وكان ذلك سنة سبع وسبعين للهجرة [6].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢١، ١٢٢ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢٢ .

(٣) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٢٧.

وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤٠٥ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٢٢ .

(٥) شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤٠٤ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٢٧ .

إرسال المهلب الرسل والكتب للحجاج:

وجه المهلب كعب بن معدان الأشقري [1] ومرة بن بليد الأزدي إلى الحجاج، فلما وصلا إليه تقدم كعب فأنشده قصيدة تنيف على ثمانين بيتاً يذكر فيها أيام رامهرمز وسابور وجيرفت ومطلعها:

يـا حَفْـصُ إِنِّي عَـدَاني عَـنْكُمُ السَّـفَرُ وقـد سَـهِرْتُ فـآذى عينـيَ السَّـهَرُ [2]

فقال له الحجاج بعد أن فرغ من إنشادها: (أشاعر أم خطيب؟). قال: (**شاعر**)، فأقبل عليه الحجاج، وقال: (**أخبرني عن بني المهلب**)، فقال: (**المغيرة سيدهم وفارسهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك، وعبد الملك سم نا ع، وحبيب موت زعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالمفضل نجدة**).

فقال له: (**كيف خلفت جماعة الناس؟**) قال: (**خلفتهم بخير، أدركوا ما أملوا، وأمنوا ما خافوا**).

قال: (**فكيف كان بنو المهلب فيهم؟**) قال: (**كانوا حماة السرج، فإذا أليلوا ففرسان البيات**). قال: (**فأيهم كان أنجد؟**) قال: (**كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى طرفاها**). قال: (**فكيف كنتم وعدوّكم؟**) قال: (**كنا إذا أخذنا عفونا، وإذا أخذوا يئسنا منهم**)، قال الحجاج: (**إن العاقبة للمتقين فكيف أفلتكم قطري؟**) قال: (**كدنا وظن أن قد كادنا بأن صرنا منه إلى التي يحب**). قال: (**فهلا اتبعتموه؟!**) قال: (**كان حرب الحاضر آثر عندنا من اتباع الفل**). قال: (**فكيف كان المهلب لكم وكنتم له؟**) قال: (**كان لنا منه شفقة الوالد، وله منا بر الولد**). قال: (**فكيف كان اغتباط الناس به؟**) قال: (**نشأ فيهم الأمن**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٢٢. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٣١ . وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١ ، ص٤٠٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٢٢، ١٢٥ .

وشملهم الفضل). قال: (أكنت أعددت هذا الجواب؟) قال: (لا يعلم الغيب إلا الله). قال: (هكذا تكون الرجال، كان المهلب أعلم بك حيث بعثك)[1]. وأمر له بعشرين ألف درهم، وحمله على فرس، وأوفده على الخليفة عبد الملك بن مروان، فأمر له بعشرين ألفاً أخرى[2]. وبعث المهلب إلى الحجاج كتاباً جاء فيه: (الحمد لله الكافي بالإسلام، فقهر ما سواه، الحاكم بأن لا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من عباده. أما بعد: فقد كان من أمرنا ما قد بلغك، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين، يسرنا منهم أكثر مما يَسُوْؤنا ويَسُوؤُهم منا أكثر مما يسرهم - على اشتداد شوكتهم - فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة، ونوم به الرضيع، فانتهزت الفرصة منهم في وقت إمكانها، وأدنيت السواد من السواد حتى تعارفت الوجوه، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين)[3].

الحجاج ينصف مواهب المهلب الحربية ويكافئه على إخلاصه وخدماته للدولة:

كتب الحجاج إلى المهلب يقول: (أما بعد: فقد فعل الله بالمسلمين خيراً، وأراحهم من بأس الجلاد وثقل الجهاد، ولقد كنت أعلم بها قبلك، فالحمد لله رب العالمين. فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيئهم، ونفّل الناس على قدر بلائهم، وفضِّلْ من رأيت تفضيله، وإن كانت بقية من القوم بقيت فخلف خيلاً تقوم بإزائهم، واستعمل على كرمان من رأيت، وول الخيل شهماً من ولدك، ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم إن شاء الله).

---

(1) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٣٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٠٦. ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٠٦.

(2) شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤٠٦.

(3) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٣٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤٠٧، ٤٠٨. سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٢٤.

ولّى المهلبُ يزيدَ ابنَه كرمان، وقال له (**يا بني إنك لست اليوم كما كنت، إنما لك من كرمان ما فضل عن الحجاج، ولن تحتمل إلا على ما احتمل عليه أبوك، فأحسن إلى من تبعك، ثم إن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلي، وتفضَّلْ على قومك**)(١).

ثم قدم المهلب على الحجاج، فأجلسه إلى جانبه، وأظهر بره وإكرامه، وقال (يا أهل البصرة أنتم عبيد المهلب، ثم مدحه، وأنصف مواهبه الحربية، فقال له: أنت والله كما قال لقيطٌ الإياديُّ(٢):

وقَلِّدوا أَمْرَكُم لله درُّكم ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعا
لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلاَّ رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يكادُ حَشَاهُ يَقْصِمُ الضِّلَعا
لا مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ العَيْشِ سَاعَدَهُ ... ولا إذا عَضَّ مكروهٌ بِهِ خَشِعا
ما زَالَ يَحْلُبُ هذا الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ... يكونُ مُتَّبِعاً طَوْراً ومتَّبعا
حتّى استمرَّتْ على شَزْرٍ مريرتُهُ ... مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لا قَحْماً ولا ضَرِعا

فقال المهلب: (**أما والله ما كنا أشد من عدونا، ولكن رفع الحق بالباطل، وقهرت الجماعة الفتنة، وكان ما كرهنا من المطاولة خيراً لنا مما أحببناه من المعالجة**). فقال الحجاج: (صدقت). ثم طلب الحجاج إليه أسماء الذين أَبْلَوا في الحرب بلاءً حسناً، فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغَنَاء، وقدَّم بنيه، وقال: (**إنه والله لو تقدَّمهم أحد لقدمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم**). قال الحجاج: (**صدقت، وما أنت أعلم بهم مني وإن حضرت وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله**). فكافأ الحجاج أولاد المهلب كلاً منهم بزيادة ألفين في عطائه تقديراً لحسن بلائهم.

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، صص ٢٣٢، ٢٣٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠٨.

(٢) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٢٣٣. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. صص ١٢٥، ٦٨. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤٠٨.

أما بقية المحاربين ممن زكاهم المهلب فقد كوفئ كل منهم على قدر بلائه [1]، وبذلك ضرب الحجاج المثل الأعلى في تقدير العاملين ووضع كل إنسان في موضعه، فلا يغمط لديه حق ولا يضيع عنده عمل عامل.

وكافأ المهلب بأن عينه والياً على خراسان، وكانت هي وسجستان[2] للحجاج منذ سنة ثمان وسبعين للهجرة، بعد أن عزل العامل عليها وهو أمية بن خالد بن أسيد[3].

وبينما كان ذلك يجري في معسكر المهلب كان الحجاج قد أرسل سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان قد انتهى من حربه مع شبيب كما سيأتي وكتب إلى إسحاق بن محمد ابن الأشعث قائد الكوفيين بطبرستان يأمره بالسمع والطاعة لسفيان، فانضم إسحاق لسفيان، وسارا يطلبان قطرياً حتى لحقاه في شعب من شعاب طبرستان[4]، وقاتلوه فتفرق عنه أصحابه، وسقط هو في أسفل الشعب، فدحرج عليه رجل من أهل البلد حجراً كبيراً، فأصاب وركه، فأوهنه وجاء نفر من أهل الكوفة فقتلوه، وحُمِل رأسه إلى سفيان، فبعث به إلى الحجاج، وأرسله الحجاج إلى عبد الملك بن مروان[5].

ثم توجه سفيان بعد ذلك إلى محاربة عبيدة بن هلال ومن معه، وكان قد فارق قطرياً[6]، وتحصن في قصر بقومس[7]، فحاصروهم وشددوا عليهم الحصار حتى جهدوا وأكلوا دوابهم، ثم خرجوا إليه فقاتلوه فقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج[8].

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٣٤.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٠٨ .

(٢) سجستان : أو سيستان منطقة في جنوب شرق إيران شمال بلوجستان.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٣٤ .

(٤) طبرستان : منطقة في شمالي إيران على الساحل الجنوبي لبحر قزوين.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص١٢٧،١٢٦ .

(٦) الفرق بين الفرق. البغدادي. ص٦٦ .

(٧) قومس : منطقة في شمال إيران على ساحل بحر قزوين.

(٨) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص١٢٧ .

وقد لاقى هؤلاء قدرهم في الوقت الذي لاقى فيه رفقاؤهم حتفهم في جيرفت[١] على يد المهلب في سنة ثمان وسبعين للهجرة[٢].

ثورة الخوارج الصفرية: الصالحية والشبيبة

في (دارا) بين نصيبين و(ماردين) كان يعيش صالح بن مسرح التميمي زعيم فرقة الخوارج الصالحية إحدى فرق الخوارج الصفرية[٣].وكان له أصحاب يُقرِئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ويقص عليهم القصص، ويوصيهم بتقوى الله والانتقام من الأئمة الظالمين ووجوب جهادهم محتجاً بأن الجور قد فشا والعدل قد عفا، وأن الولاة لا يزدادون إلا علواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب[٤]. ولم يكن صالح متعجلاً للعمل، فقد قيل: إنه بقي عشرين سنة يعلم الناس في هدوء وسكون[٥].

وكان أهم أنصاره ومعاونيه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني، وكانت قبيلته في ذلك الوقت تسكن على الشاطئ الأيمن للفرات في صحراء الكوفة، وقصد في مبدأ أمره روح بن زنباع، والتمس منه أن يسأل أمير المؤمنين عبد الملك أن يجعل عطاءه مساوياً لعطاء أهل الشرف، فسأل روح عبد الملك ذلك، فقال عبد الملك: **(رجل لا أعرفه)**.

فأبلغ ذلك روح بن زنباع لشبيب فقال: **(يوشك أن يعرفني)**[٦].

---

(١) جيرفت: مدينة في مقاطعة كرمان في إيران.

(٢) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير. الذهبي. جـ٣ ، ص٤٦٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٢١.

وشذرات الذهب. ابن العماد الحنبلي. جـ١ ، ص٨٦ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٠. الفرق بين الفرق. البغدادي. مصدر سابق. ص٧٠ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص٥٠ ، ٥١. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤٠٩ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٢ .

(٦) الفرق بين الفرق. البغدادي. مصدر سابق. ص٩٠.

فلما كانت سنة خمس وسبعين حج عبد الملك بن مروان، وحج في هذا العام صالح بن مسرح ومعه شبيب بن يزيد وسويد.همَّ شبيب بالفتك بعبد الملك، وبلغ ذلك عبد الملك، فبعد انصرافه من الحج كتب إلى الحجاج يأمره بطلبهم، فضيق الحجاج على صالح - وكان صالح يأتي الكوفة، فيقيم بها شهراً ونحوه، فيلقى أصحابه ليعلمهم ويعدهم للخروج على الأمويين - وصار يطلبه حتى نَبَتْ به الكوفةفتركها [1] إلى دارا.

وهناك طلب إلى أصحابه أن يستعدوا ويبعثوا لإخوانهم ليأتوهم، فتراسل أصحابه وتلاقوا، وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم المحلل بن وائل اليشكرى بكتاب من شبيب موجهاً إلى صالح بن مسرح يقول له فيه: (**أما بعد فقد علمت أنك كنت أردت الشخوص، وقد كنت دعوتني فاستجبت لك، فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين، ولن نعدل بك منا أحداً، وإن أردت تأخير ذلك اليوم فأعلمني فإن الآجال غادية ورائحة ولا آمن أن تخترمني المنية، ولما أجاهد الظالمين فيا له غبناً ويا له فضلاً متروكاً. جعلنا الله وإياك ممن يريد الله بعمله ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام والسلام عليك**)[2].

فكتب إليه صالح كتاباً جاء فيه: (**إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارك، فأقبل إلينا ممن لا يستغنى عن رأيه، ولا تقضى الأمور دونه**)[3].فلما وصل كتاب صالح إلى شبيب دعا نفراً منهم أخوه مصاد والمحلل ابن وائل اليشكرى وغيرهما، وخرج بهم حتى قدم على صالح بدارا، فلما تقابلا قال شبيب لصالح: (**أخرج بنا رحمك الله، فو الله ما تزداد السنة إلا دروساً، ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً**) فبث رسله في أصحابه، وواعدهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص١٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤٠٩.

الخروج ليلة الأربعاء أول صفر من سنة ست وسبعين للهجرة[1].

وفي الليلة المحددة اجتمعوا، فبلغ عددهم مئة وعشرة أو مئة وعشرين، ونصحهم زعيمهم بعدم قتال أحد إلا إذا أراد قتالهم [2]، وبين لهم أول شيء يجب عليهم أن يقوموا به (حتى يمكنهم الجهاد) فقال لهم: (**إن معظمكم رجالة، وهذه دواب لمحمد بن مروان - أمير الجزيرة - فابدأوا بها، فاحملوا عليها رجالكم، وتقووا بها على عدوكم**)، فخرجوا تلك الليلة، فأخذوا الدواب، وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة، فنشروا الفزع والرعب في تلك الجهات، فتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار.

علم محمد بن مروان بذلك، فاستخف بهم، وبعث إليهم عدي بن عميرة في ألف، فساروا وكأنما يساقون إلى الموت كراهية للقتال. وفي سوق دوغان وقعت الموقعة، فهزم فيها جيش عدي، وهرب هو وحوى صالح ما في معسكره[3].

بلغ ذلك محمد بن مروان، فغضب واستدعى خالد بن جزء السَّلْمي، وبعثه في ألف وخمسمئة، واستدعى أيضاً الحارث بن جعونة، وبعثه في ألف وخمسمئة، وقال لهما: (**اخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة، وعجلا الخروج، وأَغِذَّا السير، فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه**). فخرجا وجعلا يسألان عن صالح، فعلما أنه توجه إلى آمد [4] فذهبا إليه، وخندقا على أنفسهما، فأرسل صالح شبيباً في جماعة إلى الحارث، وتوجه هو إلى خالد، واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً لم يتغلب فيه صالح، وقتل من جيشه ثلاثون، ومن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ صص٥٢، ٥٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٠٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١،ص ٤١٠

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٤. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٠ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٥٢ .

(٤) آمد: بلدة على الضفة اليسرى للفرات.

أصحاب محمد أكثر من سبعين[1].

رأى صالح ذلك، فاستشار أصحابه في الموقف، فأشار عليه شبيب بوجوب الخروج من هذا المكان حيث العدو مخندق على نفسه، فأصاب ذلك الرأي من صالح موقعاً حسناً كانت نتيجة قرار الخروج.فخرجوا من ليلتهم سائرين، فقطعوا أرض الموصل وأرض الجزيرة، وانتهوا إلى الدسكرة[2].

وبوصولهم إلى الدسكرة ألقيت مهمة حربهم على الحجاج وسرعان ما أرسل إليهم جيشاً من الكوفة يبلغ عدده ثلاثة آلاف تحت قيادة الحارث بن عميرة بن ذي الشعار.ولما قارب الجيش الدسكرة خرج صالح نحو جلولاء وخانقين، فاتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية المدبج - على تخوم ما بين الموصل وجوخي - وفي هذه القرية حدثت المعركة، وكانت نتيجتها في غير مصلحة الخوارج، فقد سقط زعيمهم صالح بن مسرح قتيلاً، وكان ذلك في يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الأولى لسنة ست وسبعين من الهجرة، وصرع شبيب عن فرسه[3]، وظهرت الهزيمة في القوم، فجاء شبيب إلى موقف صالح، فوجده قد قتل، فخشي شبيب تفرق أصحابه عنه، فنادى :(**يا معشر المسلمين**)، فاجتمعوا إليه فقال لهم: (**ليجعل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعنْ عدوَّه حتى ندخل هذا الحصن، ونرى رأينا**).

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن، فأحاط بهم الحارث، وأشعل النار في الباب - معتقداً أنهم لا يمكنهم الخروج منه - وقال لأصحابه: (**نصبحهم غداً فنقتلهم**)؛

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٥. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. جـ ٣، مصدر سابق. ص١٥٢ .

(٢) الدسكرة : قصر اللهو.

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤١٠. وعقد الجمان. العيني. جـ ١١، صص ٣٠٣، ٣٠٤ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣ .

وانصرف عنهم[1].

فقال شبيب لأصحابه: **(ما تنتظرون؟ فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم!)** .(فقالوا: **(مرنا بأمرك)**. فقال: **(إن اللَّيْلَ أَخْفَى للوَيْلِ، بايعوني أو من شئتم منكم، ثم اخرجوا بنا نشدّ عليهم في عسكرهم، فإنهم لذلك منكم آمنون، وأنا أرجو أن ينصركم الله عليهم)**. قالوا: **(ابسط يدك نبايعك)**، فبايعوه وكانوا نحو سبعين أو ثمانين[2].

وبذلك صار شبيب أميراً عليهم، وأتوا باللبود فبلوها بالماء ثم ألقوها على النار، وخرجوا قاصدين عسكر الحارث، فباغتوهم ولم يشعر الحارث وأصحابه إلا بوقع السيوف، فضاربهم الحارث حتى صرع، واحتمله أصحابه، وانهزموا وخلوا لهم المعسكر بما فيه، وساروا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك أول جيش هزمه شبيب [3].

ارتحل شبيب بعد ذلك، ومضى بهم في تخوم أرض الموصل وجوخي، ثم ارتفع إلى أذربيجان ليجمع الأنصار، ولينتقم من بعض أعدائه من شيبان وعنزة، وليأخذ أمه التي كانت تسكن في تلك الناحية[4].

كان الحجاج في ذلك الوقت قد أرسل إلى سفيان بن أبي العالية يستدعيه من طبرستان وكان قد أمره أن يحارب صاحب طبرستان بألف فارس كانوا معه.

فلما تحرجت الحالة بين جيش الدولة والخوارج كتب الحجاج إليه يأمره بأن يصالح

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٦ . وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٦ . وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤١٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٦ . و شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤١١ . وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٣٠٤ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص٥٧، ٥٨ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٢ .

صاحب طبرستان،وأن يسير حتى ينزل الدسكرة حتى يأتيه جيش الحارث بن جعونة وحتى تأتيه خيل المناظر، ثم يسير إلى شبيب.

فأقبل بألف الفارس الذين معه حتى نزلوا الدسكرة؛ ونودي في جيش الحارث بالكوفة والمدائن أن برئت الذمة من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يواف سفيان بن أبي العالية بالدسكرة؛ فخرجوا حتى وافوه، وأتته خيل المناظر، وكانوا خمسمئة عليهم سورة بن أبجر التميمي لم يتخلف إلا نحو خمسين رجلاً منهم، وبعث سورة إلى سفيان بالتوقف حتى يلحقه؛ ولكن سفيان تعجل في طلب شبيب، فسار حتى لحقه بخانقين.[1]

ارتحل شبيب عنهم مظهراً كراهيته للقتال؛ وقد أكمن لهم أخاه مصاداً في منخفض من الأرض في نحو خمسين فارساً. ولمّا رأوا شبيب جمع أصحابه ومضى في سفح الجبل مشرقاً قالوا: (هرب عدو الله) فاتبعوه. فقال لهم عدي بن عميرة: (**أيها الناس لا تعجلوا حتى نضرب في الأرض، ونسير فيها، فإن يكونوا قد أكمنوا لنا كميناً أخذناه، وإلا فإن طلبهم لن يفوتنا**)، فلم يسمعوا منه، ولم يلتفتوا إلى قوله وأسرعوا في آثارهم.

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين عطف عليهم شبيب، وخرج عليهم الكمين من ورائهم فلم يحدث قتال، وإنما كانت الهزيمة.

فقد هرب الناس، وثبت سفيان في مئتي رجل، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى كاد يقتل في هذه المعركة؛ ولكنه تمكن من النجاة، وكتب إلى الحجاج بما حدث وعرفه بوصول الجند إلا سورة بن أبجر.

فلما قرأ الحجاج الكتاب أثنى عليه وقال: (**من صنع مثل ما صنع هذا وأبلى كما أبلى**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١١. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص١٥٣.

فقد أحسن، وعذره)[1].

وكتب إليه: (أما بعد: فقد أحسنت البلاء وقضيت الذي عليك، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجوراً إلى أهلك).كما كتب إلى سورة يلومه ويتهدده، ويأمره أن ينتخب من المدائن خمسمئة ويسير بهم وبمن معه إلى شبيب ففعل، ذلك سورة، وسار نحو شبيب، وشبيب يجول في جوخي، وسورة في طلبه حتى انتهى شبيب إلى المدائن، فتحصن منه أهلها، فدخلها وأخذ منها دوابَّ، وقتل من ظهر له. فقيل لشبيب: (هذا سورة قد أقبل)، فخرج حتى انتهى إلى النهر - تلك الأرض المقدسة لدى الخوارج بما قتل فيها من شهدائهم - فصلوا وترحموا على من قتل فيها من علي وأصحابه. وبث سورة عيونه، فأتته العيون بمنزل شبيب وبعدد أصحابه، وأنهم لا يزيدون على المئة، فانتخب من أصحابه ثلثمئة، وسار بهم نحو النهروان حيث منزل شبيب وجنده، ولكن شبيباً كان يقظاً، فعلم بالجند المقبلة، فعبب أصحابه، وحمل على سورة وأصحابه، فهزمهم، ورجعوا إلى المدائن وشبيب في طلبهم يرجو أن يدركهم قبل دخول المدائن؛ ولكنهم كانوا قد سبقوا فدخلوا بيوتهم.

وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن، وخرج ابن أبي عصيفر أمير المدائن لرد المغيرين عليها، فرماهم الخوارج بالنبل، ورماهم أهل المدائن بالحجارة؛ فلما تعذرت المدائن على شبيب جلا عنها بأصحابه، ومر على جلولاء، فأصاب بها دوابّ للحجاج فأخذها، ثم خرج يسير في أرض جوخي ثم مضى نحو تكريت[2].

ولأنه كان يغير مكانه باستمرار، ولا يثبت في جهة، فقد ألقى الروع والفزع في نفوس أهل المدائن حتى إنهم أرجفوا بأنه يريد أن يبيت أهل المدائن، ويغير عليهم،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٥٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص٦٠ ، ٦٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤١٢،٤١١ .

فارتحل عامة الجند؛ وأخذوا جميعاً يرجعون إلى بيوتهم بالكوفة.

ولما بلغ ذلك مسامع الحجاج قال: (**قبح الله سورة، ضيع العسكر والجند وخرج يبيت الخوارج أما والله لأَسُوْءَنَّه**).

ودعا بالجزل وهو سعيد بن عثمان، وطلب إليه أن يتجهز للخروج، وأمره ألاَّ يعجل عجلة الخرق، ولا يحجم إحجام الواني الفَرِق؛ فالتمس منه الجزل ألاَّ يبعث أحداً من الجند المهزوم، لأن روحهم المعنوية ضعيفة، فأجابه إلى ملتمسه، وجمع له جيشاً يبلغ عدده نحو أربعةآلاف، ونادى منادي الحجاج أن الذمة بريئة ممن تخلف من هذا البعث.

فخرج الجزل بهذا الجيش، وسار في طلب شبيب، وصار شبيب يسير مظهراً الخوف منه متنقلاً من مكان إلى آخر إرادة أن يفرق الجزل أصحابه في الجهات المختلفة، فيلقاه في عدد يسير وعلى غير تعبئة ولا استعداد، ولكن الجزل قلد طريقة المهلب، فأخذ يطلبهم بالنهار، ويتحصن منهم بالليل.

فلما طال الأمر على شبيب جمع أصحابه، وكانوا مئة وستين رجلاً، وفرقهم أربع فرق، وجعل على كل فرقة رجلاً من أصحابه، وأمر كل قائد من هؤلاء القواد أن يهاجم الجزل من جهة عينها له، فنفذوا ذلك، ولكنهم لم يقدروا منه على شيء.

رأى الخوارج حرص الجزل، فساروا في أرض جوخي وغيرها يكسرون الخراج، وسار الجزل في طلبهم على تعبئة بالنهار وخندقة بالليل[1].طال ذلك الأمر على الحجاج لذي كانت خطته - كما رأينا فيما سبق - عدم المطاولة فكتب كتاباً قررر على الناس: (**أما عد: فإني بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه الناس، وأمرتك باتباع هذه المارقة الضالة حتى تلقاها، فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها، فوجدت التعريس في القرى والتخييم**

---

١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص٦٢ ، ٦٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤١٢ ، ٤١٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٣ .

في الخنادق أهون عليك من المضي لما أمرتك به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام)(١)

فشق ذلك على الجزل، وأمر الناس بالسير الجد في قتالهم، وأرجف الناس بأمره وقالوا سيعزله؛ وما لبث أن بعث سعيد بن المجالد الحمداني بدله، وطلب إليه أن يزحف بالناس، ولا يطاول الخوارج، ولا يصنع كما صنع الجزل.

وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان، وقد لزم عسكره وخندق عليهم، فجاء سعيد حتى دخل عسكر أهل الكوفة، وقام خطيباً فيهم موبخاً ومعجزاً لهم ومشنعاً على الخطة التي اتبعت؛ فقال له الجزل: **(فماذا تريد أنت أن تصنع؟)** قال: **(أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل)**، فقال له الجزل: **(أقم أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم وابرز إليهم، فوالله ليقدمن عليك ولا تفرق أصحابك)**، فقال له: **(قف أنت في الصف)** فبرئ من رأيه.وكان شبيب في ذلك الوقت في طريقه إلى رامهرمز، وكان يأكل هو وأصحابه حين جاء النذير بأنه محاط بالعدو ومن جميع الجهات فأتم طعامه – هادئاً – ثم خرج وحمل على الناس، وجعل سعيد يدلف الخيل نحوه.

ولما رأى شبيب تفرق أصحاب سعيد عنه قال لجماعته: **(استعرضوهم، فوالله لأقتلن أميرهم أو يقتلني)**.

وحمل عليهم مستعرضاً، فهزمهم وثبت سعيد، فحمل عليه شبيب وضربه بالسيف فقتله. وبقتله انهزم الجيش، ورجعت الفلول إلى الجزل، وناداهم الجزل **(أيها الناس إليَّ)** وناداهم عياض بن أبي لينة **(إن كان أميركم القادم قد هلك فأميركم الميمون النقيبة المبارك حَيٌّ لم يمت)**، فقاتل الجزل قتالاً شديداً حتى حمل من بين القتلى جريحاً، فحمل إلى المدائن، وقدمت الفلول إلى الكوفة.وكتب الجزل إلى الحجاج بالخبر، ويدافع عن خطته ونصحه لسعيد؛ فكتب إليه الحجاج يثني عليه، ويشكره ويعلن رضاه لكل من الخطتين، وأرسل إليه حيان بن أبجر ليداوي جراحته وألفي درهم لينفقها، وبعث إليه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٦٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٣.

عبيد الله بن أبي عصيفر بألف درهم وكان يعوده ويتعاهده بالهدية.

اطمأن شبيب إلى قوته فسار نحو المدائن، فلمّا علم أن لا سبيل له إليها فضل أن يسير نحو الكوفة، فأقبل حتى انتهى إلى الكرخ، فعبر دجلة إليها، وأرسل إلى سوق بغداد، فأمنهم لبلوغه أنهم يخافون منه، وهو يريد أن يشتري هو وأصحابه دوابّ وسيوفاً وأشياء تلزمهم[1].

ثم سار شبيب إلى الكوفة، فنزل عند حمام عمر بن سعد، وبلغ الحجاج ذلك، فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن في ألفين وقال له: (**الق شبيباً فإن استطرد لك فلا تتبعه!**)، فخرج وعسكر بالسبخة، فبلغه أن شبيباً قد أقبل، فسار نحوه.فلما وصل إلى زرارة قيل له: إن شبيباً قد أتاك، فنزل ونزل معه جل أصحابه، وأمر الحجاج عثمان بن قطن أن يعسكر بالناس في السبخة.

علم شبيب بمكان سويد، فترك الجهة التي هو فيها، وسار يريد الكوفة من جهة أخرى، فعبر الفرات من مخاضته، وأتى دار الرزق فنزلها، وبلغ ذلك سويداً، فأمر أصحابه بالركوب لاقتفاء آثارهم وتتبعهم وفي الوقت نفسه بلغ الذين مع عثمان. أقبل شبيب إليهم فهاج بعضهم في بعض، وهموا بدخول الكوفة والعودة إلى ديارهم لولا أن علموا أن سويداً في أثر شبيب وأنه لحقه وهو يقاتله[2].عندئذ عدل شبيب عن مهاجمة الكوفة، وسار يقصد الحيرة وسويد في أثره لا يتركه، فلما وجده قد بعد عن الكوفة تركه. وقد حدث خلال هذه المتابعة حملات من شبيب لم يفز فيها بطائل.

وقد أغار شبيب في سيره هذا على أطراف البادية، فأخاف الناس وانتقم من بعض المعادين له، ثم عرج على الفرات، فذهب إلى الأنبار، ثم اتجه شمالاً إلى أذربيجان فتركه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ٦٥، ٦٩. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤١٣، ٤١٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٦٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤١٤.

الحجاج [1]. ظن الحجاج أن شبيباً قد نأى، فخرج من الكوفة إلى البصرة بعد أن استخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة.

وبينما أهل الكوفة في هدوئهم إذ جاء عروة بن المغيرة كتاب من ماذرواسب دهقان بابل مهروذ يذكر له أن بعض التجار وجباة الخراج أخبره أن شبيباً قد نزل خانيجار وهو على قصد الكوفة، فأرسل عروة الكتاب إلى الحجاج بالبصرة، فأقبل الحجاج مجداً إلى الكوفة كي يصلها قبل شبيب، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى قرية حزلى على شاطئ دجلة، فعبر منها، ثم سار حتى نزل عقرقوف، وقال لأصحابه: (**يا هؤلاء إن الحجاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شيء إن شاء الله، فسيروا بنا نبادر الحجاج إليها**)؛ ولكن الحجاج كان يطوي المنازل مسابقاً شبيباً إليها، فسبقه ودخلها صلاة العصر [2]؛ ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب، فاستراح بها، وصلى المغرب والعِشاء [3].

ثم هجم على الكوفة بالليل، وكان معه في جيشه زوجه غزالة وأمه جهيزة وغيرهما قد تقلدن السيوف واعتقلن الرماح، وسار شبيب بمن معه إلى قصر الإمارة، فضرب بابه بعمود ضربة أثرت بالباب [4] وقال:

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ　　　لا بَلْ يُقَالُ أَبو أَبيهم يقدم؟[5]

وطلبت غزالة الحجاج للمبارزة، فلم يجبها، فقال في ذلك عمران بن حطان السدوسي - وكان الحجاج يطلبه-:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٦٠ ، ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١ ، ص ٤١٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧١. تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي. مصدر سابق. جـ ٣ ، ص ٢٠.
وحياة الحيوان الكبرى. الدميري. مصدر سابق. جـ ١، ص ٢١ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٧١.

أَسَـــدٌ عَـــلَيَّ وفي الحُــرُوْبِ نَعَامَــــةٌ فَتْخَــاءُ تَنْفِــرُ مِــنْ صَــفِيْرِ الصَّــافِرِ
هَــلاَّ بَــرَزْتَ إِلى غَزَالَــةَ في الــوَغَى بَــلْ كَــانَ قَلْبُـكَ في جَنَـاحَيْ طَـائِرِ[1]

ودخلتْ مسجد الكوفة، فخطبتْ على منبره، وجعلتْ تذم بني مروان[2]، وصلتْ فيه ركعتين كانت قد نذرتها قرأت فيهما بالبقرة وآل عمران[3]- وهما أطول سورتين في القرآن - وقرأتْ وِرْدَها؛ وشبيب واقف على الباب يحميها[4].

ثم خرج شبيب بأصحابه من المسجد بعد أن قتل كثيراً من الذين كانوا بالمسجد من المصلين والمعتكفين، وصاروا كلما رأوا شخصاً - في تلك الليلة - قتلوه. وبعد أن عاثوا في الكوفة فساداً خرجوا جهة المردمة[5].

انتظر الحجاج في داره حتى جلا شبيب وأصحابه عن الكوفة؛ لأن جيوشه كانت متفرقة، وأمر المنادي فنادى :(يا خيل الله اركبي وأبشري)، وهو فوق باب القصر، وثَمّ مصباح مع غلام له فتهافت إليه الناس؛ ولكنه لم يفتح أبواب القصر ليلاً[6]، فبات كل

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص ٦٧. والبدء والتاريخ. المقريزي. جـ ٦ ، صص ٣٣، ٣٤.

(٢) الفرق بين الفرق. البغدادي. مصدر سابق. ص٩٠ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٩٧. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. جـ ٣، مصدر سابق. ص ١٥٨. والمستطرف في كل فن مستظرف. الأبشيهي. مصدر سابق جـ ١، ص ٢٢٥.
وشذرات الذهب. العمادي. مصدر سابق. جـ ١، ص ٨٣ .

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف. الأبشيهي. مصدر سابق جـ ١، ص ٢٢٥ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧٢.

(٦) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧٢. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٥٤. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤١٥.

قائد في جماعته حتى الصباح. فبعث بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل [1] وزائدة بن قدامة الثقفي في ألفين وأبا الضريس مولى بني تميم - في ألف من الموالي وأعين صاحب حمام أعين - مولى بشر بن مروان - في ألف رجل ومحمد بن موسى بن طلحة في ألفي رجل؛ وقال لهم الحجاج: (**إن كان حرب فأميركم زائدة بن قدامة**). فسار هؤلاء الأمراء حتى نزلوا أسفل الفرات، فترك شبيب الوجه الذي هم فيه، وأخذ طريقه نحو القادسية.

وفي الوقت الذي أرسل فيه الحجاج هؤلاء القواد وجه زحر بن قيس في جريدة من نقاوة الفرسان تبلغ ألفاً وثمانمئة، وأمره باتباع شبيب ومواقعته حيثما أدركه إلا أن يكون منطلقاً ذاهباً فيتركه. فالتقى زحر بشبيب بالسيلحين.

ودارت رحى المعركة، فانهزم زحر وأصحابه وأصابه بضع عشرة جراحة ما بين طعنة وضربة، وظن شبيب أن قائد الجيش قد قتل، ولكن كان قد أغمي عليه، فلما كان الليل وأصابه البرد قام يمشي حتى دخل قرية، فبات بها وحمل منها إلى الكوفة، ثم أتى الحجاج وعلى وجهه القطن، فأجلسه معه على السرير [2]، وقال لمن حوله: (**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس وهو شهيد فلينظر إلى هذا** [3]). ولما هزم شبيب أصحاب زحر قال أصحابه له: (**قد هزمنا لهم جنداً انصرف بنا الآن وافرين**) فقال لهم شبيب: (**هذه الهزيمة قد أرعبت هؤلاء الأمراء والجنود الذين في طلبكم، فاقصدوا بنا نحوهم فوالله لئن قاتلناهم فما دون الحجاج مانع، ونأخذ الكوفة إن شاء الله تعالى**). ففوضوا إليه الأمر فسأل عن القوم، فأخبر أنهم بـ(روذبار) - على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة - فقصدهم.

علم الحجاج بمسير شبيب إلى الأمراء، فأرسل إليهم يخبرهم، ويطلب إليهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص ٤١٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٧٣ .

الاستعداد لقتاله وتجديد قيادة زائدة بن قدامة، فاستعدوا وعبؤوا الجيوش، وأقبل إليهم شبيب وقد رتب أصحابه وتقابل الجيشان وحَمِيَ وطيسُ القتال، وصبر زائدة للمعركة حتى قتل وقتل معه بعض الأمراء وجرح بعضهم(١).

ولما قتل القائد أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى بيعته، فبايعه بعضهم بالليل، وكان فيمن بايعه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، فقال شبيب لأصحابه: **(هذا ابن أحد الحكمين)**، فأرادوا قتله، فقال شبيب: **(ما ذنب هذا)**؟ وتركه. فلما ظهر الفجر أذن محمد بن موسى بن طلحة في أصحابه - وكان لم يبرح مكانه - فقال شبيب: **(ظننت أن حمقه وخيلاءه يحمله على هذا)**. وبعد صلاة الفجر حمل على محمد وأصحابه، فانهزمت طائفة منهم، وثبتت معه طائفة، فقاتل حتى قتل.

وأراد شبيب أن يذهب إلى الكوفة لولا أن رأى أن أصحابه قد ضعفوا، وببعضهم جراحات فعدل عنها، وأخذ طريقه على نفر ثم على الصراة(٢) ثم إلى خانيجار فأقام بها(٣)؛ ولما بلغ الحجاج أن شبيباً قد أخذ طريقه نحو نفر ظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة ومن أخذ المدائن كان ما في يده من السواد أكثره، فهاله الأمر، وبعث إلى عثمان بن قطن، فسرحه إلى المدائن(٤).

وأرسل إلى عبد الرحمن بن الأشعث الكندي يأمره بالخروج لشبيب، وأن يطلبه حيث كان وأمره أن ينتخب من الناس ستة آلاف فارس، فانتخب منهم من كندة وحضرموت ستمئة وطلب إليه الحجاج المسارعة بالخروج، فخرج وعسكر بدير عبد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، صص٧٤ ، ٧٥.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤١٥ ، ٤١٦ .
(٢) الصراة : قرية غرب تكريت.
(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٧٦. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٧.
(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٨.

الرحمن، وكتب إليهم الحجاج:

(قد اعتدتم عادة الأذلاء، ووليتم الدبر يوم الزحف، وذلك دأب الكافرين، وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة ومرة بعد مرة، وإني أقسم لكم بالله قسماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعاً أكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب، وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال، فخاف من له معقول على نفسه، ولم يجعل عليها سبيلاً، وقد أعذر من أنذر.

(و)قد أسمعت لو ناديتُ حياً ولكنْ لا حَياةَ لِمَنْ تنادي

والسلام عليكم)[1].

وأرسل الحجاج ابن الأصم مؤذنه إلى عبد الرحمن عند طلوع الشمس يأمره بالارتحال والمناداة في الناس ببراءة الذمة من كل من تخلف، فأذعن عبد الرحمن للأمر، وخرج بالناس حتى مر بالمدائن، فنزل بها يوماً وليلة اشترى فيها أصحابه ما يلزمهم، وزار الجزل فأوصاه الجزل بالاحتياط وحذره من متابعة شبيب.

واصل عبد الرحمن سيره إلى شبيب، فلما دنا منه سار شبيب إلى دقوقاء وشهرزور، فتبعه عبد الرحمن حتى إذا وصل التخوم لتلك الأرض قال: **(هذه أرض الموصل فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم أو فليدعوا).**

علم الحجاج بقرار عبد الرحمن، فكتب إليه: **(أما بعد فاطلب شبيباً، واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده والسلام).**

وعرّج شبيب في اتجاه جلولاء، وتحرك عبد الرحمن ثانية في طلبه، وصار شبيب يراوغه ويخادعه، فيتركه يسير وراءه حتى إذا ما دنا منه سار نحو العشرين فرسخاً فنزل

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٧٨ . وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٦ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٥٥ .

في أرض خشنة غليظة.وهو في ذلك يحاول أن يصادف من عبد الرحمن غرة، ولكن عبد الرحمن كان حذراً يقظاً، ففي الليل كان يخندق على نفسه وفي النهار يعبّئ الجيش ويستعد، وما زال شبيب على هذه الحال في السير حتى أنهك جيش ابن الأشعث، وأحفى دوابه، ولقي منه كل بلاء.

ومع ذلك استمر عبد الرحمن في متابعته، فمر شبيب بهم على خانقين وجلولاء وسامراء، ثم أقبل إلى السبت وهي قرية من قرى الموصل ليس بينها وبين الكوفة إلا نهر يسمى نهر حولايا - وجاء عبد الرحمن، فنزل عواقيل من النهر؛ لأنه وجدها مثل الخندق والحصن الحصين.

كان عيد النحر قد أقبل، فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يقول له: **(هذه الأيام أيام عيد لنا، ولكم فهل لكم في الموادعة حتى تمضي هذه الأيام)**؟ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك - وكان يحب المطاولة فكتب - عثمان بن قطن أمير المدائن - إلى الحجاج يقول له: **(أما بعد فإن عبد الرحمن قد حفر جوخي كلها خندقاً واحداً، وكسر خراجها، وخلى شبيباً يأكل أهلها والسلام)** .فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى عبد الرحمن فيعزله، ويتولى قيادة الجيش بدله، وأرسل مكانه على المدائن مطرف بن مغيرة .

فسار إلى عبد الرحمن وعزله عن إمرة الجيش، وتولى هو قيادته، فأراد أن يناجز الخوارج في الحال، فلم يساعده الجو إذ كانت الرياح تهب شديدة على الجيش، فأقام يوماً وليلة بعد قدومه حتى هدأت الريح، ثم عبأ جيشه، وزحف به على شبيب، وتقدم شبيب بأصحابه للقتال، وكانوا نحواً من مئة وثمانين رجلاً، ودارت رحى معركة أسفرت عن هزيمة جيش عثمان وقتله، ووقع ابن الأشعث من فوق فرسه، فأنقذه بعض الجنود، فسار حتى نزل دير اليعار.

وقُتل من كندة في ذلك اليوم مئة وعشرون ومن سائر الناس ألف، وقتل معظم العرفاء، وأمر شبيب أصحابه أن يرفعوا السيوف عن الناس ودعوتهم إلى البيعة، فأتاه

قوم فبايعوه[1].

وبات عبد الرحمن تلك الليلة بدير اليعار، فأتاه فارسان فصعدا إليه، وقام آخر قريباً منهما وخلا أحدهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه، ثم نزل هو وأصحابه، فتبين أن ذلك الرجل هو شبيب، وأنه كان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبة[2].

وسار عبد الرحمن في آخر تلك الليلة عن هذا المكان، ونزل بدير أبي مريم، فاجتمع الناس إليه، وقالوا له: (**إن سمع شبيب بمكانك أتاك، فكنت له غنيمة. قد ذهب الناس وتفرقوا، وقتل خيارهم، فالحق أيها الرجل بالكوفة!**)، فرجع إلى الكوفة، ودخلها متخفياً من الحجاج حتى أخذ لها الأمان منه[3].

شبيب بالمصيف:

وأما شبيب فإنَّه أراد أن يستريح من شدة القتال وشدة الحر، فأقام الصيف في الجبال على (ماه بهرذان) مدة ثلاثة أشهر، وفي أثناء تلك الأشهر الثلاثة كثر أتباعه، فذهب إليه كثير ممن يبغي المال أو الثأر.

وبعد انتهاء المدة خرج شبيب في ثمانمئة رجل، وقصد المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة، وجاء شبيب حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان، فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج: (**أما بعد: فإني أخبر الأمير أصلحه الله أن شبيباً قد أقبل حتى نزل قناطر حذيفة ولا أدري أين يريد**).

فلما قرأ الحجاج كتاب بابل مهروذ قام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (**أيها الناس والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم أو لأبعثن إلى قوم هم أسمع**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، صص٧٩، ٨٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، صص٤١٧، ٤١٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٨٤. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤١٨.

وأصبر على الألواء والغيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم)[1].

فعملت هذه الكلمة عملها في النفوس من حيث إنهم لا يريدون أن يدخل عليهم أحد من أهل الشام، وقاموا من كل جانب قائلين: (**نحن نقاتلهم ونرضي الأمير فليندبنا إليهم، فإنا حيث سره**).

وقام إليه زهرة بن حوية ذلك الشيخ الطاعن في السن، ووجه نصيحته للحجاج مبنياً أن سبب الهزائم هو إرسال الناس فرقاً فرقاً، ولكن يجب أن يستنفر الناس كافة، وأن يكون القائد ثبتاً شجاعاً مجرباً للحرب ممن يرى الفرار هضماً وعاراً والصبر مجداً وكرماً.

فقال له الحجاج: (**فأنت وذاك، فاخرج**)، فقال زهرة: (**أصلح الله الأمير: إنما يصلح للناس في هذا الأمر رجلٌ يحمل الرمح والدرع، ويهز السيف، ويثبت على متن الفرس، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً، وقد ضعفت وضعف بصري، ولكن أخرجني مع الأمير في الناس، فأكون معه، وأشير عليه برأيي**). فشكره الحجاج، وأثنى عليه، وقبل منه نصيحته، ونادى في الناس بوجوب سيرهم جميعاً.

فانصرف الناس يتجهزون ولا يدرون مَن أميرهم؟

هذا ما فعله مع أهل العراق، ولكنه في هذه المرة لم يطمئن إليهم لسابق تقاعسهم، فكتب إلى عبد الملك يخبره أن شبيباً قد شارف المدائن، وأنه يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، ويطلب أن يبعث إليه جنداً من أهل الشام يقاتلون الخوارج، ويأكلون البلاد[2]، وأرسل في الوقت نفسه أيضاً إلى عتاب بن ورقاء وهو مع المهلب في حرب الأزارقة على جيش ابن مخنف يستدعيه كما عرفنا ذلك فيما سبق.

فأجاب عبد الملك بن مروان طلبه، وأرسل إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ صص ٨٤، ٨٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤١٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٨٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، صص٤١٨، ٤١٩ .

آلاف وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين[1].

أمر جيش الكوفة:

جمع الحجاج أشراف الكوفة، واستشارهم فيمن يتولى أمر هذا الجيش، ففوضوا إليه الأمر فيمن يراه، فأخبرهم أنه قد أرسل إلى عتاب بن ورقاء يستدعيه، وأن موعد وصوله الليلة أو غداً، فظهر سرور أهل الكوفة من هذا الاختيار، وقال شيخهم زهرة ابن حوية: (**رميتهم بحجرهم، والله لا نرجع إليك حتى نظفر أو نقتل!**[2]).

كان في هذه الأثناء قد فشا الخبر بقرب وصول جيش شامي، فتقدم قبيصة بن والق التغلبي بنصيحة إلى الحجاج بشأن إخوانه القادمين فقال: (**إن الناس قد تحدثوا أن جيشاً قد وصل إليك من أهل الشام، وأن أهل الكوفة قد هزموا، وهان الفرار فقلوبهم، كأنها ليست فيهم، فإن رأيت أن تبعث إلى أهل الشام ليأخذوا حذرهم ولا يبيتوا إلا وهم محتاطون، فإنك تحارب جوّلاً قلباً طعاناً رحالاً وقد جهزت إليهم أهل الكوفة، ولست واثقاً بهم كل الثقة، وإن شبيباً بينهما هو في أرض إذا هو في أخرى ولا آمن أن يأتي أهل الشام وهم آمنون، فإن يهلكوا نهلك ويهلك العراق**)، فقال الحجاج: (**لله أبوك ما أحسن ما رأيت وما أصحَّ ما أشرت به!**).

وبعث من فوره إلى الجيش الشامي كتاباً يقول فيه: (**أما بعد فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا طريقكم على عين التمر حتى تقدموا الكوفة إن شاء الله وخذوا حذركم وعجلوا السير والسلام**).

فأقبل القوم سراعاً وقدم عتاب في نفس الليلة التي عينها الحجاج، فأمره الحجاج

---

(1) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٨٦. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤٢٠.

(2) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١.

بالخروج بالناس، فخرج وعسكر بحمام أعين[1].

أقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذا، فقطع فيها دجلة، ثم سار ونزل مدينة بهرسير الدنيا، فلم يكن بينه وبين مطرف إلا جسر على النهر، فقطعه مطرف[2]، وأرسل إلى الحجاج (**إن شبيباً قد أطل عليّ، فابعث إلى المدائن بعثاً**).

فبعث إليه سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف في مئتي فارس[3]. وأرسل مطرف إلى شبيب يطلب إليه رجالاً يدارسهم القرآن، وينظر فيما يدعون إليه. وبعد مفاوضات في شأن البعث أجابه إلى طلبه وأرسل إليه قعنباً وسويداً والمحلل. ودارت مناقشات مدة أربعة أيام لم يصلوا بها إلى نتيجة ترضي الطرفين، وأخفقت المفاوضات، فلما تبين لشبيب أن مطرفاً غير متابع له ولا داخل معه تهيأ للسير إلى عتاب وإلى أهل الشام[4].

وهذه الحركة التي قام بها مطرف لا نعرف على التحقيق المراد منها: هل كان يريد أن يشغلهم عنه؟ أَوْ إِنَّه كان يطمع في استمالتهم إلى جانبه ليتقوى بهم فيقوم بحركة كالتي قام بعدها؟ ووثق مطرف أن الحجاج لا بد عالم بما كان بينه وبين شبيب، فخرج نحو الجبال بأصحابه، وأخبرهم بذلك ما عدا سبرة، فإنه كتم عنه الأمر إلى أن وصل إلى دسكرة الملك، فأعلمه بما يريد ودعاه لأمره، فأظهر سبرة أنه معه، ولما خرج من عنده بعث إلى أصحابه، فجمعهم ورجع بهم إلى الكوفة[5]. ومهما تكن نية مطرف في مفاوضته لشبيب فالواقع أن الجيش الشامي استفاد من تصرف مطرف؛ إذ شُغِلَ شبيبٌ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٨٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١.

أعين: بلدة على بعد ٣ فراسخ من الكوفة. وكلواذا: الاسم القديم للكرادة الشرقية.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٨٧. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤١٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٨٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ٨٩. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٠.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٦.

بالمفاوضة عن مقابلته الجيش الشامي وهو في طريقه إلى الكوفة.وقد عبر عن ذلك في حديث أفضى به لأصحابه، فكان مما قاله: (**إن هذا الثقفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام، وذلك أني هممت أن أخرج في جريدة خيل حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام رجاء أن أصادف غربتهم قبل أن يحذروا، وكنت ألقاهم منقطعين عن المصر ليس عليهم أمير كالحجاج ولا لهم مصر كالكوفة يعتصمون بها**).

ولما انتهت المفاوضات كانت أوائل الجيش الشامي قد دخلت عين التمر وكان عتاب قد سار بخمسين ألفاً من مقاتلة أهل الكوفة وعشرة آلاف من شبابهم ممن نشط للجهاد ورغب فيه حتى نزل سوق حكمة، وقد هددهم الحجاج وتوعدهم قائلاً: (**يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتاب بن ورقاء بأجمعكم لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا! ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة! ألا وإن للناكل الهارب الجفوة والهوان! والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينكم كنفاً خشناً ولأعركنكم بكلكل ثقيل!**)[1].

جمع شبيب أصحابه بعد أن عرفهم الموقف، وقال: (**يا معشر المسلمين: إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مئة ومئتان وأكثر من ذلك وأقل منه قليلاً، فأنتم اليوم مئون ومئون ألا وإني مصل بكم الظهر ثم سائر بكم**).فصلَّى الظهر، ثم نودي في الناس: (**يا خيل الله اركبي وأبشري**)، فخرج في أصحابه فأخذ بعضهم يتخلف في الطريق، فلما رأى شبيب ذلك أخذ يقص عليهم القصص، ويذكرهم بالآخرة، ويزهدهم في الدنيا ليتشجعوا ولا يكون لديهم رهبة ولا خوف من هذا الجيش الكبير، وما زال سائراً حتى أشرف على عتاب بن ورقاء وعسكره فنزل وصلى المغرب.[2]

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص٨٧، ٨٨.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١. ص٤١٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٨٩. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٠ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٥٧ .

معركة سوق حكمة:

كان عتاب قد عَبَّأَ أصحابه وصفهم ثلاثة صفوف صف لأصحاب السيوف وصف آخر لأصحاب الرماح والصف الثالث للرماة.كذلك رتب شبيب جيشه الذي وصل إلى ميدان القتال وهو ستمئة، وقد تخلف عنه أربعمئة، فجعل مئتين في المسيرة ومئتين في القلب ومئتين في الميمنة.ونشبت المعركة في تلك الليلة حين أضاء القمر، فدارت الدائرة على عتاب، وفرَّ من جيشه كثير كان من بينهم عبد الرحمن بن الأشعث في ناس كثير.

وتحرج موقف عتاب، فلم يبق معه إلا القليل، فقاتل بهم ساعة حتى قتل، وبعد ذلك أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى البيعة، فبايعه الناس خوفاً، ولكنهم هربوا من ليلتهم، وحوى شبيب ما في عسكرهم ثم أقبل إلى الكوفة.[1] وفي طريقه إلى الكوفة، مر على سورة فقال لأصحابه: (**أيكم يأتيني برأس عامل سورة؟**) فخرج جماعة من أصحابه إلى عامل سورة ودبروا مكيدة وخديعة خدعوا بها الناس بأن قالوا: (**أجيبوا الأمير**) فقال الناس: (**أي الأمراء؟**) قالوا: (**أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق**) - يعني شبيباً -: فاغتر بذلك العامل منهم، ثم إنهم شهروا سيوفهم، وحكموا حين وصلوا إليه، وضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان في بيت المال، ولحقوا بشبيب، وأخبروه بالأمر، فقال عن المال: (**لقد أتيتمونا بفتنة المسلمين هلم الحربة يا غلام**) فمزق بها البدور، وأمر فنسخت الدابة التي عليها المال، فصار يتناثر من بدوره حتى وصل الصراة، فقال: (**إن كان قد بقي شيء فاقذفه في الماء**[2]) واستمر شبيب في مسيره حتى نزل موضع حمام أعين.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٩٢. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١ .

كان في ذلك الوقت قد وصل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي فيمن معهما إلى الكوفة، فشدّوا عضد الحجاج، واستغنى بهم عن أهل العراق الذين برهنوا على منتهى الجبن[1].وحينما وصلته أخبار هزيمة عتاب صعد المنبر، فقال: (**يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد منكم النصر، اخرجوا عنا، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب**)[2].

وما كاد الحجاج ينتهي من خطبته هذه حتى قدم سبرة بن عبد الرحمن من الدسكرة، فلما علم بغضب الحجاج لم يرد أن يقابله وجهاً لوجه، فدخل على سفيان بن الأبرد، وقص عليه قصته، وأخبره بطاعته وفراقه مطرفاً، وأنه من الذين لم يشهدوا قتال عتاب، بل لم يشهد هزيمة في موطن من مواطن أهل الكوفة كما أن الذين معه لم يشهدوا هزيمة قط، وما زالوا على الطاعة لم يدخلوا فتنة.

فدخل سفيان على الحجاج فأخبره بقصة سبرة فقال: (**صدق وبرّ**). قل له:(**فليشهد معنا قتال عدونا!**)، فخرج إليه سفيان، وأعلمه بذلك[3].وأخذ الحجاج في إعداد العدة لقتال شبيب دون الاعتماد على أهل العراق، فدعا الحارث بن معاوية بن أبي زرعة الثقفي، فأرسله في ناس من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب وجماعة كانوا عمالاً في نحو مئتي رجل من أهل الشام، وبلغ عدد الجميع نحو ألف خرج بهم الحارث حتى نزل زرارة .ولما وصل عِلْمُ ذلك إلى مسامع شبيب الذي كان سريعاً في حركاته ومحباً لمعالجة الجيوش فرادى أسرع إلى الحارث بن معاوية حتى إذا ما وصل إليه حمل عليه، فقتله

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤٢١. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص١٥٧ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص١٧ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٣.

وانهزم أصحابه، وجاء المنهزمون، فدخلوا الكوفة [1]، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً إليها.

وفي اليوم الثاني أخرج الحجاج مواليه، فأخذوه بأفواه السكك، وخرج أيضاً أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه سككهم خوفاً من موجدة الحجاج وعبد الملك بن مروان وجاء شبيب، فنزل السبخة، وأسس بها مسجداً.

وفي اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد - أحد مواليه- بهيئة عظيمة، وأخرج غلماناً له معه، فقال أصحاب شبيب: **(هذا الحجاج)** فحمل عليه شبيب، فقتله، وقال حين قتله: **(إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه!)** ثم أخرج الحجاج غلاماً آخر له اسمه طهمان في مثل تلك العدة والحالة فقتله شبيب، وقال مثل مقالته السابقة[2].

خروج الحجاج لشبيب:

عند ذلك رأى الحجاج أن يخرج بنفسه لقتال شبيب على رأس الجيش الخارج ليقوي عزيمة الجند، وليشهد قتال الذين فرت منهم الجيوش، وقتلوا عدداً من الأمراء والقواد، فخرج عند ارتفاع النهار راكباً إلى السبخة، ولما رأى شبيباً نزل ورسم الخطة التي يجب أن تتبع في قتال العدو[3].فجعل سبرة بن عبد الرحمن على أفواه السكك في جماعة الناس، ودعا بكرسي فقعد عليه، ثم نادى: **(يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة).**

فجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، وأقبل إليهم شبيب في ستمئة فارس حتى إذا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٩٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص٤٢١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٤. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٨.

ما دنا عَبَّأَ أصحابه ثلاثة كراديس، وقال لقائد إحداها: احمل عليهم في خيلك، فحمل عليهم، فثبت أصحاب الحجاج وراحوا يطعنونهم قُدُماً حتى انصرف القائد بكردوسه، فصاح الحجاج هكذا فافعلوا، وقدَّم كرسيه حتى يضغطوا على العدو ولا يتقهقروا، فأمر شبيب قائد الكردوس الثاني بالحملة عليهم، ففعلوا به مثل فعلهم بزميله، وصاح بهم الحجاج: هكذا فافعلوا وقدَّم كرسيه. ثم إن شبيباً حمل عليهم بكردوسه الثالث فصنعوا به ما صنعوا بقائديه.

فلما رأى شبيب ذلك أراد أن يسلك معهم خطة أخرى. تلك هي أنه أمر سويداً - أحد قواده - أن يحمل على الآخذين بأفواه السكك، فإذا ما تمكن من إزالتهم عن مواضعهم أتى الحجاج من ورائه، بينما يأتيه شبيب من الأمام. على أن خطة شبيب هذه كان مقدراً لها الفشل: ذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلاثمئة رجل ردءاً له ولأصحابه لئلا يؤتوا من الخلف. وبينما كان سويد يقوم بمحاولته هذه دون أن يعلم بما أعد الحجاج له رُمي من فوق البيوت وأفواه السكك بالحجارة فرجع[1]. أدرك شبيب خطورة الموقف، فجمع أصحابه ليحمل بهم جميعاً، وقال لهم (**يا أهل الإسلام إنما شرينا الله! ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم جنب الله، الصبر! الصبر! شدة كشداتكم في مواطنهم الكريمة!**). ولما رأى الحجاج تجمع شبيب بأصحابه قال لأصحابه: (**يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ثم ورب السماء ما شيء دون الفتح!**).

فجثوا على الركب، وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه، فوثبوا في وجهه، وما زالوا يطاعنونه بالرماح ويدفعونه وأصحابه حتى بلغوا المسجد الذي أسسه شبيب، واستولوا عليه، فقال الحجاج: (**يا أهل الشام هذا أول الفتح!**). وصعد الحجاج فوق المسجد،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص٩٤، ٩٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص١٨.

وصعد معه جماعة نحو عشرين من أصحاب النبال، وعند ذلك أمر شبيب فرسانه بالترجل، فأمر الحجاج برشقهم بالنبال إن قربوا منهم، واشتد القتال في ذلك اليوم الذي ظهرت فيه عبقرية الحجاج الحربية ووطن نفسه فيه على هزيمتهم[1].

وفي هذا الوقت أتى الحجاج خالد بن عتاب- من أعيان أهل الكوفة، فكان بذلك لا يرغب الحجاج في اشتراكهم في القتال ولفراره عن أبيه - يلتمس من الحجاج أن يقاتل الخوارج حتى يثأر لأبيه، وأبان أنه لا يتهم في نصيحته، واستأذن في أن يغير عليهم من خلفهم، فأذن له الحجاج،فأتاهم من خلفهم في جماعة من أهل الكوفة، فقتل مصاداً أخا شبيب، وقتل امرأته غزالة [2]، وأضرم النار في عسكره.بلغ ذلك الخبر مسامع الحجاج وشبيب، فأما الحجاج فقد كبر تكبير النصر، وأما شبيب فركب هو وأصحابه بعد أن كانوا راجلين. فقال الحجاج لجنده: (**شدوا عليهم؛ فإنه قد أتاهم ما أرعبهم،**) فحملوا عليهم، فكانت الهزيمة لشبيب.فقد ولّى جماعة من أصحابه الدبر، وتخلف هو في حامية من الناس، ولكنه لم يلبث أن ولّى الدبر هو أيضاً، فنادى الحجاج: (**أَنْ دعوه في حرق الله وناره**)، وكانت تلك الواقعة في سنة سبع سبعين للهجرة[3].

وبذلك انتصر الحجاج، وجاء فدخل الكوفة، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (**والله ما قوتل شبيب قبلها ولّى والله هارباً، وترك امرأته يكسر في استها القصب**).وأراد الحجاج أن يقضي على شبيب قضاءً مبرماً، فنادى يوم الهزيمة من جاءنا فهو آمن، فتفرق عن شبيب عدد كبير، ثم بعث إلى عماله أن دسوا لأصحاب شبيب أن من جاءنا منهم فهو آمن.ولأن الكثير منهم سئم القتال، وعرف أن لا فائدة ترجى من

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٩٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٩٦. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٢. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٨ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٩٩. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٩.

شبيب تركه، ودخل في أمان الحجاج، وخشي الحجاج أن يستطيع شبيب جمع أنصار جدد، فأرسل في أثره حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف من أهل الشام، وحذرهم من البيات، وطلب إليهم أن ينازلوا في أي مكان وجد، لأن الهزيمة محققة له؛ إذ إنَّ حدَّه قد فُلَّ ونابه قد قصم بقتل أخيه وزوجه، وتفرق الكثير من أصحابه عنه.فسار حبيب حتى نزل الأنبار، وبلغ شبيب ذلك، فأقبل إليهم حتى إذا دنا من عسكرهم نزل فصلى برجاله المغرب[1].

رتب حبيب أصحابه، فجعلهم أرباعاً، وطلب إلى كل ربع منهم أن يمنع جانبه، وأن لا يعين فريق فريقاً، وأفهمهم أن الخوارج لا بد أن يبيتوهم.وقد كان، فبيتهم شبيب، ولكنه أتاهم وهم مستعدون، فحمل على ربع منهم، فقاتلوه، فما زلّت قدم إنسان عن موضعه، فترك هذا إلى ربع آخر، فكان الأمر كذلك، ثم الثالث ثم الرابع، وفي كل الأحوال لم يفز بطائل، فطاف بهم ونازلهم راكباً وراجلاً، واشتد القتال حتى بلغت القلوب الحناجر، وصار الرجل يضرب بسيفه، فلا يصنع شيئاً من شدة الإعياء. وقتل في تلك الليلة نحو ثلاثين من الخوارج ومئة من جيش حبيب. ولما يئس شبيب من النجاح أمر أصحابه بالركوب وترك القتال وسار بهم، فقطعوا دجلة، وأخذوا في أرض جوخي، ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط، ثم ساروا إلى الأهواز ثم إلى فارس، ثم ارتفعوا إلى كرمان ليأخذوا فترة استجمام وراحة[2].

إرسال الحجاج سفيان بن الأبرد إلى شبيب:

أراد الحجاج أن يجهز على شبيب، ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، فلديه أهل

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٠٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص ٤٢٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٨ .

السمع والطاعة والذين هزموا شبيباً الذي طالما فر منه أهل الكوفة، وهذه قوته قد انحلت. فنادى بخروج الناس، وقسم فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرحى وكل ذي بلاء وطلب إلى سفيان بن الأبرد أن يسير بهم إلى شبيب .شق ذلك على حبيب، وقال للحجاج: (**تبعث سفيان إلى رجل قد فللته وقتلت فرسانه؟**) ولكن الحجاج لم يتراجع في أمره، وأمضاه، فسار سفيان نحو شبيب.

لم يكتف الحجاج بهذا، بل كتب إلى عامله بالبصرة - الحكم بن أيوب الثقفي - يأمره أن يرسل رجلاً شجاعاً شريفاً من أهل البصرة في أربعة آلاف، ويلحق بسفيان بن الأبرد، وأن يسمع له ويطيع، فبعث الحكم زياد ابن عمرو العتكي، فلم يصل إلى سفيان حتى كان سفيان قد التقى شبيباً بجسر دجيل الأهواز، فانضم إليه، ونشبت حملة لم يتزحزح أهل الشام في واحدة منها. على أن شبيباً وأصحابه أبلوا في الموقعة بلاء ظن سفيان معه أنه سيعجز عن القضاء عليه، واستمرت المعركة مائعة حتى أقبل الظلام على شبيب وأصحابه؛ وأمر سفيان أصحابه بعدم اتباعهم. وأمر شبيب أصحابه أن يعبروا جسر دجيل حتى إذا أصبحوا باكروهم، فعبروا أمامه، وتخلف في أخراهم، وبينما كان يعبر شبيب على الجسر اضطربت به فرسه، فسقط في الماء، ولم يستطع النهوض لثقل سلاحه، فغرق قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1]، وكان ذلك في سنة سبع وسبعين للهجرة[2].

وهنا نتساءل: هل كان غرقه هذا بسبب خيانة من بعض عسكره؛ لأنه قد أصاب من عشائرهم وسادات قومهم، فأرادوا أخذ الثار في هذه الساعة، فقطعوا الجسر فمالت به

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص١٠٢، ١٠٣. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٢٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٣.
والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٢٠.

السفينة ففزع حصانه وغرق؟ أم كان السبب في ما حصل من فرسه من أنها نزت على فرس أخرى ماذيانة كانت أمامها، فاضطربت الماذيانة، ونزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء[1]؟

وفي رأينا أن قصة المؤامرة أقرب إلى منطق الحوادث من قصة الماذيانة. ذلك أنا لو فرضنا هذا الحادث العارض البحت كان هو السبب الوحيد في سقوطه في الماء لنزل بعض رجاله المخلصين لإنقاذه على ظلام الليل، فهو أميرهم ومفروض عليهم الفناء في الدفاع عنه .أما وقد أصابه هذا الحادث دون أن يتقدم أحد لإنقاذه فمعنى ذلك أن الجماعة المحيطة به عن قرب كانت لا ترغب في نجاته، مما يؤيد قصة المؤامرة، وكذلك نرى أن قصة قطع الجسر كانت إيذاناً من الموتورين منه بقيام المؤامرة ضده.

كل هذا يرجح في نظرنا قصة المؤامرة، فإنه فوق إصابته من عشائر بعضهم استثنى قرابته من القسوة التي كانت متبعة ضد الكفار[2]، فحقدوا عليه كما حقدوا عليه تركه الأسرى يذهبون حين يقولون لا حكم إلا الله. ولا ننسى قوة سلطانة التي أثارت حفيظة أمثال ثابت بن مصقلة الذي جادل في أثناء معركة السبخة، وكان مِمَّنْ يعبرون الجسر مع شبيب[3].

ومهما يكن من الأمر فقد انتهى شبيب؛ ولمَّا سمع أهل الشام الخوارج يقولون: **(غرق أمير المؤمنين)** عبروا إلى عسكرهم فلم يجدوا فيه أحداً، فنزلوا فيه وغنموه فكان أكثر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٤ والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٢٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٢. وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٦٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٤. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص٩٩. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٠.

عسكر خلق الله خيراً[1].

وقد أحاط الناس موت شبيب بقصة يزعمون فيها أن أهل الشام شقوا بطنه، وأخرجوا قلبه، فكان مجتمعاً كأنه صخرة، وأنه كان يضرب به الأرض، فيثب قامة إنسان[2].كما أحاطوه بأساطير أرجعوها إلى ما قبل ولادته[3].

وبهلاك شبيب تخلص الحجاج من عدو خطير قوي الإرادة صلب العزيمة دوخ قواد الدولة، وعاث فيها فساداً، وبعث الفزع والرعب في قلوب الناس، وبموته اطمأن الناس، وانتظمت حالة البلاد للحجاج، وتفرغ للفتح الخارجي.

ثورة مطرف بن المغيرة

عرفنا فيما سبق أنَّ المغيرة بن شعبة أحد الدهاة الأربعة وإخلاصه في خدمة دولة بني أمية في عهد معاوية ومركزه فيها. وقد ورث بنوه هذا الإخلاص وهذا المركز، ولما قدم الحجاج العراق لم يغمطهم حقوقهم، بل عرف لهم نبلهم وصلاحهم ومنزلتهم من قومهم، فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحمزة على همدان[4].

فساروا في الناس سيرة حسنة بإجزال الثواب للمحسن، وتشديد النكير على المسيء، فاستتب الأمن، و سارت الأمور في مجراها الطبيعي لا يزعجهم مزعج حتى قام مطرف بثورة ضد الدولة كانت سبباً في قتل نفسه وحبس أخيه حمزة.كان مطرف كأبيه وأخويه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٩٩. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥،ص١٠٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٤.. والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص٤٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٥. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص٤٢٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٥. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٩.

من أحسن العمال وأخلصهم، وليس أدل على ذلك من النهج الذي رسمه لنفسه عند توليته المدائن، فقد صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:(**أيها الناس! إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم، وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة، فإن عملت بما أمرني به، فأنا أسعد الناس وإن لم أفعل فنفسي أوبقت وحظ نفس ضيّعت. ألا إني جالس لكم العصرين، فارفعوا إلي حوائجكم! وأشيروا علي بما يصلحكم ويصلح بلادكم! فإني لن آلوكم خيراً ما استطعت!**)، ثم نزل فجلس في الإيوان.

وقد أرضى ذلك النهج أهل المدائن، فقد أقبل إليه حكيم بن الحارث الأزدي - أحد أشراف الأزد - وقال له: (**أصلحك الله! إني كنت منك نائياً حين تكلمت، وإني أقبلت نحوك لأجيبنَّك فوافق ذلك نزولك. إنا قد فهمنا ما ذكرت لنا أنه عهد إليك، فأرشد الله العاهد والمعهود إليه وقد منيت من نفسك العدل، وسألت المعونة على الحق، فأعانك الله على ما نويت، إنك تشبه أباك في سيرته برضى الله والناس!**)[1].

واستمر مطرف في عمله على النهج الذي رسمه لم يكدر صفوه مكدر حتى أقبل شبيب، ونزل بهرسير الدنيا، وصار بينه وبين مطرف جسر دجلة، فقطعه مطرف، وأرسل إلى الحجاج يخبره بمشارفة شبيب للمدائن، ويطلب إليه مدداً. فأرسل إليه الحجاج أربعمئة من المقاتلة تحت قيادة سبرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن كناز[2]، وأرسل مطرف إلى شبيب يقول له: (**أنْ ابعث رجالاً من صلحاء أصحابك أدارسهم القرآن وأنظر ما تدعون إليه!**). فأجابه شبيب بالموافقة على شرط أن يبعث إليه مطرف أولاً رجالاً من أصحابه يكونون رهينة لدى شبيب حتى يرجع إليه البعث[3].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص١٠٦، ١٠٧ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٧ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٨. وعيون التواريخ . ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص٧٩. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٥٩ .

فقال مطرف لرسول شبيب: (**قل له: كيف آمنك على أصحابي إذا بعثتهم الآن إليك وأنت لا تأمنني على أصحابك؟**) فرد شبيب بقوله: (**إنك قد علمت أننا لا نستحل الغدر في ديننا وأنتم تفعلونه**). ومن العجب أنه بهذه الإجابة يرسل إليه مطرف جماعة من خيرة رجاله!! فلما وصلوا إلى شبيب أرسل كبار قواده للمفاوضة[1].

وبدأت المناظرة، فسألهم مطرف عما يدعون إليه وعن سبب نقمتهم على قومهم فقالوا:(**إنا ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإن الذي نقمناه على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية**)[2].

فقال مطرف: (**ما دعوتم إلا إلى حق، ولا نقمتم إلا جوراً ظاهراً، وأنا لكم على هذا متابع، فتابعوني إلى ما أدعوكم إليه يجتمع أمري وأمركم وتكون يدي وأيديكم واحدة**)، فقالوا: (**هات ما تذكر، فإن رأينا حقاً أجبناك**). قال: (**فإني أدعوكم إلى قتال هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم، وندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضونه لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعانوكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون!**).[3]

فقالوا: (**هذا ما لا نجيبك إليه**).

وكان موقفهم هذا عادياً إذ كان في ذلك ما يهدر زعامة شبيب، وكانوا قد ارتضوه خليفة عليهم، ودعوه بأمير المؤمنين وهو مثلهم الأعلى، فقاموا من عنده ورجعوا إلى شبيب، فأخبروه بمقالة مطرف فردهم إليه ثانية يناظرونه[4] بما عرف عنهم من لباقة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٠٨. وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص ٧٩ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٥٩ .

(٣) المصادر السابقة.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٩. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٦٠.

وقوة حجة، ومكثوا على ذلك أربعة أيام [1].

وفي اليوم الرابع قال لسويد بن سليم: (**قد فهمت ما ذكرت، ارجع يومك هذا ننظر في أمرنا**)، فرجع ودعا مطرف إلى اجتماع خاص من ثقاته ونصائحه، وبسط لهم الموقف قائلاً: (**ياهؤلاء إنكم نصائحي وأهل مودتي ومن أثق بصلاحه وحسن رأيه، والله ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً أنكرها بقلبي، وأغيرها ما استطعت بفعلي وأمري، فلما عظمت خطيئتهم، ومر بي هؤلاء القوم يجاهدونهم لم أر أنه لا يسعني إلا مناهضتهم وخلافهم إن وجدت أعواناً عليهم، وإني دعوت هؤلاء فقلت لهم كيت وكيت**) وذكر ما دار في الحديث، وأنهم لو تابعوه على رأيه لخلع عبد الملك والحجاج، واستشارهم فيما يفعل: فأشاروا عليه بإخفاء هذا الكلام وعدم اطلاع أحد عليه ما عدا يزيد مولى المغيرة بن شعبة فإنه قال: (**والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة، وليزادنّ على كل كلمة عشر أمثالها، ولو كنت في السحاب هارباً لالتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاء النجاء**[2] **من مكانك هذا، فإن أهل المدائن من هذا الجانب، ومن ذاك الجانب وأهل عسكر شبيب يتحدثون بما كان ولا تمسي من يومك هذا حتى يبلغ الخبر الحجاج، فاطلب داراً غير المدائن**). فوافقه أصحابه على رأي يزيد، فسار عن المدائن إلى الجبال [3].

والمستعرض لموقف مطرف لا يسعه إلا أن يتساءل: ما الذي دفع مطرفاً إلى أن يساجل جماعة شبيب في مبادئهم الدينية؟ أكان جاهلاً بمبادئ الخوارج؟ هذا ما لا نستطيع أن نسلم به. أم أنه كان يريد كسب الوقت ريثما يتم وصول المدد الذي ينتظره من الحجاج؟ هذا ما لا نستبعده.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١١٠.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص ١٦٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٠٩.

ثم رأينا مطرفاً بعد ذلك يقدح أمام رسل شبيب في سياسة الحجاج وعبد الملك فإلى أي حد كان في ذلك جاداً؟ وهل كان حقيقة من الناقمين في نفسه على سياستهما، وأنه (ما زال لأعمال هؤلاء الظلمة ينكرها بقلبه ويغيرها ما استطاع بفعله وأمره)؟

فإذا كان كذلك فلم لم يفكر في الخروج قبل ذلك الوقت؟ أو إن موقفه هذا كان من قبيل إطالة المساجلات بينه وبين جماعة شبيب؟ وإذا كان كذلك فيجدر بنا أن نتساءَل عن العلة في أنه خرج على الحجاج بعد ذلك.

أكبر ظننا أن مطرفاً لم يخرج على الحجاج إلا مضطراً بعد أن وجد نفسه أمام الأمر الواقع حين استشار أصحابه، فقال له يزيد مولى أبيه: (إن الحجاج لا يخفى عليه مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة، وليزادنّ على كل كلمة عشر أمثالها، وإنه ليلتمس أن يصل إليك ولو كنت في السحاب).

عندئذ تحقق مطرف من سوء مصيره لو بقي في المدائن، فخرج منها إلى الجبال التماساً للنجاة.

وكان من الأمور المسلم بها أن لا يفهم جماعته بما عزم عليه حتى لا يتفرقوا عنه فأخبرهم أن هناك أموراً وحوادث تستدعي خروجهم إلى الدسكرة في هذه الليلة، ولما وصلها لم يجد بداً من إعلامهم بما يريد، فجمعهم وخطبهم مذكراً بالجهاد وفضله وحاثاً على التعاون والتقوى، ومشهداً الله على خلع عبد الملك والحجاج والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه، فبايعه بعضهم على ذلك، ورجع عنه بعضهم الآخر[1].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١١١. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٦٠. وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص ٨٠.

وكان ممن رجع عنه سبرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن كناز بمن معها من الجند- بعد أن أظهر له الرضى عن ذلك- وأتيا الحجاج فوجداه قد نازل شبيباً، فشهدا معه وقعة شبيب بقيادة سفيان بن الأبرد[1].

سار مطرف بمن بقي معه من الدسكرة متجهاً نحو حلوان، وكان عاملها في ذلك الوقت سويد بن عبد الرحمن السعدي، فأراد أن يسلم من قتاله، وفي الوقت نفسه يعذر عند الحجاج، فجمع عند الحجاج له سويد أهل البلد والأكراد، فوقف هو بأهل البلد بجانب البيوت، وأوقف الأكراد على منعطف مؤدٍ إلى البلد.وأرسل إلى مطرف يقول له: **(إن كنتم تريدون بلادنا فسنمنعكم وإن كنتم لا تريدونها فاخرجوا عنها، فإنا لا نجد بدّاً من أن نرى الناس ويُسْمَع بأنا قد خرجنا إليك).**

فبعث مطرف إلى قائده الحجاج بن جارية الخثعمي بعدم القتال والحضور إليه، فحضر ولزموا الطريق التي رسمها لهم سويد، فساروا حتى وصلوا إلى المنعطف الذي رابط الأكراد فيه، فمنعوهم من السير، ودارت رحى معركة انهزم فيها الأكراد، وقتل منهم عدد كبير .[2]واستمر مطرف في طريقه حتى اقترب من همدان، فتركها واتجه يساراً - ماه دينار [3]- حتى لا يتهم أخوه حمزة عند الحجاج، وكتب إليه من ماه دينار يطلب إليه أن يمده بالمال والسلاح، فأمده بما طلب سراً.

وبعد أن قدم إليه حمزة المساعدة سار إلى قم وقاشان وأصبهان وبعث عمالاً له على تلك النواحي[4]، وكتب إلى صديقيه سويد بن سرحان الثقفي وإلى بكير بن هارون

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٢. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون.مصدر سابق. جـ٣، ص ١٦٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٢. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦٠.

(٣) ماه دينار : هي مدينة نهاوند، وقيل هي كورة الدِيَنَور.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١١٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٦٠ .

البجلي يدعوهما للانضمام إليه ومعاونته في حركته، فأجاباه إلى ذلك[1].

هال تقدم مطرف البراء بن قبيصة - عامل الحجاج على أصبهان- فكتب إلى الحجاج يطلب إليه إرسال جيش للقضاء على هذا الثائر؛ لأن جمعه قد كثر، فرد عليه الحجاج يطلب إليه أن يعسكر بمن معه حتى يأتيه عدي بن زياد، فيسمع له ويطيع، وجعل الحجاج يسرح له الجند على البريد حسبما اتفق العدد، فمرة عشرة وأخرى عشرين حتى سرح لهنحو خمسمئة، وكان البراء في ألفين[2].

وبينما كان ذلك يجري بين البراء والحجاج أدرك الحجاج بثاقب نظره خطر بقاء حمزة بن المغيرة عاملاً على همدان بالقرب من الديار التي اعتصم فيها أخوه مطرف، وخشي الحجاج أن يتابع حمزة إمداد أخيه بالمال والسلاح. ومن يدري؟ فقد يمده بالرجال، بل قد يبالغ حمزة في تأثره بأخيه، فيخرج في رجاله على الحجاج منضماً إلى أخيه في ثورته، فتتفاقم الثورة، ويستعصي على الحجاج القضاء عليها.

وإزاء كل هذه العوامل قرر الحجاج أن يكفي نفسه شر حمزة، فعمل على عزله وحبسه.

وكان الحجاج لبقاً في تصرفه مع حمزة، ذلك أنه أظهر له قبول عذره حينما اعتذر إليه عما قام به من مساعدة أخيه في أول الأمر بالمال والسلاح، وظل الحجاج يماكره ويكيد له حتى تمكن منه[3].

وتفرغ للقضاء على مطرف، فكتب إلى عدي بن زياد الإيادي، وهو على الري يأمره بالمسير إلى مطرف، ويأمره بالمرور على البراء بن قبيصة بجي ثم السير معاً حتى يلتقيا

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٦٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٦٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١١٤.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق جـ ٣، ص١٦٠.

مطرفاً، وحين اللقاء فالأمير عدي حتى يقتل هذا الخارج ثم يرجع إلى عمله.

وبمجرد وصول الكتاب أخذ عدي في التجهز وضرب البعث على ثلاثة أرباع أهل الري حسب أمر الحجاج. وبعد جمعة تكامل العدد، وسار إلى جي[1] حيث وافى بها البراء بن قبيصة في تسعمئة من أهل الشام فيهم عمر بن هبيرة[2]. وعسكر الجميع بجي يومين للاستراحة لينهضوا بجيش قوامه ستة آلاف مقاتل[3]؛ ولما بلغ مطرفاً مسيرهم إليه خندق على أصحابه خندقاً؛ حتى قدموا عليه، فلما دنوا خرج عدي فعبأ أصحابه، وصفهم للقتال، وكذلك فعل مطرف بأصحابه. حاول مطرف أن يجتذب إليه جيش الحجاج، ولكنه فشل، فقرر أن يضعف الروح المعنوية في ذلك الجيش. فأمر بكير بن هارون البجلي أن يخطب فيهم قائلاً: (**خبروني عن عبد الملك بن مروان وعن الحجاج بن يوسف ألستم تعلمونهما جبارَيْنِ مستأثِرَيْنِ يتبعان الهوى، فيأخذان على الظِنَّة، ويقتلان على الغضب**)؛ إلا أنه ارتد خائباً عندما أجيب بـ (**يا عدو الله كذبت ليسا كذلك**)[4]، والتقى الجمعان؛ فقتل مطرف وجمع كثير من أصحابه. على يد عمر بن هبيرة الفزاري الذي احتزَّ رأسه، وأرسل به إلى الحجاج، فتقدم بذلك عند الأمويين لينصرف عائداً إلى الري[5]. وكان ذلك سنة سبع وسبعين للهجرة = ٦٩٦م.

الحجاج بعد حرب الخوارج حتى قيام ثورة ابن الأشعث:

ما كاد الحجاج ينتهي من القضاء على حركة الخوارج، حتى قلده الخليفة ولايتي خراسان وسجستان، وذلك في سنة ثمان وسبعين للهجرة بعد عزل واليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، لفشله في سياسته الداخلية والخارجية وكان من حسن السياسة

---

(١) جي : اسم بلدة في منطقة الري.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١١٦.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٧.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٧
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٦٠.

أن يولي الخليفة الحجاج هذين الإقليمين ليستتب للدولة الأمر فيهما.

تقليد المهلب بن أبي صفرة خراسان وابن أبي بكرة سجستان:

لما انتهى الحجاج من أمر شبيب ومطرف خرج من الكوفة إلى البصرة، فقدم عليه المهلب، وقد أباد الأزارقة، فأجلسه ودعا أصحاب البلاء، فصار المهلب لا يذكر له بلاء رجل إلا صدقه وأحسن عطاءه. ثم قال الحجاج: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال وهؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء(١).

ولما كان الحجاج قد أُضيفت إليه ولايتا خراسان وسجستان رأى أن يكافئ المهلب على حسن بلائه في حرب الأزارقة بإسناد ولاية خراسان إليه. بينما أسند ولاية سجستان إلى عبيد الله بن أبي بكرة(٢).

وللطبري في هذا الشأن روايتان: تذهب إحدهما- وهي رواية أبي مخنف- إلى أن الحجاج ولى المهلب سجستان مع خراسان، فقال له المهلب: **(ألا أدلك على رجل هو أعلم مني بسجستان وقد كان ولي كابل وزابل وجبى خراجهم وقاتلهم وصالحهم؟)** قال الحجاج له: **(بلى فمن هو؟)** قال: **(عبيد الله بن أبي بكرة،)** فأجابه الحجاج إلى ما قال، وبعث إلى سجستان ابن أبي بكرة.

وهذه الرواية - على قوة سندها -بعيدة الاحتمال إذ لا يعقل أن يتخلى المهلب طواعية - ويرجو الحجاج أن يخليه عن ولاية كان يستطيع أن يديرها مع الأخرى ولو استعان في ذلك بأحد أولاده أو خلصائه إذا كانت إدارتها متعبة له. على أنه من المستبعد على الحجاج أن يسند إدارة هاتين الولايتين بعينهما إلى عامل واحد من عماله مهما امتازت خدماته، ولا سيَّما أنَّه السيِّئ الظن بعماله، وقد كان المهلب خارجاً من حروب

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٨. وأنساب الأشراف. البلاذري. جـ ١١، ص ٣١٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١١٩. وأنساب الأشراف. البلاذري. جـ ١١ ص ٣١٠.

الأزارقة منتصراً، فلربما تحدثه نفسه بالخروج على الحجاج إذا ما رأى نفسه يحكم هاتين الولايتين الكبيرتين، فكان الحجاج من خيرة الناس الذين يأخذون للأمر أهبته قبل وقوعه.

ولكن ترجح الرواية الثانية للطبري التي تذهب إلى أن الحجاج ولى المهلب سجستان وابن أبي بكرة خراسان إلا أن كره المهلب سجستان، حمله على البوح إلى رئيس شرطة الحجاج - عبد الرحمن بن عبيد- عما في نفسه حين قال: (**أنا أعرف بخراسان من ابن أبي بكرة، وابن أبي بكرة سجستان مني، فكلم الأمير يحولني إلى خراسان، ويحوله إلى سجستان، وكلم رئيس الديوان يعينني**). فدخلا على الحجاج ونالا منه ما أراد المهلب، فكانت له خراسان غير أن الحجاج أخذه بمليون من الدراهم كانت متأخرة [1]عليه من خراج الأهواز أيام أن كان عاملاً عليها [2].فأرسل المهلب ابنه حبيباً إلى خراسان قبله، وقد أعطاه الحجاج عشرة آلاف درهم وبغلة خضراء قوية، واستمر عشرة أشهر قبل أن يصل والده إليه، ثم ذهب المهلب إلى ولايته في سنة تسع وسبعين للهجرة.[3]

سار ابن أبي بكرة إلى ولايته؛ ليقوم سنة تسع وسبعين بحرب ضد ملك الترك زنبيل[4] بأمر من الحجاج، لمنعه الإتاوة المقررة عليه من ابن أبي بكرة. فخرج ابن أبي بكرة بمن معه من أهل الكوفة والبصرة، وكان قائد أهل الكوفة شريح بن هانئ الحارثي، وكان هو على أهل البصرة والإمرة له، فسار متوغلاً في بلاد زنبيل، فأصاب من الغنائم شيئاً كثيراً. وبينما هو في طريقه أشار عليه شريح بن هانئ بالرجوع والاكتفاء بما أصابوا وبما أصاب العدو من خوف وفزع، فكان مما قال له: (**إن الله عز وجل قد**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٣٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٣٥. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٣١، ٣٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٣٦. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. جـ ٣، ص ٤٦.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٣٦.

أغنمنا وسلمنا، وأذلّ عدونا، فارجع بنا من مكاننا، ونحن وافرون معافون فإني أتخوف إن كابرت زنبيلاً، وأهل بلده والتمست فتح مدائنهم وقلاعهم في غزوة واحدة أن لا تطيق ذلك) .

فأجابه ابن أبي بكرة: (**اصبر أيها الرجل ودَعْ هذا**). فقال شريح: (**إنه لا يطاع لقصير أمر، وإنك لتعمل في هلاك جندك ونفسك**)[1].

وقد دعا شريح إلى إبداء هذه المشورة لقائده ما كان معروفاً من أمور زنبيل من أنه يترك الجيوش تتوغل في شعاب البلاد، ثم يفاجئهم بعد أن يأخذ عليهم السبل ميعها. تابع ابن بكرة مسيره وهو لا يقاتله أحد ولا يعترضه في طريقه معترض حتى صار بينه وبين كابل ثمانية فراسخ. وعندئذ شعر ابن أبي بكرة ومن معه بحركة تطويق من الترك عليهم، فسقط في أيديهم، وظنوا أنهم قد هلكوا، فأرسل ابن أبي بكرة إلى شريح: (**إني مصالح هؤلاء على مال ويخلون بيني وبين الخروج**)، فقال له شريح: (**إنك لا تصالحهم على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم**). فقال ابن أبي بكرة: (**لو منعنا العطاء ما حيينا كان أهون علينا من هلاكنا**)[2]. وأرسل إليهم فصالحهم على خمسمئة ألف درهم، وقيل سبعمئة ألف وعدة من وجوه من معه وثلاثة من ولده يكونون عنده رهائن وألا يغزوهم ما كان والياً[3].

فقال له شريح: (**اتق الله عز وجل، وقاتل هؤلاء القوم، ولا تشتر الكفر بالإيمان وزيادة خمسمئة ألف وسبعمئة ألف، وتدفع قوماً من المسلمين لمشركين، ثم تشترط عليهم أن لا تقاتلهم ولا تجبيهم خراجاً هرباً من الموت الذي أنت صائر إليه؟ هذا،**

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣١٢ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥ ص١٣٧ . وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٦ . وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣١٢. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، ص ٩٥، ٩٦ .

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣١٣. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٦ .

وأنت لا تدري ما يكون من سخط الحجاج)[1]. وبعد أن نصح شريح هذه النصيحة، وظنّ نفسه على الموت متعرضاً للشهادة التي يطلبها من زمن بعيد[2]. ولما رأى ابن أبي بكرة أن شريحاً سيقاتل ما من ذلك بد، أرسل إلى زنبيل يقول له: **(إني على صلحك وما فارقتك عليه، وهذا رجل من أصحابي قد عصاني ولست أنصره)**.

وخرج شريح بجماعة معه وصار يرتجز ويقول:

أصبحت ذا بث أقاسي الكِبَرا
قد عِشْتُ بَيْنَ المشركينَ أَعْصُرا
ثمَّتَ أدركتُ النَّبيَّ المُنْذِرا
وبعدَه صِدّيقَه وعُمرا
ويوم مهران ويوم تُسْتُرا
والجمع في صفّينهم والنهرا
ويا جميراتٍ مع المُشَقّرا
هيهات ما أطوله هذا عمراً![3]

وقاتل حتى قتل ومعه جماعة من أهل المصرين ومن أهل الشام جماعة.[4]

وخرج ابن أبي بكرة من بلاد زنبيل سالكاً مفازة بست، فهلك كثير من الناس جوعاً وعطشاً[5]، فلم يصلوا إلى (بست) إلا وقد وصل عددهم خمسة آلاف، وكانوا يبلغون

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣١٣ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق جـ١١، ص ٣١٣. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٣، ٧٢. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٦ .

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٦. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٧٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٧٤. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٧ .

(٥) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٧ .

نحو عشرين ألفاً[1]، وكان الخمسة آلاف في حال سيئة من الجوع حتى إنه لما استقبلهم المسلمون بالطعام بعد خروجهم من أرض العدو صاروا يلتهمونه بشراهة، فإذا ما انتهى أحدهم من الأكل مات.

ولما رأى المسلمون ذلك امتنعوا عن إطعامهم الطعام، واكتفوا بإعطائهم قليلاً من السمن حتى لانت أمعاؤهم، وقد مات ابن أبي بكرة كمداً وحسرة على ما أصاب المسلمين، وقيل: إنه اشتكى أذنه، فمات[2]، واستخلف على الناس ابنه أبا بردعة.

وبلغ الخبر الحجاج، فهاله الأمر، وكتب إلى المهلب يطلب إليه أن يرسل إلى سجستان من قبله رجلاً، فبعث وكيع بن بكر، فقدم على أبي بردعة، فأهدى له ثلاثمئة ألف درهم وهدايا أخرى، وأقام أبو بردعة بسجستان حتى قدم عبد الرحمن بن الأشعث فولاه كرمان.[3]

وفي الوقت نفسه كتب الحجاج إلى عبد الملك يقول له: (**أما بعد فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا قليل، وقد أجترأ العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام، فدخلوا بلادهم، وغلبوا على حصونهم وقصورهم.**

وقد أردت أن أوجه إليهم جيشاً كثيفاً من أهل المصرين، فأحببت أن أستطلع رأي أمير المؤمنين في ذلك، فإن رأى لي بعثة ذلك الجند أمضيته وإن لم يرد ذلك فإن أمير المؤمنين أولى بجنده مع أني أتخوف إن لم يأت زنبيل ومن معه من المشركين جند كثيف يستولوا على ذلك الفرج كله)[4].

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٨. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٧٤.

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص. ٤٠٨.

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣١٧.

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٨. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص١٣٨.

فرد عليه الخليفة بالموافقة قائلاً: (**أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان، وأولئك قوم كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله ثوابهم؛ وأما ما أردت أن يأتيك رأيي فيه من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك الفرج الذي أصيب فيه المسلمون أو كفها فإن رأيي في ذلك أن تمضي رأيك راشداً موفقاً**)[1]. وعلى ذلك أعد الحجاج جيشاً عظيماً لمحاربة زنبيل، بلغ عدده أربعين ألفاً [2]، عشرون من أهل الكوفة؛ ومثلهم من أهل البصرة، واختار أهل الغنى والشجاعة وأخذهم بالخيول الرائعة والسلاح الكامل، وأنفق على هذا الجيش مليونين من الدراهم سوى أعطياتهم التي أخذوها كاملة [3]؛ ولما تكامل الجيش- الذي سمي بجيش الطواويس لحسن هيئته - بعث الحجاج عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ثمانين للهجرة [4]،فسار إلى سجستان [5]، ووافاه بها أخواه القاسم بن محمد والصباح بن محمد بمن معها من الجند، وقد كانا بطبرستان، فكتب الحجاج إليهما بوجوب الذهاب إلى سجستان، وأمده الحجاج بجند ثالث عليه إسحاق بن محمد[6].

ولمَّا دخل ابن الأشعث سجستان قام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (**أيها الناس! إن الأمير الحجاج ولاّني ثغركم، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم، وأباد خياركم، فإياكم أن يتخلف منكم رجل، فيحل بنفسه العقوبة، اخرجوا**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٣٩. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٠. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٣٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ١٤١.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٦.

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق.جـ٣، ص٤٦.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٢.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٦.

(٦) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ١١، ص٣٢٤.

إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس!)[1]. فعسكر الناس كلهم في معسكرهم، ووضعت الأسواق لهم، فاشترى كل ما احتاج إليه.

ولَمَّا بلغ زنبيلاً الأمر كتب إلى ابن الأشعث معتذراً من مصاب المسلمين، ويخبره أنه كان لذلك كارهاً، وأن المسلمين هُمُ الذين ألجأوه، يسأله الصلح ويعرض عليه قبول الخراج[2]؛ وأرسل إليه الرهائن التي كانت بيده فلم يقبل منه عبد الرحمن الصلح، وأمر الجيش بأن يسير للقتال، وجعل على مقدمته القاسم بن محمد الذي أمر بالهجوم على زنبيل الذي تحول من مكانه بناءً على نصيحة عبيد بن أبي سبيع المقيم بسجستان؛ قال فيها: **(قد جاءك أغدر العرب وأشدهم أُبَّهَةً وكِبْراً)**.

وعند وصول الجيش لم يجد إلا عجائز وشيوخاً[3]؛ وأعد زنبيل العدة للغدر بالمسلمين، فأخذ يدع الأرض لابن الأشعث رستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً طمعاً في أن ينال من هذا الجيش ما نال من غيره؛ إلا أن حذر ابن الأشعث جعله يقيم عمالاً له، ويضع معهم حامية من الجند في البلاد المفتوحة لتحميها؛ ووضع البُرُد فيما بين كل بلد وبلد حتى يضمن ارتباطاته واتصالاته، ووضع الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف؛ وما زال ابن الأشعث سائراً على هذه الخطة حتى وجد أنه قد حاز أرضاً عظيمة من أرض زنبيل وغنم أموالاً جزيلة، فحبس الناس عن التوغل حتى ترتاح عساكره وتتعود طبيعة البلاد وتتقوَّى بما فيها من الحاصلات؛ ليعود إلى الحرب في العام المقبل فينتقص أرض الترك شيئاً فشيئاً ثم يستريح، وهكذا في كل عام فترة حرب وفترة راحة واستجمام حتى استولى على جزء عظيم منها، وتوالى الأمر على هذا الحال لعدم غزو البلاد دون اللجوء إلى الراحة. وتنفيذاً لهذه السياسة رتب العمال في

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤١. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. ج٥، ص١٤١. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٩.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٩.

المقاطعات، فأنزل أخاه القاسم (الرخج)، ونزل هو بنفسه (بست) [1]، وكتب إلى الحجاج يخبره بما فتح الله عليه من البلاد وبما صنع الله للمسلمين.

ثورة ابن الأشعث

تابع الحجاج أخبار الفتوح باهتمام؛ وكان دائم التواصل، يكتب الخطاب إلى ابن الأشعث ثم لا يلبث أن يردفه بثانٍ ثم بثالث، إذ ألزمه في الخطاب الأول أن يعدل عما رآه من راحة الجند، ويتهمه بأنه قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً، وأنه لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين، وأن رأيه الذي رآه رأي مكيدة لم يحمله عليه إلا ضعفه والتياث رأيه، ويأمره بالوغول في أرض العدو متابعاً القتال إلى النهاية [2]. ثم يعود الحجاج فيعدل عن هذا الرأي في خطابه الثاني، فيقول لعبد الرحمن: **مر من قبلك من المسلمين، فليحرثوا وليقيموا، فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم** [3].ثم لا يلبث الحجاج أن يعود إلى قراره الأول بصورة أشد مما كان، فيأمر ابن الأشعث بالسير للقتال، ويهدده بالعزل وتولية إسحاق بن محمد قيادة الجيش إن لم يفعل [4].

ومن المرجح أن الحجاج حين انتهى إليه كتاب ابن الأشعث أحزنه أن يرى حملة مجهزة ذلك التجهيز مكونة من خيرة المجاهدين المسلمين ينتهي أمرها بأن لا تفتح من أرض العدو إلا قدراً يسيراً، ثم يستحب قائدها الراحة والدعة، فكتب لابن الأشعث ما كتب تحت تأثير هذه العاطفة، ولم يلبث الحجاج أن رأى أنه يواجه رجلاً لا يستهان به

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٢٣٢ . الرخج وبست بلدتان بنواحي كابل.

(٢) وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٩. تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق جـ٥، ص ١٤٦.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٦. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. جـ ٣، ص٤٧.

وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص١٢٤ .

وتحت إمرته جند لا يستهان بهم، وهم بعيدون عن مقره ولا يدري مدى تأثير ابن الأشعث فيهم، فرأى أن يقره على رأيه الذي رآه من إعطاء الجند فترة للراحة والاستجمام، وبذلك كتب الخطاب الثاني.

ولم تمض فترة طويلة حتى رأى الحجاج أنه قد تورط في كتابه الثاني، وأنه قد يترتب عليه من النتائج ما لا يرضاه، فبالغ في تهديد ابن الأشعث، فهدده بالعزل وتولية إسحاق قيادة الجيش إن لم يطع الأمر ويخرج لقتال زنبيل.وتأييداً لهذا التهديد بعث الحجاج إسحاق بن محمد الأشعث أخا عبد الرحمن في جند ثالث. أغضب ذلك عبد الرحمن وقال: (**يكتب إليّ ابن أبي رغال بمثل هذا ويرميني بالجبن؟ هو والله الجبان وأبوه من قبله**)[1]. وعزم على خلع الحجاج، فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً: (**أيها الناس إني والله لكم ناصح ولصلاحكم محب وفيما يعمكم نفعه ناظر. وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة للحرب منكم فرفضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً وقد كتبت إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي الأرض التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم**)[2]. فثار إليه الناس وقالوا: (**بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع، فإن ابن أبي رغال لا يريد بنا خيراً**)[3].

أثار عبد الرحمن شعور القوم بهذه الكلمات، وفي الوقت نفسه ملك قيادتهم، فصور لهم الحجاج بصورة من يريد هلاكهم، وجعل نفسه تحت إرادتهم، وهو الحريص على

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٢٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٦. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٠.

وعقد الجمان. العيني جـ١١، ص٣١٧. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ٥ ص١٢٤.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٠.

أرواحهم، ولقد قال عبد الرحمن ما قال وهو يعرف بغضهم لهذه الحرب الشاقة في البلاد البعيدة وكرههم للحجاج الذي كان دائماً لا يكاد ينتهي من حرب حتى يبدأ حرباً جديدة والويل لمن يتخلف. ولما رأى عبد الرحمن ذلك ظهرت نواياه واضحة جلية عندما أراد ألاَّ يخرج عن طاعته أحد، فافتعل كتاباً على الحجاج في تولية قوم وعزل آخرين. أما الألوية الجديدة فقد عقدها لمن وثق به، وبذلك أصاب هدفين: شكك الناس في الحجاج، ونفر أصحابه والمخلصين له منه، وكان هؤلاء الذين عزلوا وجوهاً وأشرافاً [1]. اختار أصحابه للمناصب؛ وبذلك أشعل ابن الأشعث نار الثورة، وقام الخطباء يؤججون نارها، فقام عامر ابن وائلة الكناني فقال: (**أما بعد: فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك، إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم في بلاد كثيرة اللغوب، واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد، وحاز الأموال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم، اخلعوا عدو الله فإني أشهدكم أني أول خالع**). فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا، قد خلعنا عدو الله.

وقام بعده عبد المؤمن بن شبث بن ربعي التميمي - وكان على شرطة ابن الأشعث- فقال: (**عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود** [2]، **فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث. ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى أو**

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١١. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٦.

وعيون التواريخ. مصدر سابق. جـ ٥ ص١٢٣. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٣٥.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٢٥ تاريخ الأمم والملوك. الطبري مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٧.

يموت أكثركم. بايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم (الحجاج) فانفوه عن بلادكم)[1].

فقام الناس إلى عبد الرحمن يبايعونه، فيقول لهم **(تبايعون على خلع عدو الله الحجاج وعلى نصرتي وعلى جهاد عدو الله وعدوي معي حتى ينفيه الله عز وجل من أرض العراق)**. فب الناس على ذلك ولم يذكروا خلع عبد الملك [2]. وبذلك قامت ثورة خطيرة أفزعت عبد الملك بن مروان، وجعلته يرسل إلى خالد بن يزيد، ويعقد مجلس شوراه ليستشيرهم في الأمر.

أصر ابن الأشعث على الخروج على طاعة الحجاج كما تحدثنا بعض المصادر [3]. وليس ما حدث من المكاتبات هو السبب الوحيد في غضب عبد الرحمن وثورته فإن كتب الحجاج إلى عبد الرحمن كانت كما قال ابن شاكر [4] للحمل له على محاربة زنبيل والإيغال في بلاده.

إلا أن ابن الأشعث اتخذها تكأة لإظهار خبايا نفسه، فاستمال بعض العراقيين إليه، واتخذ من كتب الحجاج حجة عليه؛ وبذلك نجح في إشعال فتيل ثورة خطيرة، ونجح في أخذ البيعة لنفسه. وكان أشد الناس حماسة للثورة اليمنيين من أهل الكوفة، فإنهم كانوا ينتظرون قحطانياً يعيد الملك فيهم؛ خرج عبد الرحمن بن الأشائهعث وخلع عبد الملك بإصطخر – من بلاد فارس –ولقب نفسه بناصر المؤمنين. وعزم ابن الأشعث على المسير إلى العراق.

الحرب بين الحجاج وابن الأشعث

إلا أنه قبل أن يسير إلى العراق عقد صلحاً مع زنبيل على أنه إن نجح في حركته هذه،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ١٤٧.

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤١١. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٧. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٤٧.

(٣) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، ص٣٠.

(٤) عيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ٥، ص١٢٤.

فلا خراج على زنبيل أبداً، وإن هزم لجأ هو ومن معه إليه فمنعهم [1].

وكتب إلى المهلب يسأله خلع الحجاج فقال المهلب: **(ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة)**: ثم قال: **(ما أعجب هذا يدعوني إلى الغدر مَنْ بَعْضُ ولدي أَكْبَرُ منه!!)** وقال لرسوله: **(قل له اتق الله في دماء المسلمين!)**. وبعث المهلب بكتابه إلى الحجاج [2]؛ كما كتب الحجاج إليه يشير عليه بالطريقة التي يراها في مقابلة هذه الجموع الزاخرة، فيقول له في كتابه: **(إن أهل العراق قد قبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرهاً في أول مخرجهم، وبهم صبابة إلى نسائهم وأبنائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهلهم، فلا تستقبلهم، وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم، ويتنسموا أولادهم، فترق قلوبهم، ويخلدوا إلى المقام في منازلهم، فيتفرقوا عن ابن الأشعث، ثم واقع من حاربك منهم، فإن الله عز وجل ناصرك عليهم)**[3]. ولما قرأ الحجاج كتابه لم يعمل بمقتضاه، بل اعتقد أن المهلب غير ناصح له، فقال: **(ما لي نظر ولكن لابن عمه نصح)**[4]. كما أنه كتب لابن الأشعث وهو لا يزال بسجستان: **(إنك يا بن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ فالله الله يا بن أخي، انظر إلى نفسك، فلا تهلكها، واتق الله عز وجل في دماء المسلمين، فلا تسفكها، والبيعة فلا تنكثها، والجماعة فلا تفارقها، فإن قلت: أخاف**

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٢٧. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٧. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٣٦ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٢٩. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٢٥ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٧ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ٣٦ .

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٢ . تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٧ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ٣٦. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣١٦.
وسرح العيون. ابن نباتة . مصدر سابق. ص١٢٦.

الناس فالله أحق أن تخافه والسلام)[١]. لم يأبه ابن الأشعث للخطاب، ويبدأ بالزحف نحو العراق، واضعاً على الولايات عمالاً يثق بهم وبإخلاصهم، فأمر على بست هميان بن عدي السدوسي وعلى زارنج عبد الله بن عامر التميمي [٢] وفي أثناء سيره عزل عن كرمان عامل الحجاج، وولاها عمرو بن لقيط العنبري، وولى فارس حريثة بن عمرو التميمي [٣]. وبذلك ضمن خط الرجعة إذا ما هزم، ثم سار وبين يديه الدعاة يدعون له والشعراء ينشدون القصائد منددين بالحجاج وأعماله ومشجعين الجيش.

ولما دخل الناس فارس تشاور القادة في الأمر، وأيقنوا أنه من الأوفق خلع الحجاج وعبد الملك، ولاقت الفكرة قبولاً حسناً عند ابن الأشعث؛ وكان أول من خلع تيجان بن أبجر وقال: (**أيها الناس إني قد خلعت أبا ذبان كخلعي قميصي هذا**). فخلعه الناس إلا القليل منهم، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله، وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين[٤].

وصلت الأخبار للحجاج من أبي بن شقيق بن ثور، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقصة ابن الأشعث، وأرسل بالكتاب هذا الرسول الذي شاهد الحوادث [٥]، وبعث معه كتاباً كان قد ورد على الحجاج من عبد الرحمن الذي تمثل في آخره بهذه الأبيات:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ١٤٧ وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٢. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٣٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ١٤٧. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٣. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ١٤٧. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص١٤٨. أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٣٤. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٨.

(٥) وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٣.

سـائل مجـور جـرم هـل جنيـتُ لهـم	حربـاً تُفَـرّق بـين الجبـيرة الخلـط

وهــل سـموت بجـرّار لـه لَجَـبٌ	جـمّ الصـواهل بـين الجـم والفـرط

وهــل تركـتُ نسـاءَ الحـيِّ ضـاحيةً	يسـتوقدن لهيـب النـار بـالغبط [1]

وتحت هذه الأبيات بيت آخر على غير الروي وهو:

خلع الملوك وسار تَحْتَ لوائِهِ: شَجَرُ القرى وعراعرُ الأقوام [2]

فرد عبد الملك على الحجاج: **(أما بعد فإني أجبت عدو الرحمن بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولعمر الله لقد صدق وخلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله، وخرج من الدين عرياناً، وإني أرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يد أمير المؤمنين وما جوابه عندي في خلعه إلا قول القائل:**

**أَنَـاةً وحِلْـماً وانتظـاراً بهـم غـداً	فـما أنـا بـالواني ولا الفَـزِع الغَمْـرِ [3]**

**أظـنَّ صُرُوفَ الـدَّهْرِ بينـي وبيـنكم	سـتحملُكم منِّـي عـلى مَرْكَـبٍ وَعْـرِ**

**ألمْ تَعْلَمُـوا أَنِّي تُخَـافُ عَزَائمـي	وأَنَّ قَنَـاتي لا تَلِـيْنُ عـلى الـكَسْرِ [4]؟**

فليت شعري أسما عدوُّ الرحمن لدعائم الدين يهدمها، أَمْ رام الخلافة أن ينالها، وأوشك أن يوهن الله شوكته؟

فاستعن بالله واعلمْ أَنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [5].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٨ كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ص١٥٥ . وفتوح البلدان. البلاذري - مصدر سابق. ص٤١٣ . والأغاني. الأصفهاني. جـ ١٩ ص١٨ .

(٢) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٥٥ .

(٣)كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ، ١٥٦ . والأغاني. الأصفهاني . مصدر سابق.جـ ١٩، ص١٨ .

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص٩٧ . والأغاني. الأصفهاني . مصدر سابق. جـ١٩، ص١٨

(٥) الأغاني. الأصفهاني. جـ ١٩، ص١٤٠ . مروج الذهب ومعادن الجوهر. المسعودي. مصدر سابق. جـ٢، ص٩٧ . وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ٢، ص١٥٥ .

أفزع ذلك الحدث عبد الملك بن مروان مع رباطة جأشه، فنزل عن سريره، واستدعى خالد بن يزيد، وأقرأه كتاب الحجاج، فقال يا أمير المؤمنين: (**إن كان هذا الحدث من سجستان فلا تخفه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته**)[1]. يرجع ذلك لوجود عصبيات كثيرة من العرب، والفرس ممن يحاولون إزالة سلطان الأمويين؛ أو لعل خالد بن يزيد- وهو يقول ما قاله لعبد الملك - كانت تطوف بذهنه تلك النبوءة التي كانت شائعة في ذلك العصر، وهي أن أعلاماً سوداء ستخرج من خراسان تقضي على سلطان الأمويين[2].

خرج عبد الملك إلى الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:(**إن أهل العراق قد استطالوا عمري واستعجلوا قدري. اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك!**)[3]. وأخذت جند الشام تقبل تباعاً إلى الحجاج، فكان يرسل في كل يوم المئة والخمسين والعشرة وهكذا.

وأما الحجاج فإنه خرج إلى البصرة، وعزم على لقاء ابن الأشعث، ولم يأخذ برأي المهلب الذي سبق أن أشار عليه ألاَّ يقابله، وأخذ برأي سفيان بن الأبرد الكلبي، فجاوز الحجاج البصرة بأهل الشام حتى نزل تستر[4]. وكانت أخبار ابن الأشعث تأتي الحجاج كل يوم بنزوله ورحيله، فكان الحجاج يكتب إلى عبد الملك بأخبار ابن الأشعث في أي

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٤٩. أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٣٧ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٣٦ .

(٢)كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٥٦ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ٣٦. والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص٢٦٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٩. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٤.
ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. ص؟؟؟

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٥٠. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤١٤.

كورة نزل ومن أي كورة ارتحل، وأي الناس انضم إليه في أثناء مسيره، حتى قيل: إنَّ جيشه بلغ ثلاثة وثلاثين ألفاً من الفرسان ومئة وعشرين ألفا من الرجالة. ولما نزل الحجاج تستر الأهواز قدم بين يديه مقدمة التقت مقدمة عبد الرحمن ابن الأشعث، فدارت بين الفريقين معركة انهزمت فيها مقدمة ابن الأشعث، فطيرت أخبار ذلك إلى الحجاج منبئة بقتل أكثر مقدمة جيش ابن الأشعث.

إلا أن ابن الأشعث أعاد تعبئة جيشه، فجمع الناس ثم أمرهم بالعبور إلى جيش الحجاج، فأقحم الناس خيولهم في دجيل حتى صاروا إلى مقدمة الحجاج، فحمل عليهم أصحاب ابن الأشعث حملة شديدة بعددهم الكبير، وأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم، فهزموا هزيمة منكرة، وقتل منهم عدد كبير، وكان ذلك في يوم الجمعة عشرة من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين للهجرة. وسميت تلك الموقعة بموقعة تستر [1]. وقد قتل ابن الأشعث الأسرى، وكان فيهم رجل من همدان فقال لابن الأشعث **(أنا خالك)** فقال :**(ابدوأ بخالي)** فقدم وقتل [2].

وأتت الهزيمة الحجاج، وهو يخطب الناس في هزيمة مقدمة ابن الأشعث ويقول: (**احمدوا الله عز وجل على هلاك عدوكم! فقال لهم عند ذلك: أيها الناس ارتحلوا إلى البصرة: إلى معسكر ومقاتل وطعام ومادة، فإن هذا المكان الذي نحن به لا يحمل الجند؛)** فرحب الناس بذلك، وقال:(**لله در المهلب أي صاحب حرب هو، لقد أشار علينا بالرأي، ولكنا لم نقبل [3]!!)**

ثم انصرف راجعاً، وجعل سفيان بن الأبرد في مؤخرة الجيش، وكلفه أنْ يهدم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٠. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٤٠. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٨.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٤٠ تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٠ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٠.

القناطر، ويقطع الجسور تعطيلاً لجيش ابن الأشعث عن متابعته [1]. وتبعته خيول ابن الأشعث، فكلما أدركوا منهم شاذاً قتلوه، ومضى الحجاج حتى نزل الزاوية [2] لسبع بقين من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين. ودخل ابن الأشعث وجنده البصرة [3]، فبايعه جميع أهلها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك [4].

موقعة الزاوية:

خندق الحجاج بعد نزوله الزاوية على جيشه كما خندق ابن الأشعث على جنده واستعد الطرفان، فالحجاج كانت تأتيه الأمداد كل يوم من الشام وابن الأشعث ينضم إليه الناس ملبين دعوته. قرر عبد الرحمن معاجلة الحجاج، وعبأ جيشه، وخرج للقتال في أول المحرم من سنة اثنتين وثمانين. ويبقى رحى معركة من أشد المعارك وأعنفها، وصار الشاميون يتلقون ضربات العراقيين حتى كلّوا ونفد صبرهم. وتقهقروا إلى خنادقهم فقاتلوهم عليها، ودخلوا عسكرهم، وانهزمت عامة قريش على أنها كانت تحارب دفاعاً عن عبد الملك، كما انهزمت ثقيف على أنها كانت تنصر الحجاج الذي جثا على ركبتيه، وانتضى نحو شبر من سيفه وقال: (**لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل**)، فأيقن أصحابه عند ذلك أنه لا يريد أن يفر، فرجعوا إليه ونظموا صفوفهم، ووقفوا بجانب أميرهم. وحمل سفيان على ميمنة ابن الأشعث فهزمها، وتبع ذلك انهزام جيش ابن الأشعث كله، فقد اختل نظامه، وقتل منه خلق كثير [5].

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٤٢.

(٢) معجم البلدان. ياقوت الحموي. جـ ٤، ص٣٧١. والزاوية : موضع قرب البصرة

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٥٠. أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٤٢ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ، ص١٥١ والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٨. وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٤٢.

(٥) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص٣٤٥،٣٤٦.

وسار ابن الأشعث بعد الهزيمة إلى الكوفة مستخلفاً عبد الرحمن بن العباس بن الحارث بن عبد المطلب قائلاً له: **(قاتل بالناس، فإن عندهم قتالاً شديداً ولهم نشاط، فإني منصرف إلى الكوفة وممدك بالرجال)**[1].

وهنا يجدر بنا أن نتساءل: هل كان ابن الأشعث صائب الرأي في ترك جيشه وزهرة رجاله منهزمين أمام الحجاج والسفر في قلة إلى الكوفة؟

وهنا يروي الهيثم بن عدي أن عبد الرحمن دعا خاصته قبل أن يسير إلى الكوفة وأعلمهم أنه يريد الكوفة [2]، فلم يستشر أصحابه، بل وضعهم أمام الأمر الواقع، إذ أبلغهم فحسب أنه مسافر إلى الكوفة. إذ انفرد بالتفكير والتدبير في أمر كان من الواجب ألاَّ يحدث إلا برضى واضح من خاصته أولئك الذين سيتركهم من خلفه يسهرون على مصالحه ويحققون أغراضه.

أما حكمة ذهابه إلى الكوفة - على رأيه - فلا تخرج عن أمرين :

أولهما: أن مطر بن ناجية الريحاني وثب بالكوفة، فآلم ابن الأشعث أن يكون قد فتح باباً دخل مطر منه، وأن يكون مطر قد قدر على الوثوب بابن الأشعث، فيكون له معه صوت، فأراد أن يلحقه فيحول بينه وبين إرادته[3].

وثانيهما: أن ابن الأشعث كان يرجو أن يجند الكوفيين نصرة لرأيه، فيعود بهم إلى ميدان القتال علَّه ينتصر على الحجاج.

أما في قصة مطر فكان الأجدر بابن الأشعث أن يهزم الحجاج أولاً، ثم يواجه مطراً بعد ذلك، ولا يترك الميدان الأساس للمعركة، وينصرف بنفسه إلى حل مشكلة فرعية لا تقدم ولا تؤخر في مجريات الحرب مع الحجاج. وأما تجنيده الجند فإن زهرة الجيش

وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٥١، ١٥٢ .

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٤٨ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٥٥ .

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٤٨ .

الكوفي كانت تقاتل في صفوفه منذ زمن بعيد.

ولما قرب ابن الأشعث من الكوفة، وأحس بخروج أهلها لاستقباله أراد أن لا يسوء تقديرهم له ولحركته منذ البداية، فقال لأبي الزبير الهمداني - وكان جريحاً -: (**إن رأيت أن تعدل عن الطريق، فلا يرى الناس جراحتك فافعل فإني لا أحب أن يستقبلهم الجرحى!**) وكان أن عدل أبو الزبير عن الطريق الذي سلكه ابن الأشعث إلى المدينة [1]. ولَمَّا خرج الناس لاستقباله صار أصحابه يقولون: (**إن الله أخزى الحجاج وفَرَّق جمعه**)[2].

وكان لهذه المقالة أثر فعال في نفوس أهل الكوفة، إذ مال إليه الناس من كل مكان، وفي مقدمتهم همدان أخوال ابن الأشعث، وتفرق الناس عن ابن ناجية [3]، ثم أقبل حتى نزل عند دار فرات بن معاوية وقال: (**والله لا أبرح ولا أدخل منزلي حتى أستدرك مطراً**)[4].

عبد الرحمن بن عباس والحجاج:

واصل ابن عباس قتال الحجاج - بعد مسير ابن الأشعث إلى الكوفة - ثلاثة أيام[5] كما في بعض الروايات أو خمسة [6]كما في بعضها الآخر. وفي آخر ليلة من هذه الليالي - التي سميت بليلة الهرير لشدة القتال فيها بين الفريقين إذ كان الحجاج يريد أن يفتح

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٣٥٥، ٣٥٦.
وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٥٥ .
(٢)أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٥٦ .
(٣)أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ١١، ٣٥٦. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٥٥. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٨٤.
(٤) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٥٦ .
(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٥ .
(٦) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٣٥٥،٣٤٩ .

الطريق إلى البصرة ليدخلها وأهل البصرة يمنعونه - لجأ الحجاج إلى وسيلة فرق بها جمعهم، وشتت شملهم، فرفع راية الأمان، وأمر مناديه أن ينادي أصحاب ابن الأشعث قائلاً: (**ثكلتكم أمهاتكم، علام تقاتلون وقد ترك صاحبكم القتال ومضى**). فدخل عدد كبير في أمانه، ولبّى نداءه، وأمر جيشه ألاّ يتبع المنهزمين[1]، وبذلك هزم ابن عباس وسار هو ومن معه إلى الكوفة حيث لحقوا بابن الأشعث ودخل الحجاج البصرة[2]. وطلب إلى جنده أن لا يدخلوا المدينة حتى لا تنتهك الحرمات، ونزل هو دار المهلب بن أبي صفرة، فرأى عندها جماعة من النسوة فقال: (**إن هؤلاء النسوة لجأن إلي، وخشين أن يدخل عليهن، فليرجعن فنحن أغير عليهن من أزواجهن**).[3]

وخطب في جنده قائلاً: (**إن الله عز وجل لم ينصركم يا أهل الشام على عدوكم؛ لأنكم أكثر عدداً، وأظهر قوة لقد كانوا أثرى منكم وأقوى وهم في بلادهم ومادتهم تأتيهم من مصرهم وبيوتهم، فهم يستندون إلى ذلك ويعتصمون به، ولكنكم كنتم أهل الطاعة، وكانوا أهل المعصية، فنصركم الله عز وجل بغير حول منكم ولا قوة، فاحمدوا الله عز وجل على نعمه، فلا تبغوا ولا تظلموا، وإياكم أن يبلغني عن رجل منكم دخل بيت امرأة، فلا يكون له عقوبة عندي إلا السيف. أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة، ولا أصبر على الفاحشة!**)[4].

وقد ذكر الطبري[5] في رواية له عن ضمرة بن ربيعة عن الشيباني، ونقل عنه ابن الأثير أن الحجاج قد أمر - يوم الزاوية- منادياً فنادى أن لا أمان لفلان ولا لفلان وسمى رجالاً، فاعتقد الناس أن الجميع آمن ما عدا من سماهم الحجاج، فاجتمع لديه

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٤٩ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٥٨. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٧٠

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١ صص ٣٤٩، ٣٥٠ .

(٤) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٥٠ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٨٢ .

منهم أحد عشر ألفاً فقتلهم. أما البلاذري [1] فيروي لنا قصة إعلان الأمان، ولا يقرر أن الحجاج خدع أحداً بهذا الأمان.

يضاف إلى ذلك أن الحجاج ما زال في حرب ابن الأشعث، ويريد أن يلتف الناس حوله، ومثل هذا يفرقهم عنه، وفوق كل ذلك أن الحجاج قد خطب خطبة أعلن فيها عفوه عنهم.

وهذا نص خطبته - على ما رواها البلاذري - يؤيد لنا أن الحجاج لم يخدع أحداً بأمان: (**إنكم خالفتم وعصيتم وأخللتم بأنفسكم فعفوت عنكم وقد قدرت، وأنا أقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لأقتلن مقاتلتكم ولأضربنكم بأموالكم** [2]).

وبعد أن استقرت للحجاج الأمور بالبصرة ولى عليها ابن أيوب الثقفي، ثم خرج قاصداً الكوفة لإخراج ابن الأشعث منها، فاعترضته جيوش ابن الأشعث تحت إمرة عبد الرحمن بن عباس تجاه القادسية وسايرته حتى نزل دير قرة، ونزلت جيوش ابن الأشعث دير الجماجم.[3]

موقعة دير الجماجم حرب المئة يوم:

اجتمع لعبد الرحمن بن الأشعث في هذا المكان مئة ألف ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم [4]. رأى الحجاج كثرة جيش عبد الرحمن وازدياده بمن يأتي إليه من الثغور؛ فاستغاث بعبد الملك، فأجاب عبد الملك الذي أخذ يرسل إليه الإمدادات

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٣٥٧، ٣٥٨ .

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص ٣٥٨ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٥ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤١ .

ودير الجماجم اسم مكان بين الكوفة والبصرة، سميت كذلك بعد معركة جرت فيه في أوائل القرن السادس للميلاد، بين قبائل إياد والفرس وانتهت بهزيمة الفرس وجمعت رؤوسهم فيها

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٥ .والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤١ .

المتوالية[1]. وبعد أن اكتمل الجيشان خندق كل منهما على عسكره؛ نشبت معركة دير الجماجم في أوَّل ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين للهجرة، ودام القتال مدة طويلة قتل فيها خلق كثير.

وقد أثارت تلك الحروب الحالة في مركز الخلافة (دمشق)، فأراد رؤوس قريش وأهل الشام أن يضعوا حداً لهذه الدماء، فذهبوا إلى الخليفة وقالوا له: (**إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم، نزعناه عنهم فإن خلعه أيسر من حربهم، وتحقن بذلك الدماء**).[2]

وحقناً لدماء المسلمين وافقهم عبد الملك رأيهم وأرسل إلى العراق رسولين هما ابنه عبد الله وأخوه محمد بن مروان ومعهما جند كثيف، وقال لهما اعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وإجراء الأعطيات عليهم مثل أهل الشام، مع ضمان سلامة عبد الرحمن في أي بلد شاء كان والياً عليه ما دام حياً وعبد الملك بن مروان خليفة.

فإن استجاب أهل العراق إلى ذلك عزلتما الحجاج وولي العراق محمد ابن مروان وإن لم يجب أهل العراق ولم يسمعوا لهذا فالحجاج أمير الجماعة وأنتما تسمعان له وتطيعان.[3]

شق الأمر على الحجاج؛ ورأى أنهم إذا أجيبوا تطلعوا إلى ما فوقه وهو خلع عبد الملك، وتاريخهم يشهد بذلك، فكتب إلى الخليفة يقول: (**والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص. فلم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ إن**

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٩٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٦ والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤١.

الحديد بالحديد يفلح. خار الله لك فيما ارتأيت! والسلام)[1].

فلما وصل الكتاب عبد الملك لم يتراجع في تنفيذ الخطة التي وضعها، وأرسل بوجوب تنفيذ رأيه. فاجتمع عبد الله ومحمد والحجاج ونادى عبد الله: يا أهل العراق أنا عبد الله بن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وهو يعرض عليكم كذا وكذا وذكر ما كتب له به أبوه، وقال محمد: وأنا رسول أمير المؤمنين إليكم بذلك[2]. كان هذا الأمر مدعاة للتفكير فأجابوا: (**ننظر في أمرنا، ونرجع العشية.**)

عقد ابن الأشعث مؤتمراً من جميع القوم، وتكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (**أما بعد فقد أعطيتم أمراً انتهازُكم اليومَ إيَّاه فرصةٌ، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة، وأنتم اليوم على النصف، فإن كانوا اعتدوا عليكم بالزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون، فوالله لا زلتم عليهم جُرَآء، ولا زلتم عندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم**).

فأجابه الناس جميعاً بالإباء وقالوا: (**إن الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة. لا، والله لا نقبل!**) وأعادوا خلع عبد الملك ثانية، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس[3].

والناظر إلى موقف ابن الأشعث وإبدائه قبول ما عرضه عبد الملك يستغرب هذا السلوك منه، فابن الأشعث منذ أن كان بفارس طامع في الخلافة وغير قانع بخلع

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٥٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٤١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٧. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٤٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٧. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٤٢.

الحجاج [1]، يضاف إلى ذلك أنه يرى أنه أرفع نسباً من بني مروان، ومِنْ ثَمَّ أولى منهم بالخلافة[2]. فكيف والحالة على ما نرى يقف ابن الأشعث فيدعو علناً لقبول ما عرضه عبد الملك مع أن ذلك العرض فيه بقاء لعبد الملك في كرسي الخلافة؟ ومِنْ ثَمَّ فيه ضياع لآمال ابن الأشعث فيها؟

أكان الأشعث يعتقد أن أهل العراق لن يرضوا بما يعرضه عبد الملك، فأراد أن يبعد عن نفسه شبهة الأنانية؟ وأن لا يعرض نفسه لتبعة رفض ما عرضه عبد الملك فيما لو استمرت الحرب بينهما وهزم جيش العراق؟ إذا صح أحد الأمرين أو كلاهما كان ابن الأشعث بعيد النظر يعرف كيف يستغل عواطف الجماهير في الوقت المناسب.

وهناك احتمال ثالث هو أن يكون ابن الأشعث قد قال ما قال عن نية صادقة.

وفي تقديرنا أنه عندئذ يكون ابن الأشعث قد قنع بما أصابه أهل العراق من هذه الحرب وهو رفع أعطياتهم إلى مستوى أعطيات أهل الشام، ونزع ذلك الوالي القاسي، فيكون له بذلك على أهل العراق يد، وتكون له عند الخليفة منزلة، ربما كانت أجدى في نظره من حرب لا تعرف عاقبتها.

بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان ما أجمع عليه أهل العراق، فقالا للحجاج: (**شأنك بعسكرك وجندك، فاعمل برأيك، فإنما أمرنا أن نسمع لك ونطيع،**) فقال الحجاج لهما: (**قد قلت لكما إنه لا يراد بهذا الأمر غيركما (يقصد آل مروان)، وإنما أنا أقاتل عن سلطانكما وإنما سلطاني سلطانكما**)[3].

وخرج للقتال ودارت رحاه وصاروا يتقاتلون كل يوم وتدور المعارك، إلا أنها لم تك معارك فاصلة، فهذا يغلب مرة، وهذا أخرى، فيقرب خندقه[4]؛ والحجاج في هذه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٧.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٥٨ والبداية والنهاية. ابن كثير مصدر سابق. جـ ٩، ص ٨٢.

الأثناء يتمثل بهذه الأبيات - وهي لسويد بن أبي كاهل اليشكريّ -:

كيـــفَ يرجـــونَ ســـقاطي بعـــدَما جَلَّـــلَ الـــرَّأْسَ مشـــيبُ وصَـــلَعْ
رُبَّ مَـــنْ أَنْضَـــجْتُ غَيْظـــاً قَلْبَـــهُ قـــد تمنَّـــى لِيَ مَوْتـــاً لم يُطَـــعْ
يَـــــرَاني كالشَّـــــجا في حَلْقِـــــه عَسِراً مَخْرَجُــــهُ مــــا يُنْتَـــزَعْ
مُزْبِـــدٌ يخطــــر مــــا لم يَــــرَني فـــإذا أســـمعْتُه صَـــوْتي انقمـــعْ[1]

ويبرِّئ نفسه من التبعة ومن هذه الدماء، وأنه مظلوم وليس بظالم فيقول:

وكنـــتُ إذا قـــومٌ غَـــزَوْني غَـــزَوْتُهم فهَـــلْ أنـــا في ذا يـــا لهمـــذان ظَـــالِمُ؟!
مَتَـى تَجْمَـعِ القَلْـبَ الـذَّكِيَّ وصَـارِماً وأَنْفـــاً حَمِيّـــاً تجتنبْـــك المَظَـــالمُ[2]

استمر الحال على ذلك مدةً طويلةً وطال الأمر، حتى قيل: إنه وقعت بضع وثمانون وقعة والحجاج صابر لا يتزحزح عن مكانه على كثرة تعداد العدو ووفرة موارده التي كانت تأتيه بكثرة من الكوفة وسوادها. بينما كان جيش الحجاج في ضيق من العيش لقلة موارده لبعده عن مراكز تموينه، فارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً، وفقدت بعض الأصناف مثل اللحم فلم توجد بالكلية[3]. طال القتال ورأى الحجاج أن حالة التموين تسير من سيِّئ إلى أسوأ، ففكر في حيلة بها يتمكن من إنهاء هذه الحروب، فهداه تفكيره إلى أن يحمل على كتيبة القرّاء من جيش ابن الأشعث حملة قوية فيهزمها؛ وذلك لأن الناس كانوا يتبعونهم وهم الذين كانوا يحرضونهم على القتال وهم فوق ذلك مثل الجبال الراسية، فكل الكتائب تتراجع إلى الوراء ما عدا كتيبتهم مهما اشتدت الحملة

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤ ، ص ٧٠. والإمامة والسياسة. ابن قتيبة الدينوري. جـ ٢، ص ٣٧ .

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٧٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤٢.

عليها بينما هم إذا حملوا تكون حملتهم بجد واجتهاد فتهزم ما أمامها[1]. فعبأ لها ثلاث كتائب، وأعدها إعداداً تاماً تحت قيادة الجراح بن عبد الله الحكمي، فتقدمت هذه الكتائب إل كتيبة القرّاء، وحملت كل كتيبة من هذه الكتائب الثلاث مرة، فلم يبرح القراء مكانهم وصبروا، ثم قال زعيم القراء: (**احملوا حملة صادقة لا تردوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم!**). فصدق القراء الحملة وأزالوا الكتائب الثلاث عن محلها وفرقوها فرقاً، ولكن فرقة من هذه الفرق قامت بحركة التفاف تمكنت بها من قتل قائدهم جبلة بن زحر وقطع رأسه والإتيان به إلى الحجاج[2]. فسر الحجاج وأصحابه بذلك وبشرهم بالنصر فقال لهم: (**يا أهل الشام أبشروا هذا أول الفتح لا والله ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن وهذا من عظمائهم!**)[3].

فهرج أهل الشام وصاروا ينادون: (**يا أعداء الله قد هلكتم وقد قتل طاغوتكم!**).

وبينما أهل الشام في فرح لمقتل جبلة كان أهل العراق في حزن؛ وظهرت الكآبة في وجوه القراء، ودب فيهم الفشل، فلا يقدر الواحد منهم على الكلام.

حاول أبو البختري الطائي - أحد القراء - أن يجدد فيهم الروح المعنوية، ولكن مقالته لم تؤثر فيهم. ثم قدم عليهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني من الري يحارب في صفوفهم، فتشجعوا وقالوا: (**إنه يقوم مقام جبلة**).

فساء ذلك أبو البختري وقال: (**قُبّحتم: إن قتل رجل واحد منكم ظننتم أن قد أحيط بكم؟! فإن قتل الآن ابن مصقلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة وقلتم لم يبق أحد يقاتل**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٦٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٤٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٤. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٥٨، ١٦٥، ١٦٣.

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. جـ ٣، مصدر سابق. ص ٤٩.

معه؟ ما أخلقكم أن يخلف رجاؤها فيكم).[1]

استمر القتال بين الفريقين بعد ذلك أياماً - بالمبارزة - حتى كان يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة لسنة ثلاث وثمانين للهجرة[2]؛ وقد مل الناس المبارزة، فنشبت معركة قاتل فيها أهل العراق قتالاً شديداً حتى أمنوا الهزيمة، وبينما هم في أمنهم إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي - صاحب ميمنة الحجاج - إلى الأبرد بن قرة - صاحب ميسرة ابن الأشعث - وقاتله قتالاً يسيراً انهزم بعده ابن قرة، وولى الدبر، فظن الناس أنه قد صولح فتقوضت الصفوف وتفرق الناس. رأى ابن الأشعث ذلك، فصار ينادي إلى عباد الله أنا ابن محمد. فأتاه نفر يسير، فحمل عليهم أهل الشام حملة المنتصر، فدخلوا معسكرهم وكبروا فيه؛ وفي الوقت نفسه نصح له بعض خُلصائه بأن ينصرف حتى لا يؤسر فانصرف هو ومن معه.

وبذلك انتهت معركة دير الجماجم التي استمرت مئة يوم بدأت في أول ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين، وانتهت يوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة نفسها.

ترك الحجاج جند ابن الأشعث يتفرق، وأمر جنده أن يتركوهم وبعث منادياً ينادي **(من رجع فهو آمن ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن!)**[3].

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل كما رجع عبد الله بن عبد الملك إلى الشام وتركا العراق للحجاج يتصرف فيها كما يرى بعد أن هزم ابن الأشعث، ورجع الحجاج بجنده إلى الكوفة[4].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٤ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٤.
وشذرات الذهب. ابن عماد الحنبلي. مصدر سابق. جـ١، ص ٩٣ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٦٥، ١٦٩. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤٩. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٩ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٩.=

وتروي بعض المصادر(١) أن الحجاج عزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة، بينما يروي بعضهم الآخر(٢) أنه أنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة؛ ويعدون ذلك من المساوئ التي لا تغتفر، ويشنع بذلك ابن الأثير بقوله: وهو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم وهو إلى الآن ولا سيَّما في بلاد العجم، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

بينما تتفق رواية الطبري مع ما عليه الحجاج من الصفات. ودليلنا على ذلك ما أورده البلاذري بمناسبة دخول الحجاج البصرة بعد هزيمة أهل العراق في الزاوية من نهي الجند عن نزولهم على أهل البصرة.

رجع الحجاج إلى الكوفة بعد دير الجماجم، وخطب في أهل الكوفة خطبة بين لهم فيها سوء مذهبهم وعدم استقرارهم على حال، وأثنى على أهل الشام لطاعتهم فقال: **(يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً أخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومأمراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم واقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لُوَّذاً وتنهزمون سراعاً. ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها. لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه حين عضَّكم السلاح وقصعتم الرماح. ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم؟! بها كانت المعارك والملاحم.**

= والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٩.

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٧٠ .

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٩ .

بضَرْبٍ يُزيـــلُ الهَـــامَ عَـــنْ مَقِيْلِـــهِ ويُــــذْهِلُ الخَلِيْـــلَ عَـــنْ خَلِيْلِـــهِ

يا أهل العراق! الكفرات بعد الفجرات والغدرة بعد الختَرات والنزوة بعد النزوات. إن بعثتم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة، هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحبتموه؟

يا أهل العراق! هل شغب شاغبٌ أو نعب ناعبٌ أو زفر زافرٌ إلا كنتم أنصارَه وأتباعه؟

يا أهل العراق! ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام يا أهل الشام: إنما أنا كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب.

يا أهل الشام! أنتم الجُنّة والرداء والعدة والحذاء، وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بني جعدة:

وإن تـــــداعيكم حظّهـــــم ولم ترزقـــــوه ولم نكـــــذب

كقـــول اليهـــود قتلنـــا المســـيح ولم يقتلـــــوه ولم يُصْـــلَبِ)[1]

ثم بدأ بأخذ البيعة منهم للخليفة عبد الملك بعد أن نكثوها بخروجهم مع ابن الأشعث، وفي أخذه للبيعة أجلس بجانبه أحد خواصه، وهو مصقلة بن كرب العبدي، وكان خطيباً فضلاً عن أنه كان أول من ناصر الحجاج في ثورة ابن الجارود وقال له: (أَشِمْ كُلَّ امرىءٍ بما فيه ممن كنا أحسنا إليه، فاشتمه بقلة شكره ولؤم عهده، ومن علمت فيه عيباً فِعِبْهُ بما فيه، وصغر إليه نفسه!)[2].

وكان لا يبايع أحداً إلا إذا قال له أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال نعم بايعه

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٩٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٩ .

وإلا قتله.[1]

ويذهب صاحب الإمامة والسياسة إلى أن الحجاج حين رأى كثرة الأسرى أراد أن يعرف الخوارج - الفرقة الخاصة - من غيرهم لأن الخارجي لا يشهد على نفسه بالكفر، وكانت بقيتهم لا تزال باقية، فلجأ إلى طريقة الإشهاد على النفس بالكفر، فمن شهد لم يكن خارجياً، ومن لم يشهد فهو خارجي يستحق القتل من الناحيتين الدينية والسياسية. ولم يكن الحجاج بجاهل لتلك القواعد، ففي مناظرته لسعيد بن جبير التي رواها لنا صاحب الإمامة والسياسة يقول: (**أنا أقتل من شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها**). ويقول في مقام آخر: (**إنهم ظالمون حين خرجوا من جمهور المسلمين**)[2].

وقد ظهر ذلك على لسان بعض شعراء ابن الأشعث، فوصف الحجاج وأصحابه بأنهم أهل الحق ورمى خصومهم بالفسق، وقرر أن قتلاهم قتلى ضلال وفتنة وأنهم قد خرجوا عن الدين[3].

وهنا لايمكن توجيه اللوم للحجاج وحده، على من قتل عقب موقعة دير الجماجم، فقد كان معظمهم ممن لهم تاريخ في عدائهم للدولة الأموية، ككميل بن زياد الذي كان من خواص علي بن أبي طالب، وله موقف مشهور من الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وظل على سياسته هذه يناوئ الحجاج ويغلظ إليه حتى مقتله.

ومنهم عمران بن عصام الضبعي الذي أكرمه الحجاج، وقربه لأمير المؤمنين، ولم يدخر وسعاً في مرضاته، فكافأه عمران بالخروج والتمادي في العصيان إلى حد أن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٦٩. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٩. وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٢٦٧.

(٢) الإمامة والسياسة . ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٤٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٧٨.

الحجاج طلب إليه أن يتوب فلم يقبل[1].

وبينما كان الحجاج يقوم بتصفية أعداء الدولة في الكوفة، انقسمت فلول ابن الأشعث على نفسها، فمنهم من دخل في طاعة الحجاج؛ ومنهم من استمر على ولائه لابن الأشعث. فسار محمد بن أبي وقاص بطائفة كبيرة إلى المدائن؛ وسار عبد الرحمن بن أبي سمرة إلى البصرة وأخذها من نائب الحجاج الحكم بن أيوب بن أبي عقيل، ليلحق به ابن الأشعث.

ولَمَّا أَنْ وَطَّدَ الحجاجُ الأَمْنَ في الكوفة سار في إثر فلول ابن الأشعث، فبدأ بالمدائن لقربها من الكوفة. وبينما كان الحجاج في طريقه إليها، خرج محمد بن سعد بن أبي وقاص من المدائن ولحق بزعيمه ابن الأشعث بالبصرة، فحول الحجاج نظره إليها.

موقعة مسكن:[2]

خرج ابن الأشعث إلى مسكن على دجيل، واتبعه أنصاره وأعوانه لمواقعة الحجاج، فاجتمعوا وعَنَّفَ بعضهم بعضاً على الفرار، ووطد كثير منهم العزم على الموت، فخندقوا على أنفسهم، وأحاطوا خنادقهم بالمياه، ورتبوا أن يكون القتال من جهة واحدة. وبوصول الحجاج نشبت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين للهجرة.

واستمرت خمسة عشر يوماً بليله ونهاره قتل خلالها زياد بن غنيم القيني - وكان على مسالح الحجاج - فأضعف قتله أصحاب الحجاج وفترت همتهم، إلا الحجاج بات ليله يستنصرهم للحق ويشجعهم على الثبات، مبيناً أن النصر قريب منهم وأنهم أهل الطاعة وابن الأشعث وأصحابه أهل المعصية وإن عادة الله فيهم حسنة ما صدقوه في موطن قط

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٨. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٥٢.
والأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٦، ص٥٩.

(٢) مسكن: موقع قريب من أدانا على نهر دجيل (دجلة).

إلا أعطاهم الله النصر.

أعاد الحجاج تعبئة جيشه ورتبه وقت السحر، لينشب القتال في الصباح الباكر، ويحمى وطيسه، وبانضمام عبد الملك بن المهلب إلى الحجاج رجحت كفة الحجاج، فكان النصر حليفه؛ وهزم ابن الأشعث بعد أن قتل قائدين من خيرة قواده هما أبو البختري الطائي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى.

وثبت في الموقف بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف وطنوا أنفسهم على الموت بعد أن قال لهم بسطام: (**لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجونا منه فررنا، ولكنا قد علمنا أنه نازل بنا فأين المحيد عنه؟ يا قوم إنكم محقون، فقاتلوا على الحق! والله لو لم تكونوا على الحق لكان موت في عز خيراً من حياة في ذل!**) فقاتلوا قتالاً شديداً كشفوا فيه جيش الحجاج مراراً حتى قال الحجاج: (**علي بالرماة لا يقاتلهم غيرهم!**)، فحضر الرماة، وأحاط بهم الحجاج من كل جانب فقتلوا ولم ينج من الأربعة آلاف إلا القليل. وبذلك انتهت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين[1].

مصير ابن الأشعث: غادر ابن الأشعث بعد انتهاء الموقعة إلى زنبيل - ملك الترك- فسار إلى سجستان، فأرسل الحجاج في أثره ابنه محمداً وعمارة بن تميم اللخمي بجيش - على أن تكون القيادة لعمارة - فأدرك عمارة مؤخرة ابن الأشعث عدة مرات قاتله فيها [2]. وما زالت المطاردة متواصلة حتى وصل ابن الأشعث إلى كرمان، وكان عليها من قبله فأكرمه. ولكن شيخاً من عبد القيس يدعى معقلاً أنّبه على جبنه وخوره وضعف عزيمته [3]. فسار منها مفوّزاً في صحرائها حتى وصل مدينة زارنج، فأغلق عاملها

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص ١٧١،١٧٠.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق جـ ٣، صص ٤٩، ٥٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥،صص ١٧١، ١٧٢.
والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤٧

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥ ص ١٧٢ .

الأبواب في وجهه ووقف عليها ابن الأشعث مدة رجاء افتتاحها، فلم يتمكن فواصل سيره إلى بست، فاستقبله عاملها وأنزله عنده. ثم أراد أن يأمن عند الحجاج ويتقرب إليه، فانتهز فرصة تفرق أصحاب ابن الأشعث عنه، وقبض عليه وأوثقه[1]. فعلم بذلك زنبيل فبعث إلى العامل يهدده ويتوعده فجبن العامل، وطلب الأمان من زنبيل فآمنه، ودفع عبد الرحمن إلى زنبيل، فأخذه وأكرمه، ووفى له بما عاهده عليه، فبقي عنده حتى استدعاه جماعته لمواصلة القتال عند زارنج كما سيأتي[2].

هذا ما كان من أمر ابن الأشعث. وأما جيشه فتختلف الروايات في سيره، فيروي أبو مخنف أنه سار مع ابن الأشعث إلى سجستان جماعة قليلة. وبقي معظم الفل المنهزم من الجنود والرؤوس والقادة الذين ناصبوا الحجاج العداء في المواطن كلها ولم يقبلوا أمانه.

بقي هؤلاء جميعاً تحت قيادة الرحمن بن عباس، وساروا في أثر ابن الأشعث حتى وصلوا إلى سجستان، وانضم إليهم من أهل سجستان خلق كثير، فبلغ عدد الجيش نحو ستين ألفاً، فحصروا عامل مدينة زارنج الذي امتنع على ابن الأشعث- وكتبوا إلى ابن الأشعث يخبرونه بعددهم، ويطلبون إليه الحضور للسير إلى خراسان، فإن بها عشائرهم، فحضر إليهم وهم على حصار-عبد الله بن عامر- عامل زارنج، وما زالوا يشددون الحصار عليه حتى استنزلوه، فأمر عبد الرحمن به فضرب وحبس[3].

وصل إليهم في ذلك الوقت الجيش الشامي بقيادة عمارة اللخمي، فرأوا أن يتركوا له

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٢. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٤٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٣. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق جـ٩ ، ص٤٨ .

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠.

(٣)تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، صص١٧٣، ١٧٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٤٨.

سجستان، ويتوجهوا إلى خراسان، وعرضوا هذا الرأي على ابن الأشعث، فلم يرق في نظره، وقال لهم: (**إن بها يزيد بن المهلب وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعاً، ولن يدع أهل الشام اتباعكم، فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام، وأخاف ألاَّ تنالوا ما تطلبون!**).

فأبوا عليه وقالوا إن خراسان بلاد واسعة نأخذ أي جهة شئنا ومن يتبعنا منهم أكثر ممن يقاتلنا، فنمكث بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك أو نرى رأياً.

فوافق على رأيهم، وساروا إلى خراسان وفي طريقهم إليها - في هرات - خرج عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة في ألفين، وأخذ طريقاً غير طريق ابن الأشعث، فانتهز ابن الأشعث ذلك فرصة ليحل نفسه من تبعاتهم وتورطه معهم في الموقف، فأبان لهم أنه لا يستطيع أن يسير معهم لأنهم لم يصدقوا معه في موطن قط وقد عرضوه للهلاك مراراً حتى إذا صار في مأمن لدى صاحبه زنبيل أتوه بجموعهم، وأغروه باجتماع كلمتهم فقبل العودة.

وها هي ذي بوادر تفرقهم بدأت تظهر. ولذلك سينصرف إلى زنبيل فمن أحب أن يتبعه فليتبعه، ومن أراد الذهاب إلى خراسان فليذهب متمنياً للجميع الخير والتوفيق[1]، فسارت معه طائفة، وتفرقت أخرى، وبقي معظم الجيش مع عبد الرحمن بن عباس، وأصبح هو الزعيم بعد ابن الأشعث، فبايعوه واستمروا في طريقهم إلى خراسان، ووجدوا في طريقهم الرقاد الأزدي - عامل ليزيد بن المهلب - فقتلوه فسار إليهم يزيد بن المهلب[2].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٤. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، صص٤٨، ٤٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٤. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠.

ويروي المدائني رواية تخالف رواية أبي مخنف في:

١. أن ابن سمرة لم يذهب مع ابن عباس إلى سجستان، بل سار بعد هزيمة مسكن مباشرة إلى هرات، وذم ابن الأشعث وعابه بفراره.

٢. أن ابن عباس سار إلى خراسان في عشرين ألفاً.

٣. وأن ابن المهلب أرسل إلى ابن عباس يقول له: (**قد كان لك في غير هذه البلاد متسع عند من هو أقل مني شوكة، فارتحل إلى بلد ليس فيه سلطان، فإني أكره قتالك وإن أردت مالاً أرسلت إليك**). فأعاد ابن عباس الجواب بقوله: (**إنا ما نزلنا لمحاربة أحد ولكنا نريد أن نريح ثم نرحل عنك**).

ثم أقبل على جباية الأموال، وبلغ ذلك يزيد فقال: (**من أراد أن يريح ثم يسير لم يجب الخراج،**) وأرسل أمامه المفضل في جيش، وسار في أثره، وكرر عليه الطلب في أن يخرج وقال له: (**إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وإن أردت زيادة زدناك فاخرج عني، فإني لا أريد قتالك**) فأبى ابن عباس إلا القتال، وأرسل إلى جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه، فأخبر بعضهم يزيد بذلك، فقال يزيد: (**جل الأمر عن العتاب أتغدى بهذا قبل أن يتعشى بي!**)[1].

وفي رأينا أن رواية أبي مخنف هي الراجحة؛ لأنه لا يتصور أن ابن عباس يقتل رجلاً من الأزد ـ هو ما اتفق عليه المصدران- ثم يصبر يزيد على ذلك - على رواية المدائني - وتصور لنا بقية الرواية جبن يزيد وأنه أجبر على القتال .وفوق ذلك لم يذكر لنا شيئاً عن ابن الأشعث هل خرج من سجستان حينما ذهبت إليه فلول جيشه أم لم يخرج؟

حدث بين يزيد بن المهلب وعبد الرحمن بن عباس قتال يسير انهزم بعده أصحاب ابن عباس، وصبرت معه طائفة مدة، ثم انهزموا جميعاً، ولحق ابن عباس بالسند، وأمر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٤ ، ١٧٥ . والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٤٩ .

يزيد أصحابه بالكف عن أتباعهم، ودخل يزيد معسكرهم، فأخذ ما كان فيه، وأسر أسرى كثيراً أرسلهم إلى الحجاج [1].ولما أراد يزيد بن المهلب إرسال الأسرى إلى الحجاج قال له أخوه حبيب: (**بأي وجه تنظر إلى اليمنية وقد أرسلت موسى بن طلحة؟**) فقال له يزيد: (**إنه الحجاج ولا يتعرض له!**). فقال حبيب: (**وطن نفسك على العزل ولا ترسله، فإن له عندنا يداً!**). فقال يزيد: (**وما هي؟**) قال: (**ألزم المهلب في مسجد الجماعة بمئة ألف**)[2]، فأداها طلحة عنه. فأطاعه ولم يرسل عبد الله ابن فضالة؛ لأنه من الأزد وأرسل بقية الأسرى [3]. إلا أن المصادر أوردت أن الحجاج اجتثَّ رؤوس الفتنة بعد أن ثبتت إدانتهم، وهنا لا بد للبحث من تبيان حقيقة الأمر بالرجوع إلى ما ورد من أخبار، عن نفي ما نسب للحجاج أن يكون قد قام بقتل الآلاف من جند الأشعث؛ بل لم يكن منطق الحوادث ولا حالة الحجاج النفسية تسمح بمثل هذا، لذلك عمد الحجاج إلى اجتثاث الفتنة من جذورها، فقتل زعماء الفتنة والمساعدين عليها وأصحاب الرأي فيها.

فقد أجمعت المراجع على أسماء بعينها وروت لكل واحد من هؤلاء قصة بذاتها مع الحجاج ناقشه فيها وعيره بموقفه في صف ابن الأشعث، وذكره بماضيه الذي لا يتناسب مع هذا الخروج [4]. ولو كان الحجاج قد قتل أكثر من هؤلاء لما ترددت المصادر في ذكر أسمائهم جرياً على عادتها من محاولة النيل من الحجاج لكل صغيرة تحدث منه.

على أن اضطراب المصادر في تحديد عدد من قتلهم الحجاج صبراً (الإعدام) وتأرجحهم بين ثلاثة آلاف على قول صاحب البدء والتاريخ و مئة وثلاثين ألفاً على ما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٦. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٥٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٤٩

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥١ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٦.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥١ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٨.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥١.

رواه ابن كثير والعيني[1] أو مئة وعشرين أو مئة وثلاثين على الترديد في رواية رواها الطبري، يفصح لنا عن رغبة الرواة في التشنيع على الحجاج. ومن يدري فلربما أدخلوا في حسابهم هذا جميع من قتلوا مع الحجاج في حرب ابن الأشعث، وهل يستبعد أن يكون هذا العدد شاملاً لكل من فني في العراق بسبب الحجاج وحروبه؟ وإذا صح في الأذهان أن مثل هذا العدد قد فني على أي وجه من الوجوه الثلاثة فهل كان من المعقول أن يسكت عنه مؤرخان عظيمان كابن خلدون وابن الأثير؟ على أن المؤرخين الذين بالغوا في عدد من قتلهم الحجاج رأوا أن يتابعوا الحملة عليه بأن نسبوا إلى عبد الملك كتاباً يأخذفيه على الحجاج إسرافه في الدماء والأموال .

وسنذكر من قتلهم الحجاج من الأسرى الذين أرسلهم إليه يزيد بن المهلب، مما يتبين معه أن الحجاج لم يقتل إلا زعماء الفتنة الذين لم يؤمل فيهم إلا كل شر، وعفا عن الزعماء الذين رجا فيهم الخير وأمل فيهم الطاعة وعدم مفارقة الجماعة. فقتل عمرو بن موسى بن عبيد الله بن معمر وهو صاحب شرطة ابن الأشعث، وقد قال للحجاج إنها كانت فتنة شملت البر والفاجر، فدخلنا فيها، وقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك، وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين، فقال الحجاج: **(أما إنها شملت البر فكذبت، ولكنَّها شملت الفاجر وعوفي منها الأبرار. وأما اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك!)** ثم نحي، ولكنه قتل بعد ذلك.

والهلقام بن نعيم وقد سأله الحجاج عن سبب خروجه فلم يتردد في أن يقول: إنه كان يرجو أن يقضي على الحجاج، فيصبح هو والياً على العراق لا ابن الأشعث.

وعمرو بن قرة الكندي وقد عيره الحجاج بأنه كان يفضي إليه بأنه يرغب عن ابن الأشعث وعن الأشعث قبله، فإذا به يخرج مع عبد الرحمن[2]. ومحمد بن سعد بن أبي

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٥١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٧٧
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠.

وقاص[1]، وقد بين الحجاج سبب قتله إذ قال له قبيل قتله: (**يا ظل الشيطان وأعظم الناس تيهاً وكبراً تأبى بيعة يزيد وتتشبه بالحسين وابن عمر، ثم صرت مؤذناً لابن كناز عبد بني نصر - يقصد عمر بن أبي الصلت**[2]؟ **وعبد الله بن عامر**،) وقد قال للحجاج: (**لا رأت عيناك الجنة إن أقلت بن المهلب بما صنع**) فقال له الحجاج: (**وما صنع**) فقال:

لأنه كاس في إطلاق أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضرا

وقى بقومك وِرْدَ الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا)

فأطرق الحجاج ملياً ووقرت تلك الكلمة في نفسه، ولكنه قال له: (**ما أنت وذاك؟**)[3]

وكان ذلك من الأسباب التي دعت الحجاج إلى عزل آل المهلب وحبسهم فيما بعد.

ويروى أن الحجاج قال لحاجبه: (**إذا دعوتك بسيدهم فأتني بفيروز حصين!**) ثم قال لحاجبه: (**جئني بسيدهم!**)، فأتاه بفيروز، فقال له الحجاج: (**أبا عثمان فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم**). قال: (**فتنة عمت الناس، فكنا فيها**)[4]. قال: (**اكتب لي أموالك!**). قال: (**ثم ماذا؟**) قال: (**اكتبها أولاً!**). قال: (**وأنا آمن على دمي؟**) قال: (**اكتبها ثم انظر!**). قال: (**اكتب يا فلان ألف ألف ألفي ألف!**)وذكر مالاً كثيراً، فقال الحجاج له: (**فأين هذه الأموال؟**) فقال: (**عندي**). قال: (**فأَدِّها!**) قال: (**وأنا آمن على دمي؟**) قال: (**والله لتؤدينَّها ثم لأقتلنك**). قال فيروز: (**والله لا تجمع بين مالي ودمي**،) ثم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٨١. في غير رواية أبي مخنف.
والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق ج٩، ص٤٩.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨١. والإمامة والسياسة. ابن قتيبة. جـ٢، ص٤٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٢.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٠. وكلمة أقلتَ معناها سامحتَ

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨١.

أمر به فنُحّيَ.

ثم أُتِيَ به. فقال له: (**أنت الجاعل على رأس الحجاج مِئة ألف درهم؟**) قال: (**قد فعلت،**) فقال الحجاج: (**لأمْهَدَنّك ثم لأحملنك!**)[1]، وأمر به، فعذِّب، فكان مما عذب به أن كان يشد عليه القصب الفارسي المشقوق، ثم يمر على جسده حتى يخرق، ثم ينضح عليه الخل والملح، ولما أحس فيروز بالموت قال للموكَّل بعذابه: (**إن الناس لا يشكون أني قد قتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدي إليكم أبداً، فأظهروني للناس ليعلموا أني حيّ فيؤدوا المال!**).

فأعلمَ الحجاج بما قاله، فأمر بإخراجه إلى باب المدينة، فصاح في الناس: (**من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا فيروز حصين: إن لي عند أقوام مالاً فمن كان لي عنده شيء فهو له، وهو منه في حل، فلا يؤدينّ أحد منه درهماً، ليبلغ الشاهد الغائب!**)، فأمر الحجاج بقتله فقُتل.[2]

وأعشى همدان وهو الذي كان من جيش ابن الأشعث بمنزلة الداعية، والعامل على رفع الروح المعنوية فيه، فقد سار أمام الجيش ينشد أشعاراً ملهبة للحماسة كلها تقدير لحركة ابن الأشعث وذم للحجاج وعبد الملك[3] فقال له الحجاج ألست القائل لابن الأشعث:

أنت الرئيس ابن الرئيس ... وأنت أعلى الناس كعبا

نُبِّئْتُ أَنَّ بُنَيَّ يوسف خرَّ من زَلِقٍ فتبا

---

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص٦٥٥. والمعارف. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٤٧ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٢. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٥٠. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص٦٥٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص١٤٧، ١٤٨ والأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ٥، ص١٤٥ .

ثم قال: (كلا يا عدو الله، عبد الرحمن هو الذي خرّ من دلو فتبّ وخارّ فانكبّ!) ورفع الحجاج بها صوته، واهتز منكباه، وتغير لونه[1]، قال له الأعشى: (أيها الأمير أنا القائل:

أبـــى الله إلا أنْ يُـــتَمِّمَ نُـــوْرَهُ ... ويُطْــفِ نَـــارَ الفَاسِـــقِيْنَ فـــتَخْمُدا
ويُظْهِـرَ أَهْـلَ الحـقِّ في كـلِّ مـوطنٍ ... ويُعْدِلُ وَقْعُ السَّيْفِ مَنْ كَانَ أَصْيَدا
ويـنـــزل ذلاً بـــالعراق وأَهْلِـــهِ ... كـما تقضـوا العهـد الوثيـق المؤكَّـدا
ومـا نكثـوا مِـنْ بيعـةٍ بَعْـدَ بيعـةٍ ... إِذا ضـمنوها اليـوم خاسـوا بهـا غـدا

إلى أن يقول:

فقَـــتْلاهُمُ قَـــتْلَى ضَـــلالٍ وفتنـــةٍ ... وَحَـــيُّهُمُ أَمْسَـــى ذلـــيلاً مطـــردا
ومـــا زاحـــف الحجَّـــاج إلا رأيتـــه ... مُعانـــاً ملقـــى للفتـــوح معـــوّدا

وإلى أن يقول:

ليهنـــأ أمـــير المـــؤمنين ظهـــوره ... عـــلى أُمَّـــةٍ كـــانوا بغـــاة وحُسَّـــدا
نـــزوا يشـــتكون البَغْـيَ مِـنْ أمـرائِهم ... وكـانوا هُـمُ أبغـى البغـاة وأعنـدا
وجـدنا بنـي مـروان خـيرَ أئمّـةٍ ... وأَفْضَـلَ ذي النـاسِ حلـماً وسُـؤْددا
وخـيرَ قـريشٍ في قـريشٍ أرومـةً ... وأكـــرمَهم إِلا النَّبـــيَّ محمَّـــدا

ثم يعود إلى ذكر أهل العراق:

كـذاك يُضِـلُّ اللهُ مَـنْ كَـانَ قلبُـه ... مَرِيْضـاً ومَـنْ والى النِّفـاقَ وألحـدا
فقـد تركـوا الأهلـينَ والمـالَ خَلْفَهـم ... وبِيضـاً علـيهنَّ الجلابيـبُ خُـرَّدا
ينـــادينهم مســـتعبراتٍ إلـــيهم ... ويـذرفْنَ دمعـاً في الخـدود وإثمـدا
أنكثـاً وعصـياناً وغَـدْراً وذِلَّـةً ... أهـانَ الإلـهُ مَـنْ أَهَـانَ وأَبْعَـدَا

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٥، ص١٥١.

ثم يذكر شُؤم ابن الأشعث وشؤم جده من قبل فيقول:

لقــد شــأم المِصْرَيْــنِ فــرخ محمَّــدٍ بحــقٍّ ومــا لاقــى مِــنَ الطــير أســعدا
كــما شــأم الله النّجــير[1] وأهلَــه بجــدٍّ لــه قــد كــان أشــقَى وأنكــدا)

ولما فرغ من إنشاده قال بعض الحاضرين: (**قد أحسن أيها الأمير فخلّ سبيله!**) فقال الحجاج: (**أتظنون أنه أراد المدح، لا والله ولكن قال هذا تأسفاً لغلبتكم إياهم، وأراد أن يحصّن أصحابه!**). ثم قال: (**أتظن يا عدو الله أنك تخدعني بهذا الشعر**[2]؟ **ليس عن هذا سألناك. أنشدنا قولك بين الأشج وبين قيس باذخ!**)، فأنشده. فلما قال: (**بخٍ بخٍ لوالده وللمولود!**). قال الحجاج: (**والله لا تبخبخ بعدها لأحد أبداً!**) وأمر بضرب عنقه.[3] وكما أن الحجاج قتل هذه الرؤوس فقد عفا عن الذين أمن شرهم وغائلتهم والذين صدقوه القول؛ فقد عفا عن الشعبي - فقيه أهل العراق- وكان من الخارجين مع ابن الأشعث.

وذكر أن الحجاج بعد انتهاء دير الجماجم أمر مناديه أن يقول: (**من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن!**)، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري، فذكره الحجاج يوماً، وسأل عنه، فعلم بلحوقه بالري، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه، فأرسل إليه، فلما قدم على الحجاج لقيه يزيد بن أبي مسلم- حاجب الحجاج- وكان صديقاً للشعبي - فقال الشعبي: (**أَشِرْ عليّ**). فقال يزيد: (**لهفي يا شعبي على العلم الذي بين دفتيك! وليس هذا بيوم شفاعة بُؤْ للأمير بالشرك والنفاق**[4]**واعتذر ما**

---

(١) معجم الأدباء. ياقوت الحموي. جـ ٨، ص٢٦٨ . والنجير : حصن باليمن قرب حضرموت.
(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص١٧٨، ١٧٩.
والأغاني. الأصفهاني. جـ ٥ ،صص١٥١، ١٥٣ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٠ .
(٤) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٠٣. والإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص٣٨ .

استطعت!)[1].

ونترك الشعبي يتحدث عن تلك المقابلة؛ قال: (وأشار علي بمثل ذلك نصحائي وإخواني، فلما دخلت على الحجاج رأيت غير ما ذكروا لي). فسلمت عليه بالإمارة، وقلت: (أيها الأمير قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً قد والله تمردنا عليك، وحرضنا وجهدنا، فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا؛ فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا). فقال الحجاج: (والله لأنت أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت[2]. يا شعبي كيف وجدت الناس بعدنا). قال: (أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت الخباب، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً). قال الحجاج عندئذ: (انصرف يا شعبي!). فانصرفت.[3]

فنرى أن الشعبي يصف الحجاج بأنه ليس ذلك الوحش القاسي الذي صوره الناس له قبل دخوله، وعفا عنه لصدقه.ولم يقتصر العفو على الشعبي؛ لأنه فقيه أهل العراق،

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص١٠٣. والإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص٣٨.

وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٧٧ ص١٠٣ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٤٩ والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٧٧. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٤٩. والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥١. والإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص٣٩ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٧٨. ومروج الذهب. المسعودي. جـ٢، ص١٠٣. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، صص٤٩ ، ٥٠. وعيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ١، ص١٠٤.
والإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص٣٩ .

فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم، فيروى أنه أتى بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما: (**إن لي عندك يداً**)، قال: (**ما هي؟**) قال: (**ذكر ابن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته**). فقال الحجاج: (**ومن يعلم ذلك؟**) قال: (**هذا الأسير الآخر**)، فسأله الحجاج، فصدقه، فقال له الحجاج: (**لِمَ لَمْ تفعل كما فعل؟**) قال: (**ينفعني الصدق عندك؟**) قال:(**نعم**)، قال: (**منعني البغض لك ولقومك**). فقال الحجاج: (**خلوا عن هذا لفعله، وعن هذا لصدقه!**).[1]

مقتل سعيد بن جبير:

ومن ذيول ثورة ابن الأشعث قتل سعيد بن جبير في شعبان من سنة أربع وتسعين.[2]أثار قتله ثائرة الناس، وأطنب المؤرخون في ذكر قتله، ووضعوا حول قتله قصصاً كثيراً.[3]

فلمّا خلع ابن الأَشعث طاعة الحجاج كان سعيد من الذين خرجوا معه وخلع طاعة الحجاج[4]، وفي إحدى المواقع أُسِر سعيد بن جبير، فلما أتي به للحجاج قال له الحجاج: (**ويحك يا سعيد أما تستحيي مني، ألا استحييت من المراقب لي ولك، والحافظ علي وعليك؟!**) فقال سعيد: (**أصلح الله الأمير وأمتع به هي بليّة وقعت، وعذاب نزل! والقول كما قال الأمير وكما نسبه إليه، وأضافه إليه إلا أني أتيت رجلاً قد أزهى وطغى ولبسته الفتنة، وركب الشيطان كتفيه، فإن تعاقب فبذنب وإن تعف فسجية منك؛**) فقال

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤ ، ص٦٢. وعيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ١، ص٩٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٠. وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ٣٣٥ . والمختصر في أخبار البشر. أبو الفدا. جـ ١، ص١٩٨. ومروج الذهب. المسعودي. جـ٢، ص١١١ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٩٧. تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٢ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٠ .

له الحجاج: (**فإنا قد عفونا عنك وسنردك إليه مرة أخرى!**) ثم كتب كتاباً، وأرسل به سعيداً، فلما كان سعيد بالطريق حرق الكتاب، وقدم عبد الرحمن فأخبره الخبر.[1] وبقي معه وما زال مع ابن الأشعث حتى حدثت موقعة دير الجماجم وهزم فيها عبد الرحمن، وقتل فيها من قتل، وهرب من هرب، فكان سعيد من الذين أفلتوا وتوجهوا إلى أصبهان، فكتب الحجاج إلى عاملها بالقبض عليه، فلم يرق ذلك في نظر العامل وأرسل إلى سعيد يعرفه، ويطلب إليه أن يخرج من البلاد في السر، فخرج وسار إلى أذربيجان، وطال عليه القيام بها، فاغتمّ فخرج إلى مكة مستخفياً وأقام بها.

فلما ولي خالد القسري مكة[2] أشار بعض الناس على سعيد بالهرب، فقال: قد استحييت ولا مفر من قدر الله! وكان قد ولي المدينة عثمان بن حيان المري - بدل عمر بن عبد العزيز - فصار يرسل أهل العراق إلى الحجاج، وسار على هذه الطريقة خالد القسري[3]، فأرسل عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وعمرو بن دينار وطلق بن حبيب ومجاهداً، فعفا الحجاج عن عطاء وعمرو لأنهما مكّيّان، ومات طلق في الطريق، وحُبِسَ مجاهدٌ حتى مات الحجاج.[4] وأما سعيد فقتل كما سيأتي. ويُروى أن الحجاج كتب إلى الوليد يخبره أن أهل العراق أهل الشقاق والنفاق قد لجأوا إلى مكة، فكتب الوليد إلى خالد القسري بالقبض عليهم وإرسالهم إلى الحجاج، فقبض عليهم وأرسلهم إلى الحجاج[5] كما يروى أن خالداً هدد من وجد سعيداً في داره بهدمها وهدم دار من

---

(١) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢ صص ٣٣، ٣٤ .

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص ٢٦٠، ٢٦١ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٦ . ووفيات الأعيان. ابن خلكان. جـ١، ص٢٥٦ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٦. في إحدى روايتيها .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٦.

(٥) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٦. تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦١.

والنجوم الزاهرة. ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن (ت٨٧٤هـ). جـ١، ص٢٢٨ .

جاوره، وضرب لذلك أجلاً مدته ثلاثة أيام.[1]

وهنا يجدر بنا أن نتساءل: هل كان الحجاج جاداً في طلب سعيد بن جبير قاصداً قتله لخروجه مع ابن الأشعث أو إنَّ ظروف الحوادث قد جاءته به، وتطور الحديث بينهما إلى ما استلزم من الحجاج قتله؛ ولما أرسل سعيد بن جبير إلى الحجاج تألم من ذلك ثم قال له: يا سعيد ألم أقدم مكة فأخذت منك البيعة؟ قال بلى. قال: أما قدمت الكوفة فأخذت منك البيعة، ووليتك إمامة الصلاة؟ قال بلى.

ألم أُوَلِّكَ القضاء؟ فضج الناس، وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عربي، فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى؟

وهكذا صار يعاتبه كما يعاتب الرجل ولده كما يقول الذهبي في تاريخه[2]، فقال سعيد إني امرؤ من المسلمين يصيب مرة ويخطئ أخرى، فطابت نفس الحجاج، واطمأنت ورجا أن يتخلص من أمره[3].

ثم عاوده مرة أخرى فقال له: **(فما الذي أخرجك علي؟)** قال سعيد: **(كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث لأنه عزم علي)**. فغضب الحجاج وقال: **(هيه! رأيتَ لعزمة عدو الرحمن عليك حقاً، ولم ترَ لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي عليك حقاً؟!)**[4] تنكث بيعتين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك[5]، اضربا عنقه، فإياه عنى جرير بقوله:

---

(١) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص٤١ .

(٢) تاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٨٤٧ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٢ .
والبداية والنهاية. ابن كثير. جـ ٩، ص٩٧ والعيون والحدائق. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٣ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٢ .
وخلاصة الذهب المسبوك. المقريزي، تقي الدين أحمد (ت٨٤٥هـ) . ص٨.

(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٢ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٩٦. والعيون والحدائق. مصدر سابق. جـ٣، ص١٣ .

يـــا رُبَّ ناكِـــثِ بيعتَـــيْنِ تركتُـــهُ   وخِضَـــابُ لحيتِـــه دَمُ الأَوْدَاجِ[1]

وتروي روايات كثيرة في كيفية قتله. فمن ذلك أنه قال له: **(يا سعيد اختر أي قتلة)**. قال: **(القصاص أمامك، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة!)**.

قال: **(فتريد أن أعفو عنك؟)**، قال: **(إن كان العفو من الله فنعم، أما أنت فلا براءة لك ولا عذر!)** قال: **(اذهبوا به، فاقتلوه!)** فلما خرج سعيد من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فقال:

(ردّوه وسأله عن سبب ضحكه،) فقال: **(عجبت من جرأتك وحلم الله عليك)**[2]، فقال الحجاج: **(إنما أقتل من شق عصا الجماعة، ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها، اضربوا عنقه!)** فقال سعيد: **(حتى أصلي ركعتين،)** فاستقبل القبلة وهو يقول: **(وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين،)** فقال الحجاج: **(اصرفوه إلى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغياً بينهم، فإنه من حزبهم،)** فصرف عن القبلة فقال سعيد: **(فأينما تولوا فثمّ وجه الله المكافئ بالسرائر،)** فقال الحجاج: **(لم نوكل بالسرائر وإنما وكلنا بالظواهر،)** فدعا سعيد الله بأن يجعله آخر قتيل يقتله الحجاج.[3]

وثمّة روايات أخرى إلى جانب هاتين الروايتين، تنزلق إلى مرتبة الحكايات المثيرة للمشاعر وتهيّج الأشجان. إلا أنه يرجح أن تكون الرواية الأولى هي الصحيحة، إذ إنها تتفق مع منطق الحوادث فضلاً عن إجماع جمهرة المؤرخين عليها. على أن ابن كثير[4] لما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٢ .

(٢) وفيات الأعيان. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين (ت٦٨١هـ). جـ١، ص٢٥٧ .

(٣) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، ص ٤٣. الطبقات الكبرى. ابن سعد. جـ٦، ص١٨٤.

والبدء والتاريخ. المقدسي. مصدر سابق. جـ٦، ص٣٩. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. جـ١، ص٢٥٧. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٨.

(٤) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٩ .

رأى كثرة الروايات وما قيل حول مقتله قال: (**ورويت آثار غريبة حول مقتله أكثرها لا يصح**).

ما سبق يبين أن الحجاج لم يتجن على سعيد بن جبير ولم يقتله إلا حين اشتط سعيد، وقال: (**إنه كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث، فكأنه أحق بالخلافة من عبد الملك بن مروان القرشي**)[1]، وذلك أمر لا يرضاه الحجاج ولا يقره، ورأى الحجاج أنه قد نكث بيعتين.

ويتبين لنا أن الحجاج كان لا يريد أن يقتله بسبب لَعْنِهِ لخالد القسري ولسكوتِه عليه تلك المدة الطويلة ومن كتابه إلى عبد الملك بن مروان عقب موقعة دير الجماجم بأن سعيداً أنكر الخروج.

موت ابن الأشعث:

بعد هزيمة ابن الأشعث في (مسكن) اتجه نحو الشرق، فأشار عليه علقمة بن عمرو الأودي بعدم الذهاب إلى ملك الترك، فإن الحجاج لا بد أن يتبعهم مرغباً زنبيل تارة ومهدداً له أخرى حتى يسلمهم، ورأى أن يدخل هو ومن معه مدينة فيتحصنون بها ويمتنعون فيها، ومن أتاهم قاتلوه فإذا ماتوا كانوا كراماً.

فأبى ابن الأشعث عليه ذلك وقال له: (**لو دخلت معي إلى زنبيل لأكرمتك وآسيتك**) فأبى ذلك عليه علقمة وفارقه في خمسمئة كانوا معه تعاهدوا على الامتناع على الحجاج، وجعلوا عليهم مودوداً البصري، وأقاموا حتى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخمي - وكان الحجاج قد أرسله في أثر عبد الرحمن كما عرفنا ذلك فيما سبق فقاتلوه وامتنعوا عليه حتى أمنهم فخرجوا إليه فوفى لهم بالأمان[2].

أما عبد الرحمن فقد سار إلى ملك الترك، فكاتب الحجاج زنبيل بشأنه يحلف له بالله

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٥٤ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٨.

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٢.

الذي لا إله إلا هو إن لم يرسله ليبعثن إليه مليوناً من الرجال المقاتلة، وأنه قد أرسل عمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفاً من فرسان أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا إمام ضلالة يحبون الحرب للحرب[١]؛ وكان بجانب زنبيل رجل من بني تميم هو عبيد بن أبي سبيع يسمع زنبيل لمشورته، وقال له: **(أنا آخذ لك عهداً من الحجاج ليكفن الخراج عنك سبع سنين على أن تدفع له عبد الرحمن)**[٢] فقال له زنبيل: **(إن فعلت ذلك فإن لك عندي ما سألت)**.

فكتب عبيد إلى الحجاج أن زنبيلاً لا يعصيه أبداً، وأنّه لن يدع زنبيلاً حتى يبعث إليه بابن الأشعث، وخرج ابن أبي سبيع إلى عمارة متخفياً حتى لا يسمع بخروجه ابن الأشعث، فيوجس خيفة، فيهرب وتفاوض معه في شأن ابن الأشعث، وأسفرت المفاوضة عن جُعْلٍ يأخذه ابن أبي سبيع لنفسه قدره مليونٌ من الدراهم والكف عن زنبيل[٣]. وكتب عمارة بذلك إلى الحجاج فرد الحجاج قائلاً: **(أعط عبيداً وزنبيلاً ما سألاك)** فاشترط زنبيل ألاَّ تغزى بلاده لمدة عشر سنين، وأن يؤدي بعد عشر سنين[٤] تسعمئة ألف درهم في كل عام[٥]. فأحضره زنبيل ومعه ثلاثون من أهل بيته[٦] وقد أعد لهم الجوامع والقيود، فوضع في عنق عبد الرحمن جامعة، وفي عنق القاسم ابن الأشعث جامعة، وقيد الباقين. وقال لأصحاب ابن الأشعث، تفرقوا حيث شئتم،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٨.
وتاريخ اليعقوبي. اليعقوبي أحمد بن إسحق (ت٢٩٢هـ). جـ٣، ص٢٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٨.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٥٢.
(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٩.
(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٩ وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص٤٠٧.
(٥) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٩. وفتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٤٠٧.
(٦) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٩.

وأرسل ابن الأشعث ومن معه إلى عمارة. ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقى نفسه من فوق قصر بالرجح، فمات [1] قائلاً: (**لا أترك الحجاج يلعب بي لعب الهرة بالفأر**)[2]، فاحتزت رأسه، وأتي بها إلى عمارة مع الأسرى الذين ضرب أعناقهم، وأرسل برؤوسهم إلى الحجاج. وهكذا أرسل رأس ابن الأشعث إلى عبد الملك وقد أرسلها عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بمصر.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

هيهات مَوْضِعُ جُثَّةٍ مِنْ رَأْسِها ... رَأْسٌ بِمِصْرَ وجُثَّةٌ بالرجح

وكان موت ابن الأشعث على الراجح في سنة خمس وثمانين من الهجرة[3].

استقرت الأحوال بعد ثورة دامت ثلاث سنين، فأخذ بالترويح عن نفوس الناس بالتوسعة في النفقة عليهم بعد أن أحرزوا النصر، فسعى الواشون عند الخليفة بأنه يبذر في الأموال، فكتب إليه الخليفة يلومه على ذلك ويقول: (**أما بعد فقد بلغني أنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في جمعة وتنفق في أسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر فعليك بتقوى الله في الأمر كله.**

ووفّر خراج المسلمين وفيئهم ... وكن لهم حصناً يجير ويمنع)

فرد عليه الحجاج قائلاً:

لعمري لقد جاء الرَّسولُ بكُتْبِكم ... قراطيس تُملى ثم تُطْوى فتُطبعُ

كتابٌ أتاني فيه لِينٌ وغِلْظَةٌ ... وذُكِّرْتُ والذّكرى لذي اللُّبِّ تنفعُ

وكانت أمورٌ تعتريني كثيرةٌ ... فأرضخُ أو أعتلُّ حيناً فأمنعُ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٨٩.

(٢) البدء والتاريخ. البلخي. جـ٦، ص ٣٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، صص ١٨٩، ١٩٠. وتاريخ الإسلام. الذهبي. جـ٤، ص ٦٣٤.

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص ٥٢.

إذاً كنتُ سَوْطاً مِنْ عذابٍ عليهم ... ولم يكُ عندي بالمنافعِ مَطْمَعُ
وكانت بلادٌ جئتُها حين جئتُها ... بها كلُّ نيران العداوة تلمعُ
فقاسيتُ منها ما علمتُ ولم أزلْ ... أُصارعُ حتى كدتُ بالموت أصرعُ
وكم أرجفوا مِنْ رجفة قد سمعتُها ... ولو كان غيري طار مِمَّا يُروَّعُ
وكنت إذا هَمُّوا بإحدى هناتِهم ... حَسَرْتُ لهم رأسي ولا أتقنَّعُ
فلو لم يَذُدْ عنِّي صناديدُ مِنْهُمُ ... تقسّم أعضائي ذئابٌ أَضْبُعُ

فلم يسع الخليفة إزاء هذا الردِ إلا أن يسلِّم بصحة نظريته ويقول له:(**اعمل برأيك!**).[1]

وفادة الحجاج على عبد الملك:

ولَمَّا أن استقرت الأمور للحجاج وفد على الخليفة بدمشق ليجدد ولاءه وإخلاصه لإمام المسلمين مصطحباً معه في هذه الوفادة أشراف المِصْرَيْنِ - ومنهم من أسهم في ثورة ابن الأشعث -فكانت مظاهرة قصد منها تقديم الطاعة وتجديد البيعة للخليفة، وكان له ما أراد حين وقف زياد ابن عمرو العتكي خطيباً في حضرة الخليفة وقال يا أمير المؤمنين:(**إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم!**).

يروى أن الحجاج قدم العراق، وليس على قلبه أثقل من زياد بن عمرو العتكي، فلما قال هذه المقالة لم يكن على قلبه أخف منه.

وقد تبسط الخليفة مع وفد العراق، فجعل يسألهم عن حال البصرة والكوفة، فقال محمد بن عمير: (**إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها، وسفلت عن**

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤، ص٦٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، صص ١٢٦، ١٢٧.
وأنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٢١٧، ٢١٨.

الشام ووبائها، وجاروها الفرات، فعذب ماؤها، وطاب ثمرها).

وقال خالد بن صفوان الأهتمي: (**نحن أوسع منهم برية، وأسرع منهم في السرية، وأكثر منهم قنداً وعاجاً وساجاً، ماؤنا صفو، وخيرنا عفو لا يخرج من عندنا إلا سائق وقائد وناعق**).

وقد أدلى الحجاج برأيه في هذا الموضوع فقال: (**أصلح الله أمير المؤمنين. إني بالبلدين خبير وقد وطئتهما جميعاً**)، فقال له: (**قل فأنت عندنا مصدق!**). قال: (**أما البصرة فعجوز شمطاء زفراء بخراء أوتيت من كلٍّ وزينة، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة**). فقال عبد الملك: (**فضلت الكوفة على البصرة**).[1]

ثورة ابن الأشعث والموالي:

أجمعت المصادر على اشتراك الموالي في ثورة ابن الأشعث، وأنهم حاربوا في صفوفه بأعدادهم الكثيرة، حتى لقد قيل: إنه في دير الجماجم كان عددهم نحو مئة ألف[2]؛ ولم يختلف المؤرخون إلا في تحديد النصيب الذي أسهم به الموالي في هذه الثورة؛ فذهب المؤرخون المسلمون إلى القول بأنهم ناصروا ابن الأشعث - أي إنَّهم لم يكونوا من العوامل التي بعثت الثورة - بينما نرى أن فون كريمر [3] وفان فلوتن [4]قد ربطا الثورة بمحاولات الموالي الخروج على الحجاج الذي فرض عليهم من الالتزامات المالية والقيود الاجتماعية ما جعلهم أحط من العرب وكأنهم لم يعتنقوا الإسلام من ناحية أخرى.وقد تصدى فلهاوزن [5]للرد على فون كريمر إذ قال: في الحقّ أنَّه كانت لهم

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. جـ ٢، ص ١٠٦. وكتاب البلدان. الهمداني. أبو محمد الحسن (ت٣٣٤هـ). ص ١١٣، ١١٤ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٥٥.
والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ٤١ .

(٣) تاريخ الثقافة. ص ٢٤. وحضارة الشرق جـ ١، ص ١٧٢ .

(٤) السيادة العربية. فان فولتن. صص ٤١، ٤١ .

(٥) الدولة العربية وسقوطها. يوليوس فلهاوزن. مرجع سابق. ص ١٥٢، ١٥٣ .

مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام؛ ولكنهم كانوا في الدرجة الثانية فقط، فالحركة لم ترتفع منهم بل من الجيش العراقي في سجستان الذي ضم إليه الجيوش الأخرى من الأقاليم الأخرى.

وخلاصة القول: إن من الثابت تاريخياً أن الموالي اشتركوا في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية، وفي رأينا أن الموالي -بالظروف التي أحاطت بهم -كان يتحتم عليهم أن يشتركوا - لا في ثورة الأشعث فحسب- بل في كل ثورة يمكن أن تقوم ضد الحكومة المركزية؛ذلك أن منطقهم ومنطق الحوادث التي أحاطت بهم كان يحكم عليهم أن يسلكوا هذه السبيل.

كان الموالي قبل الدولة الأموية يحالفون العرب، ويدخلون في ولائهم، ويتعصب كل منهم للقبيلة التي ينتمي إليها.وكانت القبيلة تعد المولى واحداً من أفرادها لقوله عليه الصلاة والسلام (مولى القوم منهم)[1].وكان الخلفاء والأمراء يثقون بهم ثقة كبيرة، فيعهدون إليهم بأمورهم وشؤونهم؛ وكانوا يتولون كثيراً من مناصب الدولة[2].فلما جاءت الدولة الأموية وشغلت بالفتن الداخلية قلت الفتوحات الخارجية وقلّت معها الغنائم، فاتجه المسلمون العرب إلى تملك الأرض بطريق الشراء أو الهبة، وبذلك أصبحت هذه الأرض عشرية لا خراجية- والزكاة أقل من الخراج. يضاف إلى ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد الأصليين في الإسلام بسبب زيادة الخراج أو الشدة في جبايته، وما تلا ذلك من أن أرضهم أصبحت في نظرهم عشرية لا خراجية.ويبدو لنا أن الجباة ساروا في الجباية وقتئذ وفق هذا المنطق، فقل إيراد الدولة من هذا المصدر. وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء قد ارتفعت عنهم الجزية لإسلامهم.

بهذه العوامل الثلاثة تأثر بيت المال وقل إيراده قلة واضحة، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل مما زاد المشكلة تعقداً أن الدولة الإسلامية كانت تواجه من الالتزامات - في

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص ١١١.

(٢) الأغاني. الأصفهاني. جـ١٠، ص ١٦٣.

قمع الفتن الداخلية وجمع الأنصار وتنظيم الإدارة - ما أرهق ميزانيتها وسار بالحالة كل يوم من سيّ إلى أسوأ حتى جاء الحجاج بن يوسف فعالج الأمر بحزمه، ففرض الخراج على تلك الأرض التي ملكت بطريق الشراء والهبة.

وأعاد نظام الخراج إلى الأرض التي أسلم أصحابها[١]، وفرض الجزية على المسلمين الجدد[٢]، وألزمهم العودة إلى قراهم[٣]. بدا كل ذلك في نظر الموالي عسفاً بحقوقهم، فأدى بهم إلى الحفيظة على الدولة الأموية، وهو هو بعينه الذي جعلهم يتطلعون إلى نشوب أيّ ثورة على الحكومة عسى أن يكون في هذه الثورة أو تلك مخرج لهم مما يعانون، وهذا هو أيضاً ما دفعهم إلى الاشتراك في ثورة ابن الأشعث عسى أن ترجح بهم كفة الثائر، فيكون لهم عليه يد. أما منطق الدولة الأموية عامة ومنطق الحجاج خاصة فيتلخص بما يأتي.

أولاً: اتسعت رقعة الملك الإسلامي، فاتسعت بذلك ميزانية المصروفات بينما كان إعفاء الموالي من الجزية والخراج يحد من أبواب الإيراد، فواجهت الدولة مشكلة كبرى إزاء هذه الطبقة من الشعب لا يقابلها شيء من الضرائب على هؤلاء، ولا سيَّما بعد أن انتقلوا من الأرض التي كانوا يزرعونها ويدفعون عنها الخراج إلى الإقامة في المدن.

ثانياً: بإقامة هؤلاء في المدن لم يكن لهم من مرتزق إلا أن يحاولوا كتابة أنفسهم في ديوان العطاء واضعين أنفسهم تحت إمرة الدولة؛ ولكن الدولة لم تكن بحاجة إليهم لوفرة ما لديها من أصحاب العطاء من العرب، فكأنهم بذلك قد عملوا على إرهاق ميزانية المصروفات في وقت تضاءلت فيه ميزانية الدولة بتركهم الأرض.

---

(١) الملكية العقارية. فان برشم. صص ٤٠، ٤١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٣٥٩.

وفتوح مصر وأخبارها. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن (ت٢٥٧هـ). ص ١٥٦ .

(٣) العقد الفريد. ابن عبد ربه. جـ ٢، ص٧٧. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٨٢ .

وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ٣٨٥.

ثالثاً: لوحظ تهافت الفرس على الدخول في الإسلام مما شك معه أن تكون هذه الجموع الغفيرة قد أسلمت عن إخلاص للعقيدة الدينية واشتبه في أنهم إنما فعلوا ذلك تخلصاً من الجزية.

إزاء هذه العوامل مجتمعة لم يكن بد من أن يلجأ الحجاج إلى محاولة زيادة الإيراد بأن يرجع هؤلاء إلى قراهم حتى لا تزدحم بهم المدن ويختل الأمن لكثرة العاطلين، وحتى لا يتأثر ديوان العطاء بما يفرض لأشخاص لا حاجة للجيش بهم .أما عودتهم إلى قراهم ففيها مصلحة مزدوجة. فيها إيراد للدولة بما يدفع لها من خراج الأرض وفيها منعة للموالي أنفسهم، إذ تعود عليهم الزراعة بالربح الوفير بدلاً من التسكع في المدن.وفضلاً عن كل ذلك فإن من مصلحة الدولة أن لا تبور الأرض، إذ الزراعة عصب من أعصاب الحياة فضلاً عن أن أرباحها تسمح لصاحب الأرض بأن يدفع الضرائب في يسر إذا ما أحسن القيام عليها.

وأما لجوء الحجاج إلى فرض الجزية على الموالي فأكبر ظننا أنه جعلها اختباراً لصحة إسلام من أسلم، فمن دفع الجزية وبقي على إسلامه كان مسلماً حقاً، ومن ارتد كان إسلامه تخلصاً من الجزية. على أن الوقت لم يتسع للحجاج لإجراء التجربة إلى نهايتها.وفي تقديرنا أن ثورة ابن الأشعث لو لم تقم، وأن الموالي لو لم يشتركوا فيها لكان للحجاج رأي آخر في فرض الجزية على من أسلم. وأما جعله الخراج على الأرض التي كانت بيد العرب المسلمين أو من أسلم حديثاً، فأكبر ظننا أيضاً أن الحجاج نظر إلى أن هذه الأرض فتحت عنوة وقهراً، فبعضها جلا عنه أهله حتى خلصت للمسلمين، فصارت وقفاً يوضع عليها الخراج، ولا يسقط بإسلام أصحابها، وبعضها الآخر أقام عليها أهلها ونزلوا عنها للمسلمين في شرط الصلح، فهذه كذلك يوضع عليها الخراج، ولا يسقط بالإسلام ولا يجوز بيعها في كلتا الحالتين[1].ولعل الحجاج قد أخذ في ذلك

---

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية. الماوردي، أبو الحسن بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ). صص ١٤٠، ١٤١

بنظرية أن السواد وقف على كافة المسلمين وقفه عمر بن الخطاب، وأقره في أيدي أربابه بخراج يؤدونه، فلا يجوز بيعه، ولا يسقط عنه الخراج إذا أسلم أصحابه.[1]

ثورة ابن الأشعث ونصارى النجرانية ويهودها:

كان الحجاج قد اتهم المسيحيين واليهود المقيمين بالنجرانية بممالأة ابن الأشعث ومساعدته، فأرجع حالتهم من حيث الجزية إلى ما كانت عليه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ.وتتلخص قصة هؤلاء في أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد وفد عليه العاقب والسيد - سيدا أهل نجران - وسألاه الصلح عن أهل نجران، فصالحهما على ألف حُلّة [2]في صفر وألف حُلّة في رجب.

واشترط شروطاً أخرى منها ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به[3]، واستمرا ذلك مدة حياة الرسول، ولما استخلف أبو بكر ﷺ كتب لهم عهداً مثل عهد الرسول ﷺ؛ وفي عهد عمر ﷺ نقضوا شرط عدم التعامل بالربا وفي الوقت نفسه كثروا، فخافهم على الإسلام، فأجلاهم عن أرضهم، واشترى منهم عقاراتهم، وكتب كتاباً إلى أهل الشام والعراق أن يوسعوهم، وإذا اعتملوا أرضاً فهي لهم مكان أرضهم باليمن، فصاروا إلى الكوفة، ونزلوا في مكان سمي بالنجرانية، ودخل معهم اليهود الذين كانوا يقيمون في نجران في الصلح وكانوا كالأتباع لهم[4].فلما كانت خلافة عثمان بن عفان ﷺ شكوا إليه كثرة ما يدفعونه فأنقصهم مئتي حلة.ولكن علي بن أبي طالب أرجعهم إلى عهد عمر؛ وكان صاحب النجرانية بالكوفة يرسل رسله إلى يهود نجران المقيمين بالشام، فيجبون منهم مالاً لتسديد المطلوب منهم ومساهمة منهم في الضريبة المفروضة على الجميع. وقد انتهزوا فرصة قيام معاوية بن أبي سفيان أو يزيد ابنه، فشكوا إليه ضعفهم وتفرقهم، وأن

---

(١) الأحكام السلطانية. الماوردي، مصدر سابق ص ١٦٦ .

(٢) الحُلة : إما قطعة أو سلاح أو ثوب له بطانة.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص ٧٠، ٧١ .

(٤) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص ٧٢، ٧٣ .

منهم من مات ومنهم من أسلم، وأظهروا له عهد عثمان ﷺ فرفع عنهم مئتي حلة؛ وبذلك صاروا يدفعون ألفاً وستمئة حلة. وبقي الحال كذلك إلى ثورة ابن الأشعث، فاتهمهم الحجاج بممالأة ابن الأشعث ومساعدته، فأرجع جزيتهم إلى ما كانت عليه في عهد عثمان بن عفان ﷺ (ألف وثمانمئة حلة) واستمروا يدفعونها إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فشكوا إليه نقصانهم وفناءَهم وإلحاح الأعراب بالإغارة عليه وتحميلهم إياهم المؤمن المجحفة بهم وظلم الحجاج لهم، فأمر بإحصائهم فوجد أنهم قد صاروا إلى العشر من عدتهم الأولى فقال: (**إن هذه جزية على الرؤوس وليست على الأرض وجزية الميت والمسلم ساقطة عنهم**). فجعل جزيتهم مئتي حلة فقط[1].

حرب الحجاج مع الكرد والديالمة:

كانت ثورة ابن الأشعث تصحبها ثورتان: الأكراد في الشرق والديالمة في الشمال، فقد انتهز الأكراد فرصة انشغال الحجاج بقمع ثورة ابن الأشعث، وعاثوا في البلاد فساداً، فبعث الحجاج إليهم عمرو بن هانئ العبسي في جيش من أهل دمشق، فقتل عدداً كبيراً منهم[2].ولم تحدد لنا المراجع تاريخ هذه الثورة أكثر من أنها كانت في أيام خروج ابن الأشعث. وقد خرجوا ثانية في سنة تسعين، وغلبوا على أرض فارس[3]، فألزمهم الحجاج الطاعة بأن جنَّد كلَّ محتلمٍ من الشبان، وسمي هذا الجيش بـ مصدر (أبي بيب)، لأن أهاليهم وأمهاتهم كانوا يأتونهم وقد جرد الشخص منهم من ملابسه فيضمنوه ويقولون له بأبي، وولي قيادة هذا الجيش بلالاً الضبي [4]وقد أشرف الحجاج على هذا البعث، فخرج إلى رستقباذ.[5]

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. صص ٧٣، ٧٤ .

(٢) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٣٢ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢٣٠ .

(٤) عيون الأخبار. ابن قتيبة. جـ ١، ص ٢٧٤. والأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٤، ص ١٥٥ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢٣٠.

وأما الديالمة فقد كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية الديلم، وكان المسلمون يرابطون بها بصفة دائمة وبشكل دوريات ينام بعضهم بينما يحرسهم بعضٌ آخر، وقد كان هؤلاء المرابطون من أشد الناس استبسالاً وأكثرهم استعداداً للموت لما كانوا يعرفونه من الأحاديث المروية بشأن الرباط في هذا الثغر من أن ثوابهم يعدل ثواب شهداء بدر[1].

واستمر الأمر كذلك إلى سنة إحدى وثمانين للهجرة، إذ رابط في ذلك الثغر محمد بن أبي سبرة الجعفي، ورأى ذلك، فسأل عن سببه، فأخبروه بخوفهم من دخول العدو المدينة فقال: **(قد أنصفوكم افتحوا لهم الأبواب ولا تخافوا!)** ففتحوها.

وبلغ ذلك مسامع الديلم، فساروا إليهم ودخلوا بيوتهم، فهاج الناس، وعند ذلك أمر ابن أبي سبرة بإغلاق الأبواب عليهم وعلى عدوهم، فأغلقت ودارت رحى القتال، فلم يفلت من الديلم أحد وأبلى ابن أبي سبرة في تلك الليلة بلاءً عظيماً، واشتهر اسمه وعرفت مكانته. ولم يحاول الديلم مفارقة أرضهم طالما كان ابن أبي سبرة بالثغر، فقد أصبح فارسه المطاع[2]، إلى أن قامت ثورة الأشعث، فخرجوا، فأرسل إليهم الحجاج عمرو بن هانئ العبسي - بعد إخضاعه ثورة الأكراد - في اثني عشر ألفاً، فانتصر عليهم، وأعاد الأمن إلى نصابه[3].

ووفد على الحجاج جماعة منهم، فخيّرهم بين الإسلام أو الجزية، فأبوا فأمر الحجاج أن تصور له الديلم سهولها وجبالها وعقابها وشعابها، فصورت له فدعا من قبله من الديالمة فقال لهم: **(إن بلادكم قد صورت لي، فرأيت سهولة غزوها، فأجيبوا إلى ما دعوتكم إليه قبل أن أسيّر الجنود فأقتل المقاتلة، وأسبي الذرية)** فطلبوا إليه المصور الذي فيه رسم بلادهم. وعند رؤيته قالوا: **(إن الصورة صحيحة، ولكن لم يصوروا لك**

---

(١) البلدان. الهمذاني. ص ٢٨٣.

(٢) النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي الأتابكي. مصدر سابق. جـ ١، ص ٢٠٣.

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٣٣٢.

فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والشعاب، وستعلم ذلك لو تكلفته)[1]. فلم يبال الحجاج بتخويفهم، وأرسل إليهم ابنه محمداً على رأس جيش، ولكنه لم ينتصر عليهم انتصاراً حاسماً. ثم ابتنى محمد مسجداً لأهل قزوين كتب عليه اسمه[2]. ولما بنى الحجاج واسطاً اتخذ المناظر بينه وبين قزوين، فكان إذا دخن أهل قزوين إيذاناً بأن بلادهم في خطر - دخنت المناظر كلها إن كان الوقت نهاراً، وأشعلت النيران إن كان الوقت ليلاً، فتجرد الخيل إليهم[3].



(١) البلدان. الهمذاني. مصدر سابق. ص ٢٨٣ .

(٢) البلدان. الهمذاني. مصدر سابق. ص ٢٨٣. ومعجم البلدان. ياقوت الحموي. جـ ٧، ص ٨١. والأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٣٩و جـ ١٤ ص ٤١.

(٣) معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٨، ص ٣٨٢ .

الفصل الثالث

مكانة الحجاج في الدولة الأموية وآراؤه السياسية

عاصر الحجاج بن يوسف اثنين من أشهر الخلفاء الأمويين هما عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك. واحتل طوال حكم هذين الخليفتين منزلة رفيعة في الدولة الأموية جعلته الرجل الثاني بعد الخليفة، ولا سيَّما في المشرق حيث امتد سلطانه ونفوذه إلى جميع الأقاليم الشرقية للدولة .ولم يبلغ الحجاج هذه المكانة بسهولة ويسر، وإنما بلغها بالجهد المتواصل والعمل المضني والإخلاص المطلق الذي لا تشوبه أي شائبة للخلافة الأموية.فلا عجب والحالة هذه إذ رأينا كلاً من عبد الملك والوليد يبادلانه ثقة بثقة، ويطلقان يده في شؤون المشرق كله. وقد أشرنا في موضع سابق كيف كانت همة الحجاج بن يوسف تحدثه منذ وقت مبكر باحتلال مركز مرموق في دولة بني أمية، وكيف كان عبد الملك يبحث عن رجال مخلصين يساعدونه في إقامة دولته التي كان يرى أنها لا تتحقق إلا بالرجال والأموال.

الحجاج وعبد الملك:

وخلال حكم عبد الملك أظهر الحجاج كفاءة ممتازة ومقدرة كبيرة في إخضاع كثير من الثورات التي قامت في وجه الخليفة الأموي ابتداء بثورة عبد الله بن الزبير وانتهاء بفتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.وقد لاقت هذه الجهود تقديراً كبيراً من عبد الملك الذي كان يثني على الحجاج ولا يقبل أن يسمع فيه أقوال الحساد والواشين، ويروى أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج كتاباً يعبر فيه عن ثقته به ويقول له: (**أنت عندي كسالم**)، وهو عبد لرجل كان عنده أثيراً، ورفض أن يسمع فيه أقوال الواشين قائلاً:

يديرونَني عن سالمٍ وأُديرُهم وجلدة بَيْنَ العين والأنف سالمُ

وكتب إليه عبد الملك في مناسبة أخرى يقول: (**أنت عندي قدح ابن مقبل**) كناية عن السهم القوي الذي لا يخطئ، والذي قال فيه صاحبه ابن مقبل:

غـدا وهْـو مجـدولٌ وراح كَأَنَّـهُ ... مـن المش والتقليـب بـالكَفّ أفطـحُ

خـروجٌ مـن الغمى إذا صـكَّ صـكّةً ... بـدا والعيـونُ المسـتكفّةُ تلمـحُ

وكان عبد الملك جبار بني أمية، يعد الحجاج رجل المهمات، وقائده الذي يرميه في وجه كل خطر حتى إنه بعث مرة إلى الحجاج يذكره بأبيات من الشعر تذهب إلى هذا المعنى،ومنها بيت يقول:

فإن عضَّت الحربُ الضَّروسُ بنابها ... فعرضـة حـد الحـرب مثلُـك أو مـثلي

فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين، عرضة نار الحرب مثلي أو مثله، لكن عبد الملك على ثقته المطلقة بالحجاج كان يراقب أعماله، ويعنفه ويشتد عليه وينال منه إذا بدرت منه بادرة أو تجاوز حدوده، الأمر الذي جعل الحجاج يشعر دائماً بسطوة عبد الملك وجبروته.

فقد روي عن الزبير بن بكار أن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كان ولي صدقة جده علي، فحاول الحجاج الضغط عليه ليدخل عمه عمر بن علي في هذه الصدقة، فرفض لأن شرط علي لا يتضمن ذلك، وتقدم بشكوى إلى عبد الملك ضد الحجاج فقال عبد الملك: (**ليس ذلك له، اكتبوا كتاباً لا يجاوزه!**).

وتحدثنا المصادر عن كتاب شديد اللهجة بعث به عبد الملك إلى الحجاج إثر تطاول الأخير على الصحابي المعروف أنس بن مالك الأنصاري وتحقيره إياه بسبب انضمام ابنه عبد الله بن أنس إلى ثورة عبد الله ابن الجارود سابقة الذكر.

كما تحدثنا عن كتاب مماثل بعث به عبد الملك إلى الحجاج يتهمه فيه بالإسراف في القتل وتبذيره الأموال ويحذره بإنزال أشد العقوبات به. وعلى أن مجال الوضع في مثل هذه الرسائل كبير، إنّها تدل على حقيقة ثابتة تنسجم مع سيرة عبد الملك في ضبط أمور

دولته ومراقبة تصرفات عماله، كما فعل مع الحجاج حين أرسل مبعوثاً من قبله إلى أهل العراق لينظر في مظالمهم وما يشكون من الحجاج.ومع ذلك فقد ظل عبد الملك يؤثر الحجاج، ويعتمد عليه ويعجب به، وليس أدل على ذلك من أن الخليفة الأموي نفسه سمى أحد أبنائه باسمه.ويروي البلاذري عن أبي اليقظان أن عبد الملك بن مروان سمى ابنه الحجاج باسم الحجاج بن يوسف، وأن عبد الملك أنشد في ذلك رجزاً قال فيه:

سميته الحجاج بالحجاج

بالناصح المعاون الدماج

نصحاً لعمري غير ذي مزاج

ويضيف أن الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج [1]، كما سمى الحجاج أيضاً اثنين من أبنائه باسم عبد الملك وأخيه أبان بن مروان الذي عمل الحجاج في خدمته أيام كان عاملاً على فلسطين.ولم يتغير رأي عبد الملك في الحجاج حتى آخر لحظة من حياته، وأوصى الوليد ابنه بالحجاج خيراً وهو يجود بأنفاسه الأخيرة وقال له: (**انظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذي وطّأ لكم المنابر وهو سيفُك يا وليد! ويدك على من ناوأك! فلا تسمعن فيه قول أحد! وأنت إليه أحوج منه إليك!**).

الحجاج والوليد:

والحق أَن الوليد بن عبد الملك ظل وفياً لوصية أبيه، فقرب الحجاج، ووثق به، فتعززت مكانته، وزادت أهميته في الدولة الأموية حتى قال الوليد فيه: (**إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإِن الحجاج جلدة وجهي كله**)، وربما كان مرد ذلك يعود بالإضافة إلى إخلاص الحجاج وكفاءته إلى أن الحجاج أشار على عبد الملك أن يبايع الوليد ابنه من بعده بدل أخيه عبد العزيز بن مروان الذي كان

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص١٥٥.

والياً على مصر.وكان الوليد يصف الحجاج بالرجل القوي الأمين، ويحث أهل الشام على محبته. ويروى أنه لما مات الحجاج ذكره الوليد وذكر قرة بن شريك عامله السابق على مصر، فترحم عليهما وقال: (**كانا منقادين لأمرنا، والله لأشفعهن لهما عند ربي ولأسألنه أن يدخلهما الجنة!**) ولم يكتف بذلك، بل جلس يتقبل التعازي فيه من كبار المسؤولين في الدولة.

الحجاج والأمراء الأمويُون:

ويُلحظُ في هذا الشأن أن علاقة الحجاج الوطيدة بكل من عبد الملك والوليد أَوْغَرَتْ على ما يبدو قلوب عدد غير قليل من أفراد البيت الأموي، بينهم عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وخالد بن يزيد وأم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد. وأغلب الظن أنه ثقل على هؤلاء ما بلغه الحجاج من حظوة ومكانة في الدولة، وهو الشخص الذي كان من قبل مغموراً لا شأن له، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء نقموا عليه تدخله في شؤون ولاية العهد، وهو أمر يعد في نظرهم من اختصاص الأسرة الأموية، ولا يجوز لأحد خارجها أن يدلي برأيه في هذه المسألة.

ويقال: إنَّ عبد الملك لما كتب إليه الحجاج في تولية ابنه الوليد الخلافة بعده بدلاً من أخيه عبد العزيز بن مروان لم يرضَ عن تدخل الحجاج في هذا الأمر على أنه لم يرفض اقتراحه وسعى إلى تحقيقه.وهذه البادرة من جانب الحجاج جعلت عبد العزيز بن مروان يحقد عليه، وقد شعر الحجاج بذلك، فكان يقول: (**ما من أحد من بني أمية أشد بغضاً منه قارعة**).

كذلك كان عمر بن عبد العزيز بن مروان ناقماً على الحجاج غير راض عن سيرته، وكتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية (١).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٥٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق جـ٩، ص٨٨. والنجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. مصدر سابق جـ١ ص٢٢٢

كما يقول الطبري.فلما علم الحجاج بذلك ساءه، وكتب إلى الوليد كتاباً يعرض فيه بعمر ابن عبد العزيز الذي كان عاملاً على المدينة ويقول: (**إن من قبلي من مرّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وإن ذلك وهن**)[1].

فطلب إليه الوليد أن يشير عليه برجلين يوليهما الحجاز، فأشار عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسري .فولى خالداً مكة وعثمان المدينة، وعزل عنهما عمر بن عبد العزيز الذي عاد إلى الشام حانقاً على الحجاج، يغتنم كل فرصة للنيل من سمعته والتأليب عليه حتى روي عنه قوله: (**الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة ابن شريك بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز ومحمد بن يوسف باليمن**) .ومثل هذا الشعور كان ينتاب أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك. يروى أنها رأته يدخل على الوليد في كامل سلاحه، فاستهجنت ذلك وقالت لزوجها الخليفة: (**والله لأَنْ يخلو بك ملك الموت أحياناً أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج**).

وأما خالد بن يزيد فبدأت الجفوة بينه وبين الحجاج منذ حاول الأخير التدخل للحيلولة دون زواج خالد رملةَ بنتَ الزبير بن العوام، وذلك في أعقاب مقتل عبد الله بن الزبير في مكة.

وكان مثل عمر بن عبد العزيز غير راض عن سيرة الحجاج في العراق. يروى أن خالداً التقى بالحجاج في دمشق فسأله: (**إلى متى تقتل أهل العراق يا أبا محمد؟**) فأجابه الحجاج قائلاً: (**إلى أَنْ يكفوا عن قولهم في أبيك أنه كان يشرب الخمر**).

أما علاقة سليمان بن عبد الملك بالحجاج فكانت تتسم بالبغض والحقد والكراهية في أشد صدورها، وبذل سليمان جهده لدى أخيه الوليد أن يعزل الحجاج عن العراق (**لأن الذي أفسد الله به أكثر مما أصلح، وعزله طاعة، وتركه معصية**) على حد قول سليمان. إلا أن الوليد رفض النزول عند هذا الرأي، وظل على ثقته بالحجاج.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٥٦. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق جـ٩، ص٨٨. والنجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. مصدر سابق. جـ١، ص٢٢٢.

وتدهورت العلاقات بينهما إلى درجة خطيرة إثر اشتراك الحجاج مع قتيبة بن مسلم الباهلي بالإشارة على الوليد بتولية ابنه عبد العزيز العهد ليكون خليفة مكان سليمان أو بعده، وفي ذلك ضمان لمكانته المرموقة في الدولة بعد وفاة الوليد، كما أن عمر بن عبد العزيز الذي كان الحجاج وراء عزله عن المدينة ويزيد بن المهلب الذي هرب من سجن الحجاج والتجأ إلى سليمان بن عبد الملك أسهما إسهاماً بارزاً في تأليب سليمان على الحجاج.

وأوردت بعض المصادر رسائل عنيفة تبادلها الجانبان تضمنت كثيراً من عبارات التهديد والوعيد، وتدل في نفس الوقت على اعتزاز الحجاج، وقد كان يكتب من موقع قوة، وكان يخاطب سليمان مخاطبة الند للند.ومع ذلك فقد حاول الحجاج في بعض هذه الرسائل أن ينصح سليمان بالعزوف عن هذا العداء مقابل الإخلاص له كما أخلص لأبيه وأخيه وقال له: (**مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب أبوك وأخوك، فأكون لك مثلي لهما، وإن نفخ الشيطان في منخريك فهو أمر أراد الله نزعه عنك. ولعمري إنها لنصيحة! فإن تقبلها فمثلها قُبِل، وإن تردها علي اقتطعتها دونك، وأنا الحجاج!**) .

غير أن سليمان رفض إجراء أي مصالحة مع الحجاج، واستمر على موقفه منه ينتظر أن تؤول إليه الخلافة، فيفتك به مما جعل الحجاج يتمنى على الله أن يجعل منيته قبل منية الوليد، إلا أن ذلك لم يشف غليل سليمان منه، فأمر بلعنه بعد وفاته كما اقتصّ من أسرته، ولقي كثير منهم حتفهم على أيدي أعوانه.

يتضح من ذلك أن أفراد البيت الأموي لم يتخذوا موقفاً واحداً تجاه الحجاج الذي تفانى في خدمة دولتهم، وإنما كان هناك كثير من أفراد هذا البيت يعملون على الإيقاع به والتخلص منه.ومع ذلك فقد استطاع الحجاج بجدارة أن يفوز بثقة تكاد تكون مطلقة من قبل عبد الملك وابنه الوليد، وأن يحكم الجناح الشرقي من الدولة الأموية زهاء عشرين سنة.

آراء الحجاج السياسية:

وما كان الحجاج أن يحقق هذا المجد كله، ويحافظ على مكانته المرموقة في ذلك العصر حتى غدا الرجل القوي الثاني في الدولة الأموية طوال تلك الفترة لو لم تكن له آراء سياسية معينة يتخذ في ضوئها موقفاً سياسياً من الدولة الأموية وخلفائها.وأول ما يلفت النظر في آراء الحجاج السياسية أنها كانت في معظمها انعكاساً لما كان يراه عبد الملك، ويؤمن به، ويسير عليه في سياسته، فقد كان هذا الخليفة يرى أنه أحق شخص لشغل هذا المنصب في عصره، ولم يتردد من أجل ذلك في سحق كل من أقدم على منافسته في الخلافة.كما اعتقد أن القوة والبطش هما أقصر طريق لتحقيق أهدافه والمحافظة على طاعة الناس له. وقد لمس التغير الذي طرأ على رعيته، ورأى ضرورة انتهاجه سياسة تلائم هذا التغير، وكان يقول: (**إن الدولة لا تقوم إلا بالمال والرجال الذين يعد الحجاج واحداً منهم**).

الحجاج والخلافة:

كان الحجاج يعتقد أن الخلافة ضرورة لا غنى عنها للمحافظة على وحدة الجماعة الإسلامية وانتظام عقدها وقيام دولتها الواحدة، ومن أجل ذلك نراه يكثر من الإشادة بالخليفة وتعظيم قدره ومنزلته عند الله والناس.فقد روى الهيثم بن عدي: (**أَنَّ الحجاج بن يوسف كتب إلى عبد الملك كتاباً يعظم فيه أمر الخلافة، ويذكر أن الخليفة أعظم منزلة عند الله من الملائكة المقربين؛ لأنه جعل آدم خليفة، ثم أمر الملائكة بالسجود له، وجعلهم رُسُلاً إليه**).وتذكر الرواية أَنَّ عبد الملك بن مروان أعجب بهذه الحجة، وناقش بها جوازاً الضبي أحد زعماء الخوارج الذي لم يقتنع بذلك، ورد حجة عبد الملك عليه مما كان سبباً في هلاكه.

ويبدو أن صيغة هذا الكتاب التي أوردها البلاذري في أنساب الأشراف قد حرّفت كثيراً من قبل خصوم الحجاج، فنسبوا إليه أنه كتب إلى عبد الملك يعظم أمر الخلافة ويقول: (**إن السماوات والأرض ما قالت إلا بها، وإن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة**

المقربين والأنبياء والمرسلين). وادعى آخرون أنه كان يرى أن الخليفة أكرم على الله من الرسول، وأن عبد الملك أكرم عليه من محمد، وأنّ الوحي لم ينقطع عنه.ومثل هذه الأقوال لا يمكن الباحثَ قبولُها لظهور الإفتراء في طياتها من رواة تعمّدوا تشويه سيرة الحجاج واتهامه في دينه، وهو أمر تنفيه القرائن المعروفة عن تدينه.

وقد أظهر ابن كثير شيئاً من الشك في هذه الأقوال حين قال: (**فإن صح هذا فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول**).

ويعلق ابن كثير على سيرة الحجاج بقوله: (**وقد روينا عنه أنه كان يتدين، يترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن، وتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها وخفيات الصدور وضمائرها**) .

الطاعة المطلقة:

على أن مثل هذه الأقوال تحمل في طياتها حتى ولو كانت منحولة حقيقة تذهب إلى تعظيم الحجاج لأمر الخلافة وضرورة بقائها والدعوة إلى تثبيت كيانها.ومن هنا كان الحجاج يرى أن طاعة الخليفة فرض عين على جميع المسلمين ورعايا الدولة، ولا تكاد تخلو خطبة للحجاج من تأكيد أهمية الطاعة والإشادة بأهلها والتنديد بالمعصية وأصحابها. وكان يعتقد أن في طاعة الخليفة إيماناً ومثوبة وفي معصيته جحوداً وكفراً.ويروى عنه أنه كان يخطب الناس، ويحثهم على طاعة الخليفة وأولي الأمر، ويقول:(**اسمعوا وأطيعوا أمير المؤمنين عبد الملك فإنها لمثوبة!**)، إشارة إلى الآية القرآنية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، بل إنه كان يرى ضرورة الطاعة المطلقة للخليفة وأولي الأمر حتى وإن ثقل ذلك على بعض الرعية أحياناً.فقد نسب إليه قوله: (**إن خيركم من صبر على مكروه الطاعة، فذلك الذي يستوجب الثواب ويكافَأُ بالإحسان!**).

وكان عبد الملك والحجاج يكفران كل من خرج عليهما لأي سبب من الأسباب، ويعدان ذلك تخلياً عن البيعة الأولى التي بويع فيها الخليفة الأموي إماماً لجماعة المسلمين، وذلك إشارة إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

وقد رأينا كيف أمر عبد الملك واليه الثقفي أن يطلب إلى كل من خرج عليه من أهل العراق الإقرار بالكفر وقتل من يأبى ذلك منهم، ويستند ذلك أصلاً إلى قاعدة إسلامية في الحكم تقضي بتحريم نكث البيعة لولي الأمر إذا لم يخل بشروطها كما تقضي القاعدة بعدم جواز مبايعة خليفتين للجماعة الإسلامية في آن واحد؛ حتى روي عن الرسول قوله: (**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما!**)، وعليه لم يتردد الحجاج في قتل من لم يقر على نفسه بالكفر لنكثه بيعة الخليفة الأموي عبد الملك ومبايعة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.ومن أبرز هؤلاء فقيه الكوفة المعروف سعيد بن جبير الذي كان الحجاج قد أخذ منه البيعة لعبد الملك في الحجاز بعد مقتل عبد الله بن الزبير، وجدد له البيعة ثانية في الكوفة إثر قدوم الحجاج إلى العراق.

ثم خرج مع ابن الأشعث، ولقي حتفه على يد الحجاج فيما بعد. وقد أسهبت مختلف المصادر العربية في ذكر حادثة إقدام الحجاج على قتل سعيد بن جبير، ونسجت حولها كثيراً من الروايات الموضوعة التي استهدفت أساساً المبالغة في قسوة الحجاج وحبه لسفك الدماء وإظهار سعيد بن جبير مثالاً للشهداء الذين يقدمون أرواحهم في سبيل مناهضة الظلم والظالمين؛ وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: إنَّ جانباً كبيراً من الروايات المختلفة التي قيلت غايتها التشنيع على الحجاج وتشويه سيرته.

ارتبط الحجاج بولائه للأمويين بعد انتمائه للعثمانية منذ القرن الأول الهجري شأنه شأن جماعات كبيرة خارج البيت الأموي، وقد أشار ابن كثير إلى ذلك فقال: (**كان الحجاج عثمانياً أموياً يميل إليهم ميلاً عظيماً، ويرى أن خلافهم كفر، ويستحل بذلك**

الدماء، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم)، ولحزنه الشديد بما ألمّ بالخليفة عثمان ﷺ، عمد إلى الإيقاع بكل من شارك من قريب أو بعيد بالفتنة الأولى التي أدت إلى مقتله منذ توليه الحجاز؛ فقد روي أنَّه حين دخل المدينة عام ٧٤هـ استخف بأهلها، وقال: **(أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان، وختم أيدي جماعة من الصحابة لعدم مسارعتهم لنصرة عثمان يوم الدار!)**. كما قام أثناء ولايته على العراق بالنيل من بقية المتهمين بالتأليب على عثمان بن عفان ﷺ؛ منهم عمير بن ضابئ البرجمي التميمي الذي كان ممن اقتحم الدار على عثمان؛ لأنه حبس أباه في ذنب اقترفه، فقال له الحجاج: **(ألست الذي هجا عثمان ابن عفان؟)** فقال له:(بلى). قال:**(وما حملك على ذلك؟)** فأجابه عمير: **(كان حبس أبي)**.

فقال له: **(أوليس هو الذي يقول وقد هم باغتيال عثمان:**

هَمَمْتُ ولم أَفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَني تَرَكْتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ)

فأمر الحجاج بقتله، وقال إن في هلاكه صلاح المصرَيْن، ومثل ذلك فعل بكميل بن زياد النخعي الذي كان ممن توجه إلى المدينة، واشترك في حصار عثمان بن عفان ﷺ، كما اشترك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، وأيضاً مرة بن شراحيل الهمداني لمسارعته إلى الفتنة والسعي على أمير المؤمنين عثمان ﷺ.

واستخف بالصحابي أنس بن مالك ﷺ، واتهمه بالقعود عن نصرة عثمان ﷺ، وتأييد ثورة ابن الأشعث، وعلل استخفافه به بأنه سيّس البلاد في الفتنة الأولى - أي فتنة عثمان - غاش الصدر في الفتنة الآخرة - يعني بذلك فتنة ابن الأشعث. وبلغ تحزبه للعثمانية أنه كان يكره أعداء عثمان الذين توفوا، ومنهم الصحابي المعروف عبد الله بن مسعود صاحب القراءة المعروفة باسمه، لحمله الشديد على عثمان لإصداره أمراً بحرق جميع النسخ والصحف غير المعتمدة، وسعي ابن مسعود على تأليب أهل الكوفة على عثمان.

أحب الحجاج عثمان بن عفان ﷺ، فسار في إفتائه سيرته، فكان إذا أشكلت عليه مسألة قضائية ينظر كيف أفتى فيها الصحابة، وينزل على رأي عثمان بن عفان ﷺ ولا

سيَّما في مسائل الميراث.

وكثيراً ما كان الحجاج يمتحن ولاء الناس لبني أمية بسؤالهم عن رأيهم في علي وعثمان، فمن لم يحسن الإجابة بما يهوى لقي منه عنتاً شديداً؛ ومن بين الذين تعرضوا لهذا الامتحان القراء والفقهاء من أمثال عبد الرحمن بن أبي ليلى والحسن البصريّ، إذ يروى أن الحجاج سأل الأخير (**ما تقول في عثمان وعلي؟**) فقال: (**أقول ما قال من هو خير مني... موسى عليه السلام حين سأله فرعون: ما بالُ القرون الأولى؟ قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى. عِلْمُ عثمان وعلي عند الله، فقال- الحجاج للحسن - أنت سيد العلماء يا أبا سعيد!**)

كذلك أتى بحطيط الحرامي الزيات - وكان أحد الخارجين عليه - فسأله عن أبي بكر وعمر، فقال خيراً، ثم سأله عن عثمان ﷺ فأجابه: (**لم أولد إذ ذاك**). فقال له الحجاج:(**يا بن اللخناء أولدت زمن أبي بكر وعمر ولم تولد زمن عثمان؟!**) فأجابه حطيط: (**يا بن اللخناء! لا تعجل علي إن الناس أجمعوا على أبي بكر وعمر، واختلفوا في عثمان، فوسعني أن أكِلَهُ إلى الله!**). فقال الحجاج: (**أما والله لألحقنك بالنار!**) ثم أمر به فعذب حتى الموت.

وأورد صاحب العقد الفريد روايةً تذهب إلى أَنَّ الحجاج قال في خطبة له: (**إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى بن مريم**). قال الله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]

وسواء صحت نسبة هذه الأقوال إلى الحجاج أم لم تصح فإن الروايات نفسها تدل على شدة تشيع الحجاج لعثمان بن عفان ﷺ وتفضيله إياه على علي بن أبي طالب ﷺ، الأمر الذي جلب عليه نقمة شيعة علي وبغضهم له.

ومِنْ ثَمَّ رأى الحجاج في سياسة اللين التي انتهجها عثمان بن عفان ﷺ في خلافته سبباً في تجرؤ رعيته عليه وقتله، وأوضح ذلك في رسالة بعث بها إلى عبد الملك حين

عرض الأخير على أهل العراق عزل الحجاج ضمن شروطه لمصالحتهم إبان ثورة ابن الأشعث.

وقال في رسالته لعبد الملك: (**ألم تسمع بوثوب أهل الكوفة على عثمان، فلما سألهم عما يريدون قالوا: انزعْ سعيد بن العاص! فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه**).

والواقع أَنَّ هذه الآراء كان يتبناها عبد الملك نفسه الذي أحس ببعد الرعية في عصره عما كانت عليه في فترات حكم من سبقه، فكان يقول: (**ما أنصفتمونا معشر رعيتنا: طلبتم إلينا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما، ولكل من النصفة نصيب**)، ولذلك وجد عبد الملك استحالة السير على تلك السيرة، ورأى ضرورة تطوير طريقة الحكم بما يتناسب مع تطور الناس... ولا بد للوالي أن يسير في كل وقت بما يصلحه.

اقتنع عبد الملك منذ مقتل عثمان ﷺ بضرورة استخدام القوة لإعادة توحيد الجماعة الإسلامية وضبط أمورها بعد أن رأى أن الوسائل التقليدية اللينة لا تجدي كما يتضح ذلك في خطبة له جاء فيها: (**أيها الناس إن الله حد حدوداً، وفرض فروضاً، فما زلتم تزدادون في الذنب حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف**).

وعلى هذه السياسة سار الحجاج متمرساً سياسة عبد الملك، فكان يؤمن بسياسة القوة ويعتقد بأن بعض الشدة أبلغ في السياسة وأحزم في الرأي، وأن الحديد بالحديد يفل.

كما كان يرى أن هذه السياسة من شأنها أن تعزز هيبة الحكم والدولة، فقد رويت عنه في هذا الصدد أقوال منها (**سلطان تخافه الرعية خير من سلطانٍ يخافها**)، (**الناس عبيد العصا، هم في الشدة أشد استباقاً منهم على اللين**)، فعمل على مقابلة القوة بالقوة لتأكيد هيبة الحكم والسلطان، ويتمثل في كثير من الأحيان بقول الشاعر عمرو بن براقة الهمداني:

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْني غزوتُهم   فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالمُ

متى تجمعِ القلبَ الذكيَّ وصارماً وأنفاً حَمِيّاً تجتنبْك المظالمُ

وطبيعي أن تتجلى سياسة الحجاج هذه حين عهد إليه بتصريف شؤون الحجاز ثم العراق والمشرق كله؛ إذ عد نفسه ممثلاً للخليفة في هذه الأقطار يستمد منه القوة والنفوذ. وكان يردد الآية القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]. من هنا كان الحجاج ممثلاً للخليفة الأموي في العراق، ويعد طاعة الناس له ونصرته واجبة، وعد المتخلف عن نصرته متخاذلاً عن الدفاع عن الدولة والإسلام.

فقد أورد صاحب الإمامة والسياسة نص رسالة جوابية بعث بها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، جاء فيها: (**أما بعد، فإن الله تعالى استقبلك يا أمير المؤمنين في حداثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة مثلك من التمكين في البلاد والملك للعباد والنصر على الأعداء، فعليك بالإسلام، فقوِّمْ أَوَدَه وشرائعه وحدوده، ودعْ عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم، فإنه قلما يؤتى الناس من خير أو شر إلا أفشوه في ثلاثة أيام والسلام**)[١]. بهذا الخطاب لخص الحجاج السياسة العامة لدولة الخلافة؛ فقد روي أن الحجاج بعث إلى عبد الملك يستشيره في أمر عدد من القرشيين الذين قبض عليهم لانضمامهم إلى ثورة ابن الأشعث، فكتب إليه عبد الملك يقول: (**لم أبعثك مشفّعاً، وإنما بعثتك منفّذاً مناجزاً لأهل الخلاف والمعصية**)[٢].

أما في غير ذلك من الأمور كتعيين العمال والقادة وجباة الأموال وإصلاح مرافق ما يرونه مناسباً دون حاجة إلى الرجوع إلى الخليفة الذي كان كثيراً ما كتب للحجاج ليعمل رأيه حين كان يستشيره في أمور ثانوية فتُرِكَ أَمْرُها للحجَّاج. ويستدل من بعض

---

(١) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، صص٤٧، ٤٨.

(٢) مروج الذهب. المسعودي. جـ ٢، ص٩٨. والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٦٧.

والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ١، ص٥٢.

الروايات والحكايات التي تنسب إلى الحجاج أن الرجل كان صاحب رأي ونظر، وكان إذا اعتقد بصحة رأيه يتمسك به، ويكتب إلى الخليفة موضحاً وجهة نظره من بعض الحوادث والأمور التي قد تبدو مخالفة لوجهة نظر الخليفة، مما يدل على قوة شخصية الحجاج واعتداده برأيه دون استعلاء أو نزوع منه إلى مخالفة.

فقد روي أن عروة بن الزبير التجأ إلى عبد الملك مخافة أن يطالبه الحجاج بالأموال التي بيده، فأمنه عبد الملك الأمر الذي لم يوافق رأي الحجاج فكتب إلى الخليفة يقول: **(أما بعد فإن لَوْذَ المعترضين بك وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك واستلانتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك كالعارض المبرق لايعدم له شائماً رجاء أن يناله مطره. وإذا أدني الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمريناً لهم على إضاعة الحقوق مع كل وال، والناس عبيد العصا هم على الشدة أشد استباقاً منهم على اللين، ولنا قِبَلَ عروة بن الزبير مالٌ من مال الله، وفي استخراجه قطع لطمع غيره، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام)** وعلى أن عبد الملك لم يبعث بعروة إلى الحجاج ليقتص منه يدلُّ أن الكتاب على آراء سياسيّة للحجاج جديرة بالتنويه، فهو يرى أن عدم معاقبة الجاني تجرِّؤه على اقتراف مزيدٍ من الذنوب وإن في تأديبه عبرة لغيره.

وذكر الهيثم بن عدي حكاية تدل على شخصية الحجاج وقدرته على مراجعة الخليفة في الأوامر التي يبعث بها إليه، من ذلك أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج يطلب إليه أن يبعث إليه برأس أسلم بن عبيد البكري لما قد بلغه عنه، فأحضره الحجاج فقال: **(أيها الأمير! أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، فقال الله تعالى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦]، **وما بلغه عني باطل، وإني أعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري، وهن بالباب)**، فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه أنا عمته، وهذه أنا أخته، وهذه أنا زوجته، وهذه أنا ابنته، وتقدمت إليه جارية فوق الثماني ودون العشر. فقال لها الحجاج: (من أنت ؟) فقالت:

(أنا ابنته). ثم قالت: (أصلح الله الأمير وجثت على ركبتيها وقالت:

أحجـــاجُ لم تشـــهدْ مقـــامَ بناتِـــه — وعمّاتـــه يندبْنَـــه الليـــل أجمعـــا

أحجـــاجُ لم تقتـــلُ بـــه إن قتلتـــه — ثمانـــاً وعشراً واثنتـــين وأربعـــا

حجـــاجُ مَـــنْ ذا يقُـــومُ مُقَامَـــه — علينـــا فمهـــلاً لا تزدنـــا تضعضـــعا

أحجـــاجُ إمَّـــا أَنْ تجـــودَ بنعمـــةٍ — علينـــا وإمـــا أَنْ تُقَتِّلَنـــا معـــا)

فبكى الحجاج وقال: **(والله لا أعنت عليكن، ولا زدتكن تضعضعا)**، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل وما قالت الجارية، فبعث إليه الخليفة يقول: **(إن كان الأمر كما ذكرت فأحسن إليه الصلة، وتفقد الجارية، وعجل بإسراحهن، ففعل ما أمره)**[1].

يتضح من كل ما سبق أن آراء الحجاج السياسية كانت تدور حول عدد من المبادئ أهمها الإيمان بشرعية وحدة الدولة العربية الإسلامية والطاعة المطلقة لخليفتها وتقديم مصلحة دولته على أي اعتبار آخر والاعتقاد بأن الحزم والقوة والترهيب والترغيب هي أفضل السبل لوضع تلك الآراءموضع التنفيذ بغض النظر عن رضاء الناس أو بغضهم.

ولخص الحجاج نفسه سياسته للوليد بن عبد الملك، فقال: **(إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الجلد الحازم في أمره، وقلدت الخراج المؤثر لأمانته، وجعلت لكل خصم من نفسي خصماً يعطيه حظاً من نظري ولطف عنايتي، وصرفت السيف إلى المسيء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب)**.

انتهج عمال الحجاج نهجه وتتلمذوا له، وظلوا مخلصين لمبادئه حتى بعد وفاته. وحاول أصحاب الوظائف الكبرى في الدولة الأموية أن يقتفوا سيرته، ومن أبرز هؤلاء مولاه وكاتبه يزيد بن أبي مسلم الذي استخلفه الحجاج لدى احتضاره على خراج

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. جـ ٤ ، صص ٦١ ، ٦٢. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٢٤ .

العراق لحرصه وأمانته، وأقره الوليد في منصبه وقال: **(مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبي مسلم، فكنت كمن سقط منه درهم وأصاب ديناراً)**؛ دلالة على كفاءته وإخلاصه، وقد بقي يزيد بن أبي مسلم وفياً للحجاج بعد وفاته إذ عزله سليمان عن منصبه، وأمر بإحضاره إلى دمشق لمحاكمته، وهناك دافع عن نفسه وعن وليه الحجاج دفاعاً مجيداً أثبتته مصادر كثيرة منها اليعقوبي في تاريخه حيث قال: أشخص يزيد بن أبي مسلم خليفة الحجاج إلى سليمان، فلما رآه قال له: **(أنت يزيد؟)** قال :**(نعم)**. قال: **(صاحب الحجاج والأفعال التي بلغتني مع ما أرى من دمامة خلقتك؟)** قال يزيد: **(ذاك والله إنك رأيتني والدنيا عليك مقبلة وهي عني مدبرة، ولو رأيتني وهي عليَّ مقبلة وعنك مدبرة لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما استحقرت)**. فقال سليمان: **(أين ترى الحجاج يهوي في النار؟!)** قال: **(لا تقل هذا يا أمير المؤمنين لرجل يحشر عن يمين أبيك وشمال أخيك، وأنزله حيث شئت[1]تنزلها معه)** فقال سليمان ليزيد بن المهلب: **(خذه إليك، فعذبه بألوان العذاب حتى تستخرج منه الأموال)** فقال يا أمير المؤمنين: **(أنا أعلم به لا والله ما عنده مال، ولا كان ممن يحوي المال!)**. فتجاوز عنه سليمان وولاه الصائفة أي قيادة الحملة الصيفية التي تغزو الروم.

ولمَّا ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز عهد إلى يزيد بن أبي مسلم بإمارة إفريقية سنة ١٠٢ هـ، وأَمْضَى في أهلها سياسة الحجاج نفسها في أهل العراق. فأعاد المسلمين من أهل تلك البلاد إلى مدنهم وقراهم وفرض عليهم الأموال نفسها التي كانوا يؤدونها للدولة قبل إسلامهم، تماماً كما فعل الحجاج بالموالي في العراق، فدبر حَسَدَةُ البربر في ذلك العام مؤامرة لقتله اتُّهِمَ فيها عبد الله بن موسى بن نصير الذي لم يلبث أن لقي مصرعه على يد بشر بن صفوان الكلبي.

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، صص٢١٠، ٢١١. كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص٣٤٧. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ٢، ص٣٦٦ .

ويعد الحاكم بن أيوب الثقفي ابن عم الحجاج وعامله على البصرة من الذين تأثروا بمدرسة الحجاج، وساروا على سياسته، وكانت تربطه بالحجاج مصاهرة قوية، وذكر ابن عساكر الذي أورد ترجمة وافية له أنه قتل مع جماعة آل الحجاج بأمر من سليمان بن عبد الملك.

ومن هؤلاء أيضاً محمد بن يوسف الثقفي شقيق الحجاج الذي ولي اليمن مدة طويلة خلال حكم عبد الملك والوليد، وقد نسبت إليه تهم مماثلة للتهم الموجهة للحجاج من أنه أساء السيرة، وظلم الرعية، وصادر الأراضي، وأنه فرض ضريبة إضافية على أهل اليمن، ويبدو أن قلة واردات ضريبة العشر التي كان معمولاً بها جعله يفرض تلك الضريبة. كما أنه نفى بشدة أمام الخليفة الوليد تلك الاتهامات حين قابله في موسم الحج وقد تزوج ابنته يزيد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة الأموية عام ١٠١هـ. ولَّما تُوُفِّيَ وجد الحجاج في حوزته مئة وخمسين ألف دينار؛ فكتب إلى الوليد يخبره بذلك ويقول: (**إن يكن أصابها من حلها فرحمه الله، وإن تكن من خيانة فلا رحمه الله**) فرد الوليد قائلاً: (**إنما أصاب ذلك المال من تجارة له أحللناها فترحم عليه رحمه الله**).

ويبدو أن سياسة الحجاج استهوت عدداً غير قليل من ولاة بني أمية في أثناء حياته وبعد وفاته، فهذا خالد بن عبد الله القسري عامل الوليد على مكة يحذر أهلها من مغبة الخروج على الخليفة، ويخطب فيهم خطبة يقول فيها: (**يا أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، وإياكم والشبهات، فإني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلموا وأطيعوا، ولا تقولوا كيت وكيت، إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه**).

وهذا يوسف بن عمر الثقفي والي العراق لهشام بن عبد الملك تذكرنا سيرته وخطبه بسيرة الحجاج وكلماته النارية، إذ خطب في أهل الكوفة بعد إخفاق ثورة زيد بن علي سنة ١٢٢هـ يقول: (**يا أهل المدرة الخبيثة إني والله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقعُ لي بالشنان، ولا أُخَوِّفُ بالذئب. هيهات حُبيت بالساعد الأشد. أبشروا يا أهل الكوفة**

بالعار والهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، ولقد هممت أن أضرب بلادكم ودوركم وأحرمكم أموالكم... فإنكم أهل بغي وخلاف. ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ولو أذن لقتلت مقاتلكم، وسبيت ذراريكم) وكان يوسف بن عمر يقول: **(إذا ركب الحجاج كان الدخان وأنا اللهب)**.

ويعد قرة بن شريك العبسي والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك في الفترة ما بين (٩٠- ٩٦هـ) من أهم الولاة الأمويين الذين عاصروا الحجاج، وربما تأثر في بعض وسائله لإقرار الأمن والنظام ومحاربة الرشوة والفساد والحد من مشكلة انتقال الفلاحين من الريف إلى المدن وتفرقهم في الأقاليم تهرباً من دفع الضرائب.

اتهمه معظم المؤرخين الأولين بالقسوة والظلم إلا أن أوراق البردي العربية التي عثر عليها في مصر عن عهد قرة بن شريك قد برأته من الكثير من تلك المظالم المنسوبة إليه، على عكس الحجاج الذي ظل حتى اليوم يفتقر إلى الدليل المادي الذي قد تسقط كثير من المظالم والتهم التي التصقت به، وذلك بسبب شحة الوثائق المكتوبة عن عصره.

وفي الحقِّ أن السياسية العامة التي سار عليها الحجاج من حيث ضبط الأمور بالشدة والحزم والمحافظة على وحدة الدولة وتأكيد طاعة رئيسها والقضاء على الخارجين عليها، لم تكن سياسة جديدة ابتدعها الحجاج أو عبد الملك، وإنما كانت استمراراً وتطوراً للسياسية التي سعت الدولة الإسلامية إلى تثبيتها في نفوس رعيتها منذ نشأتها الأولى، ولكن لا بد من أن نلحظ بطبيعة الحال الفارق الكبير بين القائمين على تنفيذ هذه السياسة في العهود المختلفة، فقد كان حزم أبي بكر وشدة عمر بن الخطاب والحكم الراشدي بوجه عام لا تهدف إلى تحقيق مكاسب شخصية أو أسرية، وإنما كانت غايتها الكبرى ابتغاء مرضاة الله عن طريق الانتصار لمبادئ الإسلام ووضعها موضع التنفيذ وحمل الناس عليها. وذلك في نطاق دولة قامت أصلاً على تلك المبادئ والدعوة لها، إلا أن اختلاف الزمان والمكان أدى إلى اختلاف الوسائل المتبعة في تثبيت دعائم الحكم ونشر الدعوة. وهذا ما حدث إبان قيام الدولة الأموية، واستمر عند من أتى بعدها من

الدول؛ إلا أن التفريق في أهداف سياسة الشدة والحزم عند أصحاب النهج الراشدي والنهج الأموي على هذا النحو لا يبدو واضحاً في المصادر العربية المتأخرة، ويظهر ذلك بوضوح حين عقد أصحاب هذه المصادر مقارنات بين عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وزياد بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وأبي جعفر المنصور. فهذا البهيقيّ يقول: (**كان زياد بن أبي سفيان يحتذي فعل عمر، كاحتذاء معاوية فعل عمر رحمه الله في تعرف أمور رعيته وممالكه؛ وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان والحجاج**) ومع ذلك فلا بد من القول إن تغير الظروف في عهد الحجاج عما كانت عليه من قبلُ ولا سيَّما بالنسبة إلى العراق وعلاقته المتوترة بالدولة الأموية جعلت سياسة الحجاج المتشددة تختلف بطبيعتها ووسائلها عن سياسة من سبقه من الولاة؛ وليس أدل على ذلك من أن عبد الملك بن مروان سأل أحد جلسائه يوماً عن سيرة زياد والحجاج فقال له: (**يا أمير المؤمنين! إن زياداً قدم العراق وهي جمرة تشتعل، فسلّ أحقادهم وداوى أَدواءَهم، وضبط أهل العراق بأهل العراق، وقدمها الحجاج، فكسر الخوارج، وأفسد قلوب الناس، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلاً عن أهل العراق، ولو رام ما رامه زياد لم يفاجئك إلا على قعود يوجف به**).

وفي العبارة الأخيرة إشارة واضحة إلى أن الظروف الصعبة والأمور الجديدة التي ظهرت في عصر الحجاج بن يوسف هي التي حملته على انتهاج تلك السياسة وبلورت لديه تلك الأفكار والآراء السياسية. ولكن هذه الأفكار والآراء كانت في الحقيقة نتيجة مباشرة لردود الفعل المعادية من جانب أهل العراق الذين عرفوا بالتمرد ومناوأة الحكام والقيام بالثورات.

الفصل الرابع

أخلاق الحجاج تدينه، وأوصافه الخلقية

كثرت أخبار الحجاج وتداخلت حتى اختلط صحيحها بموضوعها اختلاطاً شديداً، إلا أن البحث يجد أخباراً أخرى تنبئ عما كان للحجاج من فضائل نفسية ومزايا عقلية وسياسية تجعله فوق مستوى عصره.بل تصل إلى مستوى الساسة العظام والقواد الكبار والمصلحين الذين طبقت شهرتهم الآفاق.

وهنا لا مجال للإدعاء، فالأمثلة على ذلك كثيرة وشجاعته واضحة، فقد كانت الشجاعة صفة واضحة في الحجاج. وإلى هذه الصفة يعزى ما وصل إليه من عظمة في حياته، ولا ينسى التاريخ موقفه من ابن الأشعث حينما أخبره بعض خاصته أن جنود الشام يهزمون أمام جنود العراق، فما طار لذلك لبه، ولا ذهبتْ نفسُه شَعَاعاً، ولكنه جثا على ركبتيه، وانتضى نحو شبر من سيفه، واستعد للقاء الموت كريماً، وقال: (**لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل!**). فكان صنيعه هذا مما قوى قلوب جنده، فاستبسلوا حتى كتب لهم النصر على جند ابن الأشعث.(١)

كما لا ينسى له موقفه في ثورة ابن الجارود، وقد انفضَّ عنه أكثر خاصته، وجاءه ابن مسمع يقول: (**إني قد أخذت لك الأمان!**). فلم يقبل ذلك الأمان ثقة بنفسه، ولم يلبث أن عكس الآية وجعل يقول: (**والله لا أؤمنهم أبداً!**). وصار يرفع صوته كي ما يسمع ذلك أنصاره، فترتفع روحهم المعنوية.

كان الحجاج موهوباً في ذكائه وسعة حيلته. قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: (**ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج وإياس بن**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٥٢ .

معاوية، فإن عقلهما كان يرجح على عقول الناس[1]، فكان بذلك ثاني اثنين فاقا أهل عصرهما في الذكاء).

روى عبد الله بن ظبيان - قاتل مصعب بن الزبير - قال: (**كنت واقفاً بباب الحجاج، فإذا هو قد خرج وحده وكانت القائلة وما بالباب أحد، فوقع في نفسي أن أقتله فنظر إليّ، فقال: هل لقيت يزيد بن أبي مسلم؟ - كاتبه - قلت: لا، قال: ألقه فإن عهدك على الري معه. فطمعت وكففت عنه، وتوجهت إلى يزيد، فلم يكن عنده عهد، ولا شيء من ذلك، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً مني وشغلاً عما أردته به**).

وقد بنى هو وعبد الملك بابين، فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك، فداخله حسد للحجاج فكتب إليه الحجاج (**إنما مثل أمير المؤمنين، ومثلي كمثل ابني آدم، إذ قربا قرباناً. فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر**).

فسر عبد الملك من ذلك الجواب، وزال ما كان في نفسه[2]؛ وقد تجلى ذكاؤه خلال قتاله لابن الزبير إذا نزلت صواعق على عدد من أهل الشام، فقال لأصحابه: (**هذا الفتح قد حضر، فأبشروا إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم!**)[3]. فلما تحقق ذلك قويت روحهم المعنوية.

ولما قتل جبلة بن زحر في فتنة ابن الأشعث وجيء له برأس حمله على رمحين ثم قال: (**يا أهل الشام هذا أول الفتح، والله ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن، وهذا من عظمائهم**)[4]. وقد ساعده الحظ، فلم يلبثوا كثيراً حتى دارت عليهم الدوائر

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٩ .

(٢) سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٠٨ .

(٣) تاريخ اليعقوبي. اليعقوبي. جـ٣، والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص٢٣ . وراجع مجلة الرسالة عدد ٢٤٧ ص٤٢ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري مصدر سابق. جـ٥، ص١٦٥ .

كرمه:

كان الحجاج كريماً، ما وضع أمامه طعام إلا وطلب من يشاركه فيه[1]؛ وكان يقول: (**البخل على الطعام أقبح من البرص على الجسد**)[2].

كان يطعم لما ولي العراق في كل يوم على ألف مائدة[3] يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس، وقد وضع على تلك الموائد الملكية عشرة ألوان منها الثريد والشواء والسمك والأرز بالسكر.

وكان الحجاج يطوف على هذه الموائد بنفسه ليتفقد المدعوين والطعام المقدم لهم[4]، فلما رأى خدمهحرصه على تمام الضيافة كانوا لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر[5].

وكان يقول لأهل الشام: (**اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم**)[6]، وكان له ساقيان أحدهما يسقي العسل والماء والآخر يسقي اللبن.[7]

وكان يرسل الرسل كل يوم إلى الناس لحضور الطعام، فكثر عليه ذلك، فقال: (**أيها الناس رسلي إليكم الشمسُ إذا طلعت فاحضروا للغداء، وإذا غربت فاحضروا للعشاء**) فكانوا يفعلون ذلك. واستقل عَدَدَ النَّاس في يوم، فسأل عن سبب ذلك، فأجابه رجل قائلاً: (**إنك أغنيت الناس في بيوتهم عن الحضور إلى المائدة**) فأعجبه ذلك الجواب

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص١٠٦ .

(٢) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص١٧٣ .

(٣) سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٨ . وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق ١٧٣ .

(٤) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦ . وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص١٧٣ .

(٥) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦ .

(٦) تهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. جـ ٤، ص٦١ . وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٠٨ .

(٧) التاج في أخلاق الملوك. الجاحظ. والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. جـ١، ص١٨١ .

اللطيف، وقال لقائله: (**اجلس بارك الله فيك!**).[1]

صراحته:

كان الحجاج صريحاً يحب الحق، ولا يرى عيباً ولا زللاً في الرجوع إليه. قيل: دخل عليه سليك بن سلكة فقال: (**أصلح الله الأمير أعرْني سمعك، واغضضْ عني بصرك، واكفف عني حزبك، فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك العقوبة**). فقال: (**قل**). قال: (**عصى عاص من عرض العشيرة فحلف على اسمي، وهدمت داري، وحرمت عطائي**).

فقال: هيهات أما سمعت قول الشاعر:

جانيك مَنْ يجني عليكَ وربَّما ... تُعْدِي الصِّحَاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ

ولرُبَّ مأخوذٍ بذَنْبِ عشيرةٍ ... ونجَّى المُقَارِفُ صَاحِبَ الذَّنْبِ

فقال: (**أصلح الله الأمير سمعتُ الله قال غير هذا!**). قال: (**وما ذاك؟**) قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ [يوسف: ٧٨ و٧٩]، فقال الحجاج عليّ بيزيد بن أبي مسلم؛ فلما أتي به أمره أن يفك له عن اسمه، ويعطيه صكّاً بعطائه ويبني له منزله، وأمر منادياً ينادي في الناس (**صدق الله وكذب الشاعر!**)[2]، وكان يصارح أهل العراق بكراهيته لهم، وذلك حين خطب فيهم مرة فقال: (**يا أهل العراق! إني لم أجد دواءً أدوأ لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل، فإنها تعقب الراحة. وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم، وما أراكم إلا كارهين لمقالتي. أنا والله لرؤيتكم أكره، ولولا ما أريد**

---

(١) سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٨. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص١٧٣ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦. وتهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. مصدر سابق جـ ٤، ص ٦١.

والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٣٣.

من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي مقاساتكم والصبر إلى النظر إليكم، والله أسأل حسن العون عليكم!)[1].

وقد تجلت صراحته في رده على خطاب عبد الملك الذي أرسله مع غلامه نباتة[2]. وكما كان الحجاج صريحاً أحب الصدق في القول، فقد يأتي الرجل الجسيم من الأمر فلا يشك أن الحجاج قاتله فإذا أحضر بين يديه، وسأله عن ذنبه، فاعترف به كان اعترافه منجاة له من الموت. ومن هؤلاء عامر الشعبي لما دخل على الحجاج بعد ثورة ابن الأشعث وأصدقه القول عفا عنه[3] كما عفا عن رجل أجابه بأنه يبغضه كثيراً، وأنه لذلك لم يدافع عنه أمام ابن الأشعث حينما ذكر ابن الأشعث أم الحجاج بسوء[4]. وعفا عن ولدين عاصيين لربعي بن خراش لصدق أبيهما[5] والأمثلة على ذلك كثيرة.وكان يعجبه الجواب السديد والنكتة البارعة. أمر مرة بقتل رجل في جرم ارتكبه فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني. فعفا عنه.[6]

وجيء إليه بامرأة خارجية فسألها، فصوبت له جواباً سديداً تضمن نكتة بارعة بأن قالت له: **(لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج)** قال: **(ومن هو صاحبي؟)** قالت: **(فرعون استشارهم في موسى عليه السلام، فقالوا ارجه وأخاه، بينما**

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص ١٣١ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، صص ٩، ١٠.

(٣) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص ١٠ و جـ١، ص ١٨٦ .

(٤) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ١٨٤ . وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ٣٤٥. وتهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. جـ ٤ ، ص ٦٢. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ١٢٥ .

(٥) وفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص ٢٣٣.
والنجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. مصدر سابق. جـ ١، صص ٢٥٣، ٢٥٤ .

(٦) والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ١، ص ١٩١ . وتهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٦١. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٠٧ .

وزراؤك أشاروا بالقتل) فعفا عنها الحجاج.

وخرج الحجاج وهو بالمدينة مرة للصيد، فانفرد وحده، فرأى أعرابياً فسأله عن سيرة أميرهم. فقال: (ظلوم غشوم لا حَيَّاه الله!). فقال له: (لو شكوه إلى عبد الملك). فقال: (أغشم وأظلم عليه لعنة الله!). وبينما هم في الحديث إذا بالخيل قد أحاطت بالحجاج، فأمر بالقبض على الأعرابي. فقال الأعرابي: (يا حجاج! السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوماً!). فضحك الحجاج وعفا عنه.

حلمه:

كان الحجاج حليماً، لما انتهى من أمر ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخاً خارجاً منها، فلما رآه الحجاج قال له: (من أهل المدينة أنت؟) قال: (نعم!) قال: (من أيهم؟) قال: (من بني فزارة). فسأله عن حال أهل المدينة. فقال: (بشرٍّ حالٍ لقتل ابن الزبير!). فسأله عن القاتل فذمَّه ووصفه بعدم الخوف من الله، فعرَّفه الحجاج بنفسه، فخشي الرجل الحجاج، فقال له: (والله يا حجاج! لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة! أنا العباس بن أبي ثور أُصْرَعُ في اليوم خمس مرات!) فتركه الحجاج[1].

وتروي بعض المصادر مثل هذه الرواية في خروجه إلى ظاهر الكوفة منفرداً وسؤال مولى لبني عامر عن حال أميرهم، فلعن هذا المولى الحجاج، فلما عرفه الحجاج بنفسه اعتذر بأنه يُجَنُّ في الشهر ثلاث مرات، وأن هذا اليوم أشد الصرع، فضحك الحجاج من قوله وعفا عنه[2].

كذلك كره الحجاج الكذب والخيانة، فقد حبس صهره مالك بن أسماء إذ مد يده إلى مال الدولة. ويقال: إِنَّه كان يسقيه الماء ممزوجاً بالملح والرماد[3].

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. جـ ٤ ، ص ٦٥. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٢١ . وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ ١١، ٤٠٣ .

(٢) سرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٠ .

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٦، ص٤١ .

غيرته:

كان الحجاج يفخر بغيرته على الأحساب والأنساب. خطب في الناس بعد موقعة الزاوية، فأوصاهم بالاعتدال في أمورهم وحذرهم من دخول رجل بيت امرأة وجعل عقاب ذلك القتل. وقال: (**أنا الغيور ابن الغيور**). رافعاً بها صوته. وحدث أن أحد الشاميين دخل على امرأةوقتله زوجها وأخبر الحجاج بذلك قال: (**خذوا قتيلكم فإنه لا قَوَدَ له ولا دِيَةَ! بل هو قتيل الله إلى النار!**).

وليس أدل على ذلك من حادثة ابن أخيه الذي كان حاكماً بواسط، وأغرم بامرأة فمنعته نفسها مرات حتى سئمت-فأخبرت إخوتها، فأمروها بأن تأذن له بالمجيء ليلاً، ولما دخل في غسق الليل قتلوه وقطعوا أوصاله ثم رموا به في عرض الشارع، وعلم الحجاج بالأمر وثبت بالأدلة بأنه كان ينوي ارتكاب الفاحشة، فأمر بإلقائه للكلاب ووصل المرأة بكل ما خلفه ابن أخيه وقال لها: (**كثر الله في النساء أمثالك**)[1].

وكذلك كره فحش القول، فإنه لما أتي بامرأة ابن الأشعث بعد دير الجماجم قال لأحد الخدم قل لها: (**عدوة الله أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك؟**) فقال لها الخادم: (**أين مال الله الذي جعلته تحت استك؟**) فغضب الحجاج وقال له: (**كذبت! ما هذا قلت!**) وأمره بتخليته عنها[2].

عفوه:

وبقدر ما اشتهر الحجاج بالقسوة على المجرمين والمذنبين نراه كثيراً ما عفا عن مذنبين لمكانتهم أو لاعترافهم بذنبهم أو لإجابتهم المستحسنة أو شجاعتهم.فقد عفا عن جحدر بن مالك لكونه مقاتلاً شجاعاً وشاعراً ولصاً قوياً، ولكنه اشترط عليه أن يقتل أسداً ضارياً كان في إقليم كسكر. وبعد أن قتله مبارزة كَنِدّ له خيّره الحجاج بين الرجوع إلى

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٤٢هـ). مصدر سابق. جـ ٢، صص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ ٣، ص٦ .

وطنه- اليمامة - أو البقاء في خدمته، فاختار هذا البقاء في خدمته، فأجزل له الحجاج العطاء[1].

ومرة كان متوجهاً إلى البصرة فقابلته امرأة وقالت له: اتق الله يا حجاج فإن أزواجنا غائبة عنا مع ابن أبي بكرة منذ ستة أشهر فأشفق عليها، وأمر بإطلاق زوجها وكل من كان معه[2].

وفاؤه:

أخلص الحجاج للخلافة فلم يغدر بأحد من الخلفاء مع حكمه لنصف أملاك الدولة، وقد تجلى وفاؤه في استمرار صلته لعبد الله بن جعفر وحمله له ما يلزم كل هلال. وكذلك مالك بن شرحبيل الخولاني - الذي كان معه في حصار مكة - فإنه كان يرسل إليه في كل عام بحلة وثلاثين ألف درهم، وولاه القضاء في سنة ثلاث وثمانين.[3]

تديّنه:

كذلك أخلص الحجاج في عقيدته، وكان ورعاً زاهداً؛ فكان إذا وعظ أخذ بمجامع القلوب وأثر في قرارة النفوس حتى قال إمام الواعظين في عصره - الحسن البصري-: **(لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج).**

فقد فاضتْ خُطَبُه بالإخلاص، ونمَّت على الإيمان الصحيح، خطب مرة وذكر القبر وما فيه حتى بكى وأبكى من حوله[4]. وقال مرة: **(إن امرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ذنبه ويستغفر ربه من ذنبه، ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه، ويتضاعف**

---

(١) المحاسن والأضداد. الجاحظ. ص ٧٧. وتهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. جـ ٤، صص ٦٣، ٦٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٢٥. والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ١، ص ٢٢٤.

(٢) عيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص ٢٦٠.

(٣) القضاة. الكندي أبو عمر محمد بن يوسف (ت حوالي ٣٥٠هـ). صص ٣٢٠، ٣٢١. وفتوح مصر وأخبارها. ابن عبد الحكم. مصدر سابق. ص ٢٣٦.

(٤) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٨.

أسفه)[1]. كان يحاسب نفسه ويراقبها وقد وصل في ذلك إلى الدرجة التي قال بها المتصوفة فيما بعد. ولذا لا نعجب لما قيل من أن الحجاج كان يقرأ القرآن كل ليلة [2]حتى حسده على ذلك عمر بن عبد العزيز إذ قال: (**ما حسدت الحجاج حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله**)[3]. وبلغ من محبته للقرآن والمحافظة عليه أنه حين وجد الناس يلحنون في كتاب الله عمل على شكله ونقطه.وكان الحجاج قليل الضحك وإذا ضحك سارع إلى الاستغفار[4]؛ بكى وأكثر من البكاء خوفاً من الله تعالى حتى عمشت عيناه.[5]

حبه للعلم:

أحب الحجاج العلماء وأجلهم؛ مع عدم تدخلهم في السياسة وألا يشتركوا في الثورات، وبلغ من إكباره للعلم أن ترك يحيى بن وثاب يصلي بالناس مع أنه مولى[6]، وكان الحجاج يلتمس للعلماء طريقاً للعفو إذا ما أذنبوا ورجعوا كما حدث للشعبي. وعلى أن الحجاج كان عالماً وفقيهاً متواضعاً لا يأبى أن يستمع لنصيحة، وكان الحجاج - مع كثرة مشاغله - لا يني عن الجلوس للعلماء والاقتداء بهم، فقد اقتدى بابن عمر في مناسك الحج[7]، وصلى مرة وهو صغير بجانب سعيد بن المسيب فلم يحسن الصلاة. فلما انتهت الصلاة أمسك سعيد بطرف ردائه، وصار يوبخه على صلاته تلك، وكان مما

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. جـ١، ص ٦٩. ومروج الذهب. المسعودي. جـ٢، ص ١٠٦ .

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٤٩. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ٤١.

(٣) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ٤ ، ص ٨٢. وتاريخ الإسلام. الذهبي. جـ ٤ ، ص ٨١٩ .

(٤) الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ١٧٣ . و العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص ١٠.

والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ١، ص ٥٠ .

(٥) مختصر صفوة الصفوة. ابن الجوزي، جمال الدين (ت٦٢٦هـ). ص ١٥١ .

(٦) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ٢٠٧ .

(٧) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص١٢ .

قاله: (**لقد هممت أن أضرب بهذا وجهك!**) فلم يرد عليه الحجاج شيئاً. ثم مرت الأيام والسنون وولي الحجاج الحجاز فأقبل على مجلس سعيد وجلس بين يديه وقال له: (**جزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ما صليت بعدك صلاة إلا أذكر قولك**)[1].

وكان يحضر مجالس الحسن البصري، فإذا أراد أن ينصرف يوصيه بالناس فيقول له: (**لا تملَّ الناس!**)، فيقول الحسن: (**أصلح الله الأمير! لم يبق إلا من له حاجة**)[2]. وكان يسأل العلماء عما يشكل عليه، وقد سأل الشعبي[3] ويحيى بن يعمر وغيرهما.

وقد أجمعت المصادر على عدم شربه الخمر، ويروى أنه دعي إلى شراب النبيذ فأبى وقال: (**إني أنهي أهل عملي عنه وما أريد أن أخالف قول العبد الصالح: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**).

حبه لآل بيت الرسول ﷺ:

أحب الحجاج آل بيت الرسول وأكرمهم وما زواجه بينت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه[4]. وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة: (**ليقم كل رجل منكم يذكر بلاءه لنعطيه!**). فقام رجل فقال: (**أنا قاتل الحسين!**). فقال: (**كيف قتلته؟**) قال: (**دسرته بالرمح دسراً، وهبرته**

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٧٢. وتاريخ الإسلام. الذهبي. جـ ٤ ، ص ٧٩. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١١٩ .

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٧١ . وتاريخ الإسلام. الذهبي. جـ ٤ ، ص ٨١٣ .

(٣) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص ١١. وجـ ١ ص ١٧٣.
ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٠٣.
وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ١٥٨

(٤) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ١٤٦.
والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ٢، ص ٢٢١.

بالسيف هبراً). فقال: (أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة!) وحرمه من العطاء[1].

كذلك أحب الحجاج الدعاء، وقد روى في ذلك حديثاً[2]. فقيل: إنَّه لما أبطأ خبر قتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر أمر الناس بالدعاء له في المساجد[3]. وعلى تفانيه في خدمة الصالح العام لم ينج من حسد الناس له وحقدهم عليه حتى لقد وصلت الحال ببعضهم أن كفره[4].

ولما مات الحجاج صار الناس يسألون عنه أهو في الجنة أم في النار؟! فأفتى بعضهم أنه في النار[5]، وبذلك حكم عليه في آخرته؛ وتورع بعضهم الآخر عن الحكم وقال: سبحان الله أأحكم على الله؟! فسألوه عن سبه فنهى عن ذلك[6].

وهنا لا يمكن البحثَ الأخذُ بكل ما كتب عن الحجاج لتعدد الطوائف والملل في العراق؛ وقد كرهت في أغلبها الحكم الأموي وولاته، وعليه يُرى أن بعض الكتاب والمحدثين قد تجاوزوا الحقائق ورووا روايات نالوا فيها من شخصية الحجاج وحكمه؛ ولكن بالرجوع إلى كثير من المصادر الأخرى وجد فيها إنصافاً له. فأعمالٌ مشينة كتلك

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير. جـ ٤، ص ١٣٢. وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٨١٢.
وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٨.

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٤٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢١٨. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ١٠٧ وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١١٤.

(٤) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٧ ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، صص١٠٣، ١٠٤.
والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٢٩، ١٣١.

(٥) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦.
وأخبار الدول وآثار الأول. القرماني. ص١٣٣.

(٦) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٨١. وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٨١٨.

لايمكن أن تصدر عن شخصية تجزي المحسن وتعاقب المسيء. والحجج غالباً ما تبطل الفرضيات.

أسرة الحجاج:

كان الحجاج باراً بأسرته محباً لعشيرته عاملاً على إسعاد قرابته. لذلك لم يدخر وسعاً في ترشيح آله للمناصب المهمة؛ فعين عبد الملك أخاه محمَّداً حاكماً على اليمن، فأدار هذا الإقليم عدة سنوات بمهارة، وجعل على أهل اليمن خراجاً محدداً، فاستاء أهل اليمن من هذه التصرفات، وشكوه إلى الحجاج، ولكنه لم يعزله اقتناعاً بسياسته؛ واستمر أمر خراج اليمن على وضعه إلى عهد عمر بن عبد العزيز، فألغاه واقتصر على العشر ونصف العشر؛ فلما ولي يزيد بن عبد الملك أمر بجعل الخراج كما كان قبل عهد عمر[1].

ولم يدّخر أهل اليمن وسعاً في إيغار صدر الحجاج على أخيه. فلمَّا كان بمكة جاءه رجل من أهل اليمن فسأله عن أخيه فقال: (**خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق مطيعاً للمخلوق**)[2]

استطاع محمد في ولايته أن يصطفي لنفسه بعض الممتلكات[3]، فلما توفي في ولايته وجد في خزائنه نحو مئة وخمسين ألفاً من الدنانير، فأخبر الحجاج الوليد بها قائلاً: (**إن محمد بن يوسف قد أصاب مئة وخمسين ألف دينار، فإن كان أصابها من حلها فرحمه الله، وإن لم يكن أصابها من حلها فلا رحمه الله**). فرد عليه الوليد (**إنه قد أصابها من تجارة أحللناها له، فارحمه رحمه الله!**).[4]

كذلك عين الحكم بن أيوب بن أبي عقيل- ابن عمه وزوج أخته - خليفة له على

---

(١) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٨٠. والنجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. مصدر سابق. جـ١، ص٢٣٩ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص٦٧ .

(٣) فتوح البلدان. البلاذري. مصدر سابق. ص ٨٠ .

(٤) الكامل في اللغة والأدب. المبرد. ص٢٩٤ .

البصرة، وعين محمد بن القاسم - ابن عمه - قائد الحملة التي وجهت إلى السند، وقد نجح فيما أخفق فيه غيره. ومحمد ابنه كان قائد الجيش الذي ذهب إلى غزوة الديلم، وأبناء المغيرة الثلاثة كانوا أمراء، فعروة كان أمير الكوفة، والمطرف أمير المدائن، وحمزة أمير همدان.

ويروى أن ابن عم له قدم عليه من البادية سائلاً إياه ولاية، فأبى عليه الحجاج محتجاً بأنه لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولكن ذلك لم يقنع الأعرابي، فامتحنه الحجاج بأن قال له: اقسم ثلاثة دراهم على أربعة أشخاص، فلم يعرف ولما ضاقت حيلته اقترح بأن يعطي كل واحد درهماً، ويعطي الرابع درهماً من عنده وعرض هذا الحل على الحجاج وجلسائه فضحكوا منه. لكن الأعرابي ظل مصراً على طلبه!! فأرسله إلى أهل أصبهان الذين كسروا خراجهم ثلاث سنين، وأجزوا الولاة في التحصيل فقال: (**والله لأرمينهم بيدوية هذا وعنجهيته فأخلق به أن ينجب!**). فكتب له عهده على أصبهان، فخرج إليها، فلما وصلها استقبله أهلها استقبالاً عظيماً، فما كاد يستقر بداره حتى جمع الناس وقال لهم: (**ما لكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم؟**).

فشكوا إليه ظلم الولاة وجور العمال، فسألهم عما يصلحهم، فطلبوا إليه تأخير الخراج ثمانية شهور، فمد لهم الأجل إلى عشرة، وطلب إليهم عشرة ضمناء. ومضت الأيام والشهور وقرب الأجل وهم غير مكترثين بجمعه، فطلب إليهم المال فلم يسمعوا لقوله. فلما رأى مطلهم جمع الضمناء وطلب إليهم المال، فقالوا: (**إن الزراعة أصابها آفة**) فحلف أن لا يفطر - وكان ذلك في شهر رمضان- حتى يجمع المال أو يضرب أعناقهم جميعاً.

وقدم أحدهم فضرب عنقه، وكتب عليه فلان ابن فلان أدى ما عليه وجعل رأسه في بدرة، وختم عليها، وقدم الثاني ففعل به مثل ذلك، فلما رأى القوم الرؤوس تبدر قالوا: (**أيها الأمير توقف حتى نحضر لك المال!**) ففعل وسرعان ما أحضروه. بلغ ذلك العمل الحجاج فسر وقال: (**إنا معاشر آل محمد - يعني جده - نُجُبٌ، فكيف رأيتم فراستي في**

الأعرابي؟). لم يول والياً عليها حتى مات الحجاج.[1]

أهل بيته، نساؤه، وأولاده:

تزوج الحجاج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر، وأم الجلاس بنت عبد الله بن خالد بن أسيد، وأم سلمة بن عبد الرحمن بن عمرو، والفارعة بنت هبار[2]، وأم أبان بنت النعمان بن بشير، ولم تطل إقامتها عنده لولعها الشديد به، فطلقها.[3]

أما الزوجتان المشهورتان للحجاج فهما هند بنت المهلب؛ وهند بنت أسماء بن خارجة الفزاري، التي طلقها يوم سجنه لأخيها يزيد لعلوّ في صوتها.[4]

أما زوجته الثانية فقد أرغمت على الزواج ببشر بن مروان، ولها منه ولدان، ومات عنها. ولما ولي الحجاج العراق أراد أن يضم إليه الأميرين الصغيرين ليربيهما في بيته كأولاده، وأرسل في هذا الشأن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري فلم تحاول هند الممانعة في أخذ نجليها. وقد وصفها الرسول للحجاج، فأشاد بما فيها من محاسن، فرده ليخطبها إليه، فوافق أبوها على زواجها من الحجاج، فأرسل إليها الحجاج مهراً عظيماً وخدماً وجواري يحملون فاخر الثياب، ثم زفت إليه وقد أوصاها أبوها بوصايا قبل مفارقتها لمنزلها؛ ولكن قلبها كان معلقاً بعبيد الله بن زياد، فلما نقلها الحجاج إلى البصرة لم تجد قصره في نظرها جميلاً كقصر عبيد الله بن زياد، فنغصت حياتها ومِنْ ثَمَّ حياته[5]. يروى أنه دخل عليها مرة وهي تنظر في المرآة - وقد أعجبها جمالها - وتقول:

وما هندُ إلا مهرةٌ عربيةٌ ... سليلةُ أفراسٍ تَحَلَّلَها بَغْلُ

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، صص ١١٤، ١١٥ .

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص٦ .

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٨ ، ص١٣٥ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ ٥، ص ١٢٠ والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٤، ص ١٢٥ . ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ٢، ص ٣٥٦ .

(٥) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٨، صص ١٣٠، ١٢٩ .

فـــإنْ ولـــدتْ فَحْـــلاً فللَّـــه دَرُّهـــا   وإن ولـــدتْ بَغْـلاً فجـاءَ بِـهِ البَغْـلُ[1]

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها- ولم تكن قد علمت به - وأرسل إليها ابن القِرِّية[2]، وقال له: (**طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما!**)، وأرسل معه ما كان قِبَلَه. فدخل ابن القِرِّية عليها وقال لها: (**يقول لك الحجاج (كُنتِ فَبِنْتِ!)، وهذه المئة ألف درهم التي كانت لك قبله!**)[3]. فقالت: (**اعلم يا ابن القِرِّية! أنا والله كُنَّا فما حمدنا، وبِنّا فما ندمْنا، وهذه المئة ألف بشارة لك بطلاقي**)[4].

وأما الأولاد فهم محمد وقد مات في حياة أبيه، وفي عهد المؤرخ ابن قتيبة كان لمحمد ذرية في دمشق، وعبد الملك وكان له ذرية في البصرة. أما أبان والوليد فقد ماتا دون عقب[5]، وبنتان تزوجت إحداهما ابناً للخليفة عبد الملك بن مروانوثانيهما مسرور بن الخليفة الوليد[6].

وقد عمل على تربيتهم تربية صحيحة، فاهتم بغرس المبادئ الدينية فيهم باختيار أساتذة مسلمين ووصايته لهم. يروي صاحب الأغاني أنه حين أراد مؤدباً لولده أشير عليه بأستاذين أحدهما نصراني عالم والآخر مسلم أقل علماً، فاختار الحجاج المسلم[7]، ولما حضر لديه قال له: (**ألا ترى يا هذا أنا قد دللنا على نصراني؟ وقد ذكروا أنه أعلم منك غير أني لم أشأ أن أضم ولدي إلى من لا ينبههم للصلاة عند وقتها، ولا يدلهم على**

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٨، ص ١٢٩. والمحاسن والأضداد. الجاحظ. ص ١٨٤.

(٢) المحاسن والأضداد. الجاحظ. مصدر سابق.ص ١٨٤. وعيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، ص ٢٠٩.

(٣) المحاسن والأضداد. الجاحظ. مصدر سابق.ص ١٨٤.

(٤) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، ص ٢٠٩.

(٥) المعارف. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٧٣.

العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص ٢٣٩.

(٧) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٨، ص ٧٨.

شرائع **الإسلام ومعالمه؟)**[1]. كما اهتم بتنشئهم حتى يشبوا أقوياء البنية. فعلمهم السباحة قبل الكتابة قائلاً له: (**إنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم**)[2].

الحجاج في بيته:

رافقنا الحجاج في سياسته وأعماله، وعرفنا شيئاً من أدبه وخطبه، ولا نحسب أن الإطلالة على حياة الرجل تكتمل أو تكاد دون الإلمام بشيء عن حياته في بيته وبين أهله وبنيه.وهنا نواجه ندرة في المعلومات التي تمدُّنا بها المصادر حول هذا الموضوع، ومع ذلك فإن هذه المعلومات على ندرتها وتناثرها تكفي لرسم صورة قريبة إلى الواقع عن الحجاج في بيته.فالرجل بعد ارتفاع شأنه كان يقيم في قصر الإمارة سواء في مكة أم المدينة أم الكوفة أم البصرة أم واسط، وكان يخصص جناحاً كبيراً من القصر لسكناه وعائلته، ولسنا نعرف على وجه التحديد في أي سنة تزوج أَوَّل مرة أو مَنْ تزوج، ولكننا نعلم أن الحجاج تزوج نساء عدّة على عادة الثقفيين كما يبدو.

إذ كانت ظاهرة تعدد الزوجات مألوفة في ثقيف قبل الإسلام حتى كان عند بعضهم عشر نسوة حين جاء الإسلام، فأمسك كلٌّ منهم أربعاً ونزل عن ستٍّ.ويرجح أن أول امرأة تزوج منها الحجاج كانت أم محمد التي لا نعرف أكان اسمها أم اسم أبيها، لأن الحجاج كان يكنى (بأبي محمد)

وتزوج قبل توجهه إلى العراق هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري أحد الصحابة المشهورين الذين نزلوا الشام. وعُرفت هند الأنصارية هذه بالحسن والجمال والأدب والفصاحة.

وتذكر بعض المصادر أنها كانت متزوجة قبل ذلك بروح بن زنباع الجذامي، إلا أن

---

(1) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٨، ص ٧٨.

(2) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٦٦. والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٤٥

صاحب الأغاني يذهب إلى أن روحاً تزوج أختها حميدة وله معها أخبار. وقد أنجبت هند بنت النعمان بن بشير للحجاج ولدين هما إبان وعبد الملك، إلا أن الحجاج طلقها فيما بعد؛ لأنه على حد قول بعض الروايات دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندُ إلا مهرةٌ عربيَّةٌ سليلةُ أفراسٍ تَحَلَّلَها بَغْلُ
فإنْ ولدتْ مهراً فللَّهِ درُّها وإنْ ولدتْ بَغْلاً فجاءَ به البغلُ

ونحن نستبعد أن تذم هند الأنصارية زوجها بهذه الكلمات ولا سيَّما أنَّ شبيهاً بهذه الأبيات قيل على لسانها تارة، وعلى لسان أختها حميدة تارة أخرى في روح بن زنباع.وتحدثنا المصادر أن هنداً الأنصارية تزوجت بعد الحجاج من عبد الملك بن مروان، وقيل خلف عليها بعد الحجاج الوليد بن عبد الملك ثم سليمان ثم هشام.

وتزوج الحجاج كذلك ابنة الفيض بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ابن عمه وأمها حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري التي عرفت بشاعريتها واعتدادها بنفسها وبشرف أبيها، ويبدو أن حميدة حماة الحجاج كانت سليطة اللسان تمازحه قبل قدومه العراق إذ يروى أنها قالت له بعد أن تزوج ابنتها:

إذا تذكرت نكاح الحجّاج
من النهار أو من اللَّيْلِ الدَّاج
فاضتْ له العينُ بدمع ثجّاج
واشتعل القلب بوَجْدٍ وهَّاج
لو كان نعمان قتيل الإِعلاج
مستوي الشخص صحيح الأَوْدَاج
لكنتُ منها بمكانِ النَّسَّاج
قد أرجو بعض ما يرجو الرّاج
أن تنكحيه ملكاً ذا تاج

ويحدثنا صاحب الأغاني أنها قدمت إلى لعراق تزور ابنتها فقال لها الحجاج: (**يا حميدة إني كنت أحتمل مزاحك مرة، وأما اليوم فإني بالعراق وهم قوم سوء فإياك!**) فقالت: (**سأكف حتى أرحل**) .ولّما قدم الحجاج العراق تزوج هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري أحد رجالات العرب المشهورين في العراق.

وكانت هند الفزارية على جانب كبير من الجمال واكتمال الأدب، وسبق لها أن تزوجت عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، ثم بشر بن مروان، ومع ذلك فقد كانت وفية لذكرى زوجها الأول.

وحفظت لنا كتب الأدب وصية أسماء بن خارجة إلى ابنتها هند قبيل زواج الحجاج منها، إذ قال لها: (**يا بنية! إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء وأحسن الحسن الكحل، وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق وكوني لزوجك أمة؛ يكن لك عبداً، واعلمي أني القائل لأمك:**

خـذي العَفْـوَ منِّـي تسـتديمي مـودّتي ... ولا تنطِقـي في سَـوْرتي حـينَ أغضـب)

ويروي المدائني أن من أسباب زواج الحجاج هند الفزارية رغبته في ضم ابني بشر بن مروان منها إليه والإشراف على تأديبهما مع أولاده.ولعله أراد بذلك زيادة التقرب من عبد الملك وتوطيد الروابط بين أسرته وبني أُمية وقد طلقها الحجاج فيما بعد بسبب ما ذكر من وفائها لذكرى زوجها الأول عبيد الله بن زياد وتفضيلها قصره الأحمر في البصرة على القصر الجديد الذي بناه الحجاج هناك. ومع ذلك فقد ظل الحجاج يصفها في مجلسه بكل خير، ولم يلبث أن تزوج امرأة أخرى هي ابنة محمد بن عمير بن عطارد التميمي أحد أشراف أهل الكوفة وأجوادهم.

وتعد هند بنت المهلب بن أبي صفرة من أبرز زوجات الحجاج، وقد تزوّجها في أعقاب القضاء على ثورة ابن الأشعث. ويبدو أنه أراد بذلك تقوية علاقته بآل المهلب ولا سيَّما يزيد بن المهلب عامله في خراسان خشية أن تحدثه نفسه بالثورة على غرار ابن

الأشعث.ومن أجل ذلك تزوج من أختها كما زوج أختها من إسماعيل إلى أخيه محمد باليمن.كما زوج أختها أم إسماعيل إلى أخيه محمد باليمن، وحرص الحجاج على أن يكون أهلها وذووها قريبين منه. فلما تزوج هند المهلبية نقلها وأخوتها ومواليها إلى واسط، وأنزلهم الجانب الشرقي من المدينة، واشتهرت هند بنت المهلب بالحكم والفصاحة ورجاحة العقل. وكانت تقول: (**النساءُ ما زُيِّنَتْ بشيء كأدب بارع تحته لب ظاهر**).

وتزوج الحجاج أم كلثوم ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكانت قد تزوجت قبله ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر. ويبدو أَنَّ زواج الحجاج أم كلثوم الهاشمية القرشية قد أثار سخط شيعةسيدنا علي وأنصارهم، فحملوا على الحجاج واتهموه بإجبار والدها على تزويجه ابنته.

كما أثار في الوقت نفسه مخاوف الأمويين من أن يؤثر ذلك في ولاء الحجاج المطلق لهم، فحذر خالد بن يزيد بن عبد الملك من مصاهرة الحجاج لآل أبي طالب وقال له: (**كيف تركت الحجاج يتزوج بنت ابن جعفر؟**) فقال عبد الملك: (**أي بأس في ذلك؟**). فأجابه خالد: (**والله أشد البأس! إني لما تزوجت رملة بنت الزبير ذهب ما في صدري على آل الزبير**).

فكان عبد الملك كأنما كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه في طلاق ابنة ابن جعفر، فأنفذ الحجاج أمر الخليفة على كره منه، ومع ذلك فقد ظل وفياً لها ولأبيها إذ يروى أنه لم يقطع رزقاً ولا كرامة كان يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر - أبيها - حتى مات.

ويبدو أن الحجاج لم يغفر هذه الإساءة لخالد بن يزيد فقال: (**والله لأتزوجن من هو أمس به رحماً ثم لا يمكنه فيه شيء!**). فتزوج الحجاج أم الجلاس بنت سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب الأموي، وأمها من تيم قريش، فولدت له أم الجلاس الوليد.

وثمّة نساء أخريات تزوجهنّ الحجاج بينهن أم سلمة بنت عبد الرحمن ابن سهل القرشي التي طلب إليه الوليد أن ينزل له عنها ففعل.

ويذكر ابن قتيبة اسم امرأة أخرى تكنى بأم سلمى أيضاً تزوجها الحجاج وهي ابنة أبي بكر بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب.

كما نسمع عن زوجة أخرى هي ابنة قطن الهلالية التي لم يلبث أن طلقها، وعرض على قتيبة أن يتزوّجها، فاعتذرتْ إليه بلباقة قائلةً: (**ليس كل مطالع الأمير أحب أن أطلع**) فقال الحجاج: (**ويل أم قتيبة!**) إعجاباً بقولها.

هؤلاء فيما نعلم عشر نساء تزوّجهنّ الحجاج، وقد يكون هناك زوجات أخريات لم تذكرهن المصادر بالإضافة إلى بعض الجواري اللواتي أهدين إليه أو اشتراهن وهو تقليد كان متبعاً في ذلك الوقت.

ونعرف منهن أمامة التي أهداه إياها عامله على اليمامة، فأهداها إلى جرير بن الخطفى مكافأة له.

كما يذكر صاحب المستطرف جارية أخرى اشتراها الحجاج من فتى قرشي أصابته ضائقة.

وغني عن البيان أن الحجاج وإن تزوج هذا العدد الكبير من النساء لم يجمع في وقت واحد بين أكثر من أربع زوجات، وهو الحد الأعلى الذي سمح به الإسلام. ويروى أنه كان يقول لجلسائه: (**أما إنه لا يجتمع لرجل لذة حتى تجتمع أربع حرائر في منزله يتزوجهن**)

كما يُلحظُ أن الحجاج بن يوسف كان يحرص في اختيار زوجاته على أن تكون كل منهن تنتمي إلى أصول عريقة في الحسب والنسب لتزداد مكانته بين الناس، ويرجح أنه هدف من وراء زيجاته تحقيق أغراض سياسية كما فعل حين تزوج هند ابنة المهلب بن أبي صفرة الأزدية اليمنية، وهند بنت أسماء الفزارية القيسية، وأم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل القرشية المضرية.

وثمة ملحوظة جديرة بالتنويه، وهي أن الحجاج كان لا يسمح لنسائه بالتدخل في شؤونه السياسية والتأثير فيه، كما كان لا يسمح لأنسبائه أن يستغلوا مصاهرتهم له ويحققوا منافع لهم عن هذه الطريق.

ويرتبط هذا الأمر برأي الحجاج عامة في النساء، فهو يرى أن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، أي خلقت المرأة للتمتع بجمالها، ولا ينبغي أن تتسلط بهذا الجمال على زوجها وتتحكم فيه.

وذكر ذلك للوليد بن عبد الملك حين طلبت إليه زوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ألا يجتمع بالحجاج فقال له الحجاج: (**إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرك ومكايدة عدوك! ولا تطعهن في غير أنفسهن! ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن! وإياك ومشاورتهن في الأمور! فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن! واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك! ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها! ولا تطعها أن تشفع عندك لغيرها! ولا تطل الجلوس معهن والخلوة بهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك!**).

ومع ذلك فقد اشتهر الحجاج بغيرته الشديدة على النساء حتى أثر عنه قوله: (**أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة، ولا أصبر على الفاحشة!**).

وهنا يبدو سؤال عما إذا كان الحجاج يبدو في بيته جاداً متجهماً كما كان الحال به في مجلسه الرسمي أثناء تصريفه عمله؟! في الحقِّ أنَّ الحجَّاج كان على عكس ذلك تقريباً داخل بيته وبين أهله وذويه.

فقد سئل مرة: (**أيمازح الأمير أهله؟**) فقال: (**ما تروني إلا شيطاناً، والله لربما قبلت أخمص إحداهن!!**).

وعرف عنه أيضاً حبه الشديد لأبنائه، وحزن حزناً شديداً بلغ به كل مبلغ لما توفي ابناه أبان ومحمد. وبقي له من الأبناء عبد الملك وأمه هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري والوليد وأمه أم الجلاس الأموية ويوسف وأمه أم سلمة بنت عبد الرحمن

القرشية.

وكانت له ابنة واحدة تدعى جارية، تزوجت الحكم بن أيوب الثقفي عامل الحجاج على البصرة. وقد حرص الحجاج على تأديب أولاده وتربيتهم تربية إسلامية ومن أجل ذلك أفرد لهم مؤدبين يتولون هذه المهمة. وعاش الحجاج في بيته عيشة هانئة رغيدة، فكان يقيم في قصره الذي تكثر فيه الأجنحة المريحة والتي تتوفر فيها الماء البارد والثلج وأشجار الخلاف التي يبدو أنها كانت تساعد على كسر حدة الحر في فصل الصيف.

فقد ذكر الشعبي أنه ووفداً من القراء وفدوا على الحجاج في قصره بالبصرة في يوم صائف شديد، الحر وهو في آخر أبيات، فدخلوا البيت الأول، فإذا الماء قد أرسل فيه الثلج والخلاف، ثم دخلوا البيت الثاني، فإذا فيه من الثلج والخلاف أكثر مما في البيت الأول، ثم دخلوا البيت الثالث، فإذا فيه من الماء والثلج أكثر مما في البيت الثاني.

ويضيف الشعبي أن الوفد قابل الحجاج في البيت الثالث حيث كان جالساً على سريره مع جلسائه.ويقال في هذا الشأن إن الحجاج هو أول من وضع الثلج في بيت الشراب.وتكاد المصادر تجمع على أنه كان أكولاً إلا أنه لا يحب تعدد ألوان الطعام الكثيرة إذ يروى أنه قال لكاتبه زادان فروخ: (**ادعني فأطعمني لوناً من اللحم ولوناً من الحلواء لا تَزِدْ على ذلك!**) فأطعمه جدياً رضيعاً سميناً وفالوذجة.وكان الثريد طعامه المفضل بالإضافة إلى العسل والزبد والتمر.

وعلى أن الحجاج كان يتجنب المحظور من الأطعمة والأشربة كالخمر على سبيل المثال وكان يحب أكل الطين.ويفهم مما أوردته بعض المصادر والمراجع أن الطين هذا نوع من الطعام الذي ينبت ذاتياً في الأرض، وأنه كان على ثلاثة أصناف، الأول: أخضر كالسلق كان يعرف بالنجاحي ويجلب من قوهستان، والثاني: طين النقل الذي اشتهرت به نيسابور، وكان يحمل إلى أداني البلاد وأقاصيها ويتحف به الملوك والسادة، والنوع الثالث والأخير: هو الطين الأبيض الذي وصفه أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأموني بأبيات من الشعر قال فيها:

عـــــلام تـــــنقلكم بالــــــذي منــــه خلقنـــا وإليـــه نصـــير
ذاك الـــــذي يحســـب في شـــكله قطـــاع كـــافور عليهـــا عبـــير

وربما كان الطين نوعاً من الفطريات الطبيعية التي تنمو على بعد قليل من سطح الأرض كما هو الحال بالنسبة إلى (الكمأة). وقد اختلف الفقهاء في تحديد موقفهم من أكل الطين، وقال كثير منهم بتحريمه على أساس أن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]. ولم يقل: كلوا الأرض.

ويبدو أن الحجاج كان يحب أن يتخلص من إدمانه أكل الطين، فسأل طبيبه (ثادون) (*Theodnuss*): **(أي شيء دواء الطين؟)** فقال له: **(عزيمة مثلك أيها الأمير)**، فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إليه بعدها .ويقال بهذا الصدد إن المأمون كان مولعاً بأكل الطين، فسأل طبيبه ابن بختيشوع عن دوائه فقال له: **(عزمة عن عزمات الرجل)**. فآلى المأمون على نفسه أن لا يعاود تناوله. ويوصف الحجاج بالكرم حتى عده أبو الوفاء الخورازمي صاحب كتاب المناقب والمثالب في جملة أسخياء العرب وأجوادهم.

وكان يقول: **(البخل على الطعام أقبح من البرص على الجسد!)** كما كان يحث الناس على حضور موائده ويقول: **(أيها الناس إليكم الشمس إذا طلعت فاحضروا للغداء! وإذا غربت فاحضروا للعشاء! فكانوا يفعلون ذلك)**.

ويروى أن الحجاج كان يصنع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان وفي سائر الأيام خمسمئة خوان، وعلى كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده يتفقدها. ولحظ مرة نقصاً في السكر ووجود بعض العظام، فعاقب الطباخين وأمرهم بتلافي النقص وتصفية المرق بالمناخل حتى لا يختلط بها العظم.وكانت هذه الولائم مخصصة على ما يبدو لأعوانه وأنصاره ولا سيَّما الشاميين.

وإذا كانت هذه الولائم تدل على كرم الحجاج فإنها تخدم في الوقت نفسه أغراضاً سياسية من حيث تقريب أعوانه وأنصاره وتوثيق علاقتهم به حتى قيل: **(ما رؤي مثل الحجاج لمن أعطاه ولا مثله لمن عصاه).**[1]

أدب الحجاج

الحجاج الأديب والخطيب

تمتع الحجاج بن يوسف الثقفي بالإضافة إلى حنكته السياسية بملكة أدبية جعلته في مقدمة أدباء عصره وخطبائه. حيث ساعدت عوامل عدة في تكوينه الأدبي أهمها نشأته الأولى في الطائف التي تميزت بفصاحة سكانها، واشتغاله فترة في تعليم العربية والقرآن الكريم، وإقباله على القراءة والاستزادة من العلم ومواظبته على تلاوة القرآن واجتماعه بالفقهاء والأدباء والشعراء، وقد شهد له علماء عصره بالفصاحة والأدب، فقال فيه العالم اللغوي أبو عمرو بن العلاء: **(ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج!)** كما ضرب به المثل في فصاحة الأسلوب ورجاحة العقل. حتى وصفه صاحب كتاب الجليس والأنيس بأنه: **(لا يعرف عربي أحسن منه أدباً).**

وكان يحرص في حديثه وخطبه وقراءته القرآن على عدم اللحن، ويتحاشى الوقوع في أي أخطاء لغوية، لأن ذلك من المثالب والمآخذ التي يتداولها الناس ويتندرون بها، فقد روى المدائني: (أَن الحجاج لحن يوماً فقال الناس: لحن الأمير فأخبره بذلك بعض من حضر، فتمثل بقول الشاعر قعنب ابن أم صاحب:

صُمٌّ إِذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ ... وإِنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عِنْدَهم أَذِنُوا

إن يسمعوا ريبةً طارُوا به فَرَحاً ... منِّي وما سَمِعُوا مِنْ صالحٍ دَفَنُوا

ويقال: إن الحجاج نفى يحيى بن يعمر العالم اللغوي المعروف إلى خراسان؛ لأنه أخبره بأنه يلحن في قراءة بعض كلمات القرآن الكريم.

---

(١) تاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤ ص٨١١ .

على أن هذه الأخطاء القليلة لم تؤثر في فصاحة الحجاج وبلاغته ومكانته الأدبية.

وقد خلف لنا الحجاج عدة رسائلَ وتوقيعاتٍ وخطبٍ لا تزال تحتل مكان الصدارة من حيث قوة اللفظ وجزالة الأسلوب وفصاحة اللغة وبلاغة التعبير، وكان يقول: (**البليغ من سهل لفظه، وحسنت بديهته**)، وقد أعجب عبد المجلك بن مروان بأسلوب الحجاج الأدبي في الكتابة، وقال معلقاً على بلاغة أسلوبه وجماله في رسائله: (**إن من البيان لسحراً**)[1].

وقد أتينا في هذا البحث على بعض أقوال الحجاج وكتاباته التي توضح رسوخ قدمه في اللغة والأدب.

ويمكن لمن أراد المزيد أن يلتمس هذه الأقوال والخطب والكتابات في مظانها، وربما كان أيسرها جمهرة رسائل العرب وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت.

والواقع أن الحجاج وإن تميز بالفصاحة وقوة الأسلوب اللغوي وجزالته، فهذا الوصف يكاد ينطبق على كثير من رجالات العرب وقادتهم في القرن الأول الهجري.

وكان الحجاج يتمتع بالإضافة إلى ذلك بذوق أدبي رفيع جعله يحس بالعبارة الأدبية، ويطرب لها ويميز بين أصحابها، من ذلك معرفته لأسلوب ابن القِرِّيّة الذي كتب كتباً باسم عبد الرحمن بن محمد الأشعث رداً على كتاب الحجاج إليه يحذره فيه من مغبة الفتنة وخلع الطاعة، ولمّا كتب إليه قتيبة بن مسلم كتاب فتح فرغانة فيما وراء النهر علم أن الأسلوب ليس بأسلوب قتيبة، وإنما هو أسلوب عامر الشعبي الذي كان قد خرج مع ابن الأشعث، ثم انضم بعد الأمان إلى قوات قتيبة، فأرسل الحجاج إلى قتيبة يقول له: (**إذا نظرت في كتابي هذا فإن صاحب كتابك الشعبي**) وطلب إليه إرساله ففعل.

ويقال مثل ذلك في يحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب عامل خراسان الذي كتب باسم يزيد كتاباً إلى الحجاج قال فيه: (**إن لقينا العدو، ففعلنا وفعلنا واضطررناهم إلى عرعرة الجبل**) فقال الحجاج: (**ما لابن المهلب وهذا الكلام؟**).

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، صص٧، ٩ .

فقيل له أن يحيى بن يعمر عنده.... فجعل يقرأ كتبه ويتعجب... فكتب إليه فقدم. فقال له: **(أين ولدت؟)** قال – يحيى – :**(بالأهواز)**.

فقال له الحجاج: **(فما هذه الفصاحة؟)** فأجابه: **(كان أبي فصيحاً، فأخذت ذلك عنه)**.

وكان الحجاج يطرب للعبارات الفصيحة، وتهزه معانيها ولا سيَّما إذا جاءت على غير تكلف ولا تصنع في القول. من ذلك إعجابه بوصف مالك ابن بشير للمهلب بن أبي صفرة وحاله مع أولاده وجنده وأعدائه فقال لجلسائه: **(هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع!)**.

ومن ذلك ما روي أن فتى قدم بين يديه فقال: **(أصلح الله الأمير، مات أبي وأنا حمل، وماتت أمي وأنا رضيع، وكفلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي فاجتاحته، وهو هارب مني ومن عدل الأمير)**.

فأعجب الحجاج بفصاحته وقال: **الله!! مات أبوك وأنت حمل وماتت أمك وأنت رضيع وكفلك الغرباء فلم يمنعك ذلك من فلج لسانك وأنبأت عن إرادتك! اطردوا المؤدبين عن أولادي)**.

ويروى أن الحجاج كلم أَعرابياً فوجده فصيحاً، فسأله: **(كيف تركت الناس وراءك؟)** فقال الأعرابي: **(تركتهم، أصلح الله الأمير! حين تفرقوا في الغطيان، وأخمدوا النيران، وتشكت النساء، وعرض الشاء، ومات الكَلْبُ)**. فقال الحجاج لجلسائه: **(أخصباً نعت أم جدباً ؟)** قالوا: بل جدباً: بل خصباً. فقوله: تفرقوا في الغطيان معناه أنها أعشبت فإبلهم ترعى. وأخمدوا النيران، معناه استغنوا باللبن عن أن يشووا لحوم إبلهم وغنمهم لأكلها. وتشكت النساء أعضادهن من كثرة ما يمخضن الألبان، وعرض الشاء سمن من كثرة العشب والمرعى، ومات الكلب ولم تمت أغنامهم وإبلهم فيأكل جيفها.

يدل ما سبق على فصاحة الحجاج ومبلغ معرفته بلغات العرب وأساليبهم في التعبير.

وكثيراً ما نَجّت الفصاحة وحسن اللفظ والعبارة والاعتذار الأدبي اللبق أصحابها من موت محقق على يدي الحجاج بسبب جرائم اقترفوها، ومن هؤلاء عامر الشعبي الذي اشترك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج وبني أمية فلما مثل بين يديه قال: (**أيها الأمير! إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق. وايم الله! لا أقول في هذا المقام إلا حقاً، فقد والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد وما آلونا فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا الأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا!**)

فأعجب الحجاج بفصاحته وحسن اعتذاره وقال له: (**ما أنت والله أحبُّ إليَّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت. قد أمنت عندنا يا شعبي**).

وهذا واحد من الخارجين على الحجاج يخاطبه وقد هم بقتله مع عدد آخر من الأسرى ويقول: (**يا حجاج، لا جزاك الله عن السنة خيراً فإن الله عز وجل يقول:** ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، **وهذا شاعركم يقول:**

ومـا نقتـلُ الأَسْرَى ولكـنْ نفكّهـم　　إِذَا أَثْقَـلَ الأَعْنَـاقَ حَمْـلُ القلائِـدِ)

فالتفت الحجاج للأسرى الآخرين وقال: (**ويحكم أفعجزتم عن مثل هذا، وأمسك عن قتل الباقين!**).

وهذا متهم آخر يخاطب الحجاج قبيل مقتله ويقول: (**والله لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في المكافأة!**). فقال الحجاج: (**أف لهذه الجيف! أما كان فيهم أحد يحسن مثل هذا؟**) وكف عن القتل.[١]

---

(١) المستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. جـ ١، ص ١٩١. و العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص ١٨٥. ونهاية الأرب. النويري. مصدر سابق. جـ ٦، ص ٦٤.

وهذا متهم ثالث يعفو عنه الحجاج بعد ان اعتذر إليه وقال له: (**إن الله استعملك علينا فأبينا فأبى علينا**).

وهذه امرأة من الخوارج تقع في قبضة الحجاج فيقول لأصحابه: (**ما تقولون في هذه؟**) فقالوا: (**اقتلها، أصلح الله الأمير ونكِّلْ بها ليعتبر غيرها**) فتبسمت، فسألها الحجاج عن ذلك، فقالت:(**لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج. قد استشارهم في قتل موسى فقالوا: ارجه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي!**) فضحك وأطلق سراحها[1].

وكان بين جلساء الحجاج ومشيريه عدد من الفقهاء والأدباء والنابهين مثل عامر بن شراحيل الشعبي وعنبسة بن سعيد بن العاص وأيوب بن القِرّية وسميرة بن الجعد، وغيرهم والراجح أن جانباً من الأحاديث التي كان يجري تداولها في مجلس الحجاج كانت تتناول أحياناً طرائف من الشعر والأدب والأقوال المأثورة، بالإضافة إلى أحاديث ومسائل فقهية التي تحتاج إلى تبصر ونظر.

الحجاج والشعر

عُرف الحجاج - ولا سيَّما خلال حكمه العراق - بالقسوة وقال في ذلك المؤرخون ما طاب لهم أن يقولوا حتى لا يكاد الإنسان يجد كتاباً من كتب التاريخ أو مرجعاً من المراجع إلا وفيه إشارة أو أكثر لهذه الصفة .ومهما أفاض المؤرخون في ذلك فلا يستطيع الإنسان أن ينكر أن الحجاج في حياته الخاصة كان يختلف كثيراً عن ذلك الوصف. حيث فرضت عليه ظروف العراق إظهار الخشونة والقسوة.

أما حياته الخاصة البعيدة عن شؤون الدولة فقد طغت عليها أخلاق الحجاج من لين في المعاملة وتبسط في القول ودعابة في الحديث وإجزال في العطاء.

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ١٨٥ .
والمستطرف في كل فن مستطرف. الأبشيهي. مصدر سابق. جـ ١، ص ٥٥ .

قرّب الحجاج الشعراء واستمع لشعرهم، وكثيراً ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب، كما كان يحفظ كثيراً من جيد الشعر، ويستشهد منه في خطبه بما يناسب المقام. وإذا كان الحجاج لم يقل من الشعر ما يستحق التدوين لكثرته فأكبر ظنّنا أنه لم يجد من الفراغ ما يؤهله للإكثار منه وإن كان كثيراً ما يختم كتبه لأمير المؤمنين بشيء من شعره.

وقد استعاض عن الشعر بالتفنن في أسلوب الكتابة والخطابة، الكتابة بنوعيها إلى دار الخلافة في دمشق وإلى ولاته وقادته في الأمصار، والخطابة بنوعيها الخطابة السياسية والخطابة الدينية.

ومثل من كانت هذه مكانته من الأدب والفن والميل إلى الشعر لم يكن غريباً أن يقرب الشعراء، ويرسل في طلبهم ويدهش لرواية الشعر الجيد ويطرب له ويستزيد الشاعر منه.

ومن خيرة الشعراء الذين اتصلوا بالحجاج وأطنبوا في مدحه جرير بن عطية.

اتّصل جرير أول الأمر بحاكم البصرة - الحكم بن أيوب - وكان مقيماً بها ومدحه فسر الحكم من شعره[1]، وكتب إلى الحجاج (إنه قدم عليَّ أعرابيٌّ شيطانٌ مِنَ الشياطين)

فرد عليه يطلب إليه إرساله فكساه الحكم وأرسله، ولما وصل إلى واسط دخل على الحجاج، فأحسن لقاءه وخلع عليه[2]، وأنشده قصيدة من عيون الشعر يقول فيها:

مـن سَـدَّ مُطَّلَـعُ النفـاق عليـكم	أم مـن يصـول كصـولة الحَجَّـاجِ؟
أم مـن يغـار عـلى النسـاء حفيظـةً	إذ لا يـثِقْنَ بِغَـيرةِ الأزواجِ
إن ابـن يوسـفَ فـاعلمُوا وتيقَّنـوا	مـاضي البصـيرةِ واضـحُ المنهـاجِ
مـاضٍ عـلى الغَمَـرات يُـمْضِي هَمَّـه	واللَّيْـلُ مُخْتَلِـفُ الطَّرائـقِ دَاجِـي

(١) كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. ص ٣٠٠. الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٧، ص ٤١.

وديوان جرير. جرير بن عطية (ت١١٤هـ). ص ٥٢٠ .

(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٧، ص ٤١ .

منــع الرُّشــا وأراكُـمُ سُـبُلَ الهُـدى — واللِّـــصِّ نَكَّلَـــهُ عَـــنِ الإِدْلاجِ
فاســتوثَقُوا وتبينُــوا سُــبُلَ الهُــدى — ودعـوا النَّجِـيَّ فلـيس حِـيْنَ تَنـاجي
يـــا رُبَّ ناكــثٍ بيعتَــيْنِ تركْتَــه — وخضـــابُ لحيتِــه دمُ الأوداجِ
وإذا رأيـــت منـــافقينَ تحـــيّروا — سُـبُلَ الضَّـجاج أقمـتَ كـلَّ ضَـجَاجِ
داويْـــتَهم وشـــفيْتَهم مِـــنْ فتنـــةٍ — غـــبراءَ ذاتِ دواخِـــنٍ وأُجـــاجِ
إني لمرتقـــبٌ لمـــا خـــوّفتني — ولِفَضـلِ سَـيْبِكَ يـابن يوسـف راجـي
ولقـــد كسرتَ ســنان كــلِّ منــافقٍ — ولقــد منعــتَ حقائــبَ الحُجَّــاجِ.[1]

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر، ومطلعها يقول:

ســئمتُ مِــنَ المواصــلةِ العِتابــا — وأمســى الشـيبُ قـد وَرِثَ الشـبابا
دَعَــا الحجَّــاجُ مثــلَ دعــاءِ نــوحٍ — فأســـمعَ ذا المعـــارجِ فاســـتجابا
صَــبرتَ الــنفسَ يــا بــن أبي عقيــل — محافظـــةً فكيـــف تـــرى الثّوابـــا
ولـــو لم يـــرضَ ربُّـــك لم يُنَــزّل — مَــعَ الــنصر الملائكـــةَ الغِضـــابا
إذا ســعرَ الخليفـــةُ نـــارَ حـــربٍ — رأى الحَجَّـــاجَ أَثْقَبَهـــا شِـــهابا
تـــرى نَصْرَ الإِمـــامِ عليـــك حقّـــاً — إذا لبســـوا بـــدينهم ارتيابـــا
عفاريـــتَ العـــراقِ شـــفيتَ مـــنهم — فأمســـوا خاضـــعينَ لـــك الرِّقابـــا
وقـــالوا لـــن يجامعَنـــا أمـــيرٌ — أقـــام الحــدَّ واتّبــع الكِتابــا[2]

وقد أعطاه الحجاج جارية كان قد أرسلها حاكم اليمامة، وهي أم أولاده بلال وحرزة وحكيم، وكانت تسمى باسم هذا الأخير (أم حكيم).[3]

---

(١) ديوان جرير. جرير بن عطية. مصدر سابق. صص ٩٠، ٩١ .

(٢) ديوان جرير. جرير بن عطية. صص ١٦، ١٨ .

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٧، ص ٦٦ .

ومن طريف ما يروى أن جريراً لما قدم على الحجاج أول مرة استأذنته زوجته هند بنت أسماء أن تسمع لجرير من وراء حجاب، فأذن لها فجلست من وراء حجاب وجلس الحجاج معها، ودخل جرير وجلس حيث يسمع كلامها ولا يراها؛ قالت له: يا بن الخطفى أنشدني ما شبَّبْتَ به في النِّساء.

فقال: ما شَبَّبْتُ بامرأة قطُّ، وما خلق الله شيئاً هو أبغض إليَّ من النساء؛ فقالت يا عدو الله وأين قولك؟:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القُلوبِ ولَيْسَ ذا وَقْتَ الزّيارةِ فارجعي بسلامِ

قال: ما قلت هذا، ولكنّي أنا الذي أقول:

لقد جَرَّدَ الحجَّاجُ للحقِّ سيفَه ألا فاستقيموا لا يميلنَّ مائلُ
وما يستوي داعي الضّلالة والهُدى ولا حُجَّةُ الخصمَيْنِ حقٌّ وباطلُ

قالتْ: دع عنك هذا فأين قولك؟:

خليليّ لا تستغزرا الدَّمْعَ في هندِ أعيذُكما بالله أن تَجِدا وَجْدي

قال: فما قلت هذا، ولكني أنا الذي أقول:

ومَنْ يَأْمَنِ الحَجَّاجَ؟ أَمَّا عقابُه فمرٌّ وأَمَّا عَقْدُهُ فوثيقُ
يُسِرُّ لك البغضاءَ كُلُّ منافقٍ كَما كلُّ ذي برٍّ عليك شفيقُ

قالت: دع عنك هذا فأين قولك؟:

يا عاذلَي دَعَا الملامةَ واقْصرا طال الهَوَى وأطلتما التفنيدا
إنّي وَجِدْتُ ولو أردتُ زيادةً في الحبّ عندي ما وجدت مزيدا

فقال: باطل أصلحك الله، ولكني أنا الذي أقول:

مَنْ سدّ مطلع النفاق عليهم أم مَنْ يصولُ كصولةِ الحَجَّاج؟
أم من يغارُ على النِّساءِ حفيظةً إذ لا يثقْنَ بغيرةِ الأزواجِ

فقال الحجاج: يا عدو الله تحرض علي النساء. قال: لا والذي أكرمك أيها الأمير! ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه، وما علمت بمكانك فأقلني به! جعلني الله فداك، قال قد فعلت. ثم استأذن في الانصراف فأمرت له هند بجارية وكسوة[1].

وقد قال جرير في الحجاج أيضاً من قصيدة:

وأطفأْتَ نيرانَ العراقِ وقدْ علا ... لهنَّ دخانٌ ساطعٌ وحريقُ

وإن امرأً يرجو الغلول وقد رأى ... نكالَك فيها قد مضى لسروقُ

وأنت لنا نورٌ وغيثٌ وعصمةٌ ... ونبتٌ لمن يرجو نداك وَرِيْقُ

ألا ربّ عاصٍ ظالمٍ قد تركْتَه ... لأوداجِه المستنزفاتِ شهيقُ[2]

وقال فيه أيضاً من أخرى:

ولولا أميرُ المؤمنين وأنّه ... إمامٌ وعَدْلٌ للبرية فَاصِلُ

وبسطُ يدِ الحجّاجِ بالسيفِ لم يكنْ ... سبيلَ جهادٍ واستبيح الحلائلُ

دعوا الجُبْنَ يا أَهْلِ العراقِ فإنّما ... يُباع ويُشرى سَبْيُ مَنْ لا يُقاتلُ

لقد جرَّد الحجّاجُ بالحقّ سيفَه ... لكم فاستقيموا لا يملينَّ مائلُ

قدمتَ على أهلِ العراقِ ومنهمُ ... مخالفُ دينِ المسلمينَ وخَاذِلُ

فكنتَ لمن لا يبررر الدّينُ قلبَه ... شفاءً وخفَّ المدهنُ المتثاقلُ

لقد جهد الحجّاجُ في الدين واجتبى ... جباً لم تغلْه في الحياضِ الغوائلُ

وما نامَ إذ بات الحواضن وُلّها ... ومن سبايا للصدور بلابلُ

تمنى شبيبٌ مِنْيةً سَفُلَتْ به ... وذُو قطري لفَّه منك وابلُ

تقولُ فلا تلقى لقولِك نَبْوةً ... وتفعلُ ما أنبأْتَ أنّك فاعلُ[1]

---

(١) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، صص ١٠٦، ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير. جرير بن عطية. ص ٣٩٩ .

وهكذا صار جرير يقول في الحجاج قصائد من عيون الشعر، وطال بقاؤه في بلاطه، فخشي الحجاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فرأى أن يوفده إلى دمشق ليمدح عبد الملك فأجزل له العطاء، ثم قال: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك إلى أمير المؤمنين، فسر إليه بكتابي هذا.

فسار إليه، فما زال الحجاج يتوسل إليه حتى سمح له بالمثول بين يدي الخليفة فأنشده قصيدة قال فيها:

تعــزّتْ أمُّ حــرزةَ ثــمَّ قالــتْ ... رأيــتُ الــواردينَ ذوي امتيــاح

ثقــي بــالله لَــيْسَ لــه شريــكٌ ... ومِــنْ عنــدِ الخليفــةِ بالنَّجــاحِ

فلما ختمها بقوله:

ألســتمْ خــيرَ مَــنْ رَكِــبَ المَطَايَــا ... وأنْــدَى العَــالمينَ بطــونَ راحِ[٢]

فسُرّ عبد الملك، وكان متكئاً، فاستوى جالساً وقال: **(من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت)**. وأعطاه فأجزل له العطاء[٣].واتصل الفرزدق أيضاً بالحجاج ونال جوائزه، ومما قاله فيه من قصيدة طويلة يذم فيها ابن الأشعث وجيشه ويمدح الحجاج:

ولَيْسَــتْ هــدايا القــافلينَ أتيــتمُ ... بهــا أهلكــم يــا شرَّ جــيشٍ عــنصرا

ثم يقول:

رمــاكم بميمــونِ النَّقيبــةِ حــازمٌ ... إذا لم يقــمْ بــالحقِّ لله نُكــرا

لقيــتم مَــعَ الحجَّــاجِ قومــاً أعــزّةً ... غِلاظاً على مَنْ كان في الدّين أجْورا

بهــم يــومَ بــدرٍ أيَّــدَ اللهُ نصرَه ... وســوَّى مِــنَ القــتلى الرَّكــيِّ المعــوَّرا

---

(١) ديوان جرير. جرير بن عطية.صص ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢ .

(٢) ديوان جرير. جرير بن عطية. صص ٩٦ ، ٩٩. والتاج في أخلاق الملوك. الجاحظ. ص ١٣٣.

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ٧، صص٦٢، ٦٣. والعقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ١٥١.

والشعر والشعراء. ابن قتيبة. ص ١٨٠ .

جنوداً دعا الحجَّاج حينَ أعانَه   بهم إذ دعا ربَّ العبادِ لينصرا
بشهباءَ لم تشربْ نِفاقاً قلوبُهم   شآميةٍ تتلو الكتاب المنشّرا[1]

ودخل الناس على الحجاج يعزونه في وفاة ابنه وأخيه في يوم كان فيهم الفرزدق، فقال له الحجاج: (**أما رثيت محمداً ومحمداً؟**) فقال: (نعم أيها الأمير، وأنشده:

لئن جَزِعَ الحَجَّاجُ ما مِنْ مصيبةٍ   تكونُ لمحزونٍ أَمَضَّ وأَوْجعا
مِن المصطفى والمنتقى مِنْ نقايةٍ   جناحاه لَمَّا فارقاهُ ووَدَّعا
جنانا عتيقٍ فارقاهُ كلاهما   ولو نُزعا مِنْ غيرِه لتضعضعا
ولو أنَّ يومي جمعتَيْهِ تتابعا   على شامخٍ صعبِ الذُّري لتصدَّعا
سَمِيًّا رسول الله سَمَّاهما به   أبٌ لم يكنْ عندَ الحوادثِ أخضعا

فاستحسن الحجَّاج قوله، وأمر له بصلة[2].

وكان جرير والفرزدق يتنافسان على الحجاج طمعاً في كسب الحظوة لديه، ولكن جريراً تغلّب[3]؛ ومع ذلك فقد نال الفرزدق جوائز الحجاج وعطاياه[4].

ولما مات الحجاج رثاه الفرزدق بقصيدة يقول فيها:

ليبكِ على الحَجَّاج مَنْ كان باكياً   على الدّين أو سارٍ على الثغر واقفِ
وأيتام سوداءِ الذراعين لم يدعْ   لها الدَّهْرُ مالاً بالسنين الجوالف
وما ذرَّفت عينايَ بَعْدَ محمَّد   على مثلِه إلا نفوس الخلايفِ[5]

---

(١) ديوان الفرزدق. همام بن صعصعة بن غالي التميمي (ت١١٠هـ). صص ٢٠٧، ٢١٢ .
(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦ .
وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، صص ٢٧٠، ٢٧١.
(٣)الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص ٥٢، ٥٣ .
(٤) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٨ ، ص ١٩ و جـ٧ ص ٧١ .
(٥) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٩. وديوان الفرذدق. الفرزدق. مصدر سابق. ص٢١٢ .

ألم تعلموا أن الذي قد تدفنونه به كان يرعى قاصيات الزعانفِ
له أشرقت أرضُ العراق لنورِه وأومن إلا ذنبه كلُّ خائفِ(١)

ومن الشعراء المعاصرين الأخطل، وكان شاعر البلاط الأموي يقيم في دمشق، فقال الخليفة يوماً: (**لن ترى الحجاج، ولكنه يطلبك في رسائله!**). فاعتذر الأخطل عن ذلك وقال: (**الحمار لا يوازي الجواد الأصيل**)، فسر عبد الملك هذا الجواب ومنحه عشرة آلاف درهم.

واكتفى الأخطل بأن مدح الحجاج بقصيدة روى الأصفهاني أنها ليست من جيد شعره وأرسلها مع ابنه(٢).

ومن خير الأدلة على تبسط الحجاج مع الشعراء قصته مع ليلى الأخيلية، إذ وفدت عليه فطأطأ لها رأسه، فأنشدته قصيدتها المشهورة:

أَحجَّاجُ لا يفلَلْ سلاحُك إنَّما الـ منايا بكفِّ الله حيثُ تراها
أَحجَّاجُ لا تُعْطِي العُصَاة مناهُمُ ولا واللهُ يُعْطِي للعصاةِ مُناها
إذا هَبَطَ الحجَّاجُ أرْضاً مريضةً تَتَبَّعَ أَقْصَى دائها فشَفاها
شَفَاها مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الّذي بها غُلامٌ إذا هزَّ القناةَ سَقاها

إلى أن تقول:

فما ولدَ الأبكارُ والعُوْنُ مثلَه ببحرٍ ولا أرضٍ يَجِفُّ ثَراها(٣)

فلما وصلتْ هذا البيت، قال الحجاج لجلسائه: (**قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرُها!**). ثم التفت إليها وقال: (**حسبُك**)، فأخبرته أنها قالت غير هذا،

---

(١) ديوان الفرزدق. الفرزدق. مصدر سابق. ص ٢١٢
(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ٧، ص ١٦٦.
(٣) زهر الآداب. الحصري، أبو اسحق بن علي القيرواني (ت٤٥٣هـ). جـ ٤، ص ٧٦. والأمالي. أبو علي القالي. (ت٢٥٦هـ) جـ ١، صص ٨٦، ٨٧. وفوات الوفيات. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٤١ .

فقال: (**حسبك ويحك حسبك**).

ثم قال لخادم له: قل لفلان يقطع لسانها، فذهب بها وأخبره بما قال الأمير، فأمر بإحضار الحَجَّام فالتفتت إليه وقالت: ثكلتك أمك، إنما أمر أن تقطع لساني بالصلة. فأرسل إلى الأمير للتثبت من الخبر، فاستشاط الحجَّاج غضباً، وهمَّ بقطع لسانه، وأمر بردها إليه.

فلما دخلت عليه قالتْ: كاد، وأمانةِ الله، يقطعُ مقولي. وأنشأتْ تقولُ:

حَجَّاجُ أَنْتَ الذي ما فَوْقَهُ أحدُ ... إلا الخليفةُ والمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ

حَجَّاجُ أنتَ شِهابُ الحَرْبِ إن لَقِحَتْ ... وأنتَ للنَّاس نُورٌ في الدُّجى يَقِدُ

ثم أخبر الحجاج جلساءه عن هذه المتكلمة والشاعرة الفصيحة وأنها التي مات توبة الخفاجي في حبها.

واستنشدها بعض ما قاله فيها توبة، فأنشدته قصيدته التي يقول فيها:

ولو أَنَّ ليلى الأخيليةَ سلَّمتْ ... عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أَوْ زَقَا ... إليها صدًى مِنْ جانبِ القَبْرِ صائحُ[1]

وطلب إليها الزيادة فأنشدته غيرها كما أنشدته بعض مراثيها له.

ولما فرغت من كلامها استكثر أحد جلساء الحجاج هذا القول فيه، وأنكره حالفاً بالله أنه يعتقد أنها كاذبة في كلامها، فنظرت إليه ثم قالت: (**أيها الأمير! إن هذا القائل لو رأى توبة لسرَّه أَلاَّ تكون عذراءُ في دارِهِ إلا وهي حاملٌ منه!**). فقال الحجاج: (**هذا وأبيك الجوابُ! وقد كنت عنه غنياً!**).

---

(١) زهر الآداب. الحصري. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٧٦. والأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٠، صص ٧٦، ٧٩، ٧٧. والأمالي. أبو علي القالي. مصدر سابق. جـ ١، ص ٨٧. وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٢، ص ١٤١

وعيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥ صص ٦٢، ٦٣.

وطلب إليها الحجاج أن تطلب ما تريد، فأبت وقالت: (**أعطِ فمثلك أعطى، فأحسن**) فأمر لها بعشرين وما زالت تستزيده برقة لفظها حتى وصل العطاء إلى مئة، فقال لها عند ذلك:(**واعلمي أنها غنم!**).

ولكنها تمكنت بما وهبها الله من فصاحة اللسان أن تجعلها من الإبل برعاتها. ثم قال لها الحجاج بعد ذلك: (**ألك حاجة بعدها**)؟ قالت: (**تدفع إليَّ النابغة الجعدي!**)، وكانت تهجوه ويهجوها - فدفعه لها. فلما علم النابغة بذلك خرج هارباً إلى عبد الملك، فاتبعته إلى الشام فلحق بقتيبة بن مسلم بخراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة فماتت بقومس، ويقال: بحلوان.[1]

وبعد أن أجاب الحجاج طلباتها أراد أن ينزلها منزل الضيافة، فطلب إليها أن تخبره عن أي نسائه ترغب أن تنزل عندها، فقالت: (**أخبرني عن نسائك**) فَسَمَّى لها هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، فاختارت بنت أسماء، فأدخلها عليها، فسرَّت بنت أسماء، وصبَّت عليها من الحلي ما أثقلها لاختيارها وتفضيلها على من سواها[2]، وأكرمتها كما أكرمها الحجاج وتبسط معها في الحديث حتى إنهم قالوا: (**ما رؤي الحجاج أشد سروراً ولا بشاشة مثل يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية**)[3].

ومن مادحي الحجاج الشاعر أبو النجم بن فضالة، وقد أقطعه الحجاج أرضاً[4]، وعبيد بن موهب الذي رد على هجاء قيل في الحجاج[5].

---

(١) عيون التواريخ. ابن شاكر. مصدر سابق. جـ ٥، صص ٦٣، ٧٠. والأمالي. أبو علي القالي. جـ ١، صص ٨٨، ٨٩.

(٢) زهر الآداب. الحصري. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٧٦. العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ١، ص ١٢٣:

(٣) زهر الآداب. الحصري. مصدر سابق. جـ ٤، ص ١٠١. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ٢٩١.

(٤) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٩ ، ص ٧٨ .

(٥) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٣، ص ١٠٧ .

هؤلاء قليل من كثير ممن اتصل بالحجاج من الشعراء، وأكثروا من مدحه، وأجادوا فيه القول، وغنموا منه العطاء. وهذه طبيعة الحجاج في حياته الخاصة من حب للمديح وإجزال العطاء لقائليه.

إلا أن رجلاً كالحجَّاج كان في حياته العامة عنواناً للحزم وما يستتبعه من شدة؛ وقد رأى بعضهم المجال واسعاً أمامه لهجاء الحجاج كما كان هؤلاء -بطبيعة الحال- ينشدون هجاء الحجاج في غير حضرته، فيدخل بذلك شعرهم في حدود النقد العلني لسياسة الحجاج والتشهير به، وهذا شر ما يكرهه.

لذلك نراه يتصيد هؤلاء، ويصب عليهم جام غضبه.

ومن هؤلاء العديل بن الفرخ العجلي وقف على باب الحجاج، فلم يأذن له الحاجب بالدخول، فسار إلى يزيد بن المهلب، فمدحه وذم الحجاج[١].

ولأنه أضاف إلى جرمه هذا أنه متَّهمٌ بجريمة قتل، واستعدى ولي الدم عليه الحجاج، فاشتد الحجاج في طلبه، فخاف من يزيد بن المهلب أن يسلمه إلى الحجاج، فرحل عنه، وصار يتنقل في القبائل يطلب جوارها إلى أن أجاره بكر بن وائل، والتمس بكر العفو من الحجاج فأجاب ملتمسه.[٢]

ويروي الأصفهاني وابن قتيبة [٣] أَنَّ العُديل انتهى به المطاف إلى البلاط البيزنطي، فبعث الحجاج إلى قيصر الروم **(لترسلن به أو لأبعثن لك جيشاً أوله عندك وآخره عندي!)** فبعث به القيصر، فلما مثل بين يدي الحجاج قال له أنت القائل:

ودونَ يَدِ الحجَّاج مِنْ أن تنالي ... بساطٌ لأيدي الناعجاتِ عريضُ

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٢٠، ص١٣ .

(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٢٠، ص١٤،١٢ . والشعر والشعراء. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٥٥ .

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٢٠، ص١٢ . والشعر والشعراء. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٥٥ .

مهامــــه أَشْــبَاهٌ كَـــأَنَّ سَرَابَهـــا　　مــلآء بأيــدي الغاســلاتِ رحــيضُ

يا عديل هل نجاك بساطك العريض؟

فقال: أيها الأمير أنا القائل:

ولــو كنــتُ بالعنقــاءِ أو بأســومِها　　لكـــان لحجَّـــاجٍ عـــليَّ دليـــلُ

خليـــلُ أمـــيرِ المـــؤمنينَ وســـيفُه　　لكـــلِّ إمـــامٍ مصـــطفًى وخليـــلُ

بَنَـــى قبَّـــةَ الإِســـلام حتَّـــى كـــأنما　　هَدَى الناس مِنْ بعد الضَّلالِ رسولُ

فقال له الحجاج: (**اربح نفسك! واحقن دمك وإياك وأختها! فقد كان الذي بيني وبين قتلك أقصر من إبهام الحبارى!**).[1]

ومن هؤلاء أيضاً الأعشى عبد الله بن حبيب، فقد نظم قصيدة في رثاء ابن الجارود، واشترك في ثورة ابن الأشعث وناصب الحجاج العداء، ومع ذلك فقد عفا الحجاج عنه حينما اعتذر للحجاج وأبان له أن كلاً من الكوفة والبصرة قد اجتهد في قتال الحجاج، ولم يكن أحد المصرَيْنِ بأقل من الآخر في هذا الميدان.[2]

ومن الذين هجوا الحجاج كعب بن معدان الأشعري الذي كان في جيش المهلب يحارب الأزارقة وقد هجا الحجاج يوماً فقال:

إن ابــن يوســف غــرَّه مِــنْ غَــزْوِكم　　خفـــضُ المقـــام بجانـــب الأمصـــارِ

لـــو شـــاهد الصـــفَّيْنِ حـــين تلاقيـــا　　ضـــاقتْ عليـــه رحيبـــةُ الأقطـــارِ

ورأى معـــاودةَ الربـــاع غنيمـــةً　　أزمـــان كـــان محـــالفَ الإقتـــارِ

ولما بلغ ذلك الشعر الحجاج كتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه، فأوعز إليه

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٢٠، ص١٣. والشعر والشعراء. ابن قتيبة. مصدر سابق ص١٥٥.
والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ١، صص٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ١٦ صص ١٥٦، ١٥٧.

المهلب أن يذهب إلى عبد الملك، ويستجير به، فسار إليه واستجار بـه فأجاره وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عنه ويرده إلى أمير مصره. فلما دخل على الحجاج قال له: إيهِ يا كعب (ورأى معاودة الدباغ غنيمة)فقال: أيها الأمير والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب وأهوالها أن أنجو منها، وأكون حجاماً أو حائكاً، فقال الحجاج: (**أولى لك لولا قسم أمير المؤمنين! ما نفعك ما أسمع، فالحق بصاحبك!**).[1]

ومن الذين هجوا الحجاج وطاردهم طويلاً عمران بن حطان السدوسي من فحول شعراء عصره[2] ومن زعماء الخوارج.

وهو القائل في الحجاج:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ... فَتْخَاءُ تنفرُ مِنْ صفيرِ الصَّافرِ

هلاّ كررتَ إلى غزالةَ في الوَغَى ... بل كانَ قلبُك في جناحَيْ طائرِ

وقد ظل الحجاج يطلبه طويلاً حتى ظفر به فقال للحرس: (**اضرب عنق ابن الفاعلة**). فقال عمران: (**بئس ما أدبك أهلك يا حجاج! أبعد الموت منزلة أصانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به؟**) فقال الحجاج: (**صدق أطلقوا عنه!**)، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: (**ارجع إلى قتال الحجاج، فوالله ما هو أطلقك، بل الله الذي أطلقك!**) فقال: (**هيهات غلَّ يداً مطلقها! واسترق رقبةً معتقُها!**) ثم قال:

أأقاتلُ الحجَّاجَ عن سلطانه ... بيدٍ تقرُّ بأنَّها مولاتُه!!

ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءه ... في الصَّفِّ واحتجَّتْ له فعلاتُه!!

وتحدَّثَ الأقوامُ أنَّ صنائعاً ... غرست لدي فحنظلت نخلاتُه

---

(١) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٣، ص ٥٨. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٣.

(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٦، ص١٤٧. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. ص ٤٥٠.

تـــا الله لا جئـــتُ الأمـــير بآلـــةٍ وجـــوارحي وســـلاحي آلاتُـــه[1]

أما علاقة الحجاج بالشاعر يزيد بن الحكم الثقفي فقد عينه الحجاج حاكماً على فارس ولما دخل عليه ليأخذ عهده قال له الحجاج أنشدني بعض شعرك- وإنما أراد أن ينشده مديحاً له – فأنشده قصيدة يفخر بها فيقول:

وأبي الـذي سَـلَبَ ابْـنَ كسرى رايـةً بيضـاءَ تخفـقُ كالعقـابِ الطـائرِ

فغضب الحجَّاجُ وردَّ العهد، وقال للحاجب قل له:

ورثـتُ جـدّي مجـدَه وفعالَـه وورثـتَ جـدَّك أَعْنُـزاً بالطـائفِ[2]

ومن الذين خرجوا على الحجاج أبو عبد الله بن الحجاج أبو الأقرع الذي كان جوالا في الفتن، فكان مرة مع عمرو بن سعيد، وأخرى مع نجدة بن عامر الحنفي وثالثة مع ابن الزبير، فأراد الحجاج قتله، ولكنه استطاع أن يصل إلى بلاط عبد الملك وينال منه العطاء بما يستتبعه من عفو عما حدث منه دون أن يعرف عبد الملك عن أمره شيئاً.[3]

والحارث بن خالد المخزومي، وقد حفظ لنا صاحب الأغاني مساجلة [4]بين الحارث هذا وأبان بن عثمان هجا فيها الحجاج، وكان سبب ذلك أنه لما شغل عبد الملك بن مروان بحرب ابن الأشعث لم يول أحداً إمارة الحج، وكان الحارث هو العامل على مكة، فكان الطبيعي أن تكون إمارة الحج للحارث، ولكن نازعه في هذه الرئاسة أبان بن عثمان، وتغلب عليه، فهجا خالد الحجاج لاعتقاده أن الحجاجهو الذي أوعز إلى أبان بهذا العمل، فلما لقيه الحجاج عاتبه، فقال خالد: (**ظننت أنك كاتبته، فحلف الحجاج له أن هذا لم يحدث**)، فاعتذر إليه.

---

(١) زهر الأداب. الحصري. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٥. والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٦٧ .

(٢) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١١، ص٩٦ .

(٣) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ١٢، صص٢٤ ـ ٣٢ .

(٤) الأغاني. الأصفهاني. مصدر سابق. جـ ٣ ، ص١٠٤ .

ومن الذين مدحوا الحجاج ثم خرجوا عليه عمران بن عصام العنزي الذي أوفده الحجاج إلى عبد الملك ليزين له البيعة لابنه الوليد وخلع أخيه عبد العزيز.

فلما كانت ثورة ابن الأشعث انضم إليها، وخرج مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج وقتله، فبلغ ذلك عبد الملك فقال هلا رعى فيه قوله:

وبعثت من ولد الأغر معتب ... صقرا يلوذ حمامه بالعوسج

فإذا طبخت بناره أنضجتها ... وإذا طبخت بغيرها لم ينضج

وهو الهزبر إذا أراد فريسةً ... لم ينجها منه صياح الهجهج[1]



الحجاج الخطيب والكاتب:

كان الحجاج بليغاً يختار لكتابته وخطابته التعبيرات البديعة كما كان مولعاً بانتقاء الألفاظ، وكان من الذين يعشقون بيان العربية الساطع .لذلك نراه يهش إذا سمع قولاً عربياً فصيحاً، ولا تمنعه هيبة الإمارة مِنْ أَنْ يثني علناً على قائله.ويعزو بعض المؤرخين تحويله الديوان من الفارسية إلى العربية إلى عنايته باللغة العربية وشغفه بها.[2]

ولكنا نرى أن العامل الأول في ذلك هو اعتزاز الحجاج بقوميته ورغبته في أن تكون الدولة عربية لحماً ودماً. ولي الحجاج العراق في ظروف تتطلب خطيباً موهوباً بمثل ما تتطلب إدارياً حازماً وقائداً موفقاً.

كان أهل العراق قد وقفوا موقف التردد في محاربة الخوارج بينما كان الخوارج مستبسلين في ثورتهم تحفزهم في ذلك عقيدة دينية تملي على زعمائهم جيد القول وحسن الكلام، وتتناقل الركبان وجهات نظرهم في الدين وجيد كلامهم فيه. فكان لزاماً على

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، ص٥٦، ٥٧.

(٢) الدولة العربية وسقوطها. يوليوس فلهوزن. ص١٥٧. ودائرة المعارف الإسلامية. الأب هنري لامنس. ص٢١٥ الكراسة ٢١.

ولي الأمر في العراق أن يكون موهوباً في خطبه من الناحيتين الدينية والسياسية.ولقد كان الحجاج من هذا الطراز من الرجال حتى لقد قال فيه الحسن البصري: (**إنه كان يعظ وعظ الأزارقة**).(١)

ولما كان الحجاج أحد القراء المعدودين في زمانه وكان كثير التلاوة للقرآن علقت معانيه في قلبه وظهرت في قوله. لذلك كان كثير الاستشهاد والاقتباس، ولا يسع المتأمل في خطبته بالكوفة حين ولي العراق وخطبته بعد دير الجماجم إلا أن يعترف بأنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر مطبوعاً على القدرة على الارتجال مع بلاغة في العبارة وروعة في الأسلوب ومطابقة مقتضى الحال.

وكان إذا توعد فكأن كلامه الرعد والانفجار، وإذا وعظ ملك قياد الناس حتى إن الحسن البصري شيخ الوعظ في ذلك العصر قال: (**لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج، سمعته يقول على أعواد هذه المنابر، إن امرأ ذهب من عمره ساعة في غير ما خُلِقَ له حريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة**)(٢)، وقال مالك بن دينار: (**ما رأيت أبينَ من الحجاج كان يرقى المنبر، فيذكر إحسانه لأهل العراق وإساءتهم إليه حتى أقولَ في نفسي إني لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين**).(٣)

ومن خير ما يؤثر عن الحجاج خطبته حين أراد الحج وقد استخلف ابنه محمداً فإنه قال:(**أيها الناس إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني هذا، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله في الأنصار.إن رسول الله ﷺ أوصى أن يقبل من محسنهم، وأن يتجاوز عن**

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٣، ص١٠٨ .

(٢) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٢ صص١٥٥، ١٥٦. كتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. ص ٩٢ . والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٢٣ .

(٣) تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني. جـ٢، ص٢١١. والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، ص٣٠١.

ونهاية الأرب. النويري. مصدر سابق. جـ ٧، ص٢٤٤ . وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٠٠ .

مسيئهم، وإني أمرته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم. ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي. ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة! ألا وإني معجل لكم الإجابة،لا أحسن الله الخلافة عليكم!) ثم نزل.[1]

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة أخيه محمد ففرح أهل العراق وقالوا: انقطع ظهر الحجاج، وهِيْضَ جناحُه، فخرج وصعد المنبر ثم خطب الناس فقال :**أيها الناس محمدان في يوم واحد! أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وايم الله ليوشكن الباقي منكم ومني أن يفنى، والجديد أن يبلى والحي منكم ومني أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها، ثم نكون كما قال الله تعالى:** ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝﴾ [يس: ٥١]

ثم تمثل بهذين البيتين:

عزائي رسولُ الله من كلِّ ميّتٍ ... وحَسْبي ثوابُ الله من كلِّ هالك

إذا ما لقيتُ اللهَ عنّي راضياً ... فإنَّ سرورَ النَّفسِ فيما هنالك[2])

ومرةً أرجف أهل العراق بموت الحجاج، فخطبهم خطبة قال فيها: **(إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا مات الحجاج مات**

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦. وعيون الأخبار. ابن قتيبة. جـ ٢، ص٢٤٤. والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ٢، ص٢٩٧. ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٠٤.

وعيون التواريخ. ابن شاكر. جـ ٥، ص٢٦١.

(٢) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٦. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٢٢.

الحجاج. فمَهْ! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟! والله ما يسرني ألا أموت، وأن لي الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه: إبليس.

ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] **، فأعطاه ذلك إلا البقاء. فما عسى أن يكون أيها الرجل - وكلكم ذلك الرجل -؟ كأني والله بكل حي منا ميتاً وبكل رطب يابساً، ونقل في ثياب أكفانه ثلاث أذرع طولاً في ذراع عرضاً، وأكلت الأرض لحمه ومصَّتْ صديده، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول!).**[1]

ومما ازدان به أسلوب الحجاج كثرة التشبيهات والاستعارات التي لها أبلغ الأثر في تصوير المعاني في النفوس.

من ذلك قوله في خطبته بالكوفة: **(والله لأحزمنكم حَزْمَ السَّلَمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل!).**

وقوله في الخطبة التي ألقاها عقب موقعة دير الجماجم:

(يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً!).

فالحجاج كان من أفصح العرب لفظاً وأقواهم أسلوباً حتى إن عمرو بن العلاء قال: **(ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري)**[2].

وسأل عبد الملك ابن مروان خالد بن سلمة المخزومي عن أخطب الناس فقال: أنا. قال ثم من؟ قال سيد جذام - روح بن زنباع - قال: ثم من؟ قال: أخيفش[3] ثقيف

---

(١) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٤٣. ومروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٠٢. والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص٨٢. العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص١٣٢.
وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص ١٠٠ .

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص ١١٩ .

(٣) الأخيفش: تصغير أخفش أي ضعيف البصر كالخفاش.

الحجاج - قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين قال: ويحك جعلتني رابع أربعة؟[1].

وقد كان في العصر الذي وصل فيه الحجاج إلى الذروة في الخطابة أربعة رجال اشتهروا كلهم بالبلاغة.

وهم الحجاج وعبد الملك والحسن البصري وابن القِرّيّة.

وكان القدماء يقدّمون عليهم الحجاجَ والحسن البصري، ولكن الحسن كان خطيباً دينياً لا سياسياً وقد شهد له الحجاج فقال: (**أخطب الناس صاحب العِمامة السوداء بين أخصاص البصرة**).[2]

أما الحجاج فقد كان خطيباً دينياً وسياسياً، ولم ينبغ بعد علي بن أبي طالب في ذلك النوع الذي يملك القلوب ويأسر العقول سواه؛ فكلاهما كان إذا خطب مهدداً خرج كلامه يفيض حرارة وغيظاً وتقريعاً وإيجاعاً، وإذا ما خطب مهدئاً كان كلامه برد النفوس وشفاء الصدور.وهذا النوع من الخطابة لا يجيء في العادة وليد تكلف أو تصنع، وإنما هو الوجدان المتّقد ينساب على اللسان فيضاً خطابياً حين يجيش في النفس أمرٌ من الأمور.

انظر إلى خطبته عقب دير الجماجم وما ورد فيها من العبارات المترادفة الجميلة في غير سجع مبتذل، ثم تأمل تقريعه لأهل العراق وتنديده بمسلكهم تر أنه كان من ذلك الطراز من الرجال الذي يعرف كيف يتكلم.ثم استعرض خطابه لجند الشام وما يشتمل عليه من فصاحة ودهاء تر أنه من ذلك الطراز من الرجال الذي يستهوي الألباب ويلعب بالعقول.ثم استمع إلى حديثه في مواطن الجدل يتبين لك كيف كان بارعاً في الإدلاء بحجته حتى تخال أن ليس للقضية إلا هذا الوجه الذي يدلي به.

وإن الناظر في كلامه وخطبه في المقامات المختلفة يرى أنه كان يستخرج أكثر معانيه من مصادر أربعة القرآن الكريم والسنة والشعر العربي وكلام من تقدم من خطباء

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، ص٢٧٣ .

(٢) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، ص٣٠٤

الجاهلية والإسلام.فنرى أن خطبه في الوعظ أشبه شيء بكلام الخلفاء الراشدين ومذاهبهم في استخراج المعاني الحكيمة من الدين. فمن ذلك قوله: (امرؤ حاسب نفسه. امرؤ راقب ربه. امرؤ نظر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه. امرؤ كان عند همه آمراً وعند هواه زاجراً. امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخِطام جمله.فإن قاده إلى حق تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه. إننا والله ما خلقنا للبقاء، وإنما خلقنا للفناء، وإنما ننتقل من دار إلى دار)[1].

وقوله: (أيها الناس اقذعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأعطى شيء إذا سئلت، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله).[2]

ومن كلامه الديني أيضاً: (أن امرأً أتت عليه ساعةٌ من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه ويفكر في معاده لجديرٌ أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه. إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء؛ ولا قضاء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا الأمل بقصر الأجل!).[3]

---

(١) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ ٢، ص٢٥١. و العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص١٣٢.
والبيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٢، ص١٤٠. وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مج١، ص١٥٠.

(٢) عيون الأخبار. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ٢، ص٢٤٧ . وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٢١. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص٩١. البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ١، ص٢٠٦.
وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج ١، ص١٥٠ .

(٣) مروج الذهب. المسعودي. مصدر سابق. جـ ٢ ، ص١٠٦. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق. ص١٢١. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. جـ ٢، ص٦٩

وخطب مرة يسأل الله أن يبصره مواطن الحق فقال: (**اللهم أرني الغي غياً فأجتنبه! وأرني الهدى هدى فأتبعه! ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيداً! والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه! ولما بقي منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء!**).[1] هذا قليل من كثير مما يجب أن يقال في مواهب الحجاج الخطيب.

ولو أردنا أن ننقد خطبه ونحللها لكان من ذلك رسائل وكتب؛ ولكنا أردنا بعضاً من كل فيه دلالة كافية على أن الحجاج كان من أعظم الخطباء في التاريخ.

أما الحجاج الكاتب فقد كان سيال العبارة سلس الأسلوب تواتيه المعاني والتعبيرات وفق هواه.كتب إليه الخليفة عبدالملك بن مروان رسالة جافة خطيرة، وأرسلها على يد غلامه نباتة، فما أتم الحجاج قراءتها حتى تناولَ دواةً وقرطاساً، وانكفأ يكتب، فما كان يرفع القلم إلا مستمداً حتى أتمّها ودفع بها إلى نباتة، وهي تتضمن من المعاني والأساليب ما لا تأتي الرَّويَّة بخير منه حتى قال عبد الملك عند قراءتها: (**إن من البيان لسحراً**).لم تكن بلاغة الحجاج قاصرة على الكتب التي يشرح فيها وجهة نظره في سياسته للخليفة، بل كانت تتناول فنوناً أخرى مثل الوصف.

كتب إليه عبد الملك مرة يسأله عن الفتنة فأجاب: (**إن الفتنة ليست بالنجوى، وتلقح بالشكوى، وتنتج بالخطب**). فسر عبد الملك من هذه الإجابة[2]. وكتب إليه مرة أخرى يسأله عن أمس واليوم والغد فأجابه (**أما أمس فأجل وأما اليوم فعمل وأما غداً فأمل**).[3]

وكتب إليه مرة يصف المطر فقال: (**أما بعد؛ فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب**

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٢، ص١٣٠. وسرح العيون. ابن نباتة. مصدر سابق ص١٢٢. وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. جـ١، ص٢٩٦ و جـ٢، ص١١٣ وشرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد. مصدر سابق. مج١، ص١٥٠.

(٢) مروج الذهب. المسعودي.مصدر سابق. جـ٢ ، ص٩٢ .

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص١٢٦ .

أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بلّ وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ حتى دفعت الأرض واقشعرت واغبرت وثارت في نواحيها أعاصير تذر دقاق الأرض من ترابها، فأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها؛ وأرضنا أرض سريعٌ تغيُّرُها وشيك تنكرها سيّ ظن أهلها عند قحوط المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة فأثارت زَبَرُجاً متقطعاً متمصراً.ثم أعقبته الشّمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه، وألقت متقطعة وجمعت متمصرة حتى انتضد فاستوى وطما وطحا وكان جوناً مرثغاً قرياً رواعده واعتدت عوائده بوابل منهمل منسجل يردف بعضه بعضاً، كلما أردف شؤبوبٌ ارتدفته شآبيب لشدة وقعة في العراض؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن قد ملأ اليباب، وسدَّ الشِّعاب، وسقى منها كل ساق؛ فالحمد لله الذي أنزل غيثه ونشر رحمته من بعد ما قنطوا وهو الولي الحميد).[1]

وكان الحجاج من ذلك الطراز من الناس الذي تطيب له حسن السمعة وقد بلغت منه هذه الشهوة مبلغاً جعلته يضجر بالنقد، ولا يحتمله، مهما كان طفيفاً ويشتد في عقوبة ناقده، مهما كان مخلصاً بريئاً.

روي أن يزيد بن المهلب لما فتح قلعة نيزك ببادغيس كتب إلى الحجاج يقول: (**إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار**).

فسأل الحجاج عن الذي يكتب ليزيد فقيل له: (**يحيى بن يعمر**). فكتب إليه يطلبه، فلما حضر لديه قال له: (**أين ولدت؟**) قال: (**بالأهواز**). قال: (**فهذه الفصاحة؟**) قال:(**حفظت كلام أبي، وكان فصيحاً**). قال: (**فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد؟**) قال: (**نعم كثير!**). قال: (**فهل يلحن فلان؟**) قال :(**نعم**) قال :(**فأخبرني هل ألحن أنا؟**) قال : (**تلحن لحناً خفيفاً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً، وتجعل أن في موضع إن**) فقال الحجاج:

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ. مصدر سابق. جـ ٣، صص ٢٨٢، ٢٨٣ .

(قد أجلتك ثلاثاً فإن وجدتك بأرض العراق قتلتك). فرجع إلى خراسان.[1]

الحجاج الخطيب:

أحب الحجاج الأدب، ولكن نجمه لمع في سماء الخطابة فبرز خطيباً أكثر منه شاعراً، ويرجع سبب ذلك إلى مقدرته الخطابية الفائقة واستخدامه هذه الملكة في حمل أهل العراق على التزام الطاعة والتخلي عن مقاومة الدولة الأموية. وقد حفلت خطبه العديدة بألوان الترهيب والترغيب التي كان لها أثر لا يقل أهمية عن قوة السيف في تحقيق بعض أهدافه في العراق.حيث طغت خطبته في الكوفة على خطبة زياد بن أبي سفيان المعروفة بالبتراء وهي لا تقل عن خطبة الحجاج المذكورة في قوة التهديد والوعيد.

ومع أن الحجاج تأثر بأسلوب زياد الخطابي إلى حد كبير إنَّ أسلوب الأول جاء أكثر بلاغة واستشهاداً بالشعر وآيات من القرآن الكريم.

وقد تميزت خطب الحجاج بن يوسف بأمورٍ عدَّة أهمها:

١. بلاغة الأسلوب وجزالة اللفظ، ويرجع ذلك إلى تكوينه الثقافي وأصله الثقفي الذي اشتهر بفصاحة اللغة واستقامة اللسان.

٢. الاستشهاد بالقرآن الكريم ولا سيَّما آيات الوعد والوعيد والإكثار من الحكم وعبارات الوعظ والإرشاد كوسيلة من وسائل الترهيب والترغيب، ويبدو أنه اضطر إلى ذلك لتنامي الشعور الديني في عصره الذي ساعد على تقوية طبقة الفقهاء

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٨٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ٣، ص٥٣. وشذور العقود. ابن الجوزي، جمال الدين (ت٥٩٧هـ). ص٥٦.

والتاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ٤، ص٦٥.

وكتاب الكامل في اللغة والأدب. المبرد. مصدر سابق. ص ١٥٨. ومعجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سابق. جـ ٢٠، صص٤٢، ٤٣. وابن خلكان. وفيات الأعيان. مصدر سابق. جـ٢ ص٣٥٢.

والقراء. كما أن حب الحجاج للقرآن الكريم وحفظه له مكنه من الاستشهاد بآياته واختيار ما يناسب دعم مواقفه وأهدافه.

٣. ترديد بعض الأبيات ذات الجرس الخاص والمعاني القوية إدراكاً منه لمحبة عرب العراق للشعر وتأثيره فيهم.

٤. استعمال الجمل القصيرة والكلمات الضخمة والحجة القوية والصوت المسموع لتوضيح أهدافه السياسية من خطبه وإحداث أشد تأثير ممكن في نفوس سامعيه. ونذكر في هذا الشأن كيف سوّغ لأهل مكة مقتل عبد الله بن الزبير في المدينة المحرّمة لخروجه عن الطاعة كما أخرج الله آدم من الجنة لعصيانه وقال: (**وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حُرْمةً من الكعبة**).

٥. الميل إلى الإطالة في خطبه ولا سيَّما يوم الجمعة؛ إذ كان يتجاوز بذلك فيما يبدو الموعد المقرر للصلاة. وهذا ما جعل بعض القراء والفقهاء والأتقياء يعترضون عليه غير مرة داخل المسجد وفي أثناء إلقائه الخطبة، ويطالبون بإقامة الصلاة لأن (الوقت لا ينتظره والرب لا يعذره). كما كانوا يقولون، وكان يتضايق كثيراً من هؤلاء المعترضين، وينذرهم بأشد العقاب، ومن أجل ذلك وضع داخل المسجد حرساً خاصاً لاعتقال كل من يعترض عليه أثناء الخطبة، ويروى أن الحجاج تمنى أنه لو أدرك عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي ليقتله (لأنه خطب في أهل البصرة خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد: (**أكثر الله فينا أمثالك!**) فقال: (**لقد كلفتم الله شططاً!**). وكان تأخير صلاة الجمعة من الأسباب التي زادت من نقمة الناس على الحجاج وبني أمية، فاتهموهم بإماتة الصلاة وحاربوهم من أجل إحياء وقتها.

٦. كان الحجاج يلجأ إلى أسلوب متميز به ليشد سامعيه إليه في أثناء خطبه؛ إذ كان يتقلد سيفه، ويتنكب قوسه، ويلبس عمامته، ويتلفع بمطرفه، فإذا همَّ ليخطب صمت قليلاً حتى يثير قلق الناس وترقبهم ثم أخذ يتكلم رويداً حتى لا يكاد يسمع ثم

يتزيد في الكلام، فيخرج يده من مطرفه، ثم يزجر الزَّجْرة، فيقرع بها أقصى من في المسجد. وكان إذا أكثر من الخطابة وضع يده على فمه حتى يفهم الناس كلامه، وكان على عادة خطباء عصره يرتجل خطبه ارتجالاً، وساعده على ذلك فصاحته وطلاقة لسانه إلا أن بحشلاً صاحب تاريخ واسط أورد رواية تذكر أن الحجاج خطب مرة الناس وفي يده ورقة. وربما تضمنت الورقة بعض البيانات أو الأقوال المهمة التي حرص على ذكرها. والواقع أن عصر الحجاج حفل بكثير من الخطباء سواء من كان منهم يناصر بني أمية، أو يتحزب إلى فئة أخرى من الفئات المعادية لهم.

نذكر من المجموعة الأولى على سبيل المثال: المغيرة بن شعبة وزياد ابن أبي سفيان وابنه عبيد الله والمهلب بن أبي صفرة وقتيبة بن مسلم وروح ابن زنباع والضحاك بن قيس الفهري وسفيان بن الأبرد الكلبي ومصقلة بن كرب بن رقبة وخالداً القسري ويوسف بن عمر، وعثمان بن حيان المري، وعتاب بن ورقاء الرياحي، وطارق بن زياد وغيرهم.

وقد يضيق المجال عن ذكر الخطباء الآخرين المناوئين للدولة الأموية أو الخطباء الدينيين الذين اشتهروا بخطب الوعظ والإرشاد من أمثال الحسن بن أبي الحسن البصري.

وهذا اللون الأخير من الخطابة كان للحجاج بن يوسف فيه باع طويلة، نكتفي بعرض نماذج منه بعد أن عرفنا في الفصول السابقة جانباً من خطبه السياسية. وأغلب الظن أنه كان يضمن خطبه يوم الجمعة هذه المواعظ والعبر، من ذلك خطبة قال فيها: **(أيها الناس! قد أصبحتم في أجل منقوص وعمل محفوظ، رب دائب مضيع وساع لغيره، والموت في أعناقكم والنار بين أيديكم والجنة أمامكم خذوا من أنفسكم لأنفسكم ومن غناكم لفقركم ومما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء، وكل ما ترونه فإنه ذاهب، هذه شمس عاد وثمود**

وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم! أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً).

وقال في خطبة أخرى: (إن الله خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها، لها المساحي والمرور، ثم أدال الله منهم، فردهم إليها فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها، وقطعتهم في جوفها ومزَّقت أوصالَهم كما مزقوها بمساحيهم ومرورهم).

وخطب يوماً فقال: (أيها الناس إنكم أغراض حمام وفرصة هلكة، قد أنذركم القرآن وصفر برحيلكم الجديدان، وإن لكم موعداً لا تؤخر ساعته ولا تدفع هجمته، وكأن قد دلفت إليكم نازلتُه، فنعق بكم، وحثكم حث مستقض، فماذا عبأتم للرحيل، وماذا أعددتم للتنزل، ومن لم يأخذ أهبةالحذر نزل به سوء القدر هلا قد تقدم؟)

وقال: (أيها الناس اقدعوا هذه الأنفس، فإنها أَسأَلُ شيء إذا أعطيت، وأعصى شيء إذا سئلت، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله).

وقال الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد يقول: (أما بعد فإن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

وقال الحسن البصري: (لقد وقذتني كلمة سمعتها يقول على هذه الأعواد: إن امرأً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته).

وقال: (أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء إنما خلقتم للبقاء غير أنكم تنقلون من دار إلى دار، فرحم الله عبداً أخذ بعنان عمله فإن كان الله مضى قدماً، وإن كان لغيره أمسك محجماً).

وذكر مالك بن دينار أن الحجاج خطب في يوم جمعة فقال: (امرؤ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره امرؤ نظر إلى ميزانه امرؤ نظر إلى حسابه فما زال يقول امرؤ حتى أبكاني).

وقال قتيبة بن مسلم: (خطبنا الحجاج فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة إنه بيت الغربة حتى بكى وبكى من حوله).

وكان يدعو ويقول: (اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه! وأرني الغي غياً فأجتنبه! ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيدا!).

ويروى أن الحجاج كان يحضر أحياناً مجلس البصري في المسجد ووعظه الناس وقد أورد البلاذري رواية بهذا الشأن لأبي نعامة جاء فيها: (بينما نحن جلوسٌ عند الحسن في المسجد الجامع إذ طلع الحجاج على برذون أبيض وحوله شرط يسعون حتى انتهى إلى الحلقة، فسلم ثم ثنى رجله، ونزل فجلس بيني وبين الحسن ومضى الحسن في حديثه، فلما فرغ أقبل على الحجاج فسأله. فقال الحجاج: إن هذا الشيخ شيخ مبارك معظم لحق أهل القبلة ناصح لأهل الملة صاحب سنة واستقامة ونصيحة للعامة فعليكم به فاحضروه، واشهدوا مجلسه، فإن مجلسه يعرف فضله وترجى عاقبته، فلولا الذي ابتلينا به من الشغل والقيام بحق الرعية وسياستهم لأحببنا مشاهدتكم وحضوركم).

وأُثِر عن الحجاج بن يوسف بالإضافة إلى ذلك حكم وأقوال مأثورة منها قوله: (سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها). وقال (الكآبة في أربع: في الفقر بعد الغنى، والذل بعد العز، واليأس بعد الطمع، وعواقب الهوى المتبع). وكان يقول: (الشره ينتج الطمع، والطمع يُخْلِقُ المروءة، ويدنس العرض، ويستخفف الشأن، ويذهب ببهاء الرجال). وكتب إليه عبد الملك يسأله عن أمس واليوم وغد فرد عليه قائلاً: (أما أمس

فأجل وأما اليوم فعمل وأما غد فأمل).

وكان يقول: (مودة الأخ التالد وإن أخلق خير من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جدته).

وعرف الحجاج أيضاً بقدرته على الوصف إذْ يُروى أنه قال يوماً لغلامه: (ائتني بأعز مفقود وأذل موجود). فلم يفهم ما عناه، فقال له ابن القِرِّيّة: (ائته بالماء!).

ويروى أن أهل الكوفة والبصرة اجتمعوا يوماً عند عبد الملك وكل يرجِّحُ فضل بلده فقال الحجاج: (يا أمير المؤمنين إن لي بالبلدين خبراً) فقال: (هاتِ غَيْرَ متَّهم) قال: (أما الكوفة فبكر عاطل لا حلي لها و لا زينةٍ، وأما البصرة فعجوز شمطاء بخراء ذفراء أوتيت من كل حلي وزينة)، فاستحسن الحاضرون وصفه إياهما.تلك هي بعض ملامح عن الحجاج الأديب والخطيب، وأثر عنه أنه كان يردد دائماً الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]

ويقول البلاذري إنه (كان لا يدع ذلك بعد حتى مات).

وفاة الحجاج:

واكبنا في الفصول السابقة الحجاج في نشأته وارتفاع شأنه وعلو مكانته واشتهار أمره، حتى غدا الرجل الثاني في الدولة الأموية كما أسلفنا. ونحاول في هذا الفصل أن نشيع الرجل في رحلته الأخيرة نحو الأبدية.وهو أمر كان الحجاج يتوقعه ويستعد له إيماناً منه (بأن الناس أغراض حمام وفرصة هلكة، وأن الله كتب على الدنيا الفناء، وأنه لا بقاء لما كتب عليه الفناء).

ويبدو أن حياة الحجاج الحافلة بالمخاطر والمفاجآت والمصاعب والعمل المتواصل المضني، ساعدت على تأخر صحته وإحساسه بنفاد طاقة احتماله ودنو أجله، وقد انتابه

هذا الشعور بشكل واضح حين ناهز الخمسين من عمره، فكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان يقول: (**إني نظرت في عمري، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنة وأنت نحوي في السن، وإن امرأً قد سار إلى منهل خمسين عاماً لَقَمِنٌ أن يكون دنا منه**)، ويقال إن أحد الشعراء سمع من الحجاج هذه العبارة، فقال:

وإن امرأً قد سار خمسينَ حِجَّةً ... إلى منهل من وِرْدِهِ لقريبُ

فقال الحجاج: (**والله إن الذي بقي من عمري لأشبه بما مضى من التمرة بالتمرة، ومن الماء بالماء**):

الدَّهْرُ آخرُه شِبْهٌ بأَوَّلِهِ ... يوم بيوم وأيام بأيام

وكان يشكو من الإرهاق والتعب والإعياء، ويسأل جلساءه عن أنجع الوسائل والطرق للتخلص من هذه الأعراض، ويقول المدائني: (**إن الحجاج سأل جلساءه: ما أذهب الأشياء للإعياء؟ فقال بعضهم: أكل التمر، وقال بعضهم: الحمام، وقال بعضهم: التمريخ**).

ويروي صاحب محاضرات الأدباء أن الحجاج سأل أصحابه: (**أي شيء أذهب للتعب؟**) فقال: (**التمريخ**). وقيل: (**الحمام**). وقيل: (**النوم**). ويبدو أن الحجاج كان يعاني ارتفاعاً في الضغط وقرحة في معدته، إذ كان يشكو من الصداع وطنين الأذنين وآلام في المعدة وعسر في الهضم، وقد وصف له طبيبه الخاص تياذوق عدة وصفات للقضاء على الإعياء والأمراض التي كان يشكو منها. ومن هذه الوصفات وضع رجليه في الماء الساخن وتمريخها بالدهن، وهو ما يعرف اليوم بالمساج، وتناول القشر الأحمر للفستق.

ومن طريف ما يروى في هذا الشأن ما ذكره ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء من أن الحجاج وجد في رأسه صداعاً فبعث إلى تياذوق وأحضره فقال: (**اغسل رجليك بماء حار وادهنهما!**)، وخَصِيّ للحجاج قائم على رأسه، فقال: (**والله ما رأيت طبيباً أقل

معرفة بالطب منك! شكا الأمير الصداع في رأسه فتصف له دواء في رجليه!!) فقال له: **(أما إن علامة ما قلت فيك بينة)**. قال الخصي: **(ما هي؟)** قال: **(نزعت خصيتاك فذهب شعر لحيتك!)** فضحك الحجاج ومن حضر.

ويروى أن الحجاج قال لطبيبه تياذوق: **(صف لي صفة آخذ بها ولا أعدوها!)** فقال له: **(لا تتزوج من النساء إلا شابة! ولا تأكل من اللحم إلا فتياً! ولا تأكله إلا حتى ينعم طبخه! ولا تشربن دواء إلا من علة! ولا تأكل من الفاكهة إلا نضجيها! ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه! وكلْ ما أحببت من الطعام واشرب عليه! وإذا شربت فلا تأكل عليه شيئاً! ولا تحبس الغائط والبول! وإذا أكلت بالنهار فنم! وإذا أكلت في الليل فتمشّ ولو مئة خطوة!)**.

وأشرنا في موضع سابق كيف أشار الطبيب على الحجاج أن يلجأ إلى عزيمته وإرادته في الإقلاع عن أكل الطين. لكن يبدو أن آلام الحجاج وأوجاعه لم تتوقف، بل زادت إذ أخذ الدم ينزف من باطن معدته، وهنا حاول طبيبه تياذوق الوقوف على سبب العلة فأخذ لحماً وعلقه في خيط وسرّحه في حلقه، وتركه ساعة، ثم أخرجه وقد لصق به دود كثير. وقيل دم فعلم الطبيب أَنْ لا أمل في شفائه.

وتحدثنا بعض المصادر أن الحجاج عانى كثيراً الآلام، ولا سيَّما في الأسابيع القليلة التي سبقت وفاته، وصاحب هذه الآلام إصابته بالقشعريرة والبرد الشديد حتى قيل إن الكوانين كانت توقد حوله وتدنى منه وهو لا يحس بها. والراجح إنما كان يشكو من قرحة بالمعدة، وأن هذه القرحة تطورت إلى مرحلة خطيرة قضت عليه. ومن غير المستغرب أن يصاب الحجاج بهذا المرض الذي يرى الأطباء أنه يرتبط ارتباطاً مباشراً في كثير من الأحيان بعوامل عصبية ونفسية.

وقد أوضح العالم الطبي ياسكين أن القرحة المعدية الاثني عشرية تظهر لدى أشخاص تتصف شخصيتهم بالصلابة وفرط الوجدان وعدم التحمل ولدى أشخاص أمناء إلى حد بعيد، دقيقي المعاملة إلى حد الوسوسة نشيطين إلى الأذى أحياناً. ويذكر

الـدكتور بلانـك (*Planck*) والبروفسـور الفـاريس (*Alvarez*) أن أكثـر هـذا النـوع مـن القرحـات يظهـر لـدى أصـحاب النشـاط العصـبي والانفعـال الزائـد ويصـفان مـريض القرحة بأنه شخص مجهد وحقود.

والواقع أن جانباً غير قليل من هذه الصفات ينطبق على صاحبنا الحجاج، بالإضافة إلى أن الرجل كما قلنا تعرض إلى كثير من الأزمات الحادة والأخطار الحقيقية التي أثـرت ولا شك في صحته، وسببت لـه مِنْ ثَمَّ هـذه القرحـة، فقـد لاقـى الحجـاج الأهـوال في مواجهته ثورات أهل العراق، ولا سيَّما ثورة ابن الجارود وحركات الخوارج وفتنة ابـن الأشـعث، كـما ابتلي بوفـاة اثنـين مـن أبنائـه أبـان ومحمـد وهمـا في مقتبـل العمـر وريعـان الشـباب. وافتقـد أخـاه محمـداً عاملـه عـلى الـيمن بالإضـافة إلى شـعوره بالغربـة وعـدم الاطمئنان التام لمعاداة أهل العراق إياه.

وثمـة عامـل آخـر زاده في قلقـه إلى درجـة خطـيرة، وهـو إخفـاق الجهـود التـي بـذلها بالاتفاق مع الوليد بن عبد الملك وقتيبة بن مسلم ومحمد بـن القاسـم عـلى تحويـل ولايـة العهد بعد الوليد إلى ابنه عبد العزيز بدل أخيه سـليمان، ممـا جعـل الأخـير يضـمر العـداء الأكيـد للحجـاج ولكـل مـن شـارك في هـذه المحاولـة ويتوعـدهم بالقتـل إذا آلـت إليـه الأمور. وتأكد هـذا القلـق حـين أخـذت صـحة الوليـد في التـدهور، الأمـر الـذي جعـل الحجاج يتمنى على الله أن يجعل منيته قبل منية الوليد.

وأورد الطبري رواية بهذا الشـأن لا تخلـو مـن دلالـة وهـي أن الوليـد مـرض فرهقتـه غشية، فمكث عامّة يومه عندهم ميتاً، فبكى عليه وخرجت الـبرد بموتـه، فقـدم رسـول على الحجاج فاسترجع ثم أمر بحبل فشد في يديه ثم أوثق إلى أسطوانة، وقال: (**اللهـم لا تسلط علي من لا رحمة له، فقد طالما سألتك أن تجعل منيتي قبل منيته!**) وجعل يدعو فإنه لكذلك إذ قدم عليه بريد بإفاقته. ولَّما أحـس الحجـاج باسـتفحال مرضـه واحـتمال وفاتـه كتب بذلك إلى الوليد بن عبد الملك حتى يكون على بينـة مـن الأمـر وقـال لـه: (**أمـا بعـد فإني كنت أرعـى غنمـك، أحوطهـا حياطـة الناصـح الشـفيق برعيـة مـولاه فجـاء الأسـد**

فبطش بالرعي ومزق المرعى كلَّ ممزق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفراناً لخطاياه وتكفيراً لما حمل من ذنوبه!). ويقول أحمد بن عبيد صاحب كتاب أخبار الحجاج أن الحجاج كتب في آخر كتابه إلى الوليد أبياتاً من الشعر يقول فيها:

إذا ما لقيت الله عني راضياً	فإنَّ شفاءَ النَّفْسِ فيما هنالك
فحسبي بقاء الله من كلِّ ميّت	وحَسْبي حياة الله من كلِّ هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قَبْلَنا	ونحنُ نذوقُ الموتَ مِنْ بعد ذلك
فإن متّ فاذكرْني بذكرٍ محبّبٍ	فقد كان جماً في رضاك مسالكي
وإلا ففي دبر الصَّلاة بدعوةٍ	يلقى بها المسجون في نار مالك
عليك سلام الله حَيّاً وميّتاً	ومِنْ بَعْدِ ما تحيا عتيقاً لمالك [1]

وهذا البحث وإن كان الوضع فيها ظاهراً ولا سيَّما الأبيات الشعرية المتعلقة بها تدل على أنّ الحجاج عانى طويلاً مرضه، وأنه أخبر الوليد بخطورة هذا المرض ولا يستبعد توقعه الوفاة بسببه، ولا يستبعد أن يكون الحجاج قد أخبر الوليد بالترتيبات الإدارية التي وضعها للعراق في حالة وفاته، إذ عهد إلى كاتبه ومولاه يزيد بن مسلم أمر خراج العراق كما جعل يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة.

ولسنا نعرف بالضبط المدة التي قضاها الحجاج في نزاعه الأخير، إلا أننا نعلم من بعض الروايات أَن وطأة المرض استمرت في المرحلة الأخيرة بعض الوقت وإن خبر هذا المرض قد انتشر بين الناس الذين توقعوا موته وفرحوا به، بل أرجف بعضهم بموته فعلاً.فلما بلغه ذلك خرج متحاملاً حتى صعد المنبر فقال: **(إن طائفة من أهل العراق، أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج ومات الحجاج، فَمَهْ! والله**

---

(١) وفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ١، ص ١٥٦. وذيل الأمالي والنوادر. أبو علي القالي. مصدر سابق. ص١٧١ .

ما يسرني ألا أموت وأن لي الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رَضِيَ بالتخليد إلا لأَهْوَنِ خلقِه عليـــــهِ إبلـــــيس ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٤و١٥]

ويصوّر أحمد بن عبيد في أخبار الحجاج اللحظات الأخيرة من حياة الحجاج على نحوٍ لا يخلو من الغلو والمبالغة فهو يقول: إنه لما حضرته - أي الحجاج - الوفاة وأيقن بالموت قال: أسندوني! وأذن للناس فدخلوا عليه، فذكر الموت وكربه واللحد ووقته والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها وكثرة ذنوبه، وأنشأ يقول:

إن ذنبـــي وزن السمـــوات والأرض وظنـــي بخـــالقي أن يحـــابي
فلـــئن مَـــنَّ بالرضـــا فهـــو ظنّـــي ولَـــئِن مـــرَّ بالكتـــاب عـــذابي
لم يكـــــن ذاك منـــــه ظلـــــماً وهـل يَظْلِمُ رَبٌّ يُرْجَى لِحُسْنِ مآبِ

ويضيف صاحب الرواية بعد ذلك أن الحجاج بكى وبكى جلساؤه.

وتذهب بعض الروايات إلى أن الحسن البصري ويعلى بن مخلد المجاشعي دخلا على الحجاج وهو في النزع الأخير، وذكراه بما جنت يداه وأسمعاه ما يقرعه ويبكيه ويخزيه، وأن الحجاج تنفس الصعداء وخنقته العبرة ولم يحر جواباً.

كما تذكر بعض المصادر أن الحجاج خولط في عقله إثر قتله سعيد بن جبير، وأنه لم يلبث بعده إلا قليلاً حتى توفي.

ويرى القزويني أَنَّ الحجاج مات بعد خمسة عشر يوماً من مقتل سعيد بن جبير، في حين يرى صاحب كتاب العيون والحدائق أنه مكث بعده خمسين يوماً فقط، وزاد الجاحظ المدة إلى ستة شهور.

والواقع أن أمثال هذه الروايات الموضوعة كثير ولا سيَّما ما يتحدث منها عن وفاة الحجاج، فليس من المحتمل أن يضعف الحجاج وهو يستقبل الموت هو الرجل القوي المؤمن بحقه ووجهة نظره وسلامة أعماله، ولم نعرف الحجاج شاعراً يقول الشعر عن

نفسه، ثم كيف يسمح الحجاج وأنصاره وأعوانه أن يتهجم عليه أحد في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى الراحة والهدوء.

يضاف إلى ذلك أن الراجح أن مقتل سعيد بن جبير كان في عام ٩٤هـ الذي سمي عام الفقهاء لكثرة من توفي فيه منهم، وأن الحجاج توفي في أواخر عام ٩٥هـ أي هناك أكثر من سنة بين وفاة كل من الرجلين، وهو أمر يبعد معه أن يكون مقتل سعيد بن جبير سبباً مباشراً في وفاة الحجاج.

وكأن هؤلاء الرواة من أعداء الحجاج ضنّوا عليه أن يموت كما يموت الرجال، فأحاطوا خبر وفاته بسلسلة من الحكايات والأساطير التي هدفت إلى التدليل على أن الله، وإن أمهله، فإنه لم يهمله ولم يُعْفِهِ من العذاب الأليم لتجبره وظلمه.

بل إن واحدة من هذه الأساطير ذهبت إلى أَنَّ الحجاج أغمي عليه إغماءً شديداً، فظن أهله أنه مات حقاً فدفنوه !! ثم سمع الناس صياحاً في قبره، فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه فأخبروه فركب في أهل الشام فوقف على قبره فتسمع وقال: (**يرحمك الله يا أبا محمد: فما تدع القراءة حتى ميتاً**[1]!!) وأورد ابن نباتة هذه الحكاية بشكل آخر إذ قال إنه لما دفن الحجاج سمع جرس السلاسل من قبره!! فقال كاتبه: (**رحمك الله يا أبا محمد ما تدع قراءة القرآن حياً ولا ميتاً!**) .فضحك الناس من قوله!!.؟ وشبيه بهذه الأساطير ما قيل من أن الحجاج استطلع قبيل وفاته منجماً، وسأله عما إذا كان يعرف اسم ملك يموت. فلما أخبره باسم ملك يموت يقال له: كليب!! قال الحجاج: (**أنا والله كليب بذلك سمّتني أمي!**)[2] فقدم المنجم وضرب عنقه!!

---

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه. مصدر سابق. جـ٣، ص١٩.
والوزراء والكتاب. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ). ص٢٦.

(٢) المعارف. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص ١٧٤. والبدء والتاريخ. أبو زيد البلخي. مصدر سابق. جـ ٦، ص ١٣٩. وشذرات الذهب. ابن العماد الحنبلي. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٠٧. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٥٥.

ونحن إذ ننفي وقوع هذه الحكايات والأساطير فإننا ننظر إليها من حيث إنها محاولة من جانب خصوم الحجاج ولا سيَّما من القراء وأصحاب الاتجاهات الدينية المعارضة لإظهار انتصارهم على الحجاج ولو أثناء موته وبعده وذلك كرد فعل طبيعي من جانبهم لإعادة اعتبار لأنفسهم واتجاهاتهم التي أخضعها الحجاج وأخمدها.

وإذا كنا نستبعد الصورة السابقة لوفاة الحجاج فإن الصورة الأقرب إلى الواقع هي أَنَّ الحجاج حين اشتدت عليه العلة عمل على تدبير شؤون العراق.من بعده بما يحفظه من الاضطراب والفتن ويبقيه جزءاً من الدولة الأموية.

حتى إذا اطمأن إلى ذلك كتب وصيته ليبرر فيها نفسه وذمته تجاه خالقه ونفسه وخليفته المسؤول أمامه حتى آخر لحظة من دنياه، فكتب يقول: (**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث، وأوصى بتسعمئة درع حديداً، ستمئة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها وثلاثمئة للترك**).

وأورد صاحب كتاب الذخائر والتحف العبارة الأخيرة بشكل أوضح حين قال: (**إن الحجاج خلف تسعمئة درع حديداً جعل منها ستمئة موقوفة لمن يقاتل منافقي العراق، وثلاثمئة محبسة موقوفة لمن يقاتل الترك**).

ويوضح هذا ثقة الحجاج بأهل العراق ظلت معدومة حتى آخر لحظة في حياته، ولعل هذا الشعور هو الذي جعله يوصي يزيد بن أبي مسلم بأن يدفنه في مكان لا يستطيع أهل العراق أن يصلوا إليه أو ينبشوا قبره بعد موته.

يقول المدائني: إن الحجاج قال ليزيد: (**إذا مت فلا تكتم أمري، ومر من ينادي بموتي، ثم أخرجني من الباب الزابي، فإذا فرغت من دفني فأَجْرِ الماء على قبري ثم أثره بالنفر، وليكن الحفر عميقا**).وهدف الحجاج من ذلك إخفاء أي أثر يدل على قبره وتحويل مجرى الماء عليه حتى يتعذر الوصول إليه والتمثيل بجثته فيما بعد من قبل أعدائه

والموتورين منه.

ومع أن الحجاج قاسى كثيراً من الآلام في نزعه الأخير، ظل صابراً صبر أيوب، وبقي محتفظاً بوعيه وإدراكه حتى اللحظات الأخيرة من وفاته وكان يدعو ربه أن يخفف عنه آلامه بقبض روحه إليه. ويروى أنّه قيل له قبيل وفاته: (ألا تتوب؟) فقال: (إن كنت مسيئاً فليست ساعة الفزع!)، ويقول المدائني: لما احتضر الحجاج قال: (والله لئن كنت على ضلالة لبئس حين المفزع! ولئن كنت على هدى لبئس حين المجزع!).

ومثل هذا الموقف خليق بالحجاج المؤمن القوي الذي كان واثقاً كل الثقة بنفسه ودينه وخالقه إذ أثر عنه وردد بيتين بهذا المعنى لعبيد بن سفيان العكلي هما:

يا رَبِّ قد حَلَفَ الأعداءُ واجتهدُوا إيمانهم أنّني مِنْ ساكني النَّارِ

أيحلفون على عمياءَ وَيْحَهم ما ظنُّهم بعظيمٍ غفَّارِ[1]

ويقال: إنَّ عمر بن عبد العزيز حسده على هذا القول، لأنه يدل على صدق الرجل وقوة إيمانه.

ولمّا توفي الحجاج دفن بمدينة واسط، وعفي قبره وأجري عليه الماء[2] كما جاء في وصيته لكاتبه ومولاه يزيد بن أبي مسلم. وهنا نصل إلى تحديد تاريخ وفاته وهو أمر اختلف فيه المؤرخون كما اختلفوا من قبل في سنة مولده، والغريب أن يحصل مثل هذا الاختلاف في تحديد وفاة الحجاج وهو الشخصية المشهورة. فالطبري وابن الأثير وابن خلدون يذهبون إلى أنه توفي في شوال سنة ٩٥هـ = ٧١٤م، إلا أن معظم المؤرخين الآخرين يقولون: إنّه وفاة الحجاج كانت في رمضان ٩٥هـ =٧١٤م ، ويحدد بعضهم

---

(١) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٨٢.
وتاريخ الإسلام. الذهبي. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٨١٩.

(٢) وفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١، ص١٥٧ والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٩. وأخبار الدول وآثار الأول. القرماني. ص١٣٣. ومختصر التواريخ. السلامي. مصدر سابق. ص٢٢ .

يوم الوفاة في الخامس والعشرين من رمضان[1]. ويؤكد بعضهم الآخر أن الوفاة كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان إذ استجاب الله لدعاء المظلومين والمسجونين وأهلكه.

والراجح أن الوفاة وقعت في شوال [2]سنة ٩٥هـ [3]إذ تذكر المصادر أن النبأ ورد على قتيبة بن مسلم في شوال وهو يواصل غزواته فيما وراء النهر، فلما علم بوفاة الحجاج في ذلك الشهر غمَّه الخبر وقفل راجعاً إلى مرو.

ويبدو أن أعداء الحجاج من ذوي الاتجاه الديني المعارض أبوا إلا أن يموت الحجاج في رمضان، وفي السابع والعشرين من هذا الشهر ليكون في ذلك استجابة لدعائهم بالتخلص منه. وطبيعي أن يُسَرّ أعداءُ الحجاج الكُثُر بموته، فيروى أن الحسن البصري سجد لله شكراً حين بلغه نبأ وفاته[4] وقال: (**اللهم أمته فأمت عنا سنته!**).

وهذا إبراهيم النخعي يبكي من الفرح لدى سماعه الخبر، كذلك سر به أبو عمرو بن العلاء.

وصور ابن نباتة فرحة أعداء الحجاج بموته فقال: (**إن يوم موته كان يسمى عرس العراق!**).

ويبدو أن المصادر صورت لنا شعور أعدائه فقط، إذ كان في العراق مؤيدون له، ولا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢٦٤. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص ١٣٨ .

(٢)تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢٦٤. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٥٧ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ٢٦٤. والتنبيه والإشراف. المسعودي. ص ٢٧٤ . وتاريخ اليعقوبي. اليعقوبي جـ ٣، ص ٣٤ .

(٤) تاريخ الإسلام. الذهبي. جـ ٤ ، ص٨٢١. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ ١، ص ١٥٧ . التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤، ص ٨٢. وتهذيب التهذيب. ابن حجر. جـ ٢، ص ٢١٢ .

بد أنهم تأسفوا على موته، فقد أسف لموته أناس من أرجح معاصريه عقلاً وأنزههم حكماً أمثال مسلم بن قتيبة وخالد القسري. كما أثر عن طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ) المحدث الفقيه قوله: (**عجبت لإخوتنا منأهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً!**). على أن الأسف كان عميقاً لدى أعوانه وأنصاره، كما فجع به الخليفة الوليد بن عبد الملك حيث انتابه وجوم شديد لدى تلقيه النبأ.

ويروى أنه كان يتوضأ وخادمه يصب له الماء، وهو ساه، والماء يسيل، ولا يستطيع الخادم أن يتكلم، ثم نضح الوليد الماء في وجه خادمه وقال له: (**أناعس أنت!**) ورفع رأسه، وقال: (**ما تدري ما جاء الليلة؟!**) فلما أجابه الخادم بالنفي، صاح به الوليد قائلاً: (**ويحك! مات الحجاج!**).

ويقال: إنَّ الوليد لما بلغته وفاة الحجاج بن يوسف ومن بعده قرة بن شريك عامله على مصر صعد المنبر وهو حاسر شعثان الرأس فنعاهما إلى الناس وقال: (**والله لأشفعن لهما شفاعة تنفعهما!**).

ويروي المدائني أنه لما مات الحجاج ذكره الوليد وذكر قرة بن شريك فترحم عليهما وقال: (**كانا منقادين لأمرنا، والله لأشفعن لهما عند ربي، ولأسألنه أن يدخلهما الجنة، يا أهل الشام! أحبوا الحجاج؛ فإن حبه إيمان وبغضه كفر!**).

وقال الوليد حين مات الحجاج: (**أما والله لئن سئلت عنه ولأسألن! لأقولن: كان والله القوي الأمين!**).

ودخل الناس على الوليد يعزونه ويثنون على الحجاج خيراً، وكان عنده عمر بن عبد العزيز، فالتفت إليه الخليفة ليقول فيه ما يقول الناس فقال: (**يا أمير المؤمنين وهل كان الحجاج إلا رجلاً؟**) فرضيها الوليد منه. وقيل إن عمر بن عبد العزيز لم يعزِّ الوليد في الحجاج، فسأله لِمَ لَمْ تعزّني؟ فأجاب لأننا نحن نُعزّى فيه يا أمير المؤمنين!

ورثى الفرزدق الحجاج إرضاء للوليد بن عبد الملك، ومع ذلك فإن رثاءه يضم عدة أبيات تشيد بأعمال الرجل وتصور حقيقته ومكانته نوردها لقيمتها التاريخية، يقول

الفرزدق:

لِيَبْكِ على الحَجَّاج مَنْ كَان باكياً على الدّين أو سارٍ على الثَّغْرِ واقف

ونتحدث في نهاية هذا الفصل عن الأموال العامة والخاصة التي خلفها الحجاج بن يوسف بعد وفاته.

فقد ذكر القاضي الرشيد بن الزبير صاحب كتاب الذخائر والتحف أن الحجاج ترك بعد وفاته في بيت المال بواسط مئة وسبعة عشر مليون درهم وتسعمئة درع حديداً، أوقف ستمئة منها لقتال منافقي العراق والثلاثمئة الباقية لمن يقاتل الترك، وأضاف أن بعض المؤرخين يقولون: إن الحجاج ترك مئتي مليون درهم، وإن يزيد بن أبي مسلم حمل هذه الأموال كما حمل إليه من السلاح والمتاع ما ضاقت عليه الخزائن!! وفي هذا النص دلالة على أمانة الحجاج وحرصه على توفير الأموال .أما الأموال الخاصة المنقولة التي خلفها الحجاج فلا تكاد تذكر، إذ روى الأصمعي أن الحجاج لم يترك إلا ثلاثمئة درهم!! ويبدو أن الواقدي شك في هذا الرقم، فأورد رواية تتضمن هذا الشك تقول: **(زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمئة درهم ومصحفاً[1] وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومئة درع موقوفة).**[2]

ونحن لا نستغرب ذلك على الحجاج لما عرف عنه من أمانة ونزاهة وشكه في مصدر الأموال الكبيرة التي يخلفها عماله، كما فعل بتركة أخيه محمد بن يوسف والي اليمن، ومع ذلك فربما كان الحجاج يمتلك بعض العقارات التي صودرت من ورثته فيما بعد، إذ نسمع عن مصادرة منزل عبد المطلب الذي ولد فيه الرسول الكريم محمَّد ﷺ بمكة والذي اشتراه الحجاج من أخيه محمد بن يوسف بمئة ألف درهم. وقد رفض حفيد الحجاج وسميه الحجاج بن عبد الملك بن الحجاج التنازل عن حقه، وظل يأمل إليه ملكية المنزل في يوم من الأيام.

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ ٩، ص١٣٩ .

(٢) التاريخ الكبير. ابن عساكر. مصدر سابق. جـ ٤ ، ص٨١ .

الخاتمة

وبعد؛ فكثيرة هي محاولات الكُتّاب البحث في شؤون بني أمية، ولا سيّما في عهدهم الأول، فقد خاضوا في حكمهم، وقدموه في غير صورته الحقيقية، و طمسوا تلك الصورة التي تظهر ما أداه بنو أمية وعمالهم إلى الأمة العربية والإسلامية من جليل الخدمات التي لو تتبعها الباحث المنصف لوجدها درة في عنق التاريخ الإسلامي بعد صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين.وإذا ذكر مجد بني أمية وصنائعهم فإن العقل لا يمم إلا شطر حكم عبد الملك بن مروان ونجله الوليد، وما بلغته الدولة الأموية من ازدهار في عهديهما.

إذ يتميز عهد ذَيْنِ الخليفتين باستبقائهما الحجاج (٤١هـ = ٩٥هـ) عاملاً لهما على العراق، هذه الشخصية القيادية الأبية التي أثارت جدلاً محتدماً بين المؤرخين قديمهم وحديثهم، وهي التي احتلت بلا منازع مكان الصدارة بين الرجال الذين تركوا بصمة عميقة في صناعة التاريخ الإسلامي، فبهروا الزمان بعظيم أعمالهم وجليلها؛ وعليه كان للحجاج قصب السبق في إرساء ركائز الدولة العربية المجيدة والدولة الإسلامية العظيمة. لكون من الشخصيات الهامة في التاريخ الإسلامي والعربي.

اختلف الناس في تقويم هذا الرجل، فمنهم من صوب عمله، وأجلّ صنيعه، وهم قليل، ومنهم من خطأ عمله، فغمطه حقه، وأظهره بمظهر جائر لا يليق أن يوصم به، وهم كثير.غير أننا لو تتبعنا ولاية الحجاج بتجرد وإنصاف ومناقشة للأخبار التي تناولته في كتب التاريخ، وعرضناها على محك النظر والقد، (كما سعينا في كتابنا) لوجدنا في سيرته رجلاً فذاً عز نظيره فيمن عاصره أو أتى بعده.فهو السياسي الأموي، والقائد العسكري، وهو الذي أدى دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية، وسير الفتوح، وخطط المدن.

وقد كُتبت دراسات تاريخية متعددة عن الحجاج، ومنها أطروحات جامعية حاولت إنصاف الحجاج وتقديم صورته الحقيقية التي طمس معالمها وملامحها ركام الروايات

التاريخية الكثيرة.ومنها كتابنا هذا، إذ حاولنا أن نسهم ولو بتواضع علمي في وضع هذا الرجل في مكانته التاريخية المتميزة بين أعلام الإسلام، الذي هو من بين رجال الصدارة بين الرجال وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة.

ويكفي أن نقول: إنَّه من أصحاب الفكر الإصلاحي إذ لم تشغله الأعمال العسكرية عن إصلاحات كثيرة، وشملت هذه الإصلاحات النواحي الاجتماعية والصحية والإدارية والاقتصادية وغيرها؛ إذ اقرّ التاريخ للحجاج أنه ساعد في تعريب الدواوين، وفي الإصلاح النقدي للعملة، وضبط معيارها، وإصلاح حال الزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات، وإحياء الأرض الزراعية، واعتنى بالفلاحين، وأقرضهم، ووفر لهم الحيوانات التي تقوم بمهمة الحرث؛ وذلك ليعينهم على التمسك في الزراعة.

ومن أعماله الكبيرة بناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، وصولاً إلى تفانيه في اختيار ولاته وعماله من ذوي القدرة والكفاءة والأمانة، ولا يتردد في مراقبة أعمالهم، والتصدي لتجاوزاتهم على الرعية، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلي، والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق وكانوا كثر.

بل وأمر بعدم النُواح على الموتى ، وبالتخلص من الكلاب الضالة، وعاقب من تبول أو التغوط في الأماكن العامة، ومنع بيع الخمور، وأمر بإهراق ما يوجد منها، وعندما قدم إلى العراق لم يكن لأنهاره جسور فأمر ببنائها، وأنشأ عدة صهاريج بالقرب من البصرة لتخزين مياه الأمطار وتجميعها لتوفير مياه الشرب لأهل المواسم والقوافل، وكان يأمر بحفر الآبار في المناطق النائية لتأمين مياه الشرب للمسافرين(١).

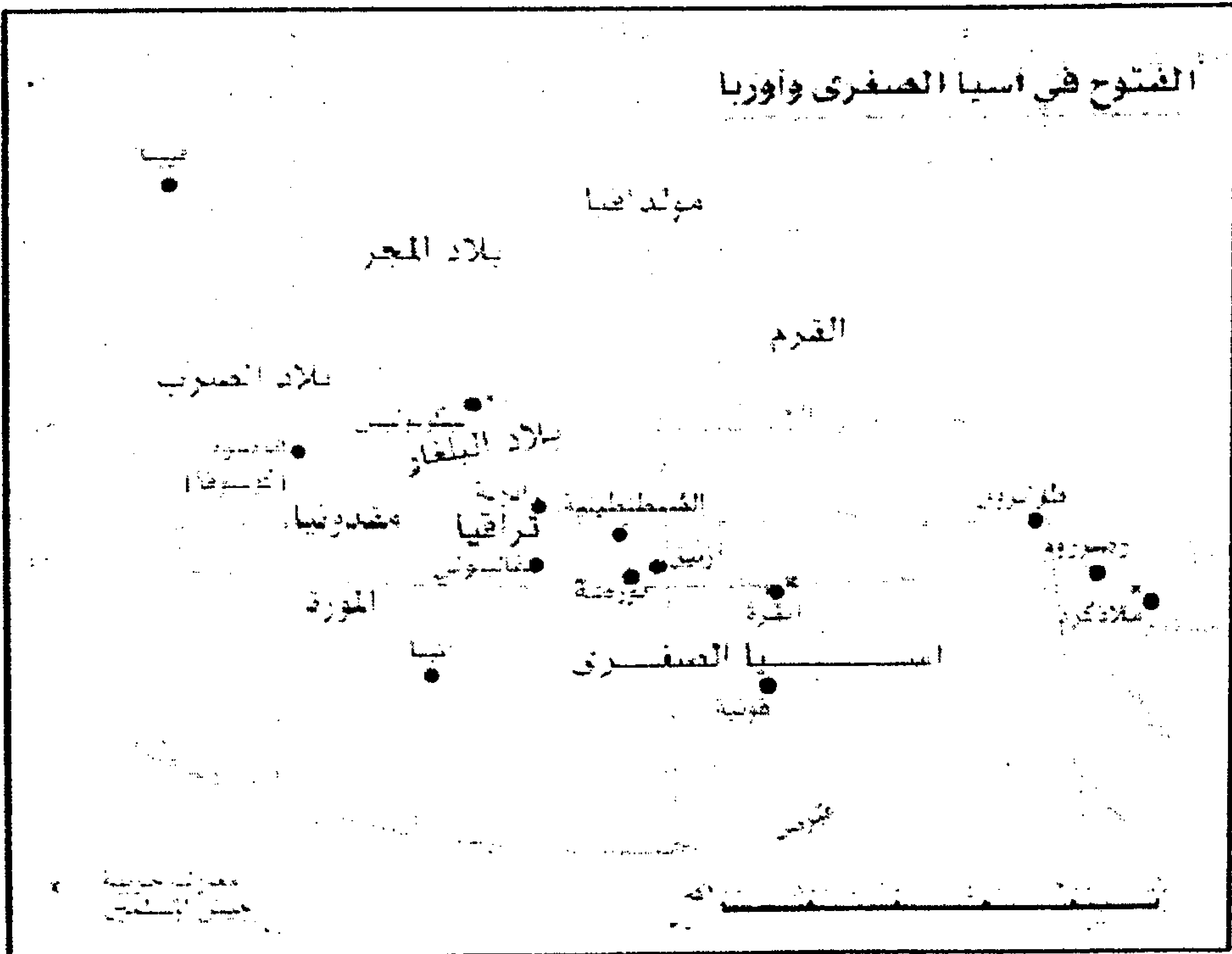
ومن أجلِّ الأعمال التي تنسب إلى الحجاج اهتمامه بنقط حروف المصحف وإعجامه بوضع علامات الإعراب على كلماته، وذلك بعد أن شاع التصحيف؛ فقام (نصر بن عاصم) بهذه المهمة العظيمة، ونُسب إليه تجزئة القرآن، ووضع إشارات تدل على نصف القرآن وثلثه وربعه وخمسه، ورغّب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس

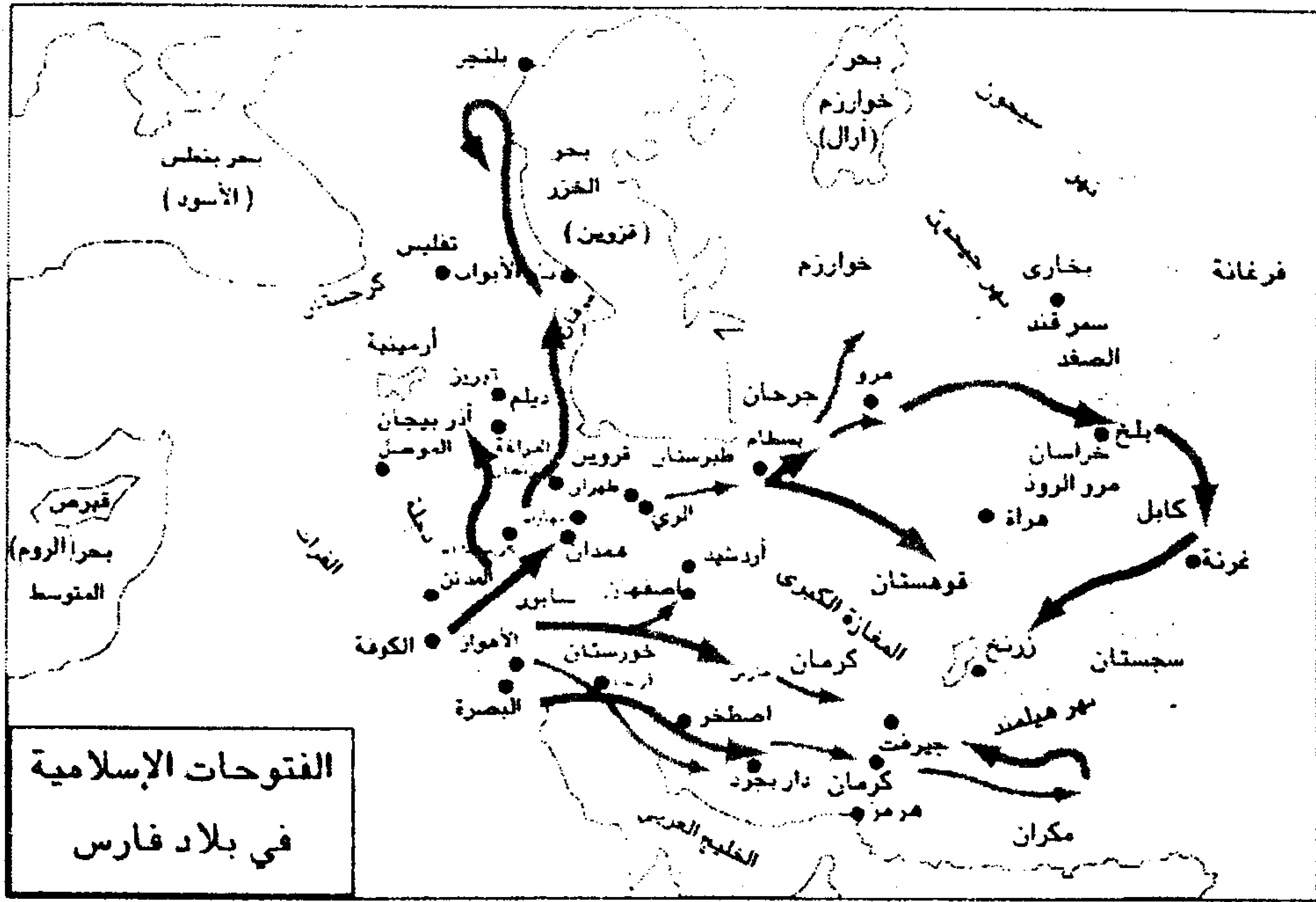
---

(١) أخبار مكة. الأزرقي . مصدر سابق. جـ ٢، ص١٨١.

بقراءة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف موحدة، وبعث بها إلى الأمصار.

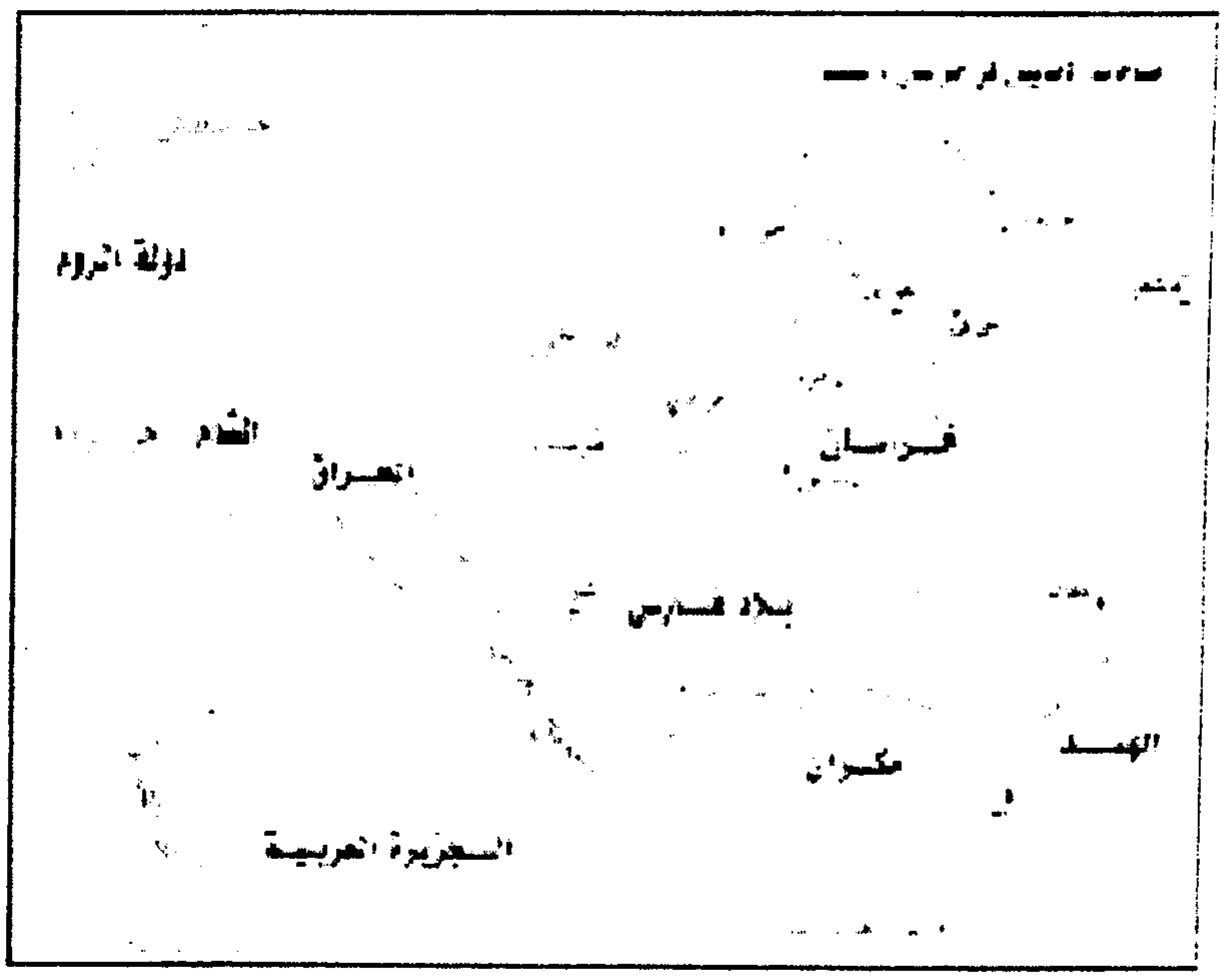
وأما فتوحات الحجاج فحدّث ولا حرج، إذ أرسل الجيوش المتتابعة، تخيّر لها القادة الأكْفاء، مثل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي عهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد؛ فأبلى بلاء حسناً، ونجح في فتح ما وراء النهر، فانتشر الإسلام في تلك المناطق، وأصبح كثير من مدنها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند. وبلغت مساحة فتوح قتيبة بن مسلم الباهلي وحده أربعين بالمئة من مساحة الاتحاد السوفييتي السابق وثلاثاً وثلاثين بالمئة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر. وإن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن روسيا الاتحادية والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم، ويعتزون بالإسلام ديناً. هذا فضلاً عن فتوحات باقي قادة الحجاج، وباقي ولاة بني أمية.

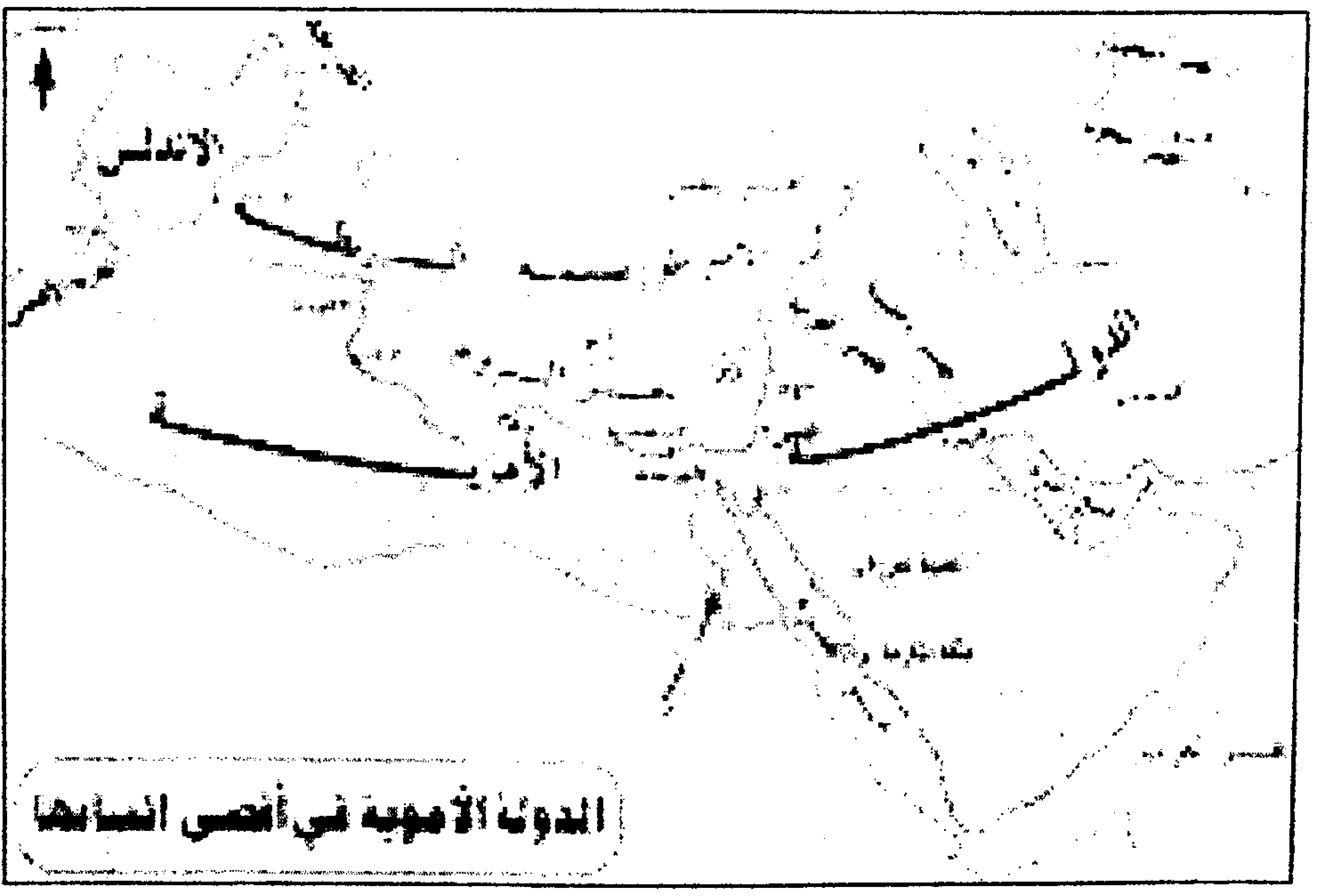




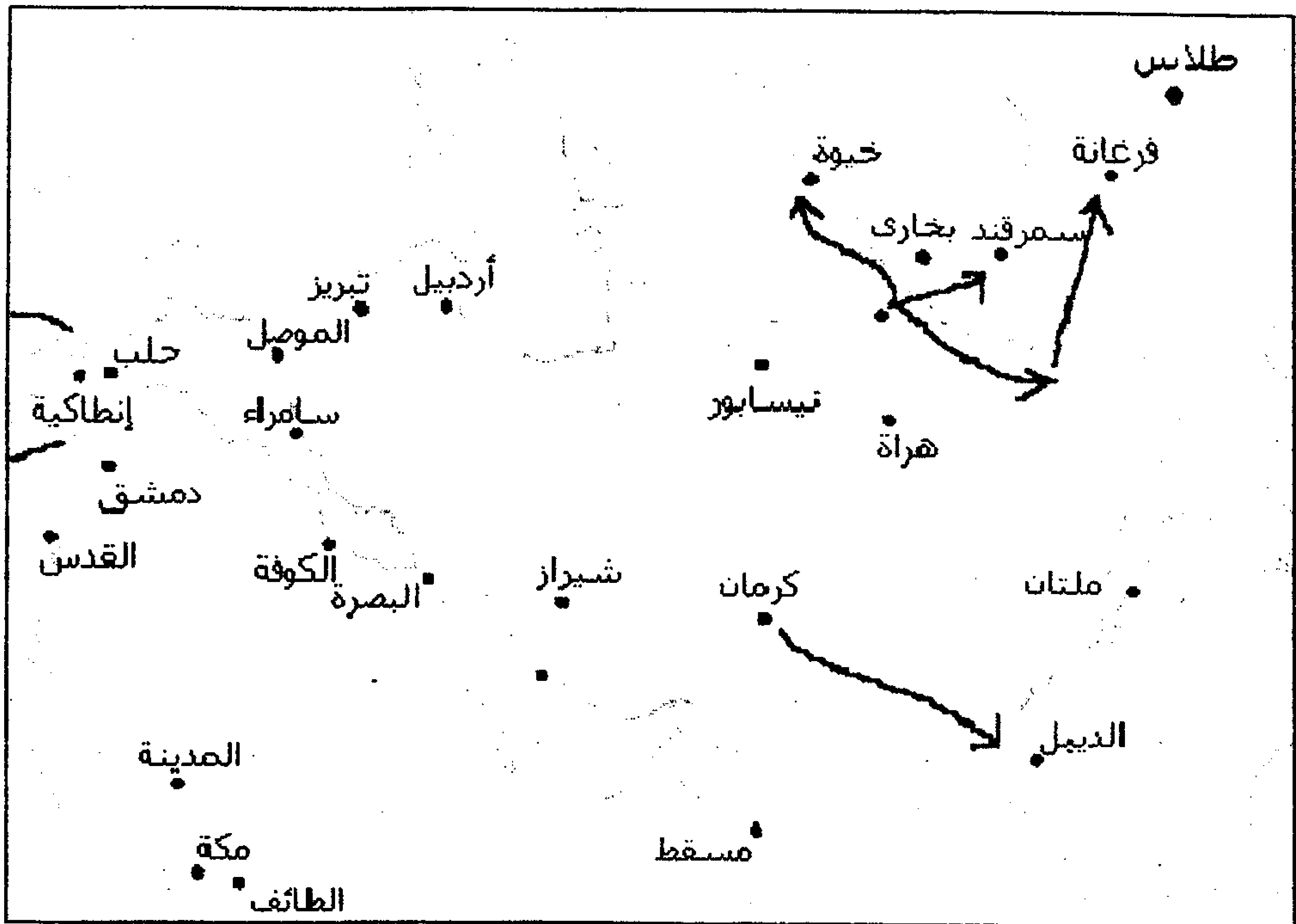
وبعث الحجاج بابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند، وكان شاباً لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، ولكنه كان قائداً عظيماً موفور القدرة، نجح خلال فترة قصيرة لا تزيد عن خمس سنوات في فتح مدن وادي السند (باكستان حالياً)

أخيرا ما قدمته في كتابي هذا، هو نقطة في بحر فضائل الحجاج بن يوسف الثقفي، ولكن ما نرجوه أخيراً أن تتم دراسة مرويات العصر الأموي عامة وعصر الحجاج خاصة بدراسة السَّنَد والمتن، وتطبيق علم الجرح والتعديل على ذلك، أملاً في أن نبدد سحب الإبهام عن تاريخنا، وأملاً في أن تظهر الحقيقة واضحة جلية.

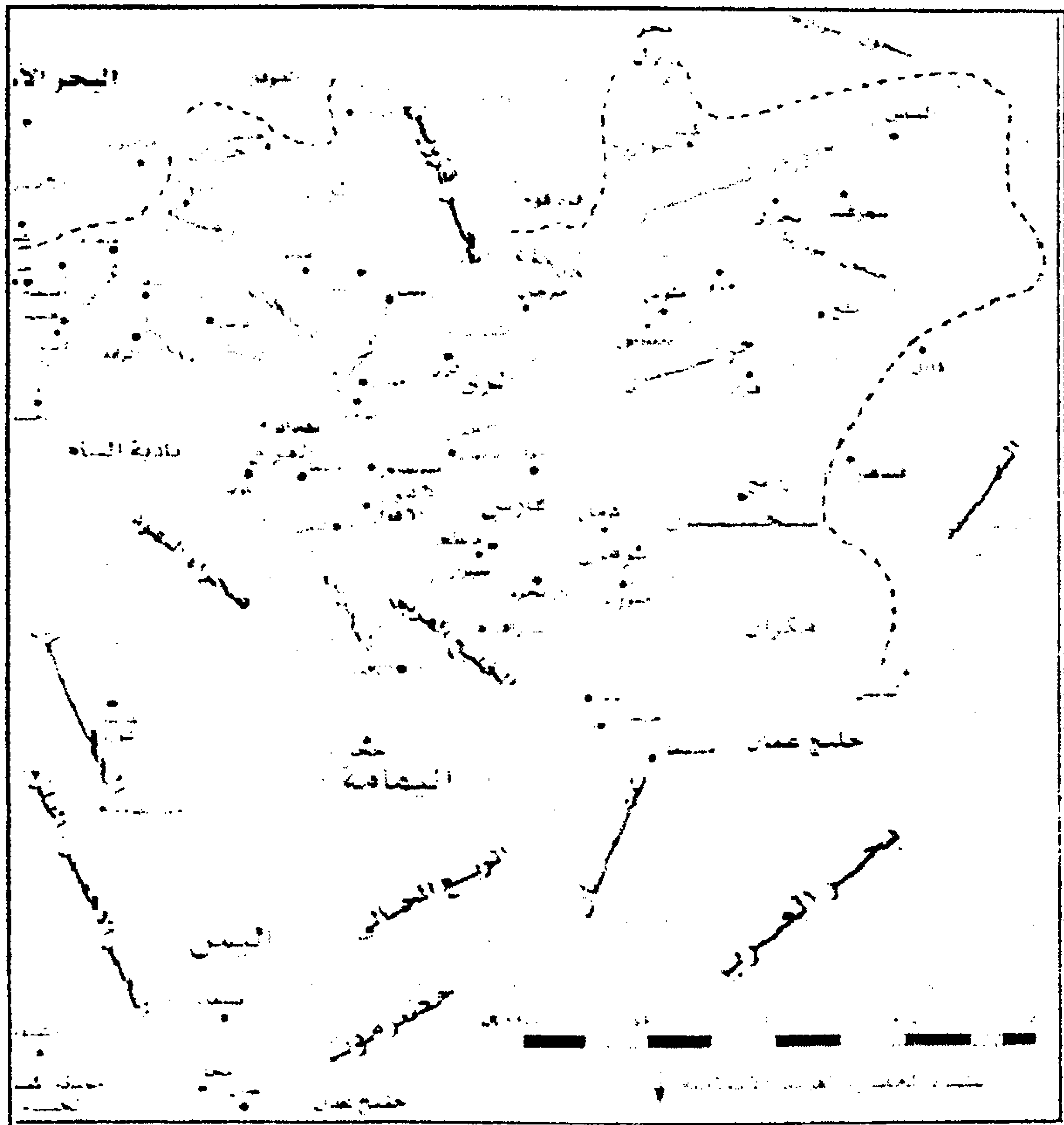




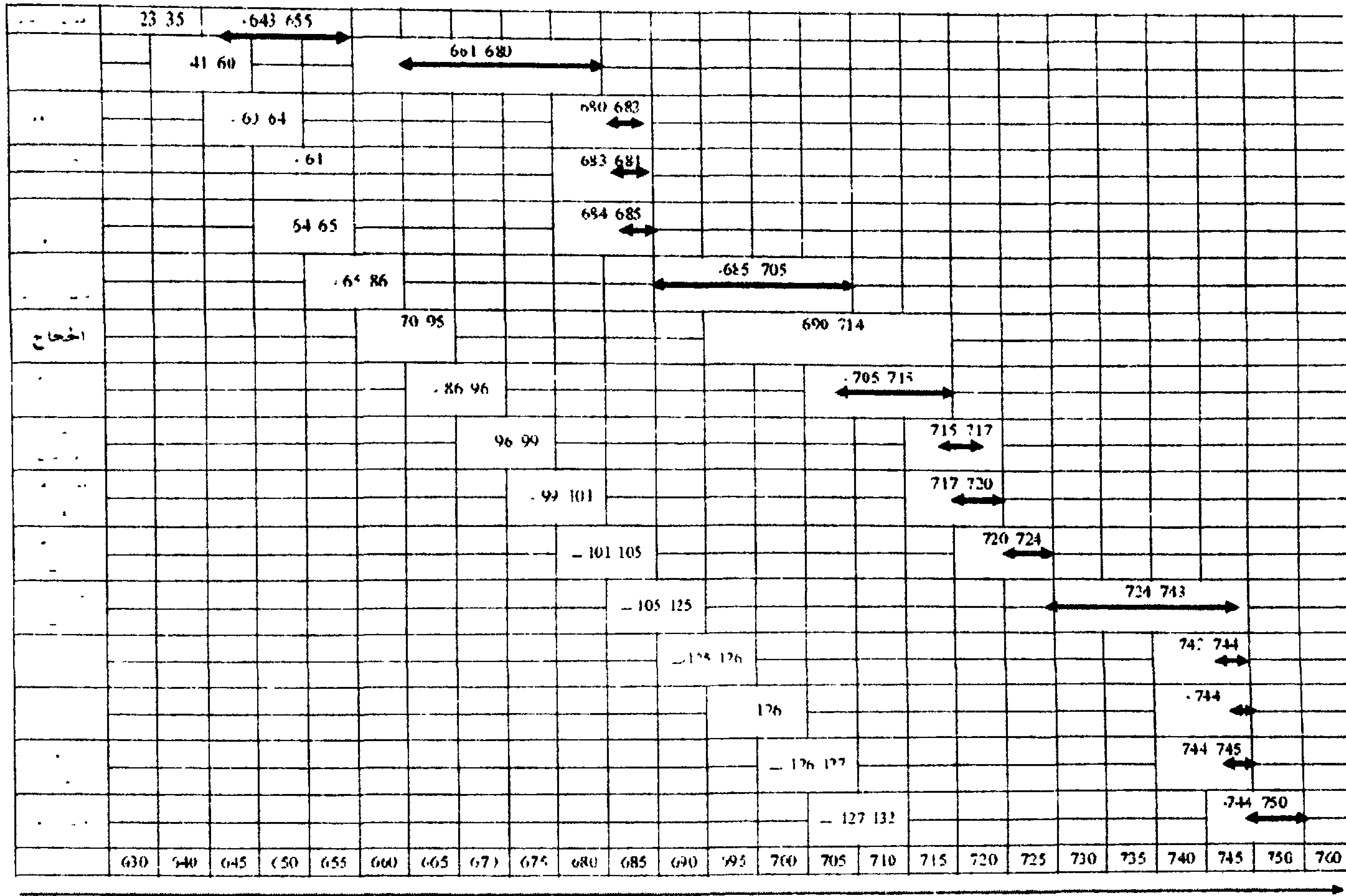
الدولة الأموية في أقصى اتساعها



طلاس
فرغانة
خيوة
سمرقند
بخارى
أردبيل
تبريز
الموصل
حلب
إنطاكية
سامراء
نيسابور
هراة
دمشق
القدس
الكوفة
البصرة
شيراز
كرمان
ملتان
الديبل
المدينة
مكة
الطائف
مسقط



خليج عمان
اليمامة


الحجاج
23 35
643 655
41 60
661 680
63 64
680 683
61
683 684
54 65
684 685
685 705
70 95
690 714
86 96
705 715
96 99
715 717
99 101
717 720
101 105
720 724
105 125
724 743
744
126
744 745
126 127
744 750
127 132
630
640
645
650
655
660
665
675
680
685
690
700
705
710
715
720
725
730
735
740
745
750
760

ملاحظات توضيحية

_ تعود بوادر هذه الظاهرة، ظاهرة التهرب من القتال، إلى زمن الرسول حيث ظهرت في غزوة تبوك[1]، وتجلت بوضوح في عزوف أهل البصرة والكوفة عن الاشتراك الفعلي في الحروب الداخلية والخارجية على حد سواء، وهو ما عاناه علي بن أبي طالب ومصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي، الأمر الذي اضطر معه الأخير إلى الاعتماد على الجند الشامي في تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية. والواقع أَنَّ جند الشام ظل محتفظاً بروحه العسكرية إلى حد كبير أكثر هذا العصر؛ لأن الأجناد التي نزلت بلاد الشام لم تقم داخل المدن الرئيسة، وإنما ظلت تعسكر خارجها، بالإضافة إلى أن انشغالها المتواصل بالحرب ضد الروم أكسبها خبرة واسعة في القتال فضلاً عن الامتيازات المالية التي كانت تمتع بها، حيث كان عطاء جند الشام يفوق عطاء جند الأقاليم الأخرى.

_ أما ذوو اليسار والأصول العريقة من الموالي الفرس فقد دخل بعضهم في الإسلام بقلوب غير سليمة، وظلوا يحملون في نفوسهم مبادئهم ومعتقداتهم القديمة، وكان لهم أثر في الكيد للإسلام والمسلمين، وأدخلوا على دينهم كثيراً من الأفكار والمفاهيم الغريبة عنه، ومهما يكن من أمر فإن الموالي بوجه عام تمتعوا في هذا العصر بوضع أفضل من مثيله في الدولة الساسانية.يبدو أن الحجاج بن يوسف تأثر بهذه البيئة الزراعية، فقام بإصلاحاته الزراعية في العراق، واهتم بتنظيم الري في ذلك الإقليم. فهناك كثير من رجالات قريش تزوجوا بثقفيات من هؤلاء عبد مناف جد الأمويين والهاشميين، والحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعتبة بن غزوان والحكم بن أبي العاص، بل إن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك تزوج ابنة أخي الحجاج محمد بن يوسف الثقفي، وقدر لابنها الوليد بن يزيد أن يلي الخلافة عام ١٢٥هـ =٧٤٣م، كما أن مسرور بن الوليد بن عبد الملك تزوج ابنة الحجاج نفسه.

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى وبلاد الشام، تحول اليوم إلى مدينة كبيرة.

- كذلك زوّج أبو سفيان بن حرب بن أمية ابنته آمنة عروة بن مسعود، وأختها ميمونة أَبا مرة بن متعب بن مالك الثقفي، وأم الحكم من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث الثقفي، وتزوج أبو العاص بن بشر الثقفي صفية بنت أمية بنت عبد شمس، وتزوج ابنه عثمان بن عبد العاص ريحانة بنت أبي العاص بن أمية، ويذكر ابن إسحق كيف تقدم أبو سفيان والمغيرة بن شعبة من ثقيف في حصار الطائف لتسلم إليهما نساء من قريش وبني كنانة كن متزوجات في ثقيف مخافة وقوعهن في الأسر في حالة فَتْحِ المسلمين الطائف عنوة.

- وقد نسبت مثل هذه الأساطير إلى غير الحجاج من الحكام والقادة الذين اشتهروا بالقسوة والشدة، فيقال: إِنَّ جنكيز خان السلطان المغولي المعروف بحروبه الدامية وجدت إحدى يديه مقبوضة على قطعة دم عند ولادته، وإن الحضور في مجلس والده تداولوا في غرابة ذلك. وقال بعضهم: إن هذا يدل على أنَّه سيكون ملكاً عظيماً. وقيل: إِنَّ تيمور لنك رُئِيَ ليلة وُلِدَ كأن شيئاً يشبه الخوذة تراءى طائراً في عنان الجو ثم سقط على الأرض وانتشر، وتطاير منه مثل الجمر والشرر، وتراكم حتى ملّ البدو والحضر، كما قيل: إِنَّه لما سقط ذلك السقيط إلى الأرض كانت كفّاه ملوثتين بالدم العبيط، ففسر العرافون ذلك بأن تيمور لنك سيكون شرطياً، وقال بعضهم: ينشأ لصاً، وقال قوم: بل قصاباً سفاكاً، وقال آخرون: بل يصير جلاداً.

_ ويروي المسعودي أن الفارعة كانت متزوجة قبل يوسف بن الحكم الحارث بن كلدة طبيب العرب في حين تذكر مصادر أخرى أنها كانت زوج المغيرة بن شعبة.

وتتفق الروايات بعد ذلك في ذكر سبب طلاقها بأن زوجها دخل عليها في السحر فوجدها تخلل فبعث إليها بطلاقها فقالت: (لِمَ بعثت إلي بطلاقي؟ ألشيء رابك مني؟ قال: نعم دخلت عليك عند السحر وأنت تخللين، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكني تخللت من شظايا السواك؛ ويضيف صاحب العقد الفريد أن زوجها المغيرة ندم على ما بدر منه

من تسرعه في طلاق زوجته فخرج آسفاً، فلقي يوسف بن الحكم الثقفي فقال له: هل لك في شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال المغيرة: إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف، فتزوجها فإنها تنجب لك، فولدت له الحجاج.

_ وقد أورد المطهر المقدسي في البدء والتاريخ وصفاً دقيقاً للحجاج، فقال: إنه كان صغير الجثة، حمش الساقين (دقيق الساقين)، لسان العرب، [ح م ش]؛ منقو الجاعرتين (أعلى الفخذين) لسان العرب [ج ع ر]؛ أخفش العينين (ضعيف البصر ضيق العينين) لسان العرب [خ ف ش]؛ دقيق الصوت[1]، أكتم الحلق، ويقال: إنَّ رأسه كان كبيراً مستطيلاً كأنه غرس بين كتفيه.

_ نشأ الحجاج متعلماً فصيحاً راجح العقل قوي الشخصية، حتى قال عنه العالم اللغوي أبو عمرو بن العلاء: (ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج). وقال عتبة بن عمر: (رأيت عقول الناس يقرب بعضها من بعض إلا الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس)

_ دخل الحجاج في نزاع مع عروة بن المغيرة بن شعبة في ميراث أخته لأمه من المغيرة ورفع أمر هذا النزاع إلى ابن زياد، فأغلظ الحجاج لعروة، فأمر به ابن زياد فضرب أسواطاً على رأسه وقال له: لأبي عبد الله تقول هذه المقالة؟.!

الربذة قرية قريبة من المدينة المنورة، دفن فيها الصحابي أبو ذر الغفاري، خربت عام٣١٩هـ.

تبالة: بلدة كانت مشهورة من أرض تهامة، في طريق اليمن، تبعد عن مكة ٥٢ فرسخاً = ٢٨٠كم.

بئر ميمون: بئر منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضري في الجاهلية، وعندها قبر أبي جعفر المنصور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١ ص٣٠٢.

الجحفة: قرية على طريق المدينة من مكة.

---

(١) المعارف. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٧٣ .

الحجون: مكان قريب من الكعبة.

_وهنا تذهب المصادر كل مذهب في تمجيد عبد الله بن الزبير والنيل من الحجاج الذي كانت نهاية ابن الزبير على يديه؛ فبعضها يغالي فيقول إن الحجاج أمر بسلخ جلد عبد الله بن الزبير وحشوه تبناً وصلبه، وبعضهم الآخر يروي أن عبد الله بن الزبير استمر يشرب الصبر والمسك أياماً قبيل مقتله مخافة أن يصلب فيشم نتنه، وأنه لما صلب قرن الحجاج بجثته هرة ميتة، وقيل كلباً ميتاً، وقيل بل جيفتي سنورين ذكرين؛ لأن جيفة السنور الذكر أنتن الجيف. ومثل هذه المبالغة نجدها في تصوير بعض الإخباريين للّقاء الذي تم بين الحجاج وأسماء بنت أبي بكر والدة عبد الله بن الزبير بعد مقتل ابنها.

_ بنو سلمة بن سعد؛ هم بطن من الخزرج.

_لم يكن حصب العمال بجديد عليهم، فقد حصبوا عاملاً قبله فخرج عنهم. ابن عساكر: ج٤ ص٥٢.

_ ولعل العامل الذي تشير إليه المصادر هو عمرو بن حريث، عقب وفاة يزيد بن معاوية، وكان عبيد الله بن زياد على الكوفة فلزم داره.[(١)]

البيت من قصيدة لسُحَيْم بن وَثيل الرياحي، رواها ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٤٣.

إشارة إلى فرسه أو ناقته.

سواق حُطَم: سواق قاس يسوق الناقة بشدة وعنف.

الوضم: رمى الله الرعية بوال شديد قاس عنيف.

العصلبيّ: الشديد القوي.

أروع: ذكي.

خراج من الدوي: يتغلب على الشدائد.وتر عردّ: شديد.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٤، ص ٤٠٣.

الشنِان: الجلد اليابس، وهو نوع من الدف أو الطبل، أي أنه ثابت قوي لا يهتز للمجاملة وبهارج الأمور.

السلمة: الشجرة كثيرة الشوك.

تفانى الحجاج في الإخلاص للدولة الأموية إذ ركز كل جهوده في تأييد المهلب في حربه ضد الخارجين على الدولة الأموية حتى تلتئم الوحدة السياسية للدولة، لكونه رجلاً خَيِّرَ الرجال، إذ نراه يؤيد المهلب دون أن تحدثه نفسه بأن يعمل على عزله ليتولى هو أو أحد أقاربه قيادة هذه الحملة كما فعل خالد بن عبد الله في عزله للمهلب وتوليته لأخيه عبد العزيز قيادة الحملة،[1] أو كما هم بشر بن مروان بعزله لولا إكراه عبد الملك له على غير ما يريد.[2]

وكانت الفرصة مواتية للحجاج ليفعل في هذه السبيل ما يريد، فلو أرادها لنفسه لما مانع أمير المؤمنين في ذلك لمعرفته بكفاية الحجاج، ولا سيَّما بعد أن تهيأت لها أسباب النجاح بالتعبئة العامة التي أجراها الحجاج، وما منعه من ذلك إلا حسن تقديره للمهلب.

هيت: بلدة على نهر الفرات فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة.

عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد من أعمال الجزيرة.

العمالة: رزق العامل على ما قُلِّدَ مِنْ عمل (لسان العرب [ع م ل]) إلا أنها وردت في بعض النصوص بمعنى المخصَّصات الإضافية للعامل سنوياً غير مرتبه الشهري.

الفلوجة العليا والسفلى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة.

الدهقان: كلمة معربة من الاسم الفارسي دهكان، وهو يطلق على عمدة القرية أو مختارها الذي ينحدر عادة من أسرة نبيلة كانت تتوارث هذا المنصب في العهد الساساني،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٣٦.

والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص٤٢ .

وكان الدهاقين يمثلون الإدارة المحلية، ويعهد إليهم بجمع الضرائب، واستمروا يقومون بهذه المهمّة بعد الفتح الإسلامي، وتحول عدد كبير منهم إلى الإسلام، إذ احتفظوا بما تحت أيديهم من أراض.

جوخا: كورة واسعة في سواد بغداد تقع شرق القسم الأسفل من مجرى دجلة، وتمتد حتى كسكر كورة واسط.

السلسلة: كورة على نهر السلسلة في سواد العراق شرق دجلة.

الفصائل: جمع فصيلة وهي القطعة من أعضاء الجسد (لسان العرب [ف ص ل]

ويستدل مما أورده الجهشياري: أن هذا المبلغ هو الحد الأدنى الذي يكفي يزيد، علماً أن مرتب رؤوساء الكتاب زمن زياد بن أبيه كان ألف درهم شهرياً.

سبال الأشراف: الأشراف الذين لهم ثياب مرسلة ولحى طويلة أي أشراف القوم، والمقصود في الجملة أن لا يسمح صاحب الشرطة لهؤلاء بالتشفع لأصحاب الجرائم (انظر: لسان العرب، مادة [س ب ل]).

استخدم التعذيب بشكل واضح في ديوان الاستخراج والمصادرات.

الإعجام: هو وضع النقاط لتمييز الحروف المتشابهة في اللغة العربية، أما الشكل فهو وضع الحركات على آواخر الكلمات منعاً للحن.

وسبب ذلك أن المصحف الذي كتبه الخليفة عثمان في سنة ثلاثين من الهجرة كان غير مشكول ولا منقوط. فلما دخل في الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم وظهر اللحن على الألسنة خيف على القرآن أن يلحن في قراءته، فطلب زياد بن أبي سفيان إلى أبي الأسود الدؤلي أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم، فشكل أواخر الكلمات، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة إلى جانبه، وجعل علامة الحرف المنون نقطتين؛ ومع هذا لم تحفظ الألسنة من اللحن، وكثر التصحيف والتحريف في القراءة.

عبد الله ابن الجارود: زعيم قبيلة عبد القيس التي تنتسب إلى ربيعة، أبوه بشر بن عمر بن حنش بن المعلى العبدي سيد قومه في الجاهلية، قدم إلى رسول الله وأعلن إسلامه، استشهد إِبَّان حركة الفتح الأولى عام ٢٠هـ انتقلت مرتبة الشرف منه إلى ابنه عبد الله الذي آلت إليه زعامة عبد القيس، بالإضافة إلى كونه من كبار التابعين في البصرة.

جلب زنج العراق من سواحل أفريقية الشرقية، حيث عملوا في تنظيف الأراضي من الأتربة النطرونية التي تمنعها من الإنبات، تزايدت أعدادهما حين تزايدت مساحات الأراضي المستصلحة، وذلك حين أخذ أصحابها عن أيد عاملة رخيصة، ليجدوا ضالتهم فيهم، فجلبت منهم أعداد كبيرة إلى منطقة البصرة. حيث تكثر المستنقعات، وتكثر فيها الترسبات، والأملاح. عاش الزنج حياة قاسية، تحول الزنج بعد تزايد عددهم إلى مصدر دائم للثورات، ومستودع بشري استغله أصحاب المذاهب والأفكار المتطرفة.

الأزارقة: هي إحدى فرق الخوارج تميزت بالتطرف والعنف، أسسها نافع بن الأزرق في النصف الثاني من القرن الأول، وسميت بالأزارقة نسبة إلى مؤسسها نافع بن الأزرق الذي كفَّر جميع المسلمين ما عدا فرقته. خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير، وقتلوا عماله بهذه النواحي، وكان مع نافع من أمراء الخوارج عطية بن الأسود الحنفي، وعبد الله بن الماحوز وأخواه عثمان والزبير وعمرو بن عمير العنبري وقطري بن الفجاءة المازني وعبيدة بن هلال اليشكري وأخوه محرز بن هلال وصخر بن حبيب التميمي وصالح بن مخراق العبدي وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير في زهاء ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيهم، وينخرط في سلكهم، فأنفذ إليهم عبد الله بن الحارث بن نوفل النوفلي بصاحب جيشه مسلم بن عبيس بن كريز بن حبيب، فقتله الخوارج، وهزموا أصحابه، فأخرج إليهم أيضا عثمان بن عبد الله بن معمر التميمي فهزموه، فأخرج إليهم حارثة بن بدر العتابي في جيش كثيف فهزموه، وخشي أهل البصرة على أنفسهم وبلدهم من الخوارج، فأخرج إليهم المهلب بن أبي صفرة الذي حاربهم طيلة

تسعة عشر سنة إلى أن فرغ من أمرهم أيام الحجاج، ومات نافع قبل وقائع المهلب مع الأزارقة، وبايعوا بعده قطري بن الفجاءة المازني وسموه أمير المؤمنين.

الصفرية: إحدى فرق الخوارج الرئيسة؛ ويصعب تعين مؤسس هذه الفرق شأنها في ذلك شأن معظم الفرق؛ فقيل: إنهم أتباع زياد بن الأصفر، أو عبد الله بن صفار، أو عبيد الله بن قبيصة، سموا بهذا الاسم لأنهم أنهكوا من كثرة العبادة، فاصفرت وجوههم، وعلى ذلك نسبوا إلى صفرة ألوانهم.

آمد: بلدة على الضفة اليسرى للفرات.

اختلف المؤرخون في عدد الجيش الذي نزل به شبيب الكوفة، فمنهم من بالغ في العدد، فوصل به إلى الألف، ومن من أرجعه إلى ما دون العشرين، وذكر عماد الدين صاحب شذرات الذهب أنه دخلها بسبعين.

وكان دخول شبيب الكوفة وضرب باب القصر وسفك الدماء سنة ٧٦هـ.

ماه دينار: مدينة نهاوند، وقيل: كورة الدينور.

وكان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد مكروهاً لكبره وزهوه بنفسه، وكان يقول: ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي[1].

سياسته الداخلية:

أدى خضوعه لبكير بن وساج ومصالحته على قضاء ديونه البالغة أربعمئة ألف درهم. كف يد صاحب شرطته بجير بن ورقاء الصريمي عن التدخل فيما يخصُّه من شأن. توليه أي كور من خراسان، تسبب قتله على يد بجير بعظم الأمر بين بني تميم لولا تدخل عقلاء القوم فحسموا الأمر[2]؛ وأما سياسته الخارجية فلم ينجح في غزواته؛

---

(١) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٣٢.
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٤٣ - ١٤٥
والعبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. مصدر سابق. جـ ٣، ص ٤٦.

هزيمته بعد عبوره لنهر بلخ؛ كثرت فعزله الخليفة عبد الملك بن مروان.

عبيد الله بن أبي بكرة: الأمير الثقفي من أبناء الصحابة، مولده في سنة أربع عشرة، وكان جواداً ممدحاً شجاعاً، كبير القدر، روى عن أبيه، وعلي، وعنه سعيد بن جمهان، ومحمد بن سيرين ، وغيرهما. وقد ولي قضاء البصرة، وي إمرة سجستان، مات بسجستان سنة تسع وسبعين.

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي من سلالة ملوك كندة إحدى القبائل اليمنية الشهيرة التي حكمت اليمن وبعض بلاد الحجاز قبل الهجرة بنحو مائة وثلاث وسبعين سنة؛ جده الأشعث بن قيس أحد زعماء الردة بعد وفاة الرسول بحضرموت، وقد سار إليه المهاجر بن أبي أمية، وتمكن من إخماد حركته، فعاد إلى حظيرة الإسلام[1]، وأبلى بلاءً حسناً في فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب[2]، وولاه عثمان أذربيجان، فلما مات عثمان كتب إليه علي يعرفه بخروج طلحة والزبير عليه، ويدعوه إلى طاعته؛ فحاول أن يلحق بمعاوية لولا أن أصحابه أشاروا عليه ألاَّ يفعل ذلك فدخل في طاعة علي[3].

ولعل السبب في مسارعة أهل البصرة إلى متابعة ابن الأشعث على حرب الحجاج وخلع عبد الملك أن الحجاج كان قبيل ذلك أنفذ في البصرة أمراً أهاج عليه الرأي العام؛ ذلك أن عماله كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا، فلحقوا بالأمصار، فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها؛ فخرج هؤلاء، فعسكروا لا يدرون أين يذهبون، وصاروا ينادون قائلين يا محمداه! - استغاثة مما لحقهم من الحجاج - وكان قُرَّاءُ البصرة يخرجون إليهم متقنعين

(١) المعارف. ابن قتيبة. مصدر سابق. ص١٤٥. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٣٧٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٤، ص١٣٠ .

(٣) الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. مصدر سابق. جـ١، صص٨١، ٨٢ .

فيكون لما حل بهم، فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك.

كان (مطر) عامل الحجاج على المدائن [1]، ولما بلغه أن ابن الأشعث قد هزم الحجاج بتستر أراد أن ينتهزها فرصة، فأقبل إلى الكوفة - وكان الحجاج قد خلف عليها حين خرج لقتال ابن الأشعث عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي - وصعد منبرها وقال: إن ابن الأشعث قد هزم أهل الشام، فهلموا نخرج من عندنا منهم. فكثر أعوانه ومتابعوه، وحاصروا القصر الذي فيه ابن الحضرمي، فأطل أصحاب ابن الحضرمي من أعلى القصر على مطر وأصحابه، وفاوضوهم في أن يتركوهم يخرجون من الكوفة فخرجوا. وصار ابن ناجية سيد الكوفة وفرق في الناس الذين التفوا حوله أموالاً، فأعطى كل واحد مئتي درهم لاستمالتهم إليه [2]. فلما هزم ابن الأشعث بالزاوية قام ابن ناجية خطيباً فقال: إن محمداً قد هزم وأنا لكم مكانه أقوم مقامه، فبايعه نفر قليل من قومه. فلما رأى ذلك دخل القصر ثم خرج بالعشي فقال لهم: أيها الناس إن محمداً لقي الحجاج بالزاوية إلى جانب البصرة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا ونظروا، فإذا بابن الأشعث مفقود لا يدرى أفي الأحياء هو أم في الأموات، فثار الناس عند ذلك إلى عبد الرحمن بن عباس فبايعوه، وقد حصر الحجاج، وظهر عليه، فقوموا فبايعوا له، فإنه رجل من قريش من بني هاشم من أهل بيت نبيكم ﷺ [3]، فبايعه عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن المغيرة بن شعبة، ثم دخل القصر بعد ذلك، وأمر ابن أبي ليلى أن يأخذ البيعة من الناس، فقال صدقة وتوبة ابنا عبيد الله بن حر الجعفي: ما هذه البيعة؟ نحن

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٥٣. و تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٥٤.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، ص٣٥٣. وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص١٥٤.

(٣) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص٣٥٤، ٣٥٥.

على بيعتنا الأولى التي بايعنا بها صاحبنا حتى ننظر ما صنع. وتبعهم في هذا الرأي كثير من الناس. ويروى أن صدقة وتوبة حصبا ابن أبي ليلى وقامت ضجة، وطلب الناس إليه النزول من على المنبر فنزل. سمع بهذه الضجة ابن ناجية، فسأل عنها فقيل له: لقد اختلف الناس. فأراد أن يهدد ثأرهم فخرج إليهم وقال لهم: (إنما أنا رجل منكم، فمن استقمتم له ورضيتم به وبايعتموه بايعته فهدأت العاصفة)[1].

وبينما كان ذلك يجري بين ابن ناجية وأهل الكوفة كان ابن الأشعث في طريقه إليها، فلما وصل إليها وعلم الناس أنه لم يفقد - كما كان يشيع ذلك عنه ابن ناجية وأعوانه - انضمت إليه أغلبية الناس، ولم يبق مع ابن ناجية إلا طائفة محدودة من بني تميم لم تستطع الدفاع عنه.

وطلب عبد الرحمن إلى الناس الكف عن القتال، وطلب إليهم أن يأتوه به سلماً، فوضعت السلاليم على القصر وأتوه به فقال ابن ناجية له: استبقني فإني أفضل فرسانك وأعظمهم غناء عنك، فأمر به فحبس ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه وأخذ البيعة منه. وبذلك انتهت حركة ابن ناجية التي لم تستمر مدة طويلة وقد أخضعت بسهولة ودخل عبدالرحمن القصر وأتاه الناس من كل أوب.[2]

- دير الجماجم في ظاهر الكوفة على الطريق المؤدِّية إلى البصرة، أما دير قرة فيقع بإِزاء الأول على طرف البر.

- سعيد بن جبير: هو أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد سعيد بن جبير بن هاشم الأسدي بالولاء المكي الكوفي. كان من أكابر أصحاب ابن عباس، ومن أئمة العلماء في التفسير والفقه وأنواع العلوم في الطبقة الثانية من التابعين، ويروى أنه كان يقرأ القرآن في

---

(١) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) أنساب الأشراف. البلاذري. مصدر سابق. جـ ١١، صص ٣٥٦، ٣٥٧.
وتاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص ١٥٥.

الصلاة ما بين المغرب والعشاء، بل ربما قرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وأنه مات وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه[1].

كان في مكة قبل وبعد قتل ابن الزبير، أخذ الحجاج منه البيعة لعبد الملك بن مروان في مكة والعراق، وولاه إمامة الصلاة، ثم ولاه القضاء، ولكن أهل الكوفة ضجوا، وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي، فاستقضى الحجاج أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، وأمره أن لا يبرم أمراً إلا برأي سعيد بن جبير، ثم أعطاه مئة ألف درهم فرَّقها في ذوي الحاجات، وجعله في سمّاره، وكلهم من رؤوس العرب، وما زال الحجاج يعرف لسعيد فضله ومكانته العلمية على كونه من الموالي. ولما خرج ابن الأشعث بالحملة الموجهة إلى زنبيل ملك الترك جعله الحجاج على نفقات الجند.[2] احتج الحجاج على تزويج خالد بن يزيد أخته إلى عباد بن زياد، فكتب إلى عبد الملك يقول: (إن مناكح آل أبي سفيان قد ضاعت).

الهيثم بن عدي: ابن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر الأخباري العلامة أبو عبد الرحمن الطائي الكوفي المؤرخ، حدث عن: هشام بن عروة، ومجالد، وابن أبي ليلى، وسعيد بن أبي عروبة وجماعة. عاش في الكوفة. ألف كتباً تزيد على خمسين في التاريخ والأنساب والخطط. توفي ٢٠٦هـ= ٨٢١م.

– العثمانية: هم أنصار عثمان بن عفان ﷺ، والمحتجون بفضله، والدافعون مطاعن المخالفين فيه.

– اللخناء: المرأة كريهة الرائحة.

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٦. ووفيات الأعيان. ابن خلكان. مصدر سابق. جـ١، ص٢٥٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك. الطبري. مصدر سابق. جـ٥، ص٢٦٠. والبداية والنهاية. ابن كثير. مصدر سابق. جـ٩، ص٩٨ .
وعقد الجمان. العيني. مصدر سابق. جـ١١، ص٣٣٤ .

نظرة في سياسة الحجاج وإدارته

قبل أن نتكلم عن سياسة الحجاج يحسن بنا أن نذكر كلمة عن العصر الذي نشأ فيه ونفسية الشعوب التي حكمها. نشأ الحجاج في عصر بني أمية، وهو عصر كان يعج بالثورات والفتن لكثرة الأحزاب السياسية وتباغضها وتنافرها لأنه بعد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى شيعة على رأسهم علي بن أبي طالب وأمويين على رأسهم معاوية بن أبي سفيان. وقد أدى تنافس هذين الحزبين على الخلافة إلى حروب نشبت بين المسلمين انتهت بالتحكيم الذي كانت نتيجته انتصار حزب معاوية وانقسام أصحاب علي إلى فرقتين: فرقة معه نصرته وآزرته واستمرت موالية له، وأخرى خرجت عليه وعلى معاوية وسموا أنفسهم بالشراة (الخوارج) الذين أكفروا الأمة واستحلوا دمها والخروج على أئمتها.

وقد ائتمر فريق منهم بعد موقعة النهروان- التي حدثت بينهم وبين علي - على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص لاعتقادهم أنهم أصل الفتن التي دبت عقاربها بين المسلمين، وانتهت هذه المؤامرة بقتل علي بن أبي طالب في رمضان من سنة أربعين للهجرة فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ولكنه تنازل عن الخلافة. وسواء أكان تنازله طوعاً أم كرهاً فقد تم الأمر لمعاوية في سنة واحد وأربعين للهجرة. وبذلك انتصر الحزب الأموي وصارت الخلافة لبني أمية.

وقامت الخلافة الأموية في دمشق يشد أزرها قبائل عربية قوية سكنت الشام منذ الفتح الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب، وقد ألفوا إمرة معاوية الذي وسعهم بحلمه وماله فكانوا طوع إرادة الأمويين ورهن إشارتهم.وأما أمهات المدن الإسلامية فكانت تختلف حالها، فمصر كان بها جماعة يتشيعون لأبناء علي وجماعة تمالىء بني أمية، ولذلك كانت بها فتن واضطرابات لا تنقطع سيما عند موت خليفة وقيام آخر. وأما الحجاز فقد آوى إليه فريق من المهاجرين والأنصار من الذين اعتزلوا السياسة وآثروا الاشتغال بالعلم على متابعة الطامعين في السلطان، أو من الذين كانوا ذوي مطامع، ولكنهم

وجدوا في معاوية قناة لا تلين لهم فظلوا مرتقبين الفرصة. وبجانب هذين الفريقين عاش فريق ثالث من ذوي اليسار ينعمون بحياة وادعة في ظل الشعر والغناء وما إليهما منصرفين عن السياسة ومتاعبها وما تجره من عناءٍ وآلام.

وأما العراق فقد كان أنشط الأقاليم العربية في السياسة إذ كان فيه قوتان كبيرتان من قوى المعارضة:كان فيه الشيعة العلوية التي اتخذت الكوفة مقراً لها، وكان فيه الخوارج وهم منتشرون في الكوفة والبصرة وغيرهما من القرى والبلدان.ولهذا السبب ظل هذا الإقليم منبع كثير من الأحداث التي أجهدت الأمويين واستدعت نفقات كثيرة من الأموال والأرواح في تثبيت الأمن ورد المخاوف التي تحدثها الخوارج حيناً والشيعة حيناً آخر.رأى معاوية في هذا الإقليم أن الخوارج قد أخافوا الناس وزلزلوا الأمن في المدن والقرى كما أن الشيعة كانوا يرجفون ببني أمية ويلعنون معاوية على المنابر ويضايقون عماله ويطردونهم.لذلك رماهم بداهيتين من دهاة العرب: المغيرة بن شعبة الذي ولي الكوفة وزياد بن أبيه الذي ولي البصرة وخراسان وسجستان.

وكان المغيرة في سياسته يؤثر العافية ولا يبدأ أحداً بالشر حتى يبدأه به. فهو يرخي للناس حبل السياسة حتى يشدوه فإذا راموا قطعه عاجلهم بضربة منه تقفهم عند حدهم وكان ينهج نهج معاوية أحياناً في تألف الخصوم بالمال.على أن سياسة المسالمة هذه لم تفد مع هؤلاء فقد اضطر آخر الأمر إلى أن يجرد سيفه من غمده، ولكنه مات في سنة خمسين من الهجرة فضم معاوية الكوفة إلى زياد.وكان زياد أشد من المغيرة وأقوى، ونستطيع أن نعرف سياسته من قوله في خطبته (لين في غير ضعف وشده في غير عنف المحسن يجازى بإحسانه والمسيء يجازى بإساءته). وفي عهده سكنت الحالة بالعراق حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين من الهجرة فولي بعده ابنه عبيد الله.وفي عهده كاتب العراقيون الحسين بن علي يطلبون منه الحضور لديهم لإخراج الأمر من بني أمية ومبايعته بالخلافة وزينوا له ذلك الأمر فسار إليهم من الحجاز فلما بلغ كربلاء خذلوه كما خذلوا علياً والحسن من قبل، وحدثت موقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين وكثير من

آل بيته، وكان لمقتل الحسين آثر مهم. ذلك أن التشيع بعد أن كان نظرياً أصبح عملاً وفعلاً وبعد أن كان الشيعة متفرقين اجتمعوا نادمين على ما كان منهم من خذلان الحسين وآل بيته وقد لبى هذا النداء -نداء الندم والتوبة - عدد كثير وعلى الأخص الموالي من الفرس.

وقام فريق كبير من هؤلاء النادمين على ما اقترفوا (التائبين) برئاسة سليمان ابن صرد لمحاربة قتلة الحسين وساروا قاصدين عدوهم ومازالوا سائرين حتى انتهوا إلى عين الوردة في ربيع الآخر من سنة خمسٍ وستين للهجرة حيث اشتبكوا بجيش عبيد الله بن زياد ودارت رحى الحرب التي انتهت بقتل سليمان بن صرد والكثير منهم وتفرق من بقي منهم.

وظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ست وستين وتمكن من جمع - الشيعة التوابين - وغيرهم حوله وقام بحرب ضد قتلة الحسين وتمكن من قتل معظمهم، ولكنه قتل على يد مصعب بن الزبير الذي كان العراق تحت إمرته- في سنة سبع وستين، فبدأ الشيعة من ذلك الوقت يعملون في الخفاء. انتهز عبد الله بن الزبير- وهو من أشد المنافسين للأمويين - فرصة مقتل الحسين فقام منددا بالأمويين وسياستهم مرشحاً نفسه للخلافة الشرعية، تلك الأمنية التي لم يستطيع أن يجهر بها طالما كان الحسين على قيد الحياة. وتمكن من أخذ البيعة في سنة ثلاث وستين من الهجرة حيث قال له أهل الحجاز: امدد يدك نبايعك فلم يبق غيرك.

وقد صادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد الحجاز والعراق ومصر، وبذلك ظهر في الجو السياسي حزب رابع هو حزب الزبيريين.وفي هذه الأثناء حدث الانقسام في البيت الأموي بعد تنازل معاوية الثاني بسبب الخلاف على من يتولى الخلافة وحدثت موقعة مرج راهط في سنة خمس وستين للهجرة التي انتصر فيها مروان بن الحكم وحزبه وانتقلت الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

في هذه الحقبة قضى الحجاج عهد طفولته وصباه فسمع بتلك الحوادث أو شاهدها وللشئون السياسية والأحداث الاجتماعية الأثر الكبير في تكييف عقول الناس وأخلاقهم. ولقد أثرت هذه الأحداث في نفس الحجاج وزادها تأثيراً ممارسته للتعليم فإنها أكسبته خبرة ومرانا مكناه من معرفة طبائع الناس وبواطن نفوسهم والأوقات التي تنفع فيها الشدة والأوقات التي ينفع فيها اللين. هذا، فضلاً عما وهبه الله له من القوة الشخصية والاعتزاز بالنفس والتأثير البياني.

في هذا الجو الذي كان يعج بالثورات والاضطرابات ولي الحجاج بن يوسف قيادة الحملة التي وجهت إلى الحجاز ضد عبد الله بن الزبير العائذ بالبيت، فلما انتصر عليه أسندت إليه حكومة الحجاز، وبذلك قُدِّر للحجاج أن يتحمل المسؤولية مبكراً فلم تكن له مندوحة من أن يلتمس سبيل الشدة والحزم وإلا سقط في إدارته سقطة لا تقوم له بعدها قائمة. عرف الحجاج ذلك فشمر عن ساعد الجد فأرهب دعاة التفرقة، وقام بعدة أعمال دلت على بعد نظره ودهائه في السياسة، فأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول وفرق أموالاً وبنى مسجداً وأصلح آباراً. على أن الحجاج لم تطل به الإقامة بالحجاز فقد اختاره وعبد الملك لولاية العراق، ذلك الإقليم الذي كان يعج بالثورات فكان إذا ما ولي على أهله عاهل لا يلبثون أن يطلبوا عزله أو هم كما وصفهم الأحنف بن قيس (كالمسومة تريد كل يوم بعلا وهم يريدون كل يوم أميراً) فإذا لم يجابوا إلى ذلك قاموا بثورة.

وقد أدرك ذلك الداهية الكبير معاوية بن أبي سفيان فكان من وصيته لابنه يزيد (وانظر لأهل العراق فإن سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف). ذلك الإقليم الذي كان من طبيعة أهله الغدر ومن سجيتهم عدم الوفاء، فهم قد كاتبوا الحسين بن علي - في عهد يزيد بن معاوية - في أن يحضر إليهم ليناصروه ويبايعوه فلما حضر إليهم قاتلوه، وبعد قتله ودخول آل الحسين الكوفة وقفت أخته السيدة زينب رضي الله عنها فخطبت ووصفت أهل العراق

بالغدر والنفاق.وكانوا مع مصعب بن الزبير ويكاتبون عبد الملك بن مروان بأن يحضر بجيشه حتى إذا ما حضر غدروا بمصعب وأسلموه في ميدان القتال.وبعد قتله وخروج السيدة سكينة بنت الحسين قالوا: أحسن الله صحبتك يا بنة رسول الله! فقالت لا جزاكم الله خيراً من قوم ولا أحسن الخلافة عليكم قتلتم أبي وجدي وعمي وزوجي، أيتمتموني صغيرة وأيتمتموني كبيرة! ذلك الإقليم الذي كان أهله يرتكبون الكبائر ويسألون عن الصغائر وكما وصفهم بعض الناس بقوله (أسأل الناس عن الصغيرة وأركبهم للكبيرة. يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم)

استعرض الحجاج هذه الحال قبل أن يذهب إلى لعراق، فرأى أنه إن أعرض عن قبول المهمة التي أسندت إليه سقط من حساب الأمويين وهيهات أن تقوم له بعد ذلك قائمة، فرأى أن يغامر بقبول المهمة التي أسندت إليه. ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذي طلب إلى عبد الملك أن يكل إليه أمر العراق. وسواء أكانت إمارة العراق قد عرضت عليه فقبلها أم أنه سعى لها عند أمير المؤمنين فمما لا شك فيه أنها كانت مغامرة لا يقدم عليها إلا من كان في جرأة الحجاج.حزم الحجاج أمره وسار إلى العراق واستهل حياته فيه بتلك الوقفة المسرحية التي وقفها من أهل الكوفة

قدم عليهم في هيئة أثارت استخفافهم وزرايتهم لبني أمية لاختيار مغمور مثله والياً على العراق.دخل عليهم متقلداً سيفه متنكباً قوسه، وقد غطى أكثر وجهه ثم لبث فترى طويلة لا يتكلم. ولما أحس بأنه أثار في القوم الدهشة والاستغراب وحرك فيهم حسن الانتباه حسر اللثام عن وجهه، ولم يلبث أن ملأ الأسماع دوياً ورنيناً وأفاض على الوجوه رهبة ورعباً. (**إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها .. ، إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي!**) ..... بهذه العبارات وأمثالها مما امتلأت به خطبة الحجاج الأولى أفاق أهل الكوفة من سباتهم وأدركوا أن أمر الخليفة في هذه المرة لا هزل فيه.

ولسنا مغالين إذا قلنا إن الحجاج قد لازمه التوفيق من أول يوم دخل فيه العراق، فقد ولى عمالاً أكفاء وقد سبق أن ذكرنا أنه في أول ولايته طلب رجلاً يوليه الشرطة واشترط فيه شروطاً وأوصافاً خاصة فدل على عبد الرحمن بن عبيد التميمي. وهذا العامل قد سار سيرة بسطت الأمن وقللت من وقوع الجرائم.واختار المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة وأبان له بصراحة أنه في حاجة إلى خدماته فقال له: إن بشراً رحمه الله استكره نفسه عليك وأنا أريك حاجتي إليك فأرني الجد في قتال عدوك. واختار الحكم بن أيوب لولاية البصرة، وناهيك بقتيبة بن مسلم فاتح بارى وسمرقند،ومحمد بن القاسم فاتح السند. وكان يبحث عن الأشخاص الصالحين والأخيار ليوليهم الأعمال. وكان في اختياره للعمال لا يفرق بين القبائل بل كان يختار الكفء مهما كانت قبيلته فقد ولى قتيبة بن مسلم وهو باهلي عملاً من أهم أعمال الدولة. حقيقة أن بطانته كانت من قيس ولكنه لم يعينهم لقيسيتهم بل لما توافر فيهم من كفاية ومقدرة وحسن تصريف للأمور. ولو فرضنا أن الحجاج كان يؤثر القيسيين على غيرهم إذا تساوت الكفاية، ففي رأينا أنه لا يلام على ذلك ومن إحدى فطن الحجاج سوء الظن بالعمال حتى لا يتورط معهم فكان يرسل الرسل إلى المهلب وهو على حرب الأزارقة لتنظر ما هو عليه ويبعث الأرصاد لتأتيه بأخباره مخافة أن تحدثه نفسه بالخروج.

وعزل يزيد بن المهلب لما علمه عنه من الطغيان والجبروت ولإسرافه في الإنفاق على الشعراء واستمالة القلوب إليه وكذا مخالفته للأوامر. وكان الحجاج لا يني عن أن يحاسب المسيء على إساءته مهما كانت حظوته لديه، فقد حبس صهره مالك بن أسماء لارتكابه جريمة الخيانة. فمصلحة الدولة وما يستتبعها من طاعة للأوامر كانت في نظره فوق كل اعتبار، وكان عماله لهذا يهابونه ويخافونه ويحسبون له حساباً فيعملون على مرضاته إذ كان يكافئ المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ويبالغ في ذلك حتى قيل (ليس مثله لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه).

وكان من حسن سياسته أن يأخذ بأيدي العلماء الذين لا يتدخلون في السياسة ويمنحهم العطايا وقد فعل ذلك مع غير واحد مع سعيد بن جبير قبل أن يخوض غمار ثورة ابن الأشعث ومع الشعبي وغيرهما، وكان يسمع لنصح الناصح وخاصة إذا اعتقد أن النصيحة قد صدرت عن إخلاص. ومن حسن إسلامه اهتمامه بالفتوحات فإنه لم يكد ينتهي من الخوارج حتى وجه الجيوش وأنفق عليها للفتح، ولم يكن غرضه الأساسي المال وفرض الجزية كما يقول (دوزي) إنما كان غيوراً على نشر الإسلام غير طامع في سلب أو فيء. وكان الحجاج يشرف على كل الأقاليم ويعلم أخبارها وما يجري فيها وقد وصل قلم المخابرات عنده إلى درجة كبيرة من الدقة، فكان يعلم الأخبار كبيرها وحقيرها بعد حدوثها بقليل. ولقد سهل عليه ذلك بعدما اتخذ المناظر بين واسط - مقره - وبين قزوين. وكان الحجاج يعامل أهل العراق وفق عقلياتهم التي درسها ونفسياتهم التي كشفها فقد قطع ناس من عمرو بن تميم وحنظلة الطرف. فكتب إليهم رسالة جاء فيها: (من الحجاج بن يوسف: أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنتهون وأيم الله إني لأهم أن يكون أول من يرد عليكم من قبلي خيل تنسف الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والولدان يتامى والديار خراباً والسواد بياضاً، فأيما رفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه تقدمة مني إليكم والسعيد من وعظ بغيره والسلام) .

هذا وقد تعارف المؤرخون على القول بأن الحجاج كان لا يحتمل أن يُخالَف له قول أو يُعصى له أمر أو أن يخرج عن طاعته أحد ورموه من أجل ذلك بالطغيان والاستبداد.وواقع الأمر أن الحجاج كان من ذلك الطراز من الرجال الذين تأصلت فيهم غريزة الطاعة فكان من العسير عليه أن يستسيغ العصيان من غيره.يضاف إلى ذلك أنه لم يأت أمراً إداً ولا فعلاً منكراً. ومن هنا يرى أنه لا يستحق أن يكون موضع لوم أو يعصى له أمر. فكان من نتائج ذلك أن قسا على كل من حدثته نفسه أن يأتي أمراً من ذلك. وقد أكثر المؤرخون من عدد ضحايا الحجاج فقالوا إنه قتل مائة ألف أو مائة

وعشرين ألفاً صبراً طوال ولايته، وقالوا إنه قتل هذا العدد بعد موقعة دير الجماجم فحسب.

وفي تقديرنا أن المؤرخين قد ذكروا هذا الرقم (مئة ألف) تمشياً مع جاري عادة العصر في المبالغة فها نحن نرى معاوية بن أبي سفيان يقول لابنه يزيد: فإن سألك أهل العراق كل يوم عزل عامل عليهم فاعزله عنهم فإنه أهون عليك من سل مائة ألف سيف ... وقد قدر المؤرخون عدد جيش ابن الأشعث من العرب بمائة ألف، ويقول يزيد أبن المهلب ليزيد بن عبد الملك: والله لأرمينك بمائة ألف سيف. ولعل رقم المئة ألف كان شائعاً تلك الأيام على الألسن، ولعل المؤرخين اندفعوا إلى تسجيل الإسراف في الدماء على الحجاج لكثرة ما قرأوه في خطبه من التهديد والوعيد، وحقاً لو أن الحجاج نفذ كل ما في خطبه وكتبه من تهديد لقتل أهل العراق جميعاً لا مائة ألف فحسب.كما قالوا إنه مات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ثلاثة وثلاثون ألفاً لم يجب على أحد منهم قتل ولا صلب. ويستدلون بذلك على تفاهة الجرائم التي كان الحجاج يلقي من أجلها الناس في السجون، ويستشهدون بحادث رجل في أصل مدينته (واسط) فسجن وبآخر أخطأ في القراءة فسجنه.

والواقع أن الحجاج كان يلقي بالناس في السجن لأتفه الجرائم. ولم لا ؟؟ ألم يفد على العراق وحاله فوضى والناس مستهترون بسلطة الحكومة أيما استهتار؟؟ على أن النسبة بين الجريمة والعقوبة مسألة تقديرية تختلف لاختلاف الظروف فجريمة إحراز المخدرات مثلاً كانت منذ بضع سنوات لا تستحق صارم العقاب وكان يكتفي فيها بالغرامة فلما استفحل أمر المخدرات وخشي على الشعوب منها أصبحت عقوبتها اليوم أقصى العقوبات.ولا نستطيع أن نقدر حزم الحجاج في تشديد العقوبة وملء السجون بمرتكبي الجرائم إلا إذا تصورنا حالة العراق في عصره. وفي تقديرنا أن الحجاج لو سجن نصف أهل العراق لما كان ذلك كثيراً عليهم، ومتى كانت السجون مأوى لمن

وجب عليهم القتل أو الصلب حتى يؤخذ على الحجاج (أنه لم يجب على أحد منهم قتل أو صلب) .؟؟

أما قصة سجونه وأنها كانت لا سقف لها تقي المساجين من حر الصيف ولا برد الشتاء، فإن السجون كانت ولا تزال تتطور مع الزمن ولا تزال في العالم المتمدين اليوم سجون إذا قيست بغيرها في ممالك أخرى كانت هذه أتعس حالاً من سجون الحجاج. ألسنا نرى الفرق بين السجون الملحقة بمراكز البوليس في مصر والسجون في انجلترا وأمريكا ؟؟

وبعد، فمتى كان أهل العراق الذين عاصروا الحجاج يستحقون غير هذا النوع من السجون؟؟!

أما اختلاف النساء بالرجال في سجون الحجاج - ذلك الاختلاف الذي رواه المؤرخون - فنستطيع أن نقطع مطمئنين بأن الحجاج لم يفعل شيئاً من ذلك، وكيف يفعل ذلك وهو الغيور على الأعراض والأنساب المحافظ على الأعراض العامة. فضلاً عن أننا نستبعد عليه أن يسمح لمسجونيه بهذا النوع من الترفيه.

وفي تقديرنا أن الحجاج كان ضحية المؤرخين الذين افتروا عليه شتى المفتريات تمشياً مع روح العصر الذي كانوا يكتبون فيه، ومن ذا الذي يصدق أن عبد الملك طلب منه مرة أن يصف نفسه فقال: أنا لجوج حسود ذو قسوة: فقال عبد الملك: ما في إبليس أشر من هذا. فقال الحجاج: إذا رآني إبليس سالمني؟؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يتمشى مع المؤرخين في وصف الحجاج بأنه كان بينه وبين إبليس نسب؟؟وليس معنى هذا أن الحجاج كان ينفي عن نفسه تهمة القسوة على أهل العراق. لا. بل إن الحجاج كان في ذلك صريحاً.قابل مرة في بلاط عبد الملك عدوه اللدود خالد بن يزيد فقال له: إلى كم هذا البسط والقتل فقال: ما دام بالعراق رجلٌ يدعي الخلافة.

ونرى أننا كلما بعدنا عن عصر الحجاج كثرت المفتريات والأباطيل، وكراهية الروايات المتأخرة له تثبت قدرة العالي الذي كان له في حياته وأن الذين عابوا الحجاج

مثل يزيد بن المهلب وولوا شيئاً من الأمر لم يستطيعوا إلا السير على طريقته.

فقد أبقى الجيش الشامي في العراق ولم يغير شيئاً من الضرائب التي كانت في عهد الحجاج حتى يبقى الدخل في الارتفاع، وقد أراد ابن المهلب أن لا يتحمل شيئاً من التبعات فيما يتعلق بمالية الدولة فعين مديراً للضرائب هو صالح بن عبد الرحمن، ولكن هذا المدير كان حازماً فقد استقل بالأمر ورفض أن يوقع على الصكوك التي كان يرفعها له يزيد، وكان ذلك لعدم وجود أصبع آخر معه فيها ولكنه لم يوفق هناك أيضاً. ومن الغريب أن أعداء الحجاج ظلوا يذكرون المساوئ ويضيفون عليها من عندياتهم ولا يذكزون المحاسن.

وبعد، فالحجاج لم يكن ملكاً نزل من السماء بل كان بشراً يخطأ ويصيب، ومن الإنصاف أن يسجل للإنسان ما أصاب فيه بمثل ما يسجل عليه ما أخطأ فيه.

وفي إحدى المرات ذكر الحجاج في مجلس فيه عبد الوهاب الثقفي بسوء فغضب عبد الوهاب وقال: إنما تذكرون المساوئ أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهماً عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة لعد الصحابة في الإسلام وأول من اتخذ المحمل، وإن امرأة سبيت في الهند فنادت يا حجّاجاه!! واتصل به ذلك فجعل يقول لبيك لبيك! وأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى أنقذ المرأة؟! واتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا النيران فتجرد الخيل إليهم، فكانت المناظر متصلة بينهم وبين قزوين. وقد أكبر أبو جعفر المنصور الحجاج لهذا الإخلاص الذي كان الغرض منه خدمة الدولة الإسلامية وتوطيد دعائمها ونشر راية الإسلام عالية خفاقة في البلاد فقد استطاع أن يوطد دعائم الدولة وان يرفع الإمبراطورية الإسلامية إلى أوج عظمتها وأن يقع عناصر الشقاق فيها بقوة وحزم.وبمثل ما كان الحجاج في سياسته كان موقفاً في إدارته إذ عرف الحجاج - قبل العصر الحديث بعشرات المئات من السنين - تحديد مواعيد السهر والأمر بعدم التجول.

ولعل العوامل التي تحدوا برجال الحكم اليوم لفرض هذا النظام هي بعينها التي دعت الحجاج لفرضه وإن كان الحجاج قد التمس لذلك أسباباً أخرى كرغبته في أن ينام الناس آمنين مطمئنين لا يزعجهم مزعج ولا يكدر صفوهم مكدر.

وتحقيقاً للغرض الأصلي الذي فرض الحجاج من أجله هذا النظام - وهو الاطمئنان على الدولة من المؤامرات التي تدبر بالليل في المجالس - كانت عيونه تسير بالليل فإذا وجدت مخالفاً للأوامر قبضت عليه وسيق إلى الحجاج للتحقيق معه.

وقد عرف الحجاج كذلك مجموعة من أساليب الإدارة والحكم يظنها كثير من الناس اليوم من مبتكرات العصور الحديثة. بلغت عنايته بنظافة المدن والحرص عليها من أن تتلوث بالأقذار أن فرض في هذا السبيل قيوداً عدة. ولعل الحجاج أول من فرض عقوبة السجن على من يضبط عابثاً بنظافة المدن مخلاً بالآداب. وقد نظم الحجاج الانتقال من مدينة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر على النظام المعروف اليوم بنظام جوازات السفر أو بعبارة أدق علي النظام الذي عرفته الدول الدكتاتورية قبيل الحرب العالمية المعروف بنظام ((السالفو كوندكتو)) ، فإذا ما أراد أحد السفر من مكان إلى آخر - ولو داخل حدود الإقليم - كان لا بد له من أخذ جواز بذلك من موظف مختص يقيم في دار تعرف بقصر المجيز. ونظراً لما كان لمدينة واسط من أهمية خاصة جعل الدخول إليها بإذن خاص. ولعل الحجاج أول من ابتدع إعدام الكلاب الضالة لا تؤذي الناس وتسبب انتشار الأمراض. وقد هاله إقبال العرب على ذبح الأبقار فخشي انقراض النسل وغلاء الألبان فأصدر أمره بتحريم الذبح وهي وسيلة قد لجأت إليها الأمم في العصر الحديث مدفوعة بنفس العوامل التي رآها الحجاج. ولما كانت حاجة الحجاج ماسّة إلى طراز طيب من الجند بدلاً من ذلك الخليط الذي عرفته الفتوحات الإسلامية قبل عهده فقد جعل الخدمة العسكرية إجبارية وكان يقبل الجند في الجيش بعد توقيع الكشف الطبي عليهم كما تفعل الأمم المتحضرة اليوم. وقد أراد أن يجعل لإمارته أهمية

خاصة في المعاملات فاتخذ داراً لضرب النقود وجمع فيها الطباعين وكان يحيط بضروب من المراقبة تجعل التزييف في حكم المستحيل.

وكان يراقب الأسواق في البيع والشراء ففي مرة وجد رجلاً يبيع دواب معيبة فسأله عن طريقة بيعها فقال له إنه يبيعها على عيبها.

وخلاصة القول أنه لم يترك شاردة ولا واردة في شؤون الإدارة إلا وأولاها عنايته. ولعل أهل العراق قد بهتوا للابتكارات التي أحدثها الحجاج في الإدارة فقالوا عنه إنه إبليس من الأبالسة وأنه ساحر.

ولي الحجاج العراق نحو عشرين عاماً كان فيها سيفاً من سيوف الإسلام المسلولة ودعامة من أهم دعامات الدولة الأموية. ولا صحة لما ذهب إليه بعض الكاتبين من أنه كان سبباً من أسباب سقوط الدولة الأموية فيما بعد، فإن تصرفاته كانت سليمة ولكن الأعداء استغلوه في دعايتهم ضد الأمويين تلك الدعاية التي مهد لها عمر بن عبد العزيز بسياسته الهادئة التي جعلت الدعاة يتمكنون من تأسيس الجمعيات ونشر الدعايات المختلفة تلك السياسة التي أنعشت الموالي وأعداء الإسلام ومكنتهم في عهده من الوقوف على أقدامهم. وقد ساعدهم على ذلك وقف حركة الفتوح الخارجية فانشغل الجند بالسياسة وقلت موارد الدولة فأثر ذلك عل خزانتها، فلما حاول الخلفاء من بعده ان يعيدوا الحال إلى ما كانت عليه حتى تسير السفين بدأ الناس يتذمرون وينتقدون. فلو أن الدولة سارت على نظام واحد - وهو نظام الحجاج - لطال أجلها وامتدت حياتها.فانهيار النظام الذي وضعه كان خسارة للإسلام عامة وللدولة الأموية خاصة فإن الدولة - كما قال رفيق بك العظم - تموت برجل وتحيا بآخر وإن الرجال في الدول قليل.والدولة الأموية لما فقدت رجالها المخلصين الصادقين في خدمتها مثل الحجاج وخالد القسري وموسى بن نصير وغيرهم فقدت بفقد هؤلاء الرجال وأمثالهم جانباً لا يقدر من قوتها وأخذت من ثم تنحط هيبتها. فموت الحجاج في الحقيقة مبدأ أفول نجم الدولة الأموية لأنه كان يدها التي بها تضرب وعينها التي بها تبصر، فإنه بعد أن أخمد

فتنة ابن الزبير كان والياً على الكوفة وخراسان - وكلاهما عش الفتنة ومنبع الإمامية - ومع هذا ضبط البلاد وأرهب ببطشه المنازعين للدولة النازعين إلى الشغب وأحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الأمويين في عهده إلى كابل من بلاد الأفغان شرقاً والتركستان الصينية شمالاً. ولو جاء من بعد الحجاج من يخلص للدولة الأموية إخلاصه ومن يحكم الأمصار بمثل حزمه وعزمه، لتغير وجه التاريخ!

الحجاج في الميزان

نستعرض في هذا الفصل الأخير من الكتاب آراء الناس في الحجاج وتقييمهم لسياسته وأعماله وشخصيته، هذه الشخصية الاستثنائية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس وذهبوا في الحكم عليها كل مذهب لم توحد بينهم نظرة ولا جمعتهم قاعدة واحدة في محاولتهم وصف الرجل وتقويم أعماله. فاختلفت الموازين والأحكام وتفاوتت بين أقصى اليسار وأقصى اليمين وإن كانت قلة منها آثرت التوسط والاعتدال وحسبت للرجل ما له وما عليه. ولسنا هنا في موضع الحكم أو الاتهام وإنما نهدف إلى عرض صور قريبة وبعيدة وحديثة للحجاج نقدم في الأولى بعض آراء معاصريه فيه وفي الثانية ما قاله المتأخرون عنه وفي الثالثة والأخيرة ما يراه عدد من المحدثين في الرجل. وربما كان الأجدر بنا قبل ذلك أن ندع الرجل يقدم نفسه ويصف لنا جانباً من سياسته وطبعه ويروى في هذا الشأن أن الوليد بن عبد الملك سأل الحجاج أن يكتب له سيرته فكتب إليه: (إني أيقظت رأيي وأنمت هواي وأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الجلد الحازم في أمره وقلدت الخراج المؤثر لأمانته وجعلت لكل خصم من نفسي خصماً يعطيه حظاً في نظري، ولطف عنايتي وصرفت السيف إلى المسيء، فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب).

وواضح من هذا الوصف أن الحجاج استخدم القوة والبطش ضد المسيئين إلى الدولة الأموية. إذ الثابت أنه لم يتجن على الناس ظلما أو يقتل بريئا وإنما كان جميع ضحاياه من الخارجين على الدولة الذين حملوا السلاح ضدها وألبوا عليها الأعداء. ولم

يكن يتردد في إنزال عقوبة الموت بحق أمثال هؤلاء حفاظا على مصلحة الدولة ووحدة الجماعة حتى روي عنه قوله: (إني والله أعلم اليوم رجلا على ظهر الأرض هو أجرأ على دمٍ مني ولقد ركبت أمورا كان هابها الناس فأفرج لي بها).

والحجاج مع ذلك ينتمي إلى صنف من رجال الحكم والإدارة يعرف بالطاعة العمياء والولاء المطلق لرئيسه والحرص على تنفيذ أوامره ورغباته أكثر منه وقد ظل محافظا على هذه الصفات حتى آخر رمق في حياته وأشرنا في موضع سابق كيف قال للوليد بن عبد الملك ذات يوم: (حدثت بعد أمير المؤمنين (عبد الملك) أمور قد صورتها حتى أخبره بها يوم القيامة) وكيف مات وهو لا يعرف إلا طاعة الوليد وكان يدرك أن الخليفة غير معصوم عن الخطأ ولكن طاعته مع ذلك واجبة لاعتقاده بأن التمرد على الطاعة يؤدي إلى فتنة تهدد الدولة وتعصف بوحدة الجماعة ومن هنا كان يقول: (خيركم من صبر على مكروه الطاعة فذلك الذي يستوجب الثواب ويكافأ بالإحسان). وهذا النوع من الرجال يمتاز بالحرص الشديد على تطبيق التعليمات والقوانين وتدبير الأمور ومتابعتها،والتشدد في النزاهة والأمانة وتطبيق النظام.ولعل هذه الميزات هي التي جعلته يصف نفسه لعبد الملك (بأنه لجوج حقود حسود).

وأشرنا في موضع سابق إلى أن الحجاج كان لا يقيم وزنا لرضاء الناس عنه أو بتعبير حديث للرأي العام ما دام يعتقد بأنه على حق في ما ينتجه من سياسة وتطبيق حدود.ونصح الوليد بن عبد الملك أن يحذوه حذوه حين كتب إليه يقول: (فعليك بالإسلام فقوم أوده وشرائعه وحدوده ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم فإنه قل ما يؤتى الناس من خير أو شر إلا أفشوه في ثلاثة أيام والسلام). وهو في ذلك يسعى إلى إرضاء ضميره ومعتقداته ولا يلفت إلى إرضاء الناس أو سخطهم ورضاء الناس غاية لا تدرك.على أن ذلك لا يعني أنه كان لا يهتم بالوقوف على أراء الناس فيه وموقفهم منه إذ حفظت لنا المصادر كثيراً من الروايات والأخبار التي تدل على هذا الاهتمام.

ويروي الأصمعي في هذا الشأن حكاية سبق ذكرها، تذهب إلى (أن الحجاج خرج متصيداً فوقف على إعرابي يرعى إبلاً وقد انقطع عنه أصحابه فقال: يا إعرابي، كيف سيرة أميركم الحجاج ؟ فقال الأعرابي: (غشوم ظلوم لا حياه الله ولا بياه).

قال الحجاج: (فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين. فقال: هو أظلم منه وأغشم، عليه لعنة الله !!)فبينما الحجاج كذلك إذ أحاطت به جنوده فأومأ إلى الأعرابي فأخذ وحمل، فلما صار معهم قال: (من هذا ؟) قالوا: (الأمير الحجاج!) فعلم أنه قد أحيط به. فحرك دابته حتى صار بالقرب منه فناداه: (أيها الأمير!) قال: ما تشاء أيها الأعرابي؟) قال: (أحب أن يكون السر الذي بيني وبينك مكتوماً) فضحك الحجاج وخلى سبيله.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأعراب وخاصة في ذلك العصر لم يألفوا سلطان الدولة ووصفوا بالظلم كل من حاول أن يثبت أركانها ويدعم هيبتها ويطبق قوانينها. وعزم على أحد كتابه يوما أن يخبره بما يقول الناس عنه فقال له: (انهم يقولون انك ظلوم غشوم قتال عسوف كذاب) وقد نفى الحجاج تهمة الكذب بشدة وقال: (والله ما كذبت منذ علمت الكذب يشين أهله).

وكان الحجاج يعلم بكره الناس له ولا يعبأ بهذه الكراهية. فيقال ان الحجاج وجد على منبره مكتوبا: (قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار). فكتب تحته: (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) ولعل هذا الشعور هو الذي جعل الحجاج لا يثق بأهل العراق حتى روي عنه قوله: (أهل العراق، أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، ثلث في الدين مارق، وثلث منافق، وثلث سارق، والله لو عاديتموني ما ضررتموني، وما مثلي ومثلكم إلا كما قيل:

فرأيك لو أبغضتني ما ضررتني ولورمت نفعا ما وسعت لذلك

ويبدو أن سوء طاعة أهل العراق للحجاج وبغضهم إياه هو الذي جعله يعتقد بان القوة هي السبيل الوحيد لإرغامهم على الرضوخ والطاعة حيث يروى أنه قال: (إني والله أرى أن أردّ بني الكعبة إلى طاعتي إلا بالسيف). تلكم صورة مصغرة عن رأي

الرجل في نفسه والسياسة التي كان ينتجها ويسير عليها لعلها تساعد على توضيح أراء معاصريه فيه وهؤلاء ينقسمون بصفة عامة إلى فئتين: الأولى مؤيدوه والمعجبون به والثانية أعداؤه ومعارضوه.

وقد حفظت لنا المصادر أراء عدد قليل من الفئة الأولى، والراجح أنها تعمدت ذلك بوصفها مصادر عباسية مناوئة للأمويين ورجالاتهم فعبد الملك ابن مروان كان يرى في الحجاج الرجل (الناصح الجيب الأمين الغيب القليل العيب).فهو عنده رجل ثقة غير متهم، ويرفض أن يسمع فيه قول أحد، وتمتع الحجاج لديه بمكانة مرموقة حتى كان عبد الملك يتمثل يقول الشاعر:

يـــديرونني عـــن ســـالم وأديـــرهم ۆجلـدة بـين العـين والأنـف سـالم

وكان يشبّه الحجاج بسالم هذا ويقول (إن الحجاج جلدة مابين عينيّ). واعترف بجهوده في توطيد الحكم الأموي والقضاء على أعدائه، وأوصى بنيه به خيرا وقال لهم: (إن الحجاج هو الذي وطأ لكم المنابر).

وهذا الوليد بن عبد الملك يستمر في تقديره للحجاج ويقول: (ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول: "إن الحجاج جلدة وجهي كله").وكان يصفه بالقوي الأمين ويقول لأهل الشام: (أحبوا الحجاج فإن حبه إيمان وبغضه كفر) وظل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ومولاه والعامل على خراج العراق بعده يذكر الحجاج بكل خير ويرفض أن يذمه في أحلك الظروف ويرى أنه لما مثل أمام سليمان بن عبد الملك وكان من اشد الناس بغضا للحجاج على ما ذكرنا، سأله: (أترى الحجاج يستقر قعر الجحيم بعد ؟) فقال: (يا أمير المؤمنين، لا تقل ذلك فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابر، وهو يجئ يوم القيامة عن يمين أبيك، وعن يسار أخيك فحيث كانا كان).

ونسمع عن دفاع مماثل عن الحجاج أمام عمر بن عبد العزيز الذي كان يبغض الحجاج ويذمه ويقول: (لو جاءت كل أمة بفرعونها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة). فلما قال عمر ذلك انبرى رجل من أل أبي معيط وقال له: (لا

تقل ذلك فو الله ما هو إلا أن وطّأ لكم هذا الأمر الذي أصبحتم فيه عبرة)، فقال عمر: (أتحب أن يدخلك الله مدخل الحجاج؟) فقالالرجل: (أي والله، إني لأحب أن يدخلني الله مدخله ولا يدخلني مدخلك!) فقال عمر: (أمّنوا على دعائه!). وذكر ابن عساكر في تاريخه أن أحد المصلين في مسجد حمص جعل يبكي أسفا على بعض الناس الذين يشتمون الحجاج وينتقصون منه، كما يذكر ابن نباتة أن رجلا من أهل الشام وقف على قبر الحجاج (عند دفنه) وقال: (اللهم لا تحرمني شفاعة الحجاج!).

وربما كان المهلب بن أبي صفرة من أكثر إعجابا بالحجاج في عصره إذ قال مشيدا بجهوده في ضبط شؤون العراق:(لقد أتى القوم والذكر، ولو لا هو كنا بمضيعة). كما أثني عليه زياد بن عمرو العتكي صاحب شرطته على البصرة أمام الوليد بن عبد الملك وقال: (يا أمير المؤمنين،إن الحجاج سيفك الذي لا يبدو،وسهمك الذي لا يطيش،وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم).

ويروي أن رجلا تناول الحجاج وعابه، فقال له الحكم بن هشام الثقفي: (ابزق على القمر) وأشرنا من قبل إلى أراء عدد من الشعراء فيه وكيف أن بعضهم من أمثال جرير والفرزدق والأخطل وليلى الأخيلية كانوا يرون فيه الحاكم القوي الأمين الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم،وكيف قضى على الفتن وعوامل الاضطراب وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، واتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع تجدد الثورات والفتن، وانه منع الرشوة وابتزاز الأموال والفساد في الحكم ونظر في مظالم الناس كما أشاد بعض أولئك الشعراء بجهوده في استئناف الفتح والجهاد وصوروا الأثر الكبير الذي أصيب به حركة الفتوح العربية الثانية بعد موته.

وإذا كان الدافع الرئيسي للأعراب عن هذه الآراء هو سعي هؤلاء الشعراء وراء الأعطيات والمكافآت المالية فإن مدائحهم تلك كانت تستند في معظم الأحوال إلى صفات حقيقية تحلى بها الحجاج وعرفت عنه الأمر الذي يجعل لهذا النوع من الشعر في العصر الأموي قيمة تاريخية خاصة تساعد الباحث على تكوين صورة، أوضح لذلك

العصر من تلك التي تصورها المصادر العباسية.

الحجاج في نظر معارضيه:

أما عن معارضي الحجاج في عهده وأرائهم فيه فيمكن أن نعرف طبيعة هذه الآراء إذا علمنا أنها صدرت عن ثلاث فئات من أعدائه:

فالفئة الأولى: كانت تضم الشيعة من مؤيدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه الذين تركزت قوتهم في الكوفة وظلوا يناوئون الحكم الأموي وأركانه ويتحينون الفرصة للقضاء عليه وإعادة الخلافة للبيت العلوي، ويحلمون أن تعود الكوفة من جديد عاصمة لتلك الخلافة. وكان الحجاج يدرك نواياهم ولا يأمن لهم ويشتد في بغضهم ومناهضتهم ومن أجل ذلك غالى في التعصب لعثمان بن عفان رضي الله عنه، والانتصار له حتى كان يمتحن ولاء الناس بسؤالهم عن رأيهم فيه وفي علي.وقيل إن إبراهيم النخعي المعروف بتشيعه كان ينال من الحجاج ويلعنه فلما سئل عن ذلك قال: (أليس الله يقول ألا لعنة الله على الظالمين ؟).ويبدو أن شعور العلويين المعادي للحجاج أدى إلى إطلاق التنبؤ بالفتى الثقفي أو الغلام الثقفي أو عبد ثقيف وهو أمر نسبه كثير من الرواة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعضهم نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وساهم بدور في تسويد صفحة الحجاج وتشويه تاريخه.

وتذهب إحدى هذه الروايات إلى أن رجلاً قال لآخر بحضرة علي رضي الله عنه: (لا مت حتى تدرك فتى ثقيف!)، فقيل: (يا أمير المؤمنين! ما فتى ثقيف؟!) فقال: (رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ولو كان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه). ووصفه أيضاً بقوله: (هو الشاب الذيال، أمير المصرين، يفجر أنهارها ويلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف أهلها، يشتد منه الفرق ويكثر منه الأرق ويسلطه الله على شيعته !!)

وتقول ورواية أخرى: إن علياً رضي الله عنه كان على المنبر فقال: (اللهم إني ائتمنتهم فخانوني ونصحتهم فغشوني، اللهم فسلط عليهم غلام ثقيف يحكم في دمائهم وأموالهم، ويحكم فيهم بحكم الجاهلية).وتضيف الراوية أن الحسن البصري قال: (هذه، والله، صفة الحجاج!).

أما الرواية التي تنسب مثل هذا القول إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتذهب إلى أن عمر علم بأن أهل العراق حصبوا أميرهم فدعا عليهم وقال: (اللهم إنهم لبسوا علي فالبس عليهم، وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم).وهذه كلها روايات يظهر عليها الوضع بعد الحجاج أو في عهده، ناهيك عن أنها تنسب إلى صحابة أتقياء صفة ما كانوا ليدعوها وهي صفة الأخبار عن الغيب بالإضافة إلى أنه لا يعقل أن تصدر عنهم مثل تلك الدعوات التي لا يجوز أن يتمناها مسلم لإخوته المسلمين.

وقد شك في هذه الروايات مطهر ابن طاهر المقدسي صاحب البدء والتاريخ وقال: (إن مثل هذا من المحال إذ لا يجوز لمسلم أن يسأل ربه الجور والظلم). واستفلتت أمثال هذه الأقوال والروايات نظر ابن كثير فقال: (وقد روي عنه - أي الحجاج - ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوده وربما حرفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات).

أما الفئة المعادية الثانية: فكانت الخوارج الذين قضى الحجاج على قوتهم الضاربة وبدد شملهم وكانوا يعدّون الحكم الأموي حكماً غير إسلامي يقوم على الاستئثار بالخلافة والفيء والتجبر في الحكم والبعد عن قواعد الدين كما كانوا يعدون الحجاج أحد مساوئ ذلك الحكم.

والفئة الثالثة: من أعداء الحجاج كانت تتألف من أصحاب الاتجاه الديني التقليدي الذي كان يرى أن الحكم القائم بعد النهج الراشدي غير شرعي. وظل أصحاب هذا

الاتجاه من القراء والفقهاء يعادون الدولة الأموية أويقفون منها موقفاً سلبياً على أقل تقدير. وقد انضم عدد من زعماء هذا الاتجاه إلى الحركات المناوئة للحجاج كما فعل سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وأبو البختري الطائي، وألّبوا عليه الناس في خطبهم التي رويت عنهم في موقعة دير الجماجم. فكان سعيد بن جبير يحرض الناس على الحجاج وأنصاره ويقول: (قاتلوهم بنية ويقين، ولا تتأثموا في قتالهم فعلي كل إثم يدخل عليكم في ذلك!! قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين ما أعلم أحداً على بسيط الأرض أجور منهم في حكم ولا إغلاء في ظلم لا تركاً ولا ديلماً).ووصفهم ابن أبي ليلى بـ(المحلين المبتدعين الذين جهلوا الحق فليسوا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فلاينكرونه).كما كان أبو البختري يدعو إلى قتالهم ويقول: والله لئن ظهروا عليكم ليفسدن دينكم وليغلبنكم على دنياكم).

أما الحسن البصري فكان يمثل الاتجاه السلبي في مقاومة الحجاج حيث كان يرى التقية وعدم الجهر بمعاداة الحكام، وقد أثر عنه قوله لأهل العراق: (إن الحجاج عقوبة سلطه الله عليكم فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف ولكن استقبلوها بالدعاء والتضرع). ومع ذلك فقد رويت عنه آراء في الحجاج حيث قال عنه: (إنه يتلو القرآن تلاوة ازرقي ويحكم حكم جبار)، وكان يقول: (تشبه زياد بعمر فأفرط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس). ويبدو أن هذه الآراء والمواقف قد أثرت في الناس فانقسموا في نظرتهم إلى الحجاج فريقين: فريق يرى أنه من المؤمنين الموحدين وفريق يفسقه ويكفره، يشايعه في ذلك نفر من الفقهاء أمثال البختري ومجاهد بن جبر والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعامر الشعبي.

وكان الحجاج لا يبالي بما يقوله الناس عنه ويسخر منهم، إذ يروي مالك ابن دينار أنه بينما كان الحجاج يخطب يوماً إذ قال: (الحجاج كافر. فقلنا: ماله أي شيء يريد ؟ فقال: الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء).

ويذكر ابن عساكر أن الحجاج قال في إحدى خطبه: الحجاج كافر وكررها ثم قال: (يا أهل العراق تقولون كافر، نعم كافر باللات والعزى).وتحدثنا بعض الروايات أن عدداً من الناس أخذوا يلعنون الحجاج ويخوضون في مصيره بعد موته ويؤكدون بالإيمان المغلظة أنه في النار. يريد بذلك ذمهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه!) ومثل هذا القول جاء على لسان أبي المحاسن، فالحجاج في رأيه (مشؤوم هو وأجداده وعليهم اللعنة والخزي، فإنه كان مع ظلمه وإسرافه في القتل مشئوم الطلعة وكان في أيامه طاعون الإسراف مات فيه خلائق لا تحصر حتى قيل لا يكون الطاعون والحجاج). وأعرب ابن العماد الحنبلي عن ارتياحه العميق لوفاة الحجاج فكتب في مستهل ترجمته بن يوسف.... في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين من رمضان.

أما الجاحظ فقد حمل على الحجاج في رسالته في النابتة حيث قال: (وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابرة وخوّفه وأراه في الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض، حتى قام عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف فزجوا على ذلك وعاقباً وقتلاً فيه فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه) . وقال في مناسبة أخرى: (على أني لم أنصّب نفسي حرباً للحجاج ويزيد بن أبي مسلم أتحرى بهما وهما عندي من أهل النار). أما القزويني فاعتبر الحجاج من فحول الرجال ولكنه أضاف إلى ذلك أن الحجاج ما زال يهم بأهل العراق حتى أراهم الكواكب بالنهار.

غير أن بعض المؤرخين المسلمين ممن عرفوا بالاعتدال والإنصاف كان لهم موقف آخر من الروايات المغرضة التي قيلت في الحجاج.فالطبري مثلاً أسهب في ذكر أخبار الحجاج وحروبه والفتوح في عهده ولكنه استبعد الروايات الموضوعة عنه ولم يورد منها شيئاً وأورد خبر وفاته في بضعة سطور دون أي تعليق.وشك الذهبي في صحة تلك الروايات بشكل غير مباشر عندما قال: (وعندي مجلد في أخبار الحجاج فيه عجائب لكني لا أعرف صحتها).

أما ابن كثير فإنه أوضح في عبارة صريحة شكه في الأخبار المغرضة المتعلقة بالحجاج وذلك حين خشي أن تكون تلك الأخبار قد رويت عنه بنوع من زيادة عليه وأن يكون أعداؤه الشيعة قد حرفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكمون عنه بشاعات وشناعات. ولم يكتف هذا المؤرخ المعتدل بذلك بل يكاد ينصف الحجاج حين يقول: (وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم. ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج وإن كان متسرعاً في سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها). ويضيف ابن كثير إلى ذلك قوله: (إن أعظم ما نقم على الحجاج وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله، عز وجل، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد وكانت فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن فكان يعطي على القرآن كثيراً ولما مات لم يترك فيها قيل إلا ثلاثمائة درهم والله أعلم).

وهذا البلاذري يقول في الحجاج (إنه إذا صدق ينفع الصدق عنده). إلا أن العلامة ابن خلدون يعد بحق من أبرز الذين انبروا لتفنيد بعض تلك الروايات والأخبار الموضوعة عن الحجاج بن يوسف وذلك عندما تحدث في المقدمة عما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام. وقد ذكرنا في موضع سابق كيف دافع ابن خلدون عن اشتغال الحجاج بالتعليم حيث اعتبره وأباه من سادات ثقيف وأشرافهم كما ذكره في مقدمة (الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهيل بن نوبخت وكافور الإخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم، فغير نكير الإلماع بإبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك).

الحجاج في نظر المؤرخين المحدثين:

وكما اختلف المؤرخون من السلف في الحجاج، اختلف المحدثون فيه وهو أمر طبيعي إزاء الكثيرين من عظماء الرجال وأصحاب الآراء والمواقف. ولنبدأ في عرض آراء عدد من المؤرخين والكتاب العرب في صاحبنا الحجاج: فقد اعتبره محمد كرد علي رجل دولة ومصلحاً موحداً لضروب جديدة من الإصلاح. ويقول الأستاذ فيليب

حتي: (إن الوسائل الصارمة التي اتخذها الحجاج سواء أكان على حق حتى فيما فعل، أم لا، أقرّت النظام في البصرة والكوفة وفي سائر البلدان التي استعمل عليها). ويصف الحجاج بأنه ترك بعد وفاته ذكراً ليس من شك في أنه قليل المثال في تاريخ الإسلام. ودافع الأستاذ حسين مؤنس عن سياسة الحجاج المالية حين قال: (إن العرب أساؤوا جملةً الحكم على أعمال الحجاج واتهموه بالظلم والإجحاف في جمع الضرائب مع أن الرجل لم يفعل أكثر من التدقيق في جمع المستحق للدولة وإنه كان يعلن للدولة كل ما يجمعه لأن شعوره كحاكم كان شعوراً كاملاً. وكان رجلاً نزيهاً من هذه الناحية). وأشادت به الدكتورة سيدة كاشف فوصفته بسلطان المشرق حيث كان كل من عبد الملك والوليد خليفة في الغرب بينما كان الحجاج سلطاناً في الشرق.

وقالت: (إنه كان ممتازاً في أساليب الحرب والسياسة ولم يعرف له سيداً سوى الخليفة فأخلص له كل الإخلاص وكان مكيافيلياً لا يحجم عن أي عمل في سبيل مصلحة الدولة وفي سبيل الخليفة ... وكان شجاعاً كما كان إدارياً حازماً ومصلحاً مالياً، كذلك امتاز بأنه كان موهوباً في خطبه الارتجالية ذات الأسلوب العربي الرفيع. وخلصت سيدة كاشف إلى القول: (إن الحجاج ترك ذكراً قليل المثال في التاريخ الإسلامي. وقد صوره المؤرخون الذين كتبوا في ظل الحكم العباسي مستبداً طاغية وسماه العراقيون عبد ثقيف.

والواقع أن الظروف كانت أكبر دافع للحجاج على الحرب وسفك الدماء والتدخل في الشئون الإدارية والمالية ولاشك أن سياسة الحجاج كانت من مصلحة العراق والدولة العربية).

ويقول الدكتور صالح العلي: (إن الحجاج اضطرته الأحوال والظروف إلى الإكثار من تدخله الإداري وكان تدخله هذا من مصلحة البلاد عامة والحكم الأموي خاصة، غير أنه لم يحاول استعمال الأساليب اللينة في إقناع الناس بصواب رأيه بل بالعكس حاول إجبار الناس على القيام بما يريده منهم وبذلك وصمه العرب المعاصرون والمؤرخون المتأخرون بالطغيان.

واعتبر الدكتور نبيه عاقل الحجاج (من الشخصيات النادرة في تاريخنا العربي التي تستحق كل تقدير والتي تحتاج من لدراسة العميقة التي تخرجها من ظلام التهم إلى نور الموضوعية والحقيقة التاريخية).

أما الدكتور يوسف العش فله رأي مغاير في الحجاج يستحق العرض والمناقشة فهو يعترف بجهود في إخضاع العراق للأمويين والقضاء على أعداء الدولة واستئناف الفتوح مما ساعد على نشر الإسلام. يرى أن شدته لم تكن حباً في سفك الدماء بل لإخماد الفتن بالإرهاب ويعتقد الدكتور العش بأن مبالغات شديدة حصلت في أرقام ضحاياه. ولاحظ أن مزاجه الحاد وقسوته الشديدة وقفاً أمام ذكائه الخارق وإن ذلك أثر على طريقته في معالجة المشاكل، تلك الطريقة التي كانت تعتمد القضاء على أصحاب المشاكل والثورات دون التعمق في دراسة أسبابها ووضع حلول جذرية لها مما جعل هذه الحلول ذات أثر مؤقت في مسائل الساعة لكنها تنتج نتائج بعيدة المدى تناقض ما قصده صاحبها)

ويشير الدكتور العش بذلك إلى سياسة الحجاج تجاه الموالي ويتهمه بتنفيرهم ويخلص القول: (إن أثر الأشخاص في التاريخ لا يعادل أثر الجماعات لكن الحجاج من الأفراد النادرين في التاريخ الذين كانوا ذوي أثر لا يقل كثيراً عن أثر الجماعات). ويضيف قائلاً: (وإنا نستطيع أن نضعه في كفة مقابلة لكفة عمر بن الخطاب فعمر بعدله أسس للعرب ملكاً عضواً وجعل الأعاجم يقبلون على العروبة ويدخلون في قبائلها أما الحجاج فبظلمه وضع قنبلة تحت البنيان العربي أسهمت في إطاحته ونقضه).

وإذا كنا مع الدكتور العش في ملاحظته القيمة حول طريقة معالجة الحجاج الوقتية للمشاكل دون وضع حلول جذرية لها فإن هذه الظاهرة لم تقتصر على الحجاج وحده بل كانت صفة عامة في معظم فترات التاريخ العربي وخاصة القرن الأول الهجري. والراجح أن كثرة المشاكل وتعدد الثورات والفتن وسرعة التحرك الأحداث

بشكل مذهل في ذلك العصر حالت دون تفرغ الخلفاء والحكم العرب بوجه عام لمعالجة المشاكل التي واجهتهم بعد دراسة متأنية وتحليل هادئ.

أما فيما يتعلق بموقف الحجاج من الموالي والحيلولة دون تعريبهم فإن سياسته تلك كانت تنبع من اعتبارين، الأول: مراعاة صالح الدولة والثاني: المحافظة على سيادة العنصر العربي وتماسكه وهي صفة ميزة للحكم الأموي عامة ولولاها لغرق العنصر العربي في بحر الشعوب الأعجمية الأخرى وربما فُقد مع الزمن كثير من صفاته. ويلاحظ في هذا الشأن أن التعريب ارتبط دائماً بقوة العنصر العربي والإحساس بسيادته وهو أمر جعل لشعوب المغلوبة تقبل على تعلم لغة الغالب وتتخذها لساناً لها مع الزمن وتكاد هذه الظاهرة تعد حكماً تاريخياً عاماً. وقد حدث ذلك بالنسبة للموالي في العراق وشعوب الأقطار الأخرى التي فتحها العرب واستوطنها. كما حدث ذلك بالفعل في خراسان في أواخر الدولة الأموية وتمثل في تعريب الدواوين هناك سنة ١٢٤هـ إلا أن الانقلاب العباسي الذي قامت به القبائل العربية هناك وزحفها على العراق لتسلم الحكم والسلطان من بني أمية أحدث فراغاً عربياً في ذلك الإقليم ولم يعد أهله يحسون بوجود فعلي للعنصر العربي، فضعف الدافع لديهم في الإقبال على العربية وعاد أبناؤهم إلى عجمتهم. ومع ذلك فما زالت لغاتهم تحتفظ بكثير من الكلمات والتعابير العربية. وأخيراً فإن مشكلة الموالي وبخاصة المسلمين الجدد التي واجهها الحجاج لم تكن قد تضخمت إلى هذا الحد زمن عمر بن الخطاب وإن كنا لا نؤيد الطريقة التي لجأ إليها الحجاج في معالجتها.

وخلال العقود الثلاثة الأخيرة كتب عدد من الباحثين العرب عن الحجاج وكانت لهم آراء فيه نعرضها حسب تسلسلها الزمني فعمر أبو النصر يرى فيه صورة مصغرة عن العصر الأموي الذي سماه عصر الحجاج لأنه غلب عليه وفشا أمره وكوّنه على رأيه وسيّره وفقاً لنظام جديد في الحكم لم يكن العرب يألفونه ولا ينتظرون مثله. واعتبره كذلك منفّذاً لسياسة معينة ومقرراً خطة موضوعية قد يختلف معه عبد الملك بن مروان

في طرق تنفيذها ولكنه ما أنكرها ولا سعى لوضع حد لها. فكان الحجاج بذلك عاملاً ينفذ خطة مولاه وموظفاً أميناً لسياسة بني أمية في ذلك العهد.

وعدّ عمر أبو النصر (الحجاج وأضرابه - وهم قليل- من مفاخرة الحضارة العربية وحماة اللسان العربي، وبناة الوحدة العربية).

أما الدكتور إبراهيم الكيلاني فيرى أن الحجاج حمى وحدة الخلافة السياسية والدينية والاجتماعية. إلا أنه يعتقد بأن الرجل كان له أثر تمهيدي لأنه كما يقول: (وإن كان عاملاً فعالاً في بقاء الأمويين فترة من الزمن، فإنه عمل على زوالهم إذ لم تقم سياسته في العراق على كسب محبة الشعب وإخلاصه للبيت المالك بل بنيت على الاستبداد والعنف فكانت مدة ولايته مأساة دموية دام تمثيلها عشرين عاماً لاقى فيها العرب والموالي صنوف الذل والإرهاب مما عجل في انهيار بناء أفنى الحجاج عمره في تشييده) ويضيف إلى ذلك أن الحجاج كان يرى أن:

(الغاية تبرر الواسطة وإن غايته هي خدمة الخليفة إمام المسلمين ورمز وحدتهم مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الأساليب).

وأشاد خلدون الكناني بأمانة الحجاج وإخلاصه ودوره في توحيد الدولة العربية تحت راية خليفة واحد والقضاء على كل سبب يحول دون هذا الهدف ومع ذلك فإنه يرى أن قسوة الحجاج لم تنسه الاهتمام بمطالب أهالي البلاد وإنفاذ ما يمكن إنفاذه منها.

وذهب الدكتور عمر فروخ إلى أن المؤرخين نسبوا للحجاج مظالم كثيرة بعضها صحيح وأكثرها مبالغة كما ألصقوا به تهماً موضوعية لا يوثق بها في شيء. إلا أنه يأخذ على الحجاج مغالاته في إخلاصه لني أمية وافتقاره إلى المرونة والحلم مما جعل شدته تبلغ به إلى القسوة والظلم.

ووصفه عبد الرزاق حميدة بأنه كان يعمل بوحي من إرادته ورأيه ويحاول الإصلاح ما استطاع فقد بنى مدينة وحفر نهراً وقوم دعائم إمبراطورية وأصلح كتابة وفتح بلاداً ما زالت إلى اليوم تشهد (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأخرجت رجالاً لهم

في تاريخ الفقه واللغة والفلسفة والعلوم الإسلامية بوجه عام فضل عظيم).

أما عبد اللطيف شرارة فإنه يعد الحجاج بن يوسف طاغية العرب وإن طغيانه غدا أسطورة تعبر عن حقيقة بطشه وظلمه وقسوته ويقول: (إن ذلك الحاكم أوغل في القتل والفتك حتى أتى على زهرة الشباب العربي وجاء من بعده خصومه يهدمون ما بنى ويحصدون الذين أيدوه ونصروه حتى أتوا على البقية الباقية من العرب فكان من الطبيعي أن تخشى السلطة العربية المعركة مع أهل خراسان وكان من الطبيعي أن تسقط دمشق في يد جماعة العباسيين أي في يد الأجانب). ونسي صاحب هذا الرأي أن الحجاج لم يقض إلا على المتمردين من العرب الذين يضعفون وحدة الدولة وإن الذين قاموا بالانقلاب العباسي عرب خلص وليسوا موالي ولا أجانب.

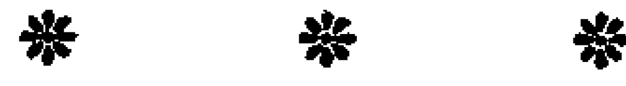
ويبدو أن رأي الدكتور رياض رويحة في الحجاج جاء أكثر إنصافاً إذ اعتبره واحداً من أبطال العرب الخالدين وعباقرتهم المرموقين ووصفه: (بأنه رجل عبقري وقائد شجاع وسياسي محنك وإداري حازم وأديب متمكن).

ودافع في كتابه عن جبار ثقيف وأشاد بأعماله وإصلاحاته والفتوح التي تمت في عهده ونفى كثيراً من الأباطيل والتهم التي نسبت إليه ويقول: إن الحجاج بن يوسف كان واحداً من عظماء الرجال (ناضل أخصامه حياً فصرع أكثرهم ولم يقو الباقون على لظفر به أو النيل منه مدة حياته حتى إذا مات راحوا يتفننون بالإساءة إلى الرجل العظيم باختلاقاتهم المزرية وبدسهم الوضيع أحياناً وذلك لتشويه سمعته ميتاً بعد أن أعياهم النيل منه حياً.

واعتبره محمود رزق سيلم في عداد مشاهير العرب وعظمائهم الذين كثر فيهم الجدل وثار حولهم الخلاف وقال: (وستستمر سيرته وعصر حكمه مثاراً لخواطر الناس ومحلاً لاختلاف تقديرهم على مدى العصور وتلك إحدى نواحي العظماء).

وأما ضرار صالح ضرار وهو فيما نعلم آخر من كتب عن الحجاج من الكتاب المحدثين فيرى في الحجاج شخصية فريدة مستقلة تمتاز بالطرافة والغرابة والتعقيد وأنه

قد تأثر في ذلك بالظروف المضطربة التي عاشها في بيته وبيئته وعصره ويكاد صاحب هذا الرأي أن يجرد الحجاج من كل فضل وفضيلة. ويضيف أنه لمن الممكن أن نقول أن الحجاج لم يكن فريداً من نوعه أو طبيعياً يسير حسب نزعاه وأهوائه وآرائه فحسب ولكنه كان كتلة من الأخلاق المتناقضة والنفوس وغيرها من الميزات النفسية التي يحق لنا أن نكشف عنها لنرى أسباب تلك القسوة الجامحة التي لم نعهدها في الولاة المسلمين كما عهدناها فيه ويمكننا أن نرى أيضاً أن الحجاج لم يكن هو الذي يصرع الأمواج السياسية العنيفة ولكنها هي التي كانت تصارعه وتلطمه فيهجم عليها تارة وهو مبصر وأخرى وهو مغمض العينين) !!. وينتهي إلى القول (وكما بدأت حياة الحجاج في اضطراب داخلي نفسي كذلك انتهت بنفس الصورة إن لم تكن أكثر سواداً وأبشع منظراً وهكذا تمت صورة الحجاج تشوبها شعوذة وقساوة وانهيار). ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء ولكنها على ما يبدو جاءت متأثرة بالروايات الموضوع الكثيرة التي قيلت عن الحجاج.



الحجاج في نظر بعض المستشرقين والباحثين الغربيين:

وحتى تكتمل صورة الحجاج في نظر الآخرين نعرض آراء عدد من المستشرقين والباحثين الغربيين فيه:

فالمؤرخ الفرنسي المشهور سيديو (*Sedillot*، ١٨٠٨ - ١٨٣٢م) يرى أن سياسة الشدة التي استخدمها الحجاج في استئصال خصومه قد ساعدت على إضعاف العنصر العربي ويقول: (إن المذابح التي كانت ترتكب بالجملة بلغ من تأثيرها أن أضعفت العنصر العربي لقضائها على أنبل الرجال محتداً وأشرفهم غاية وأعظمهم كفاية).

والمستشرق الإنجليزي وليم *SirWilliam Muir* (توفي ١٩٠٥) يذهب إلى أن الخلافة الأموية تدين بالكثير للحجاج لأنه تمكن من المحافظة على المشرق كجزء من الدولة طوال عشرين عاماً في وجه أخطار داخلية وخارجية متعددة وأن يؤكد قوة الدولة في أرجاء ولايته ويضيف موير إلى ذلك أن شدة الحجاج إذا كان لها ما يبررها كوسيلة إخضاع المتمردين عليه، فإن شيئاً لا يبرر إقدامه على سفك الدماء الكثيرة وقسوته التي جعلته واحداً من أقسى الطغاة الذين عرفهم العالم.

أما المستشرق الألماني يوليوس فلهازون *J. Wellhausen* (توفي ١٩١٨م) فكان أكثر إعجاباً بالحجاج وقد أشاد بإصلاحاته الإدارية والاقتصادية وشجاعته وعظمته التي تتجلى عند الشدائد.ومع أنه يعترف بغلطة الحجاج وشدته أحياناً إلا أنه ينفي عنه القسوة أو أن يكون صغير القلب محدود الأفق ويؤكد أنه لم يكن كافراً أو منافقاً وأنه كان في حياته وأعماله يراقب ضميره.ويخلص إلى القول (إن الحجاج اتهم بفظائع أخرى وهي في الواقع مخترعة ولدها بغض أعدائه له وهو بغض لم يهدأ حتى بعد موته).

وأما المستشرق الفرنسي الأب بريبه (*Louis Jacques Bresenier*) الذي يعد الباحث الغربي الوحيد الذي وضع كتاباً خاصاً عن حياة الحجاج فيعد الحجاج وموسى بن نصير أكبر شخصيتين إسلاميين عرفهما النصف الثاني من القرن الأول الهجري باستثناء الخلفاء. ويقول إن الحجاج كان له أثر عظيم في المشرق يعادل ما كان

لانتصارات موسى في المغرب والأندلس. ويصف الحجاج بأنه عمل على إعادة الوحدة السياسية لدولة الخلافة بقوة السلاح. وإن الانتصارات التي حققها الحجاج بن يوسف في المشرق وموسى بن نصير في المغرب جعلت الدولة الأموية تمتد عبر هلال ضخم ينتهي أحد طرفيه عند جبال البرانس والآخر عند تخوم الصين وكانت دمشق عاصمة هذا الهلال تزهو بكل تلك الانتصارات.

ويتضح إعجاب المستشرق البلجيكي الأب لامنس اليسوعي (*P. Lammens* (توفي ١٩٣٧)، بالحجاج في الترجمة التي كتبها عنه في الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية حيث اعتبره من ساسة بني امية ونوه بإخلاصه لهم إلى درجة لا تعرف حداً ولكنه قال: (إن التهاويل التي رويت عن إخلاصه هذا إنما كانت من بنات أفكار المؤرخين الذين كانوا يخدمون بني العباس). واستبعد لامنس الأرقام الخيالية التي ذكرت عن أسراه وضحاياه ونفى أن تكون قسوته قد جاوزت الحد في عصر تلاحقت فيه الفتن. وأكد أن الحجاج كان مرهوب الجانب في حياته لا تأخذه في الحق لومة لائم وأن الكراهية التي أظهرتها الروايات المتأخرة عنه تدل على عظم الشأن الذي كان له في حياته.

أما المستشرق الألماني كارل بروكلمان (*Brocklmann* توفي ١٩٥٦) فيقرر أن الحجاج نيطت به في حياته أخطر مهمة في الدولة الأموية وهي إقرار الأمن والنظام في الجناح الشرقي من الدولة الأموية.

ثم أن ووكر _*Walker* عالم التنميات البريطاني يصف الحجاج بأنه آخر الولاة وأشهرهم وأنه يمكن أن يقال عنه بحق الدعامة الأساسية للحكم الأموي، في حين يرى فيه المستشرق النمساوي فون جرونبوم (*Grunbaum*) أنه محقق الوحدة الإسلامية في عهد عبد الملك ويشيد بفتوحه العظيمة وإدارته الحكيمة التي حققت نجاحاً اقتصادياً في العراق).

وأخيراً فإن المستشرق الألماني ديتريش (*Dietrich.*) الذي كتب ترجمة الحجاج في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية، يعد الحجاج أشهر ولاة بني أمية وأكثر رجل مخلص يمكن أن يتفانى في خدمة أي أسرة حاكمة. ويقول إن طاعته للأمويين ورغبته في خدمتهم ليس لهما حدود ويرى في الحجاج واحداً من أعظم السياسيين لا بالنسبة للأمويين فحسب بل وفي العالم الإسلامي قاطبة).

وليس غريباً أن يختلف المؤرخون والباحثون والكتاب على اختلاف عهودهم وأجناسهم في الحجاج. ذلك أن الرجل كان بحق من أبرز رجالات العرب والمسلمين في عصره، إذ أسهم بدور كبير فعال في صنع تاريخ ذلك العصر وتوجيه أحداثه الوجهة التي يتمنى ويريد وكان يصدر في أقواله وأعماله عن رأي يتبناه وموقف لا يحيد عنه. ويتلخص هذا الرأي والموقف في الإيمان المطلق بوحدة الجماعة الإسلامية وقوة دولتها في الداخل والخارج. وفي أن السبيل الوحيد لتحقيق هذا الهدف هو الالتفاف حول الخليفة القائم وإطاعته طاعة مطلقة جتى يتسنى له القيام بواجباته الشرعية من حيث تطبيق الأحكام الإسلامية في داخل الدولة وحمل لواء عقيدتها خارج حدودها عن طريق استئناف الفتوح والجهاد. ومن أجل ذلك لم يتردد الحجاج في القضاء على كل من يقف في وجه تحقيق هذا الهدف المقدس من أعداء الدولة والخراجين عليها وكان يدرك أن الخليفة غير معصوم عن الخطأ ويرى أن طاعته مع ذلك واجبة واسلم عاقبة من الدخول في خضم الثورات والفتن الداخلية التي تفرق الأمة وتضعف شوكة دولتها.وإذا كان الحجاج قد اضطر للجوء إلى القوة والعنف لتحقيق أهدافه فإنه لم يلجأ إلى هذه الوسيلة حباً بها بقدر ما كان ير أنها الطريق الوحيد لبلوغ تلك الأهداف وهو أمر يبدو أن الظروف السياسية والأخطار الداخلية والخارجية والتطور الذي أصاب المجتمع والناس قد فرضته عليه فرضاً ولم تترك له خياراً فيه.حتى إذا وضعت الحروب الداخلية أوزارها وانتهت بانتصاره الساحق عليها كرس جهوده كلها من أجل التعمير

والبناء ونشر ألوية الإسلام خارج حدود ولايته فكان له في ذلك أعمال باهرة وآثار خالدة.

وأما ما يقوله البعض من أنه كان على الحجاج بعد انتهاء تلك الثورات والحروب أن يغير سياسة الشدة التي عرفت عنه وينتهج سياسة تتسم بالتسامح واللين حتى تندمل الجراح ويعود الوئام بين الحاكم والمحكوم فما رأى الحجاج إلا وقد شرع في المسير في هذا الاتجاه وإن لم يبلغ به الغاية ودليلنا على ذلك حرصه على عدم استئصال شأفة أعدائه المغلوبين بعد موقعة دير الجماجم حيث أمر بوقف عمليات المطاردة والقتل بين فلول المنهزمين وقال كلمته المشهورة: (من لثغورهم إذا هلكوا). كما توسط لدى عبد الملك حتى ظفر بعفوه عن أهل العراق وأعاد إليهم عطاءهم الذي حبسه الخليفة عنهم سنتين لتمردهم عليه وخلعهم طاعته على ما ذكرنا. بل إن الحجاج عفا من موقع القوة والقدرة عن كثيرين ممن وقعوا في قبضته وأعلنوا ندمهم وتوبتهم. لكن الحجاج وإن خفف من وطأته وشدته فما كان ليغير سياسة الحزم اللازمة لاستمرار السلطة والحكم والقيام بواجباتها في عمليات الإصلاح والمحافظة على الأمن والاستقرار في الداخل واستئناف حركة الفتوح في الخارج ولو فعل لعادت الفوضى واضطربت الأمور وتراجعت البعوض وعاد العراق إلى حالته الأولى قبيل مقدم الحجاج. لكن شيئاً من ذلك لم يكن وما كان ليحدث والحجاج حي، فقد بقي الحجاج رجل بني أمية القوي الأمين الذي غدا إخلاصه لخليفته ودولته مضرب الأمثال.

ولا نبالغ إذ قلنا إن إخلاص الحجاج بن يوسف لخلفاء بني أمية كان أكثر من إخلاصهم لأنفسهم فكان الحجاج بذلك أموياً أكثر من الأمويين وملكياً أكثر من الملك. ولعل صفات الحجاج هذه هي التي جعلت الخلفاء العباسيين يحسدون بني أمية على صنيعتهم الثقفي حتى قال فيه أبو جعفر المنصور: (تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبنبي مروان).

وكان يقول: (الملوك ثلاثة: فمعاوية وكفاه زياده، وعبد الملك وكفاه حجاجه، وأنا ولا كافي لي). وقد استنكر أحد جلساء المنصور أن يُثْنَى على الحجاج في مجلسه فقال له: (وما استنكرت من ذلك ؟ رجل استكفاه قوم فكفاهم والله لوددت إني وجدت مثل الحجاج حتى استكفيه أمري وأنزله أحد الحرمين). وإذا كان يكفي المرء شهادة عدوه فيه، فإن المنصور قد زكى الحجاج وأثنى عليه ثناء رجل يعرف قدر الرجال في بناء الدول والممالك. وحسب الحجاج أن يكون واحداً من أهم بناة الدولة الأموية وصانعي تاريخها وأمجادها وأن يترك في الخالدين ملأ الدنيا وشغل الناس ولا يزال.

* * *

المصادر والمراجع

١- **المصادر:**

الأبشيهي، شهاب الدين أحمد. المستطرف في كل فن مستظرف. القاهرة: مطبعة المعاهد، ١٣٥٤هـ.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: دار الكتب المصرية ١٣٤٨هـ.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من آثار. مطبعة مكة المكرمة، ١٣٧٥هـ.

ابن أبي أصيبعة الدمشقي، أحمد أبو العباس موفق الدين. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تح. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥م.

ابن أبي الحديد، عز الدين. شرح نهج البلاغة. بيروت: دار الكتب العربية الكبرى، (د. ت)

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. القاهرة: دار الكتب

ابن الأثير، أبو الحسن الجزري. الكامل في التاريخ. ٤ أجزاء. بيروت: ١٩٧٩م.

---- . أسد الغابة في معرفة الصحابة. القاهرة، ١٢٨٠هـ.

أبو الفدا، اسماعيل بن علي بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب حماة. المختصر في أخبار البشر. القاهرة، ١٣٢٥هـ.

ابن بدران، عبد القادر بن أحمد مصطفى الدمشقي. تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ أجزاء. دمشق: ١٣٢٩ هـ.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله. المسالك والممالك. مطبعة ليدن: ١٨٨٩م.

ابن الجوزي، جمال الدين. مختصر صفوة الصفوة. بيروت: مطبعة المنار، ١٣٣٩هـ.

-----. شذور العقود.

ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة العبر وديوان المبتدأ والخبر. القاهرة: ١٢٨٤هـ.

ابن خلكان، شمس الدين. وفيات الأعيان. القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ.

ابن خياط، خليفة أبو عمرو الصفري البصري. تاريخ خليفة بن خياط. تح. د. سهيل زكار. دمشق: ١٩٦٧م.

ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة. مطبعة ليدن: ١٨٩١م.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد. الطبقات الكبرى. بيروت: ١٩٦٠م.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. العقد الفريد. القاهرة: مطبعة الشرقية، ١٣١٦هـ.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف. الاستيعاب في معرفة أسماء الأصحاب. القاهرة، ١٣٥٠هـ.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن. فتوح مصر وأخبارها. مطبعة ليدن: ١٩٢٠م.

ابن عساكر، أبو القاسم علي. تاريخ مدينة دمشق. دمشق: (د. ت)

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. تح. أحمد شاكر. القاهرة: مطبعة المعاهد، ١٣٥٠هـ.

------. عيون الأخبار. القاهرة: دار الكتب، ١٣٤٢هـ.

------. الإمامة والسياسة. تح. طه الزيني. القاهرة: مطبعة الأمة، ١٣٢٨هـ.

----. المعارف. تح. د. ثروت عكاشة. القاهرة: ١٩٦٩م.

ابن كثير، اسماعيل. البداية والنهاية. القاهرة: مطبعة السعادة، (د.ت).

ابن نباتة، جمال الدين. سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٧٨هـ.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي. ديوان الحماسة. دمشق: (د.ت)

أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم الكوفي البغدادي. كتاب الخراج. (د.ت)

الأصفهاني، أبو الفرج. كتاب الأغاني. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٢م.

الأصفهاني، الراغب أبو القاسم حس بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعرء والبلغاء. بيروت: ١٩٦١م.

الإصطخري، أبو اسحق محمد الفارسي. المسالك والممالك. تح. محمد جابر الحيني. القاهرة: ١٩٦١م.

البغدادي، الخطيب أحمد بن علي. تاريخ بغداد. كتب مقدمة له المستشرق سلمون.

البلاذري، أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف. بغداد، ١٩٣٦م.

البيهقي، ابراهيم بن محمد. المحاسن والمساوئ. تح. محمد أبوالفضل ابراهيم. القاهرة: ١٩٦١م.

---. فتوح البلدان. القاهرة، ١٩٦٠م.

الخوارزمي، أبو الوفا هبة الله ريحان بن عبد الواحد. المناقب والمثالب. دمشق. (د.ت)

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس. البصائر والذخائر. تح. ابرهيم الكيلاني. دمشق: ١٩٦٤م.

------. الإمتاع والمؤانسة. تح. أحمد أمين وأحمد الزين. بيروت: (د.ت).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. البيان والتبيين. القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٢هـ.

------. التاج في أخلاق الملوك.القاهرة: مطبعة بولاق، ١٩١٤م.

------. المحاسن والأضداد. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩١٢م.

----. آثار الجاحظ. جمع عمر أبو النصر. بيروت: ١٩٦٩م.

----. البيان والتبيين. مصر: القاهرة، ١٣٦٩هـ.

جرير، بن عطية الخطفى. ديون جرير. بيروت: دار صادر دار بيروت، ١٩٦٤م.

الجهشياري.محمد بن عبدوس. الوزراء والكتاب. القاهرة: ١٩٣٨م.

الجوزية، شمس الدين ابن القيّم. أخبار النساء. تح. نزار رضا. بيروت: ١٩٦٤م.
الحصني، تقي الدين محمد أديب. منتخبات التواريخ لدمشق. دمشق: ١٩٢٧م.
الحموي، ياقوت عبد الله شهاب الدين. معجم البلدان. بيروت: ١٩٥٥م.
-----. إرشاد الأريب أو معجم الشعراء. طبع مرجليوث، ١٩٠٧-١٩٢٥م.
الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد. المحكم في نقط المصحف. تح. عزة حسن. دمشق: ١٩٦٠م.
-----. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. بيروت: ١٩٦٩م.
الدميري، محمد بن موسى. حياة الحيوان الكبرى.
الدياربكري، حسين بن محمد الحسن. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس. طبعة مصر، ١٢٨٣هـ.
الذهبي الحافظ، شمس الدين. دول الإسلام. حيدر آباد: الهند، ١٣٢٧م.
---- . ميزان الاعتدال في نقد الرجال. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٥هـ.
الرقيق النديم، أبو اسحق ابراهيم بن القاسم. قطب السرور في أوصاف الخمور. تح. أحمد الجندي. دمشق: ١٩٦٩م.
السجستاني، سهل بن محمد. المصاحف.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. دمشق: دار الفكر، ١٤١٧هـ.
العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب. مطبعة حيدر آباد – الدكن، ١٣٢٧هـ.
العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٠هـ.
العيني، بدر الدين. قلائد الجمان.
الفاكهاني، عمر بن علي. المنتقى في أخبار أم القرى. (د.ت)
كتاب الحدائق والعيون. لمؤلف مجهول. تح. دي خويا. طبعة ليدن: ١٨٧١م.

الفرزدق، همام بن غالب التميمي. ديوان الفرزدق. بيروت: ١٩٦٦م.

القالي، أبو علي. ذيل الأمالي والنوادر. القاهرة، ١٣٤٤هـ.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن بن القاضي الأشرف يوسف. أخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة: ١٣٢٦هـ.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: ١٩٦٠ م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٦م.

------. مآثر الأنافة في معالم الخلافة. الكويت: ١٩٦٤م.

الكتبي، ابن شاكر. فوات الوفيات. القاهرة، ١٢٩٩هـ.

الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب. الأحكام السلطانية والولايات الدينية. القاهرة: ١٩٦٦م.

المبرد، محمد بن يزيد. الكامل في اللغة والأدب. بيروت: ١٩٧٧م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: ١٩٦٥م.

------. التنبيه والإشراف. القاهرة: مطبعة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨م.

المقدسي، مطهر بن طاهر. أحسن التقاسيم.

----. البدء والتاريخ. طبعة باريس، ١٨٩٩م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. النقود الإسلامية.

----. الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. القاهرة: ١٩٥٥م.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. مجمع الأمثال.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب. القاهرة: طبعة دار الكتب،

الهمذاني، أبو محمد الحسن بن أحمد. البلدان.

اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن إسحق. تاريخ اليعقوبي. النجف الأشرف، ١٣٥٨هـ.

٢- المراجع

الآغا، محمد مروان. الحجاج بن يوسف الثقفي. حلب: دار البيروني، ٢٠٠٧م.

الخضري، محمد. تاريخ الأمم الإسلامية.

خطاب، محمود. قادة فتح العراق والجزيرة. القاهرة: ١٩٦٤م.

حتّي، فيليب. تاريخ العرب. بيروت: ١٩٣٥م.

الحكمي، العفيفي. قصة من حياة الحجاج بن يوسف الثقفي. الرياض: دار كنوز اشبيلية، ٢٠١٠م.

حميدة، عبد الرزاق. سيف بني مروان الحجاج الثقفي. القاهرة: ١٩٤٧م.

حميدة، عبد الفتاح. سفن الأسطول الإسلامي. القاهرة،

الحوراني، عبد الرحمن. الحجاج بن يوسف الثقفي. دمشق: دار ناصيف، ٢٠٠٦م.

الخربطلي، علي حسني. تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي. القاهرة: ١٩٥٩م.

دحلان، محمد بن زيني. الفتوحات الإسلامية. طبعة مصر، ١٣٢٣هـ.

الدوري، عبد العزيز. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. بغداد: ١٩٤٨م.

الراوي، ثابت اسماعيل. العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية. بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٠م.

رضا، علي. الحجاج بن يوسف الثقفي. بيروت: دار الشرق العربي، (د.ت).

رويحة، رياض. جبار ثقيف الحجاج بن يوسف. بيروت: ١٩٦٣م.

زيادة، محمود. الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه. القاهرة: دار السلام، ١٩٩٥م.

الزركلي، خير الدين. الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩م.

زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٨م.

سليمان، صبحي. الحجاج ما له وما عليه. القاهرة: الدار الذهبية، ١٩٩٩م.

سليمان، عبد العزيز. الحجاج بن يوسف الثقفي حكمه خطبه. دمشق: دار كرم، ٢٠٠٣م.

سليم، محمود رزق. الحجاج بن يوسف الثقفي أنا ابن جلا. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م.

السنباطي، محمد محمد. الحجاج بن يوسف الثقفي السيف والكلمة. الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية، ٢٠٠٨م.

صفوت، أحمد زكي. جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة. القاهرة: ١٩٢٦م.

ضرار، صالح ضرار. الحجاج بن يوسف الثقفي. بيروت: ١٩٦٦م.

طه، عبد الواحد ذنون. العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي. بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤م.

عبد الحكيم، منصور. الحجاج طاغية بني أمية، دمشق: دار الكتاب العربي، (د.ت).

عبد الرحيم، محمد. سعيد بن جبير وقصته مع الحجاج بن يوسف الثقفي. بيروت ودمشق: دار الإيمان، ١٩٨٨م.

عبد الفتاح عبادة. سفن الاسطول الإسلامي.

عاقل، نبيه. الدولة الأموية. دمشق: جامعة دمشق، ١٩٦٨م.

العش، يوسف العش. الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان. دمشق: ١٩٦٥م.

عطوي، علي نجيب عطوي. الحجاج بن يوسف الثقفي حاكماً فذاً وخطيباً لامعاً. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

العمد، إحسان صدقي. الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية. بيروت: دار الثقافة العربية، ١٩٧٣م.

عيزوقي، محمود. أوضاع خراسان أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي ٨٦-٩٥ هـ= ٦٩٧-٧١٣م. رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة دمشق، ٢٠١١م.

عيسى، عبد غالب أحمد. الحجاج بن يوسف الثقفي. بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.

فروخ، عمر. الحجاج بن يوسف الثقفي دراسات. بيروت: دار الكشاف، ١٩٤١م.

كحالة، عمر رضا. معجم قبائل العرب. بيروت: ١٩٦٨م.

الكرخي، عبد الله. قصة الحجاج بن يوسف الثقفي وما جرى بينه وبين زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. دمشق: مكتبة الحضارة، ١٩٥٤م.

كرد علي، محمد. الحضارة العربية.

الكيلاني، ابراهيم. الحجاج الخطيب والحاكم. دمشق: ١٩٤٠م.

النص، إحسان. الخطابة العربية في عصرها الذهبي. القاهرة، ١٩٦٩م.

هلال، هيثم جمعة. الحجاج بن يوسف الثقفي. حلب: دار النهج للدراسات، ٢٠٠٧م.

٣- مراجع مترجمة عن المستشرقين:

بروكلمان، كارل *Karl Brokelman*. تاريخ الشعوب الإسلامية. تر. منير البعلبكي. بيروت: ١٩٤٨م.

جب، هاملتون *Hamilton Jib*. دراسات في حضارة الإسلام. تر. إحسان عباس وآخرون. بيروت: ١٩٦٤م.

ديتريش، فريدريك *A. Dietritch*. دائرة المعارف الإسلامية.

دي خُويَا، ميخيل يوهنّا *Michiel Johanna de Goge*. ناشر نفائس الكتب العربية (ت١٩٠٩م).

سيديو، لوي بيير *Louis Pierre Sedillot*. تاريخ العرب. تر. علي مبارك باشا. القاهرة. (ت١٨٧٥م).

فان برشم، ماكس. *Van Brechem* الملكية العقارية. مستشرق سويسري مختص بالدراسات الشرقية (ت١٩٢١م).

فان فولتن. *Van Volten* السيادة العربية.

فلهاوزن، يوليوس. *Julius Wellhauzen* تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية. تر.

محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: ١٩٦٨م.

----. أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة.

----. الدولة العربية وسقوطها.

لامَنس، هنري اليسوعي. *H. Lammens*. كتاب الطائف. مشتسرق بلجيكي (ت١٩٣٧م)

موير، سير ويليام.*Sir William Muir* تاريخ الخلافة الإسلامية.

نولدكه، تيودور. *Theodor Noldeke* تاريخ القرآن. (ت١٩٣٠م)

هنري، لامنس اليسوعي *P. Henry Lammens*. الطائف.

بيرنيه، لويس جاك. *Louis Jacques Bresenier* مستشرق فرنسي (ت١٨٦٩م) مختص بالدراسات الشرقية.

(اعتمد في كتابة ثبت المصادر والمراجع الطريقة الحديثة الملائمة للكمبيوتر العالمية (*MLA*

فهرس المحتويات

قراءة في سيرة
الحجاج بن يوسف الثقفي



الحجاج بن يوسف الثقفي 40-95 هـ

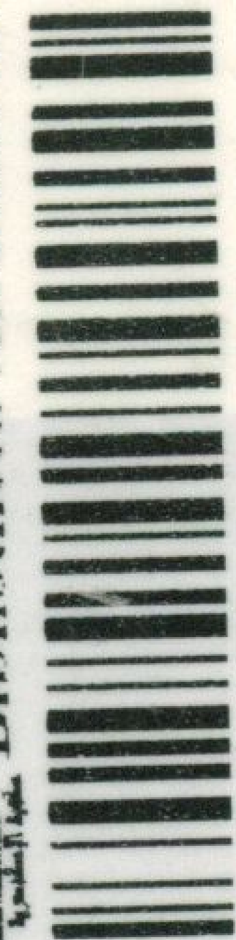
سياسي أموي وقائد عسكري، ولد في الطائف من الحجاز وانتقل إلى الشام، ولّي على الحجاز ومن ثم العراق فيما بعد.

احتل الحجاج بن يوسف الثقفي بفضل ملكاته الفردية ومواهبه القيادية والإدارية الفذّة.

احتل مكانةً متميزةً بين أعلام الإسلام حيث لعب دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية إلى جانب ما بذله من جهود إصلاحية عظيمة شملت النواحي الإدارية والاجتماعية والصحية للدولة كان على جانبٍ من العلم والفضل حفظ على يدّ والده القرآن الكريم وعلّمه

يعدّ الحجاج إحدى الشخصيات الأكثر إثارةً للجدل في التاريخ العربي الإسلامي حيث اختلف المؤرخون في شخصيته بين مادحٍ وذامّ، ولا يمكننا الحكم عليه دون أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة عصره المشحون بالفتن والقلاقل ولجوء معارضيه إلى السلاح، ساعده حزمه على ضمان الاستقرار في مناطق الفتن والقلاقل التي عجز من سبقه من الولاة عن التعامل معها.

عن ابن كثير: كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، فيه سماحة اعطاء الأموال لأهل القرآن حيث لم يترك عند مماته سوى 300 درهم



ISBN 978-9933-480-36-3





تطلب في جمهورية العراق - بابل الحلة
المركز الثقافي للطباعة والنشر
Mob: 07801168410
Mob: 07721472444
E-mail:w_alsawaf@yahoo.com